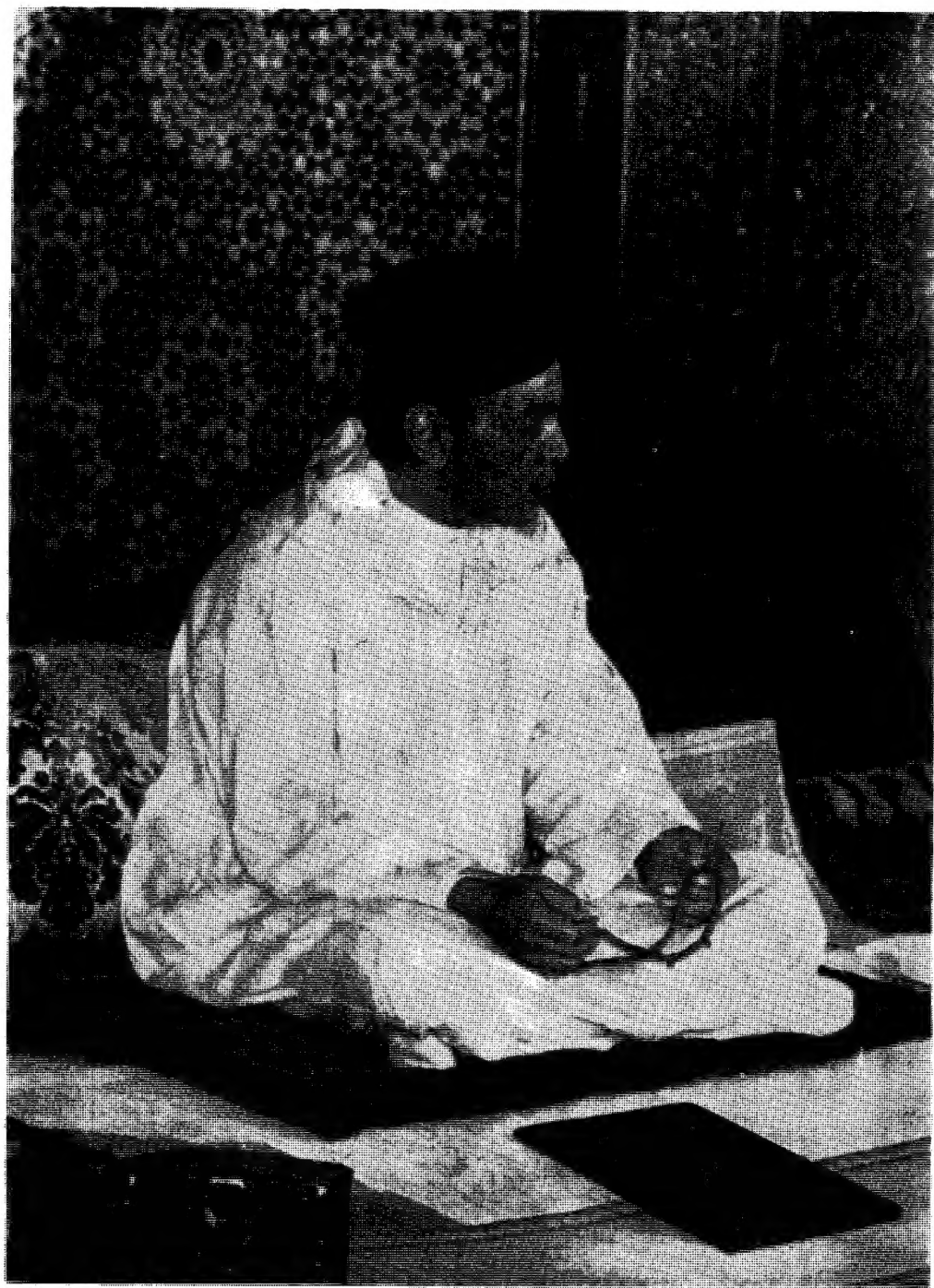


المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

ندوة الإمام مالك

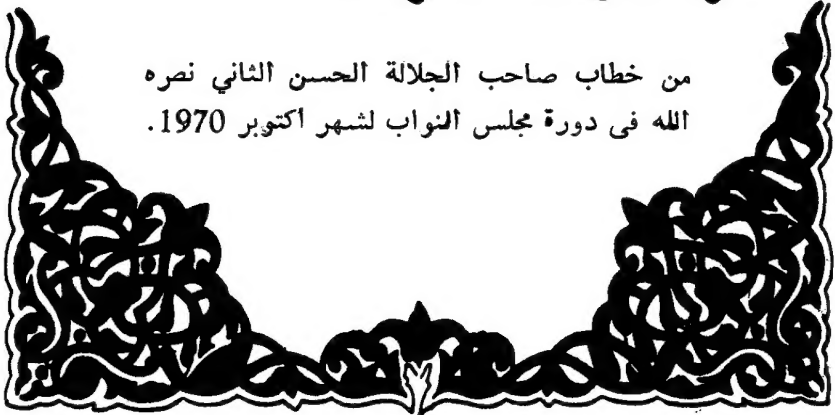
إمام دار الفجرة

الجزء الأول





«... نريد مغربا في أخلاقه
وفي تصرفاته جسدا واحدا موحدًا
تجمعه اللغة والدين ووحدة المذهب،
فديننا القرآن والإسلام ولغتنا لغة
القرآن ومذهبنا مذهب الإمام مالك،
ولم يقدم أجدادنا رحمة الله عليهم
على التشبث بمذهب واحد عبثًا أو
رغبة في انتحال المذهب المالكي، بل
اعتبروا أن وحدة المذهب كذلك من
مكونات وحدة الأسرة...»



من خطاب صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره
الله في دورة مجلس النواب لشهر أكتوبر 1970.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الواحد الفرد المالك ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله المبعوث بأوضح المسالك ، الذي تركنا على المحجة البيضاء ليلا كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك ، وعلى آله وصحبه مصابيح الهدى فى الحوالك ، ومن تبعهم باحسان من اتباع الامام مالك بن أنس بن مالك ، وغيره من مذاهب الائمة السالكين بالمسلمين احسن المسالك .

اما بعد ، ففي اطار احتفالات الامة الاسلامية جمعاء بمقدم القرن الخامس عشر الهجري ، وتنفيذا للتعليمات السامية لمولانا امير المومنين ، ومجدد امجاد هذا البلد الامين ، المتفاني فى خدمة قضايا المسلمين ، انطلاقا من الحديث الشريف « يبعث الله لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » قامت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية بتنظيم ندوة الامام مالك بن أنس ، امام دار الهجرة رضى الله عنه ، بفاس خلال ايام : 9 ، 10 ، 11 ، 12 جمادى الثانية 1400 (25 ، 26 ، 27 ، 28 ابريل 1980) ودعت الى المشاركة فيها مجموعة من اساتذة العلم والحديث من داخل الوطن وخارجه ، لى الدعوة منهم اشقاء من العالم الاسلامي ، بالاضافة الى خيرة من علماء المملكة المغربية الافذاذ .

ولم يقتصر مجهود العديد من الحاضرين على تلبية الدعوة - فحسب - بل تعداه الى المشاركة اما بتقديم بحوث او مناقشة اخرى

او هما معا ، هذا الى جانب تركية فكرة الندوة لما أتاحته من تبادل للأراء وتعارف ، وما حققته للأرواح المجتدة من تألف .

ومن أبرز ما أحاط هذه الندوة بهالة من الاحترام ، وجعل الانظار والاسماع توليها كل الاهتمام ، ما شرفها به جلالة الملك الهمام ، حين وجه لها رسالة سامية ، تضمنت توجيهات هادفة رامية ، تنم عما يمتاز به جلالته من مواهب فكرية وعلمية عالية ، الشيء الذي حدا بالندوة الى اتخاذ هذه الرسالة ، ورقة عمل موفورة الدلالة .

ولم يقتصر - أعزه الله - على المعهود من رسم الخطة التوجيهية ، وان اتسمت بسمو المشاركة الفعلية ، بل رعى الندوة منذ استهلالها ، وتابعها عن كثب في أعمالها ، وما ان أوشكت على اختتام أشغالها ، حتى بادر - حفظه الله - الى الامر بإبقائها مفتوحة ، أمام المشاركين كلما كانت ظروفهم سانحة ، لتدارس مختلف جوانب المذهب وأحكامه ، ومناقشة ما كتبه السابقون واللاحقون من أعلامه .

وقد انعكس هذا الشعور السامي على ما خالج صدور المنتدبين من تجاوب ، لما انطوى عليه من أبعاد تؤدي الى التلاحم والتآلف والتحاب ، فبادروا بدورهم الى الاتفاق على انشاء « الندوة العلمية للفقهاء المالكيين » كمؤسسة تضم المختصين في الدراسات المالكية ، بمختلف الاقطار الاسلامية ، يكون مقرها بالمملكة المغربية .

وفي هذا الجو من التأثير والشعور بالمسؤولية ، تابى وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، الا أن تضع بين أيدي جمهور الباحثين والدارسين ، وعموم المواطنين ، في مختلف الاقطار الاسلامية ، زبدة من عمل جليل لاساتذة فضلاء ، وعلماء أجلاء ، ساهموا بما علموا فعلموا ، وشاركوا ببحوثهم النيرة فأفهموا ، وبمناقشاتهم وردودهم فافحموا .

وياتي هذا الكتاب مظهرا لما بذلوه من مجهود ، وما تركته مساهماتهم من صدى طيب محمود .

فاليهم جميعا شكر هذه الوزارة ، ومن خلالها شكر قائد الأمة الداعي
الى هذا المبرة ، التي ستبقى - بعون الله - مرجعا وسندا ، ومرشدا
ومعتمدا ، يفي بالمرغوب لكل سائل ، بما يتفيه من الافادة والاستفادة ،
والله تعالى القائل : « للذين احسنوا الحسنى وزيادة » .

وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية

الدكتور احمد رمزي

مالك بن انس رضي الله عنه في سطور

هو امام دار الهجرة واحد الائمة الاعلام ، مالك بن
انس بن مالك بن ابي عامر بن عمرو بن الحارث الاصبحي
المدني ، أحد ائمة المذاهب المتبعة في العالم الاسلامي ،
واليه تنسب المالكية . في فهرست الجزء الاول من كتاب :
« وفيات الاعيان » لابن خلكان ، ان ولادة مالك رضي الله
عنه كانت في سنة خمس وتسعين هجرية بالمدينة المنورة
على ساكنها افضل الصلاة وازكى التسليم ، ووفاته كانت
بها ايضا في الرابع عشر ربيع الاول ، وفي رواية في صفر
سنة تسع وستين ومائة .



حضرات السادة العلماء المكرمين

منذ بضعة أيام ، حققنا بمشيئة الله وعونه ، أملاً عزيزاً علينا ،
وَجُلماً طاملاً راودنا ، وذلك بتدشين أكاديمية المملكة المغربية التي
نأمل أن يُصبح المغرب بوجودها مركز إشعاع للعلم والفكر ، والحضارة
البشرية بجميع مقوماتها وأبعادها .

ولم تُصرفنا مشاغلنا اليومية ، ومشاكلنا الظرفية عن تكريس بعض
جهدنا واهتمامنا لإقامة صرح تلك المؤسسة العتيدة ، علماً منا بأن عظمة
الأمم والشعوب لا تُقاس بضخامة بنيانها ، ولا بسعة عمرانها ، ولا بكثرة
سُكّانها ، ولكن بعدد ما أنجبتته للإنسانية من عقول مبتكرة ، وأفكار
نيّرة ، وقيادات روحية تشعّ حكمة وفوراً ، وتبقى على مرّ الزمان منارات
تضيء الطريق للبشرية ، وتأخذ بيدها نحو السعادة الأبدية .

وإنّ من بواعث رضانا ، ودواعي غبطتنا وارتياحنا ، أن تُقام على أرضنا
هذه الطيبة الطاهرة ، وفي هذا الطرف بالذات ، ندوة خاصة بالإمام
مالك بن أنس رضي الله عنه ، إحياءً لذكراه ، وتذكيراً لأهله بفضلهم ، وتعريفاً
بمقامه الرفيع بين شبابنا المتطلع إلى ثرائه الروحي العريق . وذلك بتسليط
الأضواء بما سيُلقي من محاضرات ، وما سيعقبها من مناقشات ، على جميع
أعماله العظيمة الخالدة ، التي ضمنت للسنّة النبوية البقاء والنقاء ،
والصحة والصفاء ، وذلك بما احتواه كتابه " الموطأ " من صحيح الحديث ،
وثابت الثمائل ، ممّا جعل تلميذه الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول :
" ليس بعد كتاب الله أصحّ من موطأ الإمام مالك " .

وَمَا أَغْنَاهُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ التَّعْرِيفِ وَالتَّذْكِيرِ فِي بِلَدٍ كَالْمَغْرِبِ وَبَيْنَ قَوْمٍ كَالْمَغَارِبَةِ. فَقَدْ اخْتَلَطَ مَذْهَبُهُ الْعَظِيمُ بِحَيَاتِنَا مِنْذُ أَنْ اعْتَنَقْنَاهُ . فَلَا يَمُرُّ يَوْمٌ دُونَ أَنْ نُمَارِسَ فِيهِ جُمْلَةً مِنْ تَعَالِيمِهِ ، وَلَا يَتِمُّ أَكْلٌ وَلَا شَرَابٌ ، وَلَا صَلَاةٌ أَوْ صِيَامٌ ، وَلَا زَوَاجٌ أَوْ طَلَاقٌ ، وَلَا مَعَامَلَةٌ دُونَ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَالْاهْتِدَاءِ بِمَا أَخْرَجَهُ فِيهِ ، مِنْ بَيْعٍ وَشِرَاءٍ ، وَإِعَارَةٍ وَكَرَاءٍ ، وَمُعَاوَضَةٍ وَمُنَاقَلَةٍ ، وَمُقَاصَّةٍ وَمُحَاسَبَةٍ وَشُرَكَاتٍ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَامَلَاتِ ، ” فَالَّذِينَ الْمَعَامَلَةُ “ .

وَأَنَّ انْعِقَادَ هَذِهِ النَّدْوَةِ فِي مِثْلِ ظُرُوفِنَا الرَّاهِنَةِ لَيَنْطَوِي عَلَى أَكْثَرِ مَنْ مَغْرَبِيٌّ ، فَقَدْ أَلْهِمَ اللَّهُ أَجْدَادَنَا الْمُنْعَمِينَ إِلَى اخْتِيَارِ مَذْهَبِ الْإِمَامِ مَالِكٍ ، وَنَشْرِهِ - وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ - فِي طُولِ الْبِلَادِ وَغَرْضِهَا ، حِفْظًا لِلْوَحْدَةِ الْبِلَادِ الْمَذْهَبِيَّةِ ، وَدَرْءًا لِكُلِّ مَا يَحْمِلُهُ تَعَدُّدُ الْمَذَاهِبِ وَالتَّحَلُّلُ مِنْ بُذُورِ الشَّقَاقِ وَالْخِلَافِ ، فَبَرَهَنُوا بِذَلِكَ عَلَى بُعْدِ نَظَرِهِمْ ، وَعَمَقِ مَحَبَّتِهِمْ لَشُعُوبِهِمْ ، وَرَغْبَتِهِمْ فِي إِسْعَادِهَا بِدَفْعِ الْوَحْدَةِ ، وَمَا يَنْتُجُ عَنْهَا مِنْ قُوَّةٍ وَمَنْعَةٍ . وَلَوْ صَدَرُوا فِي سُلُوكِهِمْ عَنْ أَنَانِيَّةٍ أَوْ حُبِّ لِلتَّسَلُّطِ ، لَعَمَلُوا بِمَبْدَأٍ ” فَرَّقَ تَسَدُّ “ وَأَصْبَحَتْ بِلَادُنَا طَوَائِفَ وَشَيْعَاتٍ تَقَاتِلُ فِيمَا بَيْنَهَا وَتَتَنَاحَرُ ، وَلَمَّا رَأَيْنَا الْيَوْمَ هَذَا التَّمَاثُلَ وَالتَّلَاحُمَ بَيْنَ أَفْرَادِ شُعْبَانَا فِي مُوَاجَهَةِ الْغَزَا الْأَجْنَبِيِّ الرَّامِي إِلَى تَمْزِيقِ وَحْدَتِنَا التَّرَابِيَّةِ ، وَعِرْقَلَةِ مَسِيرَتِنَا الْحَضَارِيَّةِ .

أَمَّا الْمَغْرَبِيُّ الشَّافِي مِنْ إِقَامَةِ هَذِهِ النَّدْوَةِ ، فَهُوَ تَأْكِيدُ تَمَسُّكِنَا بِالسَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ الْوَسْطِ الَّتِي اخْتَرَهَا لَنَا إِمَامُنَا مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ” وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا “ فَتَجَنَّبْنَا بِاتِّبَاعِ مَذْهَبِهِ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ، وَالْانْحِرَافَ عَمَّا يَمْلِكُهُ الْعَقْلُ السَّلِيمُ ، وَالطَّبْعُ الْقَوِيمُ . فَقَدْ كَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فِي حَيَاتِهِ مَثَلًا لِلتَّوَسُّطِ وَالْاعْتِدَالِ ، مُقْتَدِيًا بِأَخْلَاقِ وَشِمَائِلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَرَغْمَ اعْتِدَالِهِ وَدِمَائَةِ أَخْلَاقِهِ ، فَقَدْ كَانَ دِرْعًا مَتِينًا لِلْعَقِيدَةِ ضِدَّ التَّحْوِيفِ وَالتَّزْوِيرِ ، وَالتَّأْوِيلِ الْمَغْرَضِ ، وَنَبْرَاسًا يَضِي الطَّرِيقَ أَمَامَ الْخُلَفَاءِ ، وَالْأُئِمَّةِ وَالْعُلَمَاءِ فِي مَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِ . فَكَانَ الْمُتَفَتِي الدَّقِيقُ ، وَالشَّارِحُ الْوَاضِعُ ،

والمؤول الصادق الأمين . ولم يبتعد ، في كل فتاواه وتعاليمه ، عن المنطق السليم ، والخلق المستقيم ، مما جعل غالبية المسلمين تطمئن إليه ، وتأثم بهديه . وهذا مغزى آخر نستخلصه من سيرة هذا الرجل العظيم ومما يجب استلهامه كذلك من سيرة الإمام مالك ، ثباته ، رضي الله عنه ، على المبدأ ، ومطابقة أقواله لأفعاله . فقد كان شجاعاً في نصره الحق ، قوي الإيمان بالله ، واضح المواقف ، لا يخشى في الله لومة لائم ، فلم يذاهن قوياً ، ولم يمتلق طاغية ، ولم يتنازل عن شروئ نقيير من مبادئ العقيدة وأوامر الله .

وقد امتحن من أجل ذلك في إيمانه أيما امتحان ، وضرب وعذب ، وأهين في سبيل الله ، وطيف به في شوارع المدينة ، وخلعت ذراعه ليتنازل عن رأيه ، ويفتي بغير ما أنزل الله ، ويأذن بطلاق المكروه ، فألح وصير على الأذى ، وخرج من محنته التي كان يراذ بها إذلاله ، أعز وأكرم على الله ، وأجل وأعظم في عيون قومه ، وفي ضمير الأمة الإسلامية إلى عصرنا هذا . وصدق الله وعده : " إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " .

وذهب الإمام مالك ، وبقيت صيغته الشهيرة : " من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس . طلاق المكروه لا يجوز " . بقيت تتردد أصدائها بين شعاب المدينة وتكبر وتعتظم لتشمل أرجاء المعمور ، ولتبقى شاهداً حياً مدى التاريخ على رفض الظلم ، والانتصار للحق .

هذا عن جانب الإيمان ، والجهاد ، والشبات ، في شخصية الإمام مالك رضي الله عنه .

ولو أردنا تطبيق المقاييس العامية العصرية على الجانب العلمي لهذا الرجل الفذ ، لبرزت لنا شخصية عميقة ثاقبة الفكر ، متعددة الأبعاد ، واضحة المنهج ، شديدة العمق والانضباط . فهو لم يكتف بإشبات سند الحديث وتجشيم المشاق في تقصي رواياته إلى نبعه الأصلي ، بل تعدى ذلك إلى تحليل شخصيات رواة الأحاديث ، والتأكد من استقامتها وصدقها ورسوخها في العلم .

وقد أفضى به اجتهاده ودقته العلمية إلى النزول إلى شوارع المدينة المنورة لدراسة البيئة الاجتماعية التي عاش فيها الرسول صلوات الله عليه وسلامه . فدرس عادات وتقاليده أهل دار الهجرة التي انطبع سلوك أهلها بالسلوك النبوي . وذلك حتى يطمئن إلى صحة ظروف بعض الأحاديث . فأوحى بذلك للعلامة المغربي عبد الرحمن بن خلدون بالمنهج العلمي التجريبي الذي نصح به لتصحيح وقائع التاريخ القديمة بالرجوع إلى البيئات الاجتماعية التي وقعت فيها .

ولم يكتف ، رضي الله عنه ، بكل ذلك رغم عظيمته ، فترك بأسب الاجتهاد مفتوحاً للأئمة من بعده ، وذلك بسببه استنباط الأحكام في ما كان يستجد من قضايا يفرضها اتساع رقعة الإسلام ، بالقياس على ما ورد في السنة وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم . فضمن بذلك المرونة والشمولية للمبادئ والأحكام الإسلامية ، وقطع الطريق على السطحية ، والتزمت ، والركود .

وقد اكتشف الغرب المسيحي ، بعد ألف عام من وفاة الإمام مالك ، ما لئذ به الكامل من قوة وشرأ ودقة في تنظيم أحوال المجتمع البشري أبدع نظام . فاستعاروا منه الشيء الكثير ، وخرجوا به على العالم وكأنه من صنع أيديهم ، وعبريتهم مفكرتهم .

ورغم ما أسداه الإمام مالك للإسلام من خدمات جللى ، وما تحمله في سبيل الدفاع عن مبادئه من أذى ، فقد خالجه في أواخر حياته شتى الشكوك والمخاوف من أن يكون قد أفتى برأيه سهواً أو خطأ بما يخالف الكتاب والسنة . قال (معن بن عيسى) : سمعت مالكا يقول : " إنما أنا بشر ، أصيب وأخطئ ، فانظروا في رأيي ، فما وافق السنة فخذوا به " . وقال (ابن قنبر) وهو أحد رواة البارزين ، حين عاده وهو على فراش موته : جلست إليه فرأيت يبيكي ، فقلت : يا أبا عبد الله ، ما الذي يبكيك ؟ فقال : " يا ابن قنبر ، وما لي لا أبكي ؟ ومن أحق بالكاء مني ؟ والله لوددت أني ضريت بكل مسألة أفتيت فيها برأى بسوط سوط ، وقد كانت لي السعة فيما سقت إليه . وليتني لم أفت بالرأي " .

وإن دلّ هذا على شيء ، فإنما يدلّ على شفافية في الروح ، وقرب من الملكوت الأعلى ، وإشراق داخلي لا يحظى به إلا الراسخون في العلم من أولياء الله والصالحين " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " . وإذا تدبرنا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " يبعث الله على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد أمر دينها " وجدناه ينطبق انطباقاً كاملاً على الإمام مالك رضي الله عنه ، فقد ولد سنة 93 للهجرة ، وتوفي سنة 179 ، فملاً بعلمه وفضله قرناً كاملاً من الزمان ، وأخذ عنه العديد من العلماء والفقهاء من المشارقة والمغاربة . وقد حدث عنه أئمة لا يكادون يُخصَّصون ، ومع ذلك لم يجلس للفتوى حتى شهد له سبعون من جلة العلماء بأنه أهل لذلك . ومن شهادات أهل عصره له ما قاله تلميذه الإمام الشافعي : " إذا ذُكر الأئمة (فمالك) النجم الثاقب . وما أحد أئمة عليّ من مالك " . وما كان أحد في زمانه أبرّ منه ولا أعلم ، فهو بحق مبعوث هذه الأمة الأول بعد رسول الله .

معشر العلماء المبجلين ، إن حيوية الأمة الإسلامية ، وتداخل مجتمعاتها مع غيرها ، وتفاعلها مع حضارات ، وثقافات ، وديانات ، ومذاهب كانت إلى أمَد قريب تفصلها عنها المسافات المادية والمعنوية ، وإن التطورات والتغيرات السريعة التي طرأت على المجتمع البشري في السبعين سنة الماضية ، والتي قال عنها أحد المستقبلين : " بأن ما حدث خلالها من تقدّم يوازي ما حدث في مدى الخمسة آلاف سنة الماضية " كل هذا يفرض علينا أسلوباً جديداً في التعامل مع ثرائنا الحضاري بجميع جوانبه . أسلوباً يتيح للمسلم والمسلمة أن يندججا في المجتمع التكنولوجي الذي يعيشان فيه ، وينسجما مع هياكل الحضارة الحديثة في إطار من الأخلاق الإسلامية السامية ، ودون شعور بالاغتراب والاستلاب ، أو بالتناقض والانفصام أو بالدونية والإثم .

فلتكن ندوتكم هذه فرصة للبحث عن ذلك الأسلوب ، ومناسبة للتصدي لهذا التحدي الحضاري الجديد ، وذلك بدراسة وتحليل قضايا

قضايا العصر واتخاذ مواقف بناءة منها على ضوء منهجية الإمام مالك، مواقف تتسم بالإيجابية والإقناع، والانسجام مع عقيدتنا، وبيئتنا وطبائعنا، وتكون امتداداً طبيعياً لتاريخنا، وحضارتنا، وإسهاماً من مفكرينا في تحسين نوعية العيش، ونماذج السلوك، في مجتمعاتنا، بل وحتى في المجتمعات الإنسانية الأخرى.

وهذه المواقف يجب أن تكون قابلة للبلورة حتى تصبح بديلاً قوياً، وواضحاً، وجذاباً لما هو مطروح في الأسواق من شعارات أجنبية عنا، أفرزتها ظروف تاريخيتنا واجتماعيتنا لم نعشها، وفي مجتمعات بعيدة كل البعد عن مجتمعاتنا.

ولنأنا على يقين من أنكم ستواجهون هذا التحدي بإقدام وإيمان، ومن أنكم ستفوزون بهذا الرهان. فكل ما نتعج به أسواق الكتب، والصحف، والندوات، وأمواج الأثير من شعارات الحرية، والديمقراطية، والاشتراكية، والعدالة، والمساواة، وحقوق الإنسان، ما هو إلا بضاعتنا زدت إلينا معنونة بشئنا العناوين.

وليست هذه أول مرة يطالب فيها علماء الإسلام بالتكليف بوضع جديد، فقد كان لهذا الوضع في تاريخ أمتنا ما يوازيه. ولم يكن ذلك أبعد كثيراً من عصر إمامنا مالك. فقد جاء بعده من العلماء من استخذموا منهجه وانتهوا إلى غير ما انتهوا إليه من نتائج، فكانوا يعلنون عدم اتفاقهم معه جهاراً بقولهم المشهور: "وإن قالها مالك، فلسنأله بمالك" ولم يجد أحد في ذلك غشاضة ولا انتقاصاً من مقام الإمام العظيم. ذلك أن روح مذهبه قائمة على الاجتهاد فيما لم يرد في الكتاب أو السنة أو الأثر. والاجتهاد هو مفتاح المسلمين للتكليف مع كل تقدم أو تطور فكري أو مادي في العالم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وحاشا أن يكون التحجر والجمود من شيم الإسلام. وهو بريء من كل من يقفون في وجه التقدم باسم الإسلام. فحتى في عهد الرسول

صلى الله عليه وسلم ، وُجِدَ من أساء فهم الإسلام من ذوي الأمزجة
السوداوية الجامدة ، واعتقدوا أنه جاء للتحريم ، والتضييق ،
والترهيب ، فحَاجَّهم الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز بقوله :
" قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق " .
ونحن على يقين من أن بركة الإمام مالك ستحل بينكم ،
وتشمل ندوتكم هذه ، وأنكم ستخرجون منها مُوقِّنين إن شاء الله ،
ومُعَمِّلين بما يملأ مُجلِّدات من الأبحاث ، والدراسات ، والاكتشافات ،
تضاف إلى ثرائه الخالد وتبقى مرجعاً حافلاً لدارسيه ، وشاهداً على
فخرنا واعتزازنا بالانتماء إلى مذهبه ، وتشبُّثنا بمبادئه السامية .
" وقل اعملوا فسمي الله عملكم ورسوله والمؤمنون " صدق الله العظيم
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
حرر بالقصر الملكي بالرباط في يوم الجمعة 9 جمادى الثانية عام 1400
الموافق 25 أبريل سنة 1980 .

كلمة السيد وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

- حضرة السيد مستشار صاحب الجلالة
- حضرات السادة الوزراء
- حضرة السيد عامل صاحب الجلالة لاقليم فاس
- حضرات السادة أعضاء السلك الدبلوماسي
- السادة النواب بالبرلمان
- السيد رئيس المجلس الاقليمي
- السيد رئيس المجلس البلدي
- السيد رئيس المجلس العلمي
- السادة الفيوف الافاضل
- حضرات السادة

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد : ففي اطار الاحتفالات ببداية القرن الخامس عشر الهجري وتنفيذا لاوامر صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله ، تنظم وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ندوة الامام مالك بن انس رضي الله عنه ،

ويسعدني ويشرفني في هذا الحفل الافتتاحي أن أرحب بكم متمنيا لكم المقام
الطيب وراجيا لكم العمل النافع الخالص لوجه الله فيما ستصرفونه من
جهد أثناء انعقاد هذه الندوة .

لقد أصفينا باجلال واحترام للرسالة الملكية السامية التي وجهها
جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله الى الندوة على لسان مستشار
جلالته الأستاذ أحمد بن سودة .

ويجدر بالندوة أن تعتبر هذه الرسالة الملكية السامية دستوراً لها
وورقة عمل أساسية لاشغالها لما تحتويه من أفكار أصيلة ومعاني نفيسة
فهي تدعونا الى رؤيا مستقبلية نتبنى فيها المنهجية في العمل والاسلوب
العلمي في التبليغ والايصال تمثيلاً مع ما تقتضيه الظروف العصرية من
استعمال الوسائل التقنية الحديثة وهي سلاح يقوي ساعد المسلم وعقله
وتضع المسلمين في المكانة اللائقة بهم بين الامم مع الحفاظ على جوهر
الاسلام نقياً خالصاً ناصعاً .

واني باسمكم لاتوجه بالشكر والامتنان الى صاحب الجلالة حفظه
الله على التفاتته الكريمة التي قصد منها اكرام العلم والعلماء ووضع برنامج
عمل بين أيديهم ليهتدوا به في أعمالهم وتفكيرهم .

حضرات السادة :

يجدر بنا ان نحتفل بالامام مالك وان نتدارس تراثه وأثره على الامة
الاسلامية ، فقد ولد الامام في سنة خمس وتسعين للهجرة . ونشأ في دار
الهجرة ، المدينة المنورة على ساكنها افضل الصلاة والسلام ، وأخذ العلم
عن شيوخ من جلة التابعين وكبارهم، فروى عنهم حديث رسول الله صلى الله
عليه وسلم بالمدينة المنورة ، ومعلوم ان المدينة شهدت من حياة رسول الله
صلى الله عليه وسلم أهمها وأغزاها تشريعاً ، وفيها عاش جل الصحابة رضي
الله عنهم ، أخذ التابعون صفات رسول الله وأعماله ، وتقريراته ، وتكون هي
السنة التي تعد المصدر الاول للشريعة بعد القرآن الكريم .

والى جانب هذا ، كان عمل أهل المدينة ، وهم أعرف الناس بحياة الرسول عليه السلام وسلوكه ، وسجلوا كل حركاته وسكناته وما واكب سلوكه من ملابسات ، وهم الامناء الثقاب ، الذين لا يتطرق الشك الى ان اعمالهم كانت تبعا لما تعلموه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت من ثم اجتهاداتهم فيما لم يرد فيه نص صريح اقرب الى الصواب ، خصوصا وان المدينة المنورة لم تبلغها الخلافات التي اندلعت فى جهات أخرى من الامة الاسلامية . وهكذا كانت المدينة مهدا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم،خالصة نقية من الشوائب،رواها صحبه،وعنهم تلامذتهم كبار التابعين والفقهاء، ومن هؤلاء تفقه الامام مالك، فقد لازم ابن هرمز عبد الرحمن الاعرج ونافعا مولى ابن عمر ، ومحمد بن شهاب الزهري ، وتفقه حتى أصبح علما من اعلام السنة والفقه ، يحص ما يبلغه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينتقى الثقات من الرواة والشيوخ ، فلا يروي الحديث الا ممن يعلم صدقه وامانته ، وقد قال فى هذا المعنى : « ان هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه . ولقد ادركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الاساطين . فما اخذت عنهم شيئا ، وان أحدهم لو أوّتمن على بيت مال لكان أمينا ، الا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » .

وقد ثبت عنه أنه كان لا يخوض فى تلقي العلم أو تدريسه حتى يستعد للملك بما يقتضيه مقام العلم وشرف حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، والمسجد النبوي الذي كان يرتاده طالبا ومعلما ورائدا .

واذا علمنا ان الائمة الثلاثة الذين انتشرت مذاهبهم فى جميع أقطار الدنيا: أبو حنيفة النعمان، والشافعي، وأحمد، أخذوا عنه جميعا،حتى أبا حنيفة الذي يكبره سنا ، علمنا السبب الذي جعل المغاربة يختارون علمه مذهباً ويستمسكون به منذ أن وصل اليهم فى مطلع القرن الثالث على يد علماء أفاقة ، اخلوا عنه كتابه الموطا ، أمثال علي ابن زياد ، وعيسى بن شجرة من تونس ، وأسد بن الفرات القروي، وخلف بن جرير بن فضالة القروي، وعبد العزيز بن يحيى ، وعبد الله بن عمر بن غانم الرعيني ، ومحمد بن معاوية الطرابلسي ، ويحيى بن يحيى الليثي الأندلسي . وقد ظل المغاربة متمسكين بمذهب مالك طيلة قرون عاملين على اثرائه بما قاموا به من دراسات

لنصوصه واستنتاجه ، يواجهون بها ما يعرض لهم من قضايا،ومن ثم أصبح مذهب الامام مالك أغزر مادة في ميدان الافتاء وقواعده التي بنى عليها علماء الفتوى ، ما استنتجوه من أحكام،أصبحت علما مستقلا،وضع فيها المتأخرون مؤلفات قيمة،لا تزال مراجع للفقهاء ترشدتهم وتنير لهم طريق الفهم الصحيح، من قواعد القرآني والمقري والونشريسي وغيرهم ، والامام مالك أول من ألف كتابا أجمع شيوخ العلم والحديث على انه أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، حيث يقول الشافعي : ما في الارض كتاب في العلم أكثر صوابا من كتاب مالك ، يقول أيضا : ما كتب الناس بعد القرآن شيئا هو أنفع من موطأ مالك .

وقد درس المقاربة المذاهب كلها ، دراسة فحص وتحليل ، واحاطوا بأصولها وقواعدها وفروعها، وتتبعوا سيرة أصحابها الغراء ومناقبهم العديدة ومآثرهم الحميدة ، فوقع اختيارهم على المذهب القائم على الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وعمل اهل المدينة ، والاخذ بالمصالح المرسلة ، وقلدوا الامام الذي انتهت اليه رئاسة الحديث والفقه ، وأعترف له بذلك من كافة الائمة ، ووجدوا فيه القدوة والمثل الذي يجب احتذاؤه والاقتداء به في التمسك بالكتاب والسنة وما عليه جماعة اهل الحق والسلف الصالح .

ونظروا الى ما اتفق عليه السابقون واللاحقون من زيادة علم مالك وورعه وبعد غوره في الكتاب والسنة ، فتأكدت لهم ضرورة الاخذ بمذهبه لما بين العلماء من خلاف في جواز تقليد المفضول مع وجود الفاضل .

واذا كان للمغرب ان يعتز في اباء وشمم بذلك البور الطلائعي الذي لعبه في نشر الاسلام وافشائه ، وفي حمل راية الجهاد وتادية واجب الدعوة وبشها في بلاد المعمور وفي مختلف الازمنة والعصور،فان له كذلك ان يعتز بأن جعله الله المنطلق الثاني بعد المدينة المنورة ، لنشر مذهب الامام مالك وتلقي دعوته .

فقد تلقى المقاربة هذا المذهب ، وكافحوا وجاهدوا تحت رايته ، والفوا فيه وشرحوا وأجادوا فيه وأبدعوا ودافعوا عنه ، وقالوا بأرجحيته على سائر المذاهب .

والمغاربة كذلك ، أن يرفعوا رؤوسهم في اعتزاز بأن اعترف لهم دون غيرهم من بلاد المعمور ، بأنهم قادة الفكر المالكي ورجال دعوته وجمهور مذهبه ، حتى عد بعضهم من مرجحات المذهب المالكي ، تمسك المغاربة به للحديث الوارد في تمسكهم بالحق .

وقد استقل المذهب المالكي بالمغاربة فاستقطب مؤلفاتهم ونقولهم وفتاويهم وهيمن على تفكيرهم ، فمنهم من دافع عن صحة الموطأ وجعله في الرتبة الاولى من درجات الصحة ، ومنهم من دافع عن المذهب وأرجحيته وترجم لطبقاته ، ومنهم من وضع المختصرات المفيدة ، ومنهم من ألف في اصول المذهب وقواعده .

حضرات السادة :

نعتقد هذه الندوة ، أكبارا للامام مالك ، واعترافا بفضلته على الاسلام والمسلمين ، وهي مناسبة لتحريك هم المتخصصين ليعملوا فيما يستقبل من الايام والسنين ، على بعث الدراسات الاسلامية في التشريع والحديث والفقه والاحوال الشخصية . ويجدر بنا جميعا ان نسعى في جهد عام الى انجاح الندوة بالبحوث القيمة وبالمناقشات والندوات .

حضرات السادة :

اشكركم على تلبية الدعوة واكبر فيكم روح التضحية بالوقت النفيس للحضور والمشاركة في البحوث والمناقشات التي ستدور في هذا اللقاء حول حياة امام الائمة وسيرته واصول مذهبه وقواعده وفروعه واعلام مدرسته وماله من خصائص ومميزات .

واني لادعو الله بهذه المناسبة أن يحفظ مولانا امير المؤمنين جلالة الحسن الثاني رائد البعث الاسلامي ومجدد امجاده ، ويقر عينه بولي عهده ، الامير المحبوب ، سيدي محمد ، وصنوه الامير مولاي رشيد ، وباقي افراد الاسرة الملكية الكريمة ، كما ادعوه سبحانه وتعالى أن يحفظ الامة الاسلامية من كيد اعدائها وأن يحرسها .

والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة رئيس المجلس العلمي وعميد كلية الشريعة بفاس

- سيدي مستشار جلالة الملك المعظم
- سيادة وزير التربية الوطنية وتكوين الاطر
- سيادة وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية
- سيدي العالم
- حضرات العلماء الاجلاء

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

وبعد :

فلئن جرت العادة باقامة احتفالات بمناسبات ، لنبغاء سلفوا وعباقره مضوا ، وخلفوا ذكرا حميدا ، بما قدموه للفكر الانساني ، وللثقافة البشرية من خدمات تذكر فتشكر .

- فان عقد ندوة حول شخصية الامام مالك ، من لدن وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، لمدارسة ما جاء به هذا الامام الجليل من مدارك ، يعتبر بحق في طبيعة ذلك .

- وان مشاركة باحثين كبار ، في هذا اللقاء الاسلامي الرفيع ، من جهات من العالم الاسلامي ، لتحمل في طياتها اكثر من معنى ، فيما يمتاز

به مذهب الإمام مالك ، من صلاحية وجدية ، وقوة تضمن له البقاء والاستمرار ، عن طريق ما اعتمد عليه من كتاب ، وسنة ، واجماع ، وقياس ، وعمل أهل المدينة ، واستصحاب ، واستحسان ، ومصالح مرسلة ، وسد ذرائع ، مما ستتحفنا به دراسات الدارسين ، وبحوث الباحثين ، فيضفي كل ذلك ، على حياة الامام ، الزاخرة بجلال الاعمال ، ما يجعلها مكسوة بروائع بيانية طريفة ، ونتائج بحثية رصينة ، وخاصة حينما تجول الاقلام فى آفاق المدارك ، التي حلق فى سمائها ، امام دار الهجرة ، مالك بن انس بن مالك ، ابي عامر الاصبحي اليمني ، الذي روي عنه ، انه قال فى تاريخ ميلاده (ولدت سنة ثلاث وتسعين هجرية) ، والذي خيم فى مدينة الرسول ، طوال حياته ، والذي عرف عن جدارة ، بقطب الاحكام المحررة ، فى الشريعة الاسلامية . وبامام الراي ، علاوة على الصدق التام ، فى امامة النقل ، والذي قيل فى ترجمته ، انه ولد مكتملا بعد ما مكث فى بطن امه ثلاث سنوات ، فشب وترعرع فى المدينة المنورة ، التي يأزر الايمان اليها ، كما تأزر الحية الى جحرها ، واكرمه الله بمزيد علم ، ومزيد فضل ، ومزيد نبوغ ، ومزيد دهاء ، فى استنباط الاحكام من ينابيعها ، فأصبح مالك ناصية المعرفة العابقة من صميم الاصلة الاسلامية ذات الشأن الرفيع ، فهو اذا قال ، فقله خير مرجع ، واذا كتب ، كان حجة الله فيما كتبه وحرره . اذا لا يفتى ومالك بالمدينة ، واذا نطق الناس بعالم المدينة ، فانهم لا يقصدون غيره ، وكان على ضرب من الشكر لله ، معتزاً بعمله ، لما قام عنده من دلائل ، على انه مبني على فهم رصين ، اوتيته مسلم ادراكه سليم ، منحه من الفتح العليم ، خاصة وسط اقرانه من اقطاب الاسلام ، وبناة الدين ، العارفين بالحلال والحرام ، والضارين فيهما بنصيب اوفى ، وقدح معلى ، روى - رحمه الله - علماً عن جده ، فهو من سلالة العلم - ، ويكفيه جلالة قدره ، ويكفيه تمسكاً بخشية وتقوى وورع ، انه لم يركب قط دابة فى مدينة الرسول ، توقيراً واجلالاً لصاحبها ، صلوات الله وسلامه عليه .

- وفى روضة المصطفى ، كان يتلقى معارفه ، عن كبار رجالات العلم ، فبارك الله فى تلك المعارف ، التي انتشرت فى افريقيا ، والانديلس ، والمغرب ، وضمن لها البقاء كمذهب مفضل ، ومتبع باعتزاز فى هذه الاقطار الى الآن .

— نرجع الى كتابه الموطأ فى الفقه ، عن طريق ما صح ، من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي كان يجد الليالي والايام ، فى تقصى تمحيص ما جاء فيه ، لنعرف بالنص وبالمثال ، سبب ما ناله من جدارة من لقب : امير المؤمنين فى الحديث .

— وتنبع سلوكه العام والخاص ، لنعرف مدى وقوفه مع ما جاءت به السنة النبوية الطاهرة ، من حض على اتباع ، ونهي عن ابتداء ، وتقدير جم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث لسعته مرة عقرب أثناء اشتغاله بتبليغه ، فلم يحفل بها ، ولم يكف عن التبليغ بسبب ذلك اللسع ، رغم تألمه من اذاه .

سئل تلميذه الامام الشافعي : من هو فى معرفته وفضله وسعة اطلاعه ، فقال فى حقه : انه النجم الثاقب .

وسئل مرة عن اربعين سؤالاً ، فأجاب فى معظمها بقوله : لا أدري ، خوفاً من الوقوع فى خطأ ، لما يعلمه من أن المفتي فى حكم شرعي ، موقع عن الله تعالى .

وامتحن فى قضية طلاق المكروه ، وضرب بالسياط ، وأصر على فتواه بعدم جواز طلاق المكروه ، ولم تاخذه — رحمة الله عليه — لومة لائم فى ذلك .

ودام على ما عاش عليه ، من فضل وغزارة علم ، وجلالة قدر وتقوى وورع وخوف من الله ، واجلال سيد الكائنات ، الى ان توفاه الله فى مدينة الرسول ، ودفن بالبقيع ، رحمة الله عليه ، وفى الختام نقول :

تمتاز ندوة أوقاف لمجتمع يضم نخبة أقطاب من الشهب من عالم شرفوا فاسا بمقدمهم ليبحثوا مذهباً من معدن الذهب فمرحبا برجال العلم فى بلاد يهيم بالعلم والاعلام والكتب

وفى الاخير ، ندعو فى هذا الجمع المبارك ، لمولانا امير المؤمنين ، الحسن الثاني ، صاحب المبرات المتألقة فى قلب فاس ، حفظه الله ، وحفظ ولي عهده ، الامير الجليل ، سيدي محمد ، وصنوه الامير ، مولاي رشيد ، وسائر أفراد الاسرة الملكية الكريمة ، بما حفظ به الذكر الحكيم .
والسلام .

كلمة رئيس المجلس البلدي بفاس

- معالي وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية الدكتور احمد رمزي
- أصحاب المعالي الوزراء
- أصحاب السعادة
- أصحاب الفضيلة العلماء الاجلاء المشاركين في ندوة الامام مالك
- حضرات السادة

يسعدني ويشرفني ، ان احبيكم تحية طيبة ، باسم المجلس البلدي لمدينة فاس ، وأرحب بكم ، في بلدكم الثاني ، وفي هذه المدينة ، التي احتضنت المذهب المالكي ، طيلة اثني عشر قرنا ، حيث تخرج من جامعة القرويين الفذة عبر الاجيال ، سلسلة من اعلام المذهب المالكي ، في القضاء والافتاء والتشريع . ومن هذه المدينة ازداد هذا المذهب تدعيما ورسوخا ، منذ القرن الرابع الهجري ، بفضل الاتصال والاحتكاك ، والمجادلة بين اعلام الفكر الاندلسي بقرطبة ، وعلماء القرويين .

حضرات السادة المحترمين :

ان مدينتنا ، ننشرح ابتهاجا بمقدمكم ، وبما ستستقر عليه اعمالكم ، وستجود به قرائحكم ، وبما يفيض من وجدانكم الدافق ، من قوة حجة ونصاعة بيان ، ودقة برهان ، وسلامة رؤيا ، لمذهب الامام مالك ، ولا اجد احسن ما افتح به الكلام عن هذا الرجل العبقري ، سوى ما قاله عنه الاستاذ العلامة علال الفاسي ، في مستهل محاضرة القاها حول افضلية الامام مالك ومذهبه . يقول : لم اقرا حياة مالك واخباره مرة ، الا وجدتني

متخشعا باكيا ، للتأثر من مواقفه ، فى الدب عن السنة وحماية الشريعة ، ومجاهرته بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك ، هو حالي أيضا ، كلما قرأت ، اخبار رجال مذهبه الكرام الافذاذ ، الذين نهجوا نهجه ، فى الصدع بالحق واقامة العدل ، ومقاومة الجور والظفیان والبدع والاهواء ، الى ما تحلوا به من الزهد ، ومواصلة الذكر والفكر والعبادة ، ان قراءة اخبار مالك ، ورجال مذهبه ، تطهر النفس وتزكي القلب ، وتفتح الذهن ، وتنمي المعرفة ، وتعطي القدرة الحسنة لمن اراد ان ينهج منهج الصالحين ، ويسلك مسالك العارفين .

حضرات السادة :

ان الامام مالك بن انس ، الذي تفرد مذهبه فى المغرب ، بقدرته على توحيد الفكر المغربي ، وتوجيهه توجيها سليما ، قد عمل على حفظ التوازن الفكري فى بلادنا . وان فاس مدينة التواصل الحضاري ، التي عاشت اثني عشر قرنا ، قلعة من قلاع الفكر الاسلامي ، الصامد ضد كل غزو فكري عبر العصور ، ومهد الاشعاع الحضاري الاسلامي ، عبر افريقيا وأوروبا ، اخذت تسترد دورها الثقافي المجيد ، فى عهد جلالة الملك الحسن الثاني ، نصره الله ورعاه ، برعايته الشاملة ، فبامر جلالته عاشت مدينتنا تظاهرات اسلامية وعمرانية وثقافية ، فى هذا العصر بالذات ، حيث كان انعقاد المؤتمر العاشر ، لوزراء الدول الاسلامية ، والذي انبثقت عنه لجنة القدس الشريف ، وانتم تعلمون ، ما لهذه اللجنة من أهمية قصوى ، على المستوى السياسي والروحي ، ولا سيما والذي يرأسها هو ، جلالة الملك ، الحسن الثاني ، نصره الله ، وفى هذا القصر ، تم بحول الله ، مهرجان توأمة مدينة فاس وانذار ، عاصمة الحضارة الاسلامية فى السنغال الشقيق ، بحضور صاحب السمو الملكي ، الامير الجليل ، ولي العهد ، سيدي محمد حفظه الله .

وفى هذه القاعدة ، وجه منذ قليل ، (يوم 9 ابريل 1980) المدير العام لاسمى منظمة ثقافية فى العالم ، منظمة اليونسكو ، السيد احمدو المختار مبو ، نداه العالمى لمؤازرة المدينة العتيقة فى الحفاظ على تراثها الخالد ، باسم الانسانية جمعاء .

وفى بداية هذا الاسبوع ، بتاريخ 21 ابريل 1980 ، عشنا حدثا ثقافيا هاما ونادرا ، الا وهو تأسيس اكاديمية المملكة المغربية ، برئاسة صاحب الجلالة ، الحسن الثاني نصره الله ، وبحضور اعلام من رجال الفكر الاسلامي والنولي .

وها نحن نعيش اليوم ، ندوة الامام مالك بن انس ، بأمر من جلالته ، وتحت رعاية وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية .

حضرات السادة :

اسمحوا لي ان اعرب لكم مرة ثانية ، عن بالغ الامتنان ، وعظيم الابتهاج ، وعميق السرور ، بوجودكم فى مدينتكم ، وائنا جميعا ، لمتعطشون لما ستتيرون به معارفنا ، وستنمون به ادراكاتنا ، وتحسون به رؤانا .

وفقكم الله ، وسدد خطاكم ، وبارك فى اعمالكم ، وكلل بالنجاح ندوتكم ، وجعل كل كلمة منها ، مشعلا ينير لاجيالنا الصاعدة الحائرة ، ما ادلهم واظلم من المسالك ، وما اختلط واشكل من المفاهيم والمعارف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

... ولنا اليقين بان هذه السنة التي ستتناسب مع القرن الخامس عشر الهجري - ستكون ان شاء الله - سنة فتح وسلام وبركة ، على الاسرة الاسلامية الكبيرة والاسرة العربية الصغيرة ، ومما لا شك فيه ان الله سبحانه وتعالى - ما دنا فى طريقه الواضح - سيكون بجانبنا وسيعيننا على القيام اولا باموريتنا ، ويعيننا ثانيا على تخطيط السبيل لابنائنا واجيالنا الالية ، لانه اخذ ذلك على نفسه سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز حينما قال : « ولينصرن الله من ينصره » وقال فى اخرى : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » ...

- جلالة الحسن الثاني -

كلمة الشيخ عبد الله نياس ، من السينغال

- حضرات السادة العلماء ،
- حضرات السادة الوزراء ،
- أيها الاخوة ،

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أيها الاخوة في الله ، نحبيكم ونبلغكم تحيات أخوان من السينغال يشكرون لكم إتاحة هذه الفرصة النادرة للاجتماع بكم ، والتعبير عن شكرهم العميق ، للاشتراك في هذه الندوة ، ندوة أمام دار الهجرة ، مالك ابن انس رضي الله عنه .

أيها الاخوة في الله ، من باحثين وأساتذة وسائر المشتريكين في ندوة فاس المحروسة ، السلام عليكم ورحمة الله .

أما بعد ، فقد وصلتني الدعوة الكريمة ، للاشتراك في ندوة الامام مالك بن انس الاصبحي ، رضي الله عنه ، في وقت تراكمت علي الشواغل والمهام تراكما عجيبا ، ولكن تلك الشواغل والمهام ، كلها تنزوي وتتضاءل أمام هذه المناسبة العظيمة ، فمالك رحمه الله ، أمامنا وأمام الائمة ، وفاس المحروسة ، عاصمة علمية وروحية ، فهي واحة لراحة عقولنا وأرواحنا ، والمغرب قلعة اسلامية ، وهو في شخصيته التاريخية يعكس للعالمين ما في المذهب المالكي ، من عظمة وأصالة ، وعمق وحيوية

وانسانية ، واذا ضاق وقتي عن اعداد بحث مستفيض ، من جانب من جوانب شخصية الامام ، فلا يفوتني ان اثري معلوماتي ، بهذه المشاركة ، واستفيد من البحوث والمحاضرات ، التي تأتي لغيري من المشاركين ان يعدوها ، كما أنتهز الفرصة لابلاغكم ما يلي :

— اولاً : اشرف بنقل تحيات طيبة صادقة ، من مسلمي السينيغال ، الذين رضوا بالله وحده رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبسيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم نبياً ، واتخذوا المالكية مذهباً ، والاشعرية عقيدة ، وشكرهم الجزيل لعمل جلالة الملك ، الحسن الثاني نصره الله ، لخدمة الاسلام ، ودعوته ، ولنشر القراءان الكريم وعلومه ، وطبع كتب التراث الاسلامي وتوزيعها في العالم الاسلامي ، لا سيما كتب المذهب المالكي النادرة ، كالتمهيد لابن عبد البر ، وترتيب المدارك للقاضي عياض وغيرهما ، ومثل هذا العمل الجليل مشكور ، لما فيه من ترسيخ للسلفية الصالحة ، وعود بالامة الى ينبوع الاصاله ، وانا اعتقد جزماً ان دور الحكام والمسلمين ، في مجال الدعوة الاسلامية ، نور اساسي ، ولا يغني عنه عمل فرد أو هيئة ابداً ، وخلو الميدان في معظم بلاد المسلمين من هذا العنصر الرسمي ، هو السبب غالباً في كثير مما أصاب مسيرة الاسلام ، من عثرات ، ومن هنا تولد حرصي الدائم على تلبية نداءات هذا البلد المسلم ، وأماننا شواهد ماثلة على ما أومأت اليه ، فهذه دار الحديث الحسنية ، ولعلها فريدة في دنيا الاسلام ، وهذه الدروس الحسنية السنوية ، تقليد فريد ايضاً ، وان اشتراكي في ندوة فاس هذه ، كاشتراكي في تلك الدروس الحسنية ، وفي المسيرة الخضراء التاريخية ، ما هو الا تعبير صادق ، عن الاعتزاز بالاخوة الاسلامية ، وبالروابط الروحية والعلمية والتاريخية، التي تشدنا الى المغرب عموماً ، والى فاس المحروسة خصوصاً ، والى جلالة الملك الحسن الثاني ، الذي يرجع اتصالي به وتعارفي معه ، الى ما قبل عشرين عاماً .

— ثانياً : انني مقتنع بجدوى هذه الندوة ، وادعو الى تكرارها ، كلما تيسر ذلك ، لان هذا العصر المادي الفاتن ، بات يهدد القيم الروحية والتراث الديني ، وما أحوجنا الى ان نتشبث بالاسلام ، نقياً صافياً ، ولتحقيق هذا الغرض ، لا أرى بديلاً من مدرسة مالك ابن انس ، امام دار الهجرة .

فالمالكية مذهب المسلمين فى غرب افريقيا وشمالها ، وفى كثير من اجزاء افريقيا الباقية ، ومالك ، رضى الله عنه ، نادرة الزمان ، واعجوبة الدنيا ، وقد اجمع ائمة عصره على الاعتراف بمكانته ، التي لا تدانى ، ناهيك بالامام الشافعي ، حيث يقول : « مالك أعلم بكتاب الله ، ناسخه ومنسوخه » ، وقال ايضا : « مالك معلمي ، وعنه أخذنا العلم ، وإذا ذكر العلماء ، فمالك النجم ، وما أحد أمن علي من مالك ، جعلت مألكا حجة بيني وبين الله » .

وهذا الامام الاوزعي ، رحمه الله يقول : « مالك عالم العلماء ، وعالم اهل المدينة ، ومفتي الحرمين » .

وهذا الامام احمد بن حنبل يقول : « حديث مالك حجة بينك وبين الله » . وافت نظر المهتمين بهذا الموضوع ، الى الكتب التي وضعت خصيصا للتعريف بتلامذة مالك - رحمه الله - كالدرقطني ، والخطيب البغدادي ، والقاضي عياض السبتي ، فقد افاض مالك على اكثر من الف علم من اعلام العلماء ، العدول الائمة الافذاذ ، رضوان الله عليهم ، وسيلاحظون فى هذه التراجم ان من تلامذة مالك ، من كانوا له شيوخا بالامس ، حتى قال مالك تحدثا بنعمة الله : « قل رجل كنت اتعلم منه ما مات حتى يجيئني يستفتيني » .

هذا الامام العظيم ، الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « يوشك ان تضرب الناس آباط المطي ، واكباد الابل فى طلب العلم ، فلا يجدون أعلم من عالم المدينة » (رواه أبو هريرة) جدير بأن نحتفل وننشر علومه ونتدارس سيرته النقية الطاهرة ، ونستلهم تاريخه وشماله ، ونتقيد بسلفيته وادبه مع مقام الرسالة المحمدية ، وهذا ادب يدل على صدق الايمان وعمق المعرفة ، وكان يكره المبتدعة ، وأهل الاهواء ولا يسلم عليهم ، وكان لا يخشى فى الله لومة لائم ، ولا يتردد عن مواجهة كل موقف بما يمليه عليه علمه ومسؤوليته وتقواه ، والامثلة على ذلك كثيرة مشهورة ، كما أن مؤسساتنا التعليمية اليوم بحاجة الى نفحة من هدي مالك وجديته ، فقد كان - رحمه الله - يرى ان العلم نور ، وأنه لا ينبغي لطالب العلم تلقي العلم عن من فى عقله او قلبه ظلمة ، كما كان - رضى الله عنه - يعتبر العلم ديناً ، ولا يليق بالطالب ان يسلم نفسه لمن يلعب بدينه

ويضله عن عقله ، ويقول : « أن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » .

— ثالثا : على المهتمين بوحدة المسلمين ، وبتضامن مسلمي افريقيا، ان يسعوا لنشر تعاليم مالك - رحمه الله - فان المذهب المالكي من أقوى عوامل التقارب والاتحاد بين مسلمي هذه البلاد ، لما فيه من وحدة مصادر التفكير ، وقواعد السلوك ، ولما في أصول المذهب وقواعده من صحة وضمانات وسلفية ، وأما الاصوات التي تسمع أحيانا تدعو الى الانفلات من قيود المذاهب السنية ، فانها غالبا ما تعبر عن رقة الدين ، أو عجز عن عزائم الأمور وجدية الالتزام .

وختاما أكرر شكري للمغرب الشقيق ، ولملكه المفدى ، مولانا الحسن الثاني ، ولوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، وفقنا الله لما فيه الخير للاسلام والمسلمين ، وجعل القرن الخامس عشر الذي اظلنا ، قرن العودة الصادقة الى رحاب الكتاب والسنة ، والعمل الناجح لخير الدنيا والاخرة ، والسلام والوئام في العالم عموما ، وفي بلاد المسلمين خصوصا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

جزى الله عنا في موطاه مالك -
بأفضل ما يجزى اللبيب المهذب

لقد احسن التحصيل في كل ما بوي
كذا فعل من يخشى الاله ويرهب

لقد فاق اهل العلم حيا وميتا
فاضحت به الامثال في الناس تضرب

وما فاقهم الا بتقوى وخشية
واذ كان يرضى في الاله ويفض

— سعدون الوجيهي —

كلمة الاستاذ عبد الرحمن نوح من النيجر

- السيد مستشار جلالة الملك المعظم
- السيد وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية
- السادة الحاضرون

- ايها السادة الوزراء والسادة المجتمعون .
بهذه المناسبة السعيدة ، يسعدني غاية السعادة ،
باسم بلادي النيجر ، وباسم الوفد المرافق ، ان
اوجه عميق الشكر الى وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، التي
تفضلت ووجهت الينا الدعوة ، لحضور هذه الندوة الثقافية ، المنعقدة
بمدينة فاس التاريخية ، كما اود ان اوجه الشكر الى الشعب المغربي
الشقيق ، وعلى رأسه جلالة الملك المفدى ، الحسن الثاني حفظه الله
ونصره .

ايها السادة الاعزاء ، بعد كلمة الشكر والتقدير ، اسمحوا لي ان
القي ضوءاً قصيراً عن هذا التجمع الاخوي . ان اجتماعنا في هذه القاعة
الطاهرة ، ان دل على شيء ، انما يدل على ان امتنا الاسلامية ، امة واحدة

قلبا وقالبا ، مهما بعدت المسافات ، ومهما اختلفت اللسنة والالوان والاجناس ، وذلك تطبيقا لمبادئه السامية ، التي لا تفرق بين هذا وذاك ، الا بالعمل القيم ، وفي هذا الاطار ، وردت آيات كثيرة ، تؤكد وتثبت هذه الحقيقة ، حيث يقول اصدق القائلين : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ، ويقول عليه الصلاة والسلام : (كلكم للآدم وآدم من تراب ، لا فرق بين عربي وعجمي الا بالتقوى) .

ايها الاعزاء ان هذه الجلسة التاريخية ، لخير دليل على التضامن الاسلامي الذي نحتاج اليه دائما ونسعى الى تحقيقه ، وخاصة في الظروف الراهنة ، التي تمر بها اقطارنا الاسلامية ، من محاولات عديدة ، للقضاء على الاسلام والمسلمين ، وفي هذه المحاولات المنكرة ، والظروف القاسية ، وفي هذا الخطر المحدق فان امتنا في حاجة ملحة الى توثيق الروابط ، وتقوية الاواصر ، والتعاون بين اقطارها الاسلامية وشعوبها ، حتى تستطيع الوقوف والصمود ، والدفاع عن حقها المشروع ، الذي يريد اعداء الاسلام سلبه وغصبه ، ولا يفيب عن احد ما حدث ويحدث في اقطارنا الاسلامية ، من انتهاك حرماننا ، وتدنيس مقدساتنا الاسلامية ، من قبل الكفرة الفجرة ، اعداء الاسلام ، الذين سلبوا واغتصبوا حقوق شعب فلسطين المسلم ، صاحب الحق الشرعي ، وحق عودته الى ارضه ، وما يحدث في الفيلبين وافغانستان ، من الاعتداء على الاسلام والمسلمين ، وحرمان هذه الشعوب من حقوقها المشروعة ، وطردها من ديارهم واسرهم ، حتى اصبحوا لاجئين ، هذه الاعمال البربرية كلها ، لا لشيء ، الا لانهم مسلمون ، ولهذا ارى ان الوقت الذي ينبغي لامتنا الاسلامية ، ان تقف موقفا ايجابيا ، في قضاياها ، اي قضايا الاسلام والمسلمين ، قد حان - والحمد لله - ان الامة الاسلامية قادرة ، بما لها ، من قوتين اساسيتين ، مادية ومعنوية ، وبأن ايماننا الذي نسلح به لخير سلاح ، نستطيع به ان نحقق ما نسعى اليه ، وواجب علينا ان نعمل بالتمسك بالكتاب والسنة ، كما اوصانا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلينا ان نتجه نحو اخواننا المجاهدين ، في فلسطين ، وبلاد الاسلام المحتلة ، الذين نزلت بهم المصائب ، وضاعت في وجههم سبل الحياة ، فننفس عنهم كربتهم ، ونفرج عنهم الهم الذي هم فيه ، ونخفف عنهم اعباء الحياة ،

لان الله تعالى وعد الذين يفرجون عن اخوانهم كربة فى الدنيا أن يفرج عنهم ما يكون فى الآخرة من ضيق وأهوال ، وكذلك وعد الذين يسهلون على مسلم قضاء حاجته أن يسهل لهم فى الدنيا والآخرة ، فيبسط لهم فى رزقهم فى الدنيا ، ويسهل لهم فى الآخرة ، بسبب هذا كله يجب علينا أن نساعد اخواننا فى فلسطين ، واخواننا فى الفلبين وأفغانستان ، ونساندهم بكل الامكانيات التي تقدر عليها ، من المال والروح ، من أجل تحرير بلادهم الاسلامية .

ايها السادة ، اتوقف هنا وادعو الله تعالى ان ينصر الاسلام والمسلمين على اعدائهم المتربصين بهم ، ويسدد خطاهم ، ويجعل راية الاسلام عالية رافعة ترفرف . والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

ووصفه بعالم المدينة
فيه من الفوائد الثمينة

ان حديث يوشك الذي اشتهر
وكان فى امتداحه حقاً ظهـر

ليس من المذاهب المتبعة
منازع فيه له فاتبعه

اذ مالك عالمها والمنصرف
لها فى الاطلاق سماه فاعترف

ولم يقع ضرب لاكباد الأبل
لغيره كمثل ما له فعمل

- الشيخ محمد حبيب الله الشنجيطي -

كلمة الاستاذ ابراهيم الحسيني من نيجيريا

الحمد لله نحمده ونشكره ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ،
والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الانبياء والمرسلين ،
وامام الاولين والآخرين ، وعلى آله وصحبه .

وبعد :

سيدي الرئيس ، السادة أعضاء مجلس الرئاسة ، سادتي العلماء
أعضاء هذه الندوة الموقرة ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

يسعدني أن أتقدم اليكم باقتراح ، لا نرى له بديلا ، في سبيل
العودة بالامة الاسلامية الى اصالتها ، في تمسكها بقيمتها التاريخية
وسلفيتها القائمة على سماحة الاسلام ، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ،
كما قال تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .
ممثلة في منهج مالك ومذهبه ، الذي هو منهج الدعوة ، الموروث عن النبي
وأصحابه ، المنهج القائم على الكتاب والسنة ، وأنا نعتقد صادقين ،
أن ليس هناك اليوم مكان اليق بأن يتقدم اليه بمثل هذا الاقتراح ، من هذا
المكان من فاس ، في المغرب الذي ضرب أبوع الامثال عبر تاريخه
الطويل ، المليء بالانجازات الضخمة ، في حماية الاسلام وصيannته وحراسة
عقيدته من التحريف والانحراف .

وليس ادل على هذا من مواقف جلاله الحسن الثاني نصره الله الحازمة والبناءة ازاء كبريات القضايا المصرية للامة العربية والاسلامية، فمواقفه فى ابراز فكرة المؤتمر الاسلامي الى الوجود ، وعمله المستمر كرئيس للجنة القدس فى ارجاع حقوق اخواننا الفلسطينيين المشروعة الى غير ذلك مما لا يحتاج الى ذكر ، مواقف لن ينساها له الاسلام والامة الاسلامية ، واخيرا الامر بالدعوة الى عقد هذه الندوة العظيمة ، وهو عمل فريد من نوعه ، كل هذه الاشياء ، اوجدت فى نفوسنا قناعة تامة بأن انسب مكان نقدم فيه هذا الاقتراح هو هذا المكان ، المغرب العربي المسلم العظيم ، وفى مدينة فاس العاصمة العلمية العريقة .

سيدي الرئيس انني من نيجيريا ، البلد الافريقي الذي يعيش به ستون مليوناً من المسلمين ، يدينون لله تعالى ، على مذهب الامام مالك ، فى عباداتهم ومعاملاتهم ، ومعى الاخ الاستاذ مالك سى من السينغال المسلمة ، وبالنسبة كذلك عن باقى اخواننا الافارقة ، نطالب هذا الجمع العظيم ، أن لا يبارح هذا المكان ، حتى ينشئ هيئة علمية ثقافية تحت اسم رابطة علماء المذهب المالكي ، على أن يتولى علماء هذه الرابطة وضع منهج متكامل ، يشمل الى جانب الفقه المالكي، جانب العقيدة والسلوك، عن طريق وضع أساس ثابت ، لمفهوم التربية الاسلامية ، كما تضمنتها آيات من الذكر الحكيم وأحاديث واردة عن المعلم الاعظم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فاذا كنا توجهنا بهذا الطلب الى المغرب ، فى ظل قيادة مولانا صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ، فان ذلك ليس بعجيب ، اذ المغرب هو المنطلق الاساسي للمذهب المالكي ، بعد المدينة المنورة، ومصر ، والعراق ومنه انتشر حتى وصل الينا فى جميع انحاء افريقيا ، وافريقيا لا تعرف غير مذهب مالك عبر تاريخها الطويل ، تاخذ به كحل انمائي فى كل جانب من جوانب حياتها .

سأدتي ، هذا هو الاقتراح ، وأتمنى من الله تعالى لنا جميعاً التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة الدكتور محمد علوي المالكي ، من المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه

اما بعد ، فلقد استمتعنا فى هذه الايام ، بالبحوث والدراسات التي
قدمت لهذه الندوة العلمية الموقرة ، والتي نقلتنا الى رحاب امام
المسلمين ، الامام مالك ، احد الائمة الذين حفظ الله بهم السنة
المصطفوية . كيف لا وقد دعا لهم المصطفى عليه الصلاة والسلام
بالنصرة ، وبشرهم بالجنة ، وأخبرهم بأنهم الفرقة الناجية ، المتمسكة
بالحق الذي عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عند افتراق الامة ،
وأخبر بأنهم الطائفة الباقية ، الظاهرة على الحق ، التي تقاتل عليه ،
المنصورة التي لا يضرها من خالفها ، ولا من خذلها ، حتى تقوم الساعة ،
فمالك احد الذين زكاهم النبي صلى الله عليه وسلم ، ووصفهم بأنهم حملة
الحديث العدول ، الذين ينفون عنه تحريف الغالين ، وانحلال المبطلين ،
وتأويل الجاهلين ، أحد الخلفاء الذين دعا لهم المصطفى بالرحمة ، وأخبر
أنهم يأتون من بعده ، يروون حديثه وسنته ، ويعلمونها للناس ، فهم أولى
الناس به يوم القيامة ، أحد أمناء الله على دينه ، وحفاظ سنة نبيه
صلى الله عليه وسلم ، وحماة الدين الذين يذبون عن السنن ، ويميزون
الآثار ، ويعرفون الصحيح من السقيم ، أحد الورثة الامرین بالمعروف ،
الناهين عن المنكر ، مالك الذي لا يحبه الا صاحب سنة وهدى ، ولا

يبغضه الا صاحب بدعة وهوى ، ومن هنا كانت السعادة والتوفيق ،
والهدي والرشاد ، فى الاشتغال بأخبار هؤلاء ، ومعاناة البحث والتأليف ،
فى دراسة احوالهم ، وأفكارهم وآرائهم ، وهذا داخل بلا شك ، فى خدمة
السنة النبوية ، التي يعتبر المشتغل بها من الملهمين ، الذين أدركتهم
لواظف العناية ، وامتطوا مراكب الهداية ، واتحفهم الله بالخير الوفير ،
الذي لا ينقطع مدده ، ولا يحصر عدده ، مدى الدهر ، وحظه من الايمان
واليقين أكبر الحظ ، وعناية الله لا تفارقه . وكانت هذه البحوث تصور
فى الحقيقة أصالة مالك وأحواله ، فى علمه وعمله ، وخلقه وبطونيته ،
باعترازه بمدينة بلده ، فى عرفها وعاداتها وعملها ، ومحافظة على الآثار ،
وعنايته فى فقهه ونظره ، مما يدل على بعده وكمال ذوقه الرفيع ، وفهمه
الرائق ، ونظره الدقيق ، وملاحظته السامية . ولقد وفق الله تعالى
وزارة الاوقاف فى المملكة المغربية ، الى عقد هذه الندوة والدعوة إليها ،
بتوجيهات من جلالة الملك الحسن الثاني ، خادم العلم الشريف ،
والساعي فى نشر التراث الاسلامي والفكري ، وفقه الله تعالى ، فكانت
خطوة مباركة ، وبادرة موفقة ، ولان كانت المهرجانات والندوات السنوية ،
تقام لامثال المتنبى وأبي العلاء المعري وغيرهما - مع الاعتراف بفضلهم -
فان الامام مالك أولى واجدر ، وأعظم واكرم .

وفى الختام ، أتقدم بالشكر الجزيل الى وزارة الاوقاف والشؤون
الاسلامية وعلى رأسها الوزير المحبوب ، الدكتور أحمد رمزي ، الذي
أخذ بيد هذه الندوة بتوفيق الله الى النجاح والفلاح ، وكان لحسن
خلقه ، ورعاية صدره ، وتواضعه الجم ، وعنايته الخاصة ، ورعايته
الشخصية لنا جميعا ، الاثر الأكبر فى نجاح هذه الندوة . ونحب منه ان
يبلغ عنا مولانا الحسن الثاني . خالص الدعاء له بالتوفيق والسداد
والحفظ ، وان يؤيده الله بالبطانة الصالحة ، كما نشكر اخواننا أهل
المغرب وخصوصا أهل فاس على حسن ضيافتهم وكرم وفادتهم ، فقد
غمرونا باحسانهم ولسان حالهم يقول : « لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف
وانت رب المنزل » جزاهم الله تعالى خيرا ، ونسأله تعالى ان يوفقنا
وأياكم لصالح الاعمال ، وان يجمعنا وأياكم فى رحاب هذه الندوات
المباركة الصالحة لخير الاسلام والمسلمين ، والسلام عليكم ورحمة الله
وبركاته .

كلمة الاستاذ ابراهيم محمود جوب من السينيفال

بسم الله الرحمن الرحيم

واصلي واسلم على سيدنا محمد سيد الاولين والآخرين ، نبي الهدى والرحمة ، الذي دعا الى الله وهدى ، فكان من آثار دعوته ، ان انطلقت هذه الطاقة الجبارة التي سميت مالكا ، فأضاءت الارض بنور ربها ، ووصلتنا بالسما عن طريق ما نشر (أي مالك) من هدي الله كتابا وسنة واقتباسا ، مضى بالناس الى الخير عبر قرون .

ايها الاخوة في الله ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، لقد كدت أتهيب الموقف اذ فاجاني بعض اخوتي آنفا ، بأنهم يشرفونني بأن اتحدث نيابة عنهم جميعا ، ولا غرو ، فالمسلمون يد واحدة ويقوم بدمتهم ادناهم ، ولكنني عدلت عن التهيب ، لان المعاني التي تليق بهذا المقام ، يحسن التعبير عنها كل اعجم طمطمى ، لانها تفرض نفسها ، ولانها تمثل لوحة رائعة لو تصدى للتعبير عنها أى كان لا بدع واجاد ، ولهذا قبلت التكليف ، واعتبرته تشريفا ، فبادىء ذي بدء ، أحمد الله الذي أنزل الكتاب ، وتعهده بحفظه وقرآنه وبيانه ، فكان ما كان من انتشاره وانتصاره في العالمين ، صخرة حقيقية ، تحطمت عليها كل المحاولات التي ارادت خنق صوت الرسالة ، وكتم انفاسها ، منذ انطلقت الكلمة الاولى « اقرأ » منذ انبرى الصحابة للتلقي والتبليغ ، منذ بدأت المحاولات اليائسة : « وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والفوا فيه لعلكم تغلبون » الى المعارك الدامية الفاصلة ، ولكن الحق انبلج ، فاذا الدنيا بأسرها ترى الاسلام وكأن معارضيهِ والمقاتلين ضده ، قوم اجتمعوا عبثا لدفن الظل ، كما نقول في افريقيا ، فتصوروا ايها الاخوة الاكارم ، عبث

من يحاول دفن الظل ، فان الكومة سترتفع ، وان الجهد سيضيع ، حتى اذا غربت الشمس ، رأى المسكين نفسه وقد احاط به الظل من كل جانب ، هذا الدين اذن ، يوحى بالحمد لنا ، فالحمد لله الذي انزل الكتاب ، وحفظه وهدانا اليه ، وبلغنا فتمسكنا به ، ثم اننا نصلي على على رسول الله ، على النبي الذي لولا عناية الله ، لما عرفنا كيف نبجله ، ففي الوقت الذي ندعو الى الاسلام ، والى السنة ، والى حمل الدعوة الاسلامية ، يجب ان نلتفت مع كل خلجة قلب ، الى عظمة هذا النبي ، الذي من شأنه ما تعرفون ، صلى الله عليه وسلم وبسارك ، ووصلنا بحبله وصلالا انقطاع بعده الى يوم القيامة ، حتى نرد الحوض معه ، وقد رضي الله عنا ورضينا عنه .

ثم انني ايها الاخوة فى الله ، بالاصالة عن نفسي ، ونيابة اولية عن اخوتي الافارقة الاكارم ، العلماء الحاضرين هنا ، اتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان قولة حق تابعة من الفؤاد ، ليس من قبيل ما يتواضع عليه الناس من مجالات ، ولكن كما يقال : « ليست النائحة كالثلثى » احسننا بالفضل ، وادركنا القيمة ، وعرفنا مقدارها ، فنقول لجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله : شكرا من الاعماق ، شكرا لكم يا صاحب الجلالة يوم عرفتم مقدار ميراثكم ، دينا قيما ، رسالة مقدسة ، عرشا بني على الهدى ، نسباً طاهراً زكاه القرآن ، شعباً ايها مناظلاً منذ عرف دعوة مالك ، وهي دعوة القرآن والسنة ، استمسك بها ، وعكف على دراستها ، والحفاظ عليها ، والدفاع عنها ، والتفاخر بها ، والاعتزاز بها ، حتى كان من شأن الشعب ، ومن شأن التراث ما تعرفون ، فشكراً لكم يوم اقمتم شعائر الدين ، ويوم بنيتم الجامعات والمعاهد ، ويوم اقمتم الدار الحسينية وهي دار الحديث ، ويوم دعوتكم اخيراً الى ندوة الامام امام الائمة مالك بن انس رضي الله عنه ، الذي سوف يظل نجم سعدنا طالما ما دمنا معتمدين بحبل هديه ، مستمسكين بترائه ، متواطئين على احترام موطاه ، مدونين - لا بالاقلام ولكن بالارواح - مدونته وما احتوت عليه ، حريصين على ان نفاخر الدنيا بأسرها ، بأن مالكا امامنا ، ومدح مالك - ايها الاخوة - مدح لامام الانبياء وامير الانبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

فشكرا لكم يا صاحب الجلالة يوم اتحفتمونا فى مستهل عملنا بتلكم الرسالة الخالدة المليئة بالعبر والدروس والتجارب ، ولا غرو فان توجيهات اى ملك محترمة ، ولكن ما بالك اذا كان الملك الموجه ، ملكا مسلما ، عالما مثقفا ، قانونيا وطنيا ، افريقيا عالميا ، فعكفنا عليها ، واستخلصنا منها ، وأعجبنا قراركم الذي سوف يجعل من هذه الباكورة ثمرات يجنيها من حضروا ، ومن هم آتون باذن الله ، باستمرار الندوة مفتوحة ، ثم بتحويلها باذن الله الى مؤسسة قائمة ، سوف تستقطب اقطاب الفكر وعلماء الائمة الحريصين على الدعوة الاسلامية ، حتى اذا تهيأت الفرص كلها ، عدنا الى سيرة سلفنا الاولى ، خدمة للكتاب ، واستمساكا بالسنة ، وخدمة للتراث ، وصفاء فى العقيدة ، وسلفية لا غلو فيها ولا شطط ، حينئذ - لا شك يا امير المؤمنين - ستنشد الدنيا كلها بيتا وتخصه بمعنى جديد : « فعاجوا واننوا بالذي انت امله ، ولو سكتوا اثنت عليك الحقايب » واذا كانت همة شاعرنا القديم ، منحصرة فى دنائير فى حقبة ، فان همنا معشر الدعاة الى الله ، ان نرى هذا الدين وقد رفرف علمه ، وانتصرت دعوته ، واندحر اعداؤه ، وخاف المتريصون ، وفرح المؤمنون بنصر الله ، وعاد للكتاب مجده ، فلم يعد كتابا مرصعا مذهبا ، ولكن هدى يتبع ، ونبراسا يضيء الطريق ، ودستورا يطبق فى حياة الامة .

والكلام هنا طويل الذيل ، والمعاني تتوارد ، ولكنني لن ارسل نفسي هكذا ، كما يحلو لي ، وانما اقفى على ما قلت ، بشكر جهة تستحق الشكر والاشادة ، انها وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، فقد عهد اليها بالعمل فعملت ، وبالدعوة فدعت ، وبالاستقبال فاستقبلت ، وبالتنظيم فنظمت ، وبالرعاية فرعت ، وبالمشاركة فشاركت ، فكانت النتيجة ما رأيتم وراينا جميعا ، من اسبوع ملئ عشنا خلاله مع امام من ائمة المسلمين ، بما عرضتم ايها الاخوة فى الله ، من بحوث مركزة ، اصيلة ، علمية ، سوف تبقى باذن الله كما توقع صاحب الجلالة فى كلمته التي اومأت اليها آنفا ، سوف تبقى مجلدات تضاف الى ما لمالك من

أمجاد ، وكان يعتبر هذا نوعا من بركة مالك تفاض علينا ، أى نعم ، بركة مالك ، ولكن هذه البركة حتى بمعيار مادي ، يمكن أن تختبر بالمجهر ، لانها بركة تبنى على الحب والطاعة والعمل ، (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ، وهذه الرؤية ، قبول وبركة وتزكية ، وهذا شيء ملموس .

أيها الاخوة فى الله ، لا بد لي من أن أشير الى قوله يقول قائلها : « أن القرن الحادي والعشرين سيكون متدينا أو لن يكون » أي ان البشرية ستعود الى الدين ، أو ان الكلمة ستحق ، وتدمر الحضارة .

أيها الاخوة فى الله ، مهمة المسلمين مديد الانتاخذ للحيارى ، ومالك امامنا روي انه فى قوله : « بلغني ان العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الانبياء » انه ميراث النبوة ، انها دعوة الحق ، انها مسؤولية العلماء ، ولكن قولوا لي ما ذا يستطيع العلماء لو أمسك الملوك والحكام فلم يشاركوا ، ولم يرفعوا ، ولم يردوا لهذا الدين جميله .

ومن هنا ياتي تقديرنا لموقف جلالة الملك ، وليس تزلفا ولا مديحا ، فنحن ربينا على عدم التزلف ، وهو فى غنى عن يتزلف له ، ولكن راينا ان الدعوة لا بد ان يشترك فى رعايتها وحملها الملوك والحكام ، وحينئذ يعود الحق وينتصر .

ومرة اخرى اشكركم وامتذر ان اطلت ، وقدروا مشاعر الافارقة وهم فى هذا النادي ، فانها مشاعر سامية رقيقة ، لانهم عاشوا تجارب لم يعيشها كثير من الناس ، وأقرب مثل يتصل بعبد الله الفقير هذا ، - وأستغفر الله من قلبي أنا - حكاية حكاها لي والذي رحمه الله قال : « يا بني ، أحمد الله ، فقد ولدت بعد أجل ضربه أحد المستعمرين الفرنسيين ، لو تحقق ما يريد ، لولدت فى جو كافر ، لانه أراد ان يمحو الاسلام من السنيغال ، وجئت بعد الفترة ، وها أنت حفظت كتاب الله » ،

هكذا عشنا حتى وصلنا ذات سنة فراينا ذات يوم مجلة صفيقة
ارادت ان توحى الى المسلمين فى بلدي بالايواء الى ظل ديانة أخرى ،
فانتفض شيخنا ، الشيخ ابراهيم نياس - رحمه الله - وذكر السنغال ،
والسنغال هنا رمز لكل افريقيا فقال :

فالسنيغال ياوى تحت ظل محمد
ويعبد ربا جل شانا موحددا
فمن ظن شيئا غير هذا
فظنه ، ضعيف ، عليل ، باطل ، لن يؤيدا
رويدكم اهل الكنيسة لن تـروا
مدى الدهر انا قد تركنا محمدا

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

... واملنا فى الله سبحانه وتعالى عظيم ، ويقيننا فى
ان كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بما
يحتويان عليه من اخلاق للمدنية واخلاق للدولة ، واخلاق
للجماعة البشرية ، واخلاق حتى للمواطنين فى مدينة واحدة
ان السنة المحمدية سنجد فيها الاطار الطبيعى لحياتنا ،
وتعايشنا كذلك مع العالم ، لان الاسلام هو دين الجميع
ودين عالمي ، لان الدعوة المحمدية ليست لصنف واحد من
البشر ، بل خلقها الله سبحانه وتعالى لتكون مطبوعة فى
الحياة لكل الشعوب وكل الاجناس دون اختلاف بين
الالوان والقارات ...

- جلاله الحسن الثاني -

نص الرسالة الجوابية التي بعثتها الندوة
الى صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه

الى

حضرة مولانا امير المؤمنين حامي حمى الملة والدين
صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ادام الله عزكم ونصركم

السلام على مقامكم العالي بالله ورحمة الله تعالى وبركاته .
وبعد :

فبمناسبة انعقاد ندوة الامام مالك بن انس رضي الله عنه ، بعاصمة
مملكتكم العلمية ، يتشرف علماء المغرب والإقطار الإسلامية ، المشاركون في
الندوة ، بان يرفعوا الى حضرتكم السامية ، كامل شكراتهم ، وموفور
امتنانهم ، على الرسالة الكريمة ، التي تفضلتم بتوجيهها اليهم ، يوم افتتاح
الندوة ، والتي انشروحت لها الصدور ، لما تضمنته من توجيهات سامية ،
كان لها الاثر الفعال في نجاح الندوة ، والتي كانت بمثابة نبراس اضاء
السبيل لاجنائها ، وخط لهم منهاج العمل في اجتماعاتهم التي استغرقت
اربعة ايام ، احياء لذكرى هذا الامام الجليل ، وتوثيقا للصلة بين المهتمين
بالفقه المالكي في الإقطار الشقيقة .

وان اعضاء الندوة ، ليعبرون لمقامكم العالي بالله ، عن سرورهم وكامل
انتهاجهم ، للقرار السامي الذي اتخذتموه بجعل هذه الندوة مفتوحة ، لكي
تستمر في اعمالها ، وتثري نشاطها بدراسات عن شخصية القاضي عياض ،
احد اعلام المذهب المالكي .

كما يرفع اعضاء الندوة الى علم جلالتم ، اقتراحهم لوضع اللبنة
الاولى لانشاء « ندوة علمية للفقهاء المالكي » تستقطب علماء المالكية وغيرهم
من فقهاء السنة ، وكذا اساتذة المعاهد العليا ، والجامعات الاسلامية ،
المعتمنون بالبحوث الفقهية ، ودراسة الفقه المالكي خاصة .

وان هذه الحركة الفكرية ، لمنسجمة تمام الانسجام ، مع الخطوات
المباركة التي اتخذتها جلالتم باحداث المجلس العلمي الاعلى ، واكاديمية
الملكية المغربية .

فلانكم يا امير المؤمنين صاحب المكرامات الطيبة ، والمبادرات النيرة
الموفقة .

وانتم يا صاحب الجلالة ، باحياتكم المجد الاسلامي التليد، لتعبرون عن
اربعيتكم الفياضة ، بتطلعاتكم الكريمة لجمع الكلمة ، وتوحيد الصف ، درءا
للكشوك والشبهات ، في هذا الظرف الذي يتطلع فيه المسلمون الى بزوغ
قرن جديد ، ستكونون فيه بحول الله من المجددين لامر هذا الدين .

فجميع اعمالكم موقوفة على خدمة الصالح العام، وخدمة العلم ونصرة
العروبة والاسلام ، واعلاء كلمة الله ، والحفاظ على مقومات الامة الروحية
والاخلاقية والحضارية .

وان كافة اعضاء ندوة الامام مالك ليعتبرون انفسهم جنودا مجندين
وراءكم للنوذ عن وحدة الامة في العقيدة والمذهب ، ووحدتها الترابية ،
المقدسة . كما يسجلون باعتزاز وافتخار مواقفكم الخالدة لاحقاق حق
فلسطين ، وتحرير القدس الشريف ، والمسجد الاقصى ، اولى القبلتين
وثالث الحرمين .

زادكم الله يا مولاي عزاً ورفعة ونصراً وتوفيقاً ، وسدد خطاكم ،
وخلد في الصالحات ذكركم ، وأراكم في شعبكم ما يسر ، وحفظكم في سمو
ولي عهدكم ، الامير المحبوب سيدي محمد ، وصنوه المولى الرشيد ،
وسائر أفراد الاسرة الملكية الكريمة . انه سميع مجيب .

والسلام على مقامكم العالي بالله .

وحرر بفاس في 12 جمادى الثانية 1400 هـ
موافق : 28 أبريل 1980 م

(ندوة الامام مالك بن انس)

وكن في ذي المذاهب مالِكيا
مدينيا وسنيا متينيا
مدينة خير من ركب المطايا
ومهبط وحي رب العالمين
نظرنا في المذاهب ما رأينا
كمذهب مالك للناظريننا

- محمد بن عمار الكلامي البورمي -

البحوث

الاستاذ الرحالي الفاروق

عميد كلية اللغة بمراكش ، ورئيس المجلس العلمي
متخصص في الفقه والشريعة .

(الملكة المغربية)

**الامام مالك ونظريته في تأصيل عمل أهل المدينة
وترجيحه على الحديث الذي لا يصحبه عمل**

للعلامة الاستاذ الرحالي الفاروقي

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على
الانبياء والمرسلين وعلى آل والأصحاب كلهم أجمعين

حضرات السادة العلماء الافاضل حياكم الله وبياكم وسلام عاطر يلقاكم
ورحمة الله تغشاكم ،

وبعد فقد كان قام فيما مضى تفكير في احياء ذكرى من الذكريات الفقهية
والمناسبات القومية باسم شخصية اسلامية وعالمية لها ميزانها الخاص في
باب الفكر والمعرفة ومقامها المعروف بين الائمة المجتهدين والعلماء الراسخين
ولها مذهب سمي وسوي عرف في أنحاء الدنيا بالتمكن من مادة الفقه والحديث
وبالاصابة في القول والعمل الا أنه كتب له أن يستقر ويزدهر في المغرب العربي
وعلى الاخص المغرب الاقصى الذي دخل اليه مذهب الامام مالك بن انس رحمه
الله في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة على يد أبي ميمونة دراس ابن اسماعيل
المعروف بالمحدث .

وما هو المغرب الجديد يشهد الآن في عهد ملك قوام همام رفع الرايات
والبنود وأقام السجود والحدود يشهد اقامة مهرجان يتناول فيه علماؤنا الاجلاء
أماما من أئمة الدين الخفيف ومجتهدا من مجتهدي الفقه الشريف وعظيما من
عظماء الاسلام ومفكرا من المفكرين الاعلام لما يتمتع به هذا الامام من صفة
شرعية وصبغة دينية ، ولما يذكرنا به مما نملك من ثروة فقهية وقيمة قانونية
تتصل بحياة الناس وتفصل بينهم في الحياة الدنيا ، ويعتبر هذا المهرجان
الكبير من السمو في منابر التعبير ومناطق التفكير وهو ما يجعله يسير مسيرة
عصره ويبحث مع ذلك حياة أهله ، وينعش أماكن قوتها ونفوذها ومواضع

عزها ومجدها فأشكر لهؤلاء الاعيان عنايتهم بهذا المهرجان واستجابتهم للدعوة فى هذا المكان الذي تعتبر دعوته دعوة استيناس واحتفاء ، ودعوة ارتباط وانتماء ، وأسأل الله لنا ولكم ولمن جاء قبلكم أو جاء بعدكم قوة الايمان وصحة الارادة واخلاص العمل في دائرة التعاون على البر والتقوى حتى يتأتى لنا أن نجمع بين روابط الماضي وروابط الحاضر ، من دون أن يلتبس علينا الحق بالباطل ، ومن غير أن يشتبه علينا مفهوم الخير بمفهوم الشر ، وحتى لا يكون بيننا وبين الاسلام قطيعة ولا مسافة بعيدة ، فان الاسلام الصحيح المأخوذ من الكتاب والسنة هو أساس تاريخنا وحضارتنا وقاعدة عزتنا ومكانتنا ، ومن كان يريد العزة فله العزة جميعا ، ومن كان يريد القوة فله القوة جميعا ، وانما يقوم البناء الصحيح على الايمان الصحيح ، وانما تكتسب العزة بالهداية والارشاد ، وبالأعداد والجهاد.

وما أكثر ما نرى من جليل الذكريات وعظيم الاحتفالات ولكن ما أحوجنا الى الذكريات العامرة بالقيم والمعاني المليئة بالاسرار والمثاني .

- والى الرجال الذين تصنع بهم الدنيا وتخضع لهم الاعناق ، بسيرهم على صراط الله ونفعهم لعباد الله ، وجهادهم في سبيل الله ، واجتماع مثل هذه الصفات وهذه السمات قليل في الناس كما قال سبحانه وتعالى : « وان كثيرا من الخطاء ليبيغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم » وكما قال : « وقليل من عبادي الشكور » .

وأخيرا نسأل الله العلي الاعلى أن تنير هذه الذكرى المالكية معالم الطريق وان يكون لها نجاح ملحوظ وأثر محفوظ حتى يقوم الناس لله مثني وفراحي ثم يتطهروا من الاهواء والافاعيل ويتناصروا اذا هجمت الاهوال والباطيل ، وشكروا للعلماء واكبارا للعلم الذي أرانا سعادة الدنيا وسعادة الاخرى كما أرانا عجائب الحياة في خلايا الكائنات ودعاء لصاحب الجلالة والمهابة بالنصر والتأييد ، ولولي عهده بالحفظ والتسيد .

شخصية الامام مالك رحمه الله من أهم الشخصيات التي لها وزنها وقيمتها في واقع التاريخ الاسلامي وهو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الاصبحي المدني أبو عبد الله المولود سنة 98هـ - والمتوفي سنة 179 في أصح الأقوال وأرجح الروايات، وهذه الشخصية الكريمة تكونت في ظل البيئة العربية والثقافة الاسلامية وفي ظروف الحياة الطيبة فلقد عاش رضي الله عنه في القرون المئني عليها بقول النبي صلى الله عليه وسلم : خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - فاتجه الرأي العام الاسلامي الى آرائه وأفكاره لما امتاز به من الفقه في الكتاب والسنة حتى ضربت اليه آباط الابل من كل بلد ورجع

الشيوخ اليه في المتن والسند ، كما كان شيخ ائمة المذاهب الذين شروق
وغرب فحاز بذلك ثقة الائمة وأصبح مثابة وقودة للامة بما حباه الله به من
صفات خلقية ومزايا علمية ، وصراحة دينية .

ومن أجل هذه الصراحة تعرض رحمه الله للضرب والاذية فلقد كانت الدولة
في عصره تأخذ الناس بالطلاق في البيعة فافتاهم رضي الله عنه بعدم لزوم
طلاق المكره رغم نهيه عن ذلك بل خرج الى الشارع وقال : من عرفني فقد
عرفني الى آخر المقالة المشهورة وهكذا كان العلماء لا يخافون في الله لومة لائم
بل يصدعون بالامر والحق كما قال سبحانه لنبيه : « فاصدع بما تؤمر » .

ومن عاداته في مذهبه رحمه الله أنه يتوسع في باب الحياة والعادة حتى أنه
يقول فيها بالمصالح المرسله ، ويتشدد في باب الطاعة والعبادة حتى أنه لا
يكاد يخرج عن حد الشريعة والدلائل الواردة .

ومن لطائف المغرب وخصائصه أن يكون متبوعه عالم المدينة وخادم السنة
وإمام الائمة كما أن من دلائل ترجيح مذهبه كما صرح بذلك الشيخ زروق رحمه
الله أن يكون أتباعه أهل المغرب الوارد فيهم قوله صلى الله عليه وسلم :
لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة أو كما قال .

ومن تأليف هذا الامام العظيم :

- (1) رسالته الى الليث بن سعد في أهل المدينة واجماعهم .
- (2) ورسالته الى هارون الرشيد في الآداب والمواعظ .
- (3) ورسالته في القدر والرد على القدرية .
- (4) وتفسيره لغريب القرآن الى غير ذلك .

الا أن أشهرها ذكرا وأعظمها نفعا هو كتابه الموطا الذي كان أول ما ظهر في
القرن الثاني بالمدينة الطيبة .

وأول من جمع بين شرفي الفقه والحديث فكان كتابا جامعا لآبواب الحياة
كلها - وكان مقامه في الحديث معروفا في الدنيا بأسرها ، ولذلك اعتنى به
المسلمون شرقا وغربا وخدموه أجل الخدمات وشرحوه في أعلى مستويات ،
واستفادوا منه ما يشتهون في حياتهم الادبية والمادية ولا سيما المغاربة الذين
أكبروه ونصروه ووضعوه فوق رؤوسهم - ومن ثم تم له الفضل وحق له أن
يتبوا مكان الصدارة فأحرى مكان المساواة .

وذلك أن البلاغات والمراسيل التي توجد فيه تساوي المعلقات في صحيح الإمام البخاري رحمه الله ، فكما أن المعلقات توجد موصولة في مواضع أخرى كذلك المراسيل والبلاغات وجدت متصلة في أماكن أخرى كما حقق ذلك أبو عمر ابن عبد البر النمري وغيره من الحفاظ والنقاد .

ومن بلاغاته في الاجتماع قوله : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من داع يدعو إلى هدى إلا كان له مثل أجر من أتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، وما من داع يدعو إلى ضلالة إلا كان عليه مثل أوزارهم لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا .

ومن أحاديثه في الاجتماع حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله انهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم إذا كثرت الخبث ، ومصدق هذا قوله تعالى « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » والفتنة تشمل الفوضى والاخلال التي تنشأ عن ركوب الأهواء والمحارم والفوضى في الارزاق التي تترتب على وجود الحيل والمظالم .

وقد دلت هذه النصوص الكريمة على أن طبيعة الاسلام لا تقبل الخبث والفساد وأن حياته تقوم على العدالة والطهارة ، وأن العبرة بالأكثريّة لا بالأقليّة ، وبطهارة الباطن وإن كان الظاهر في الغلب عنوان الباطن .

ومثل هذه الشخصية التي تطاولت إليها الاعناق ، ورحل إليها الناس من كل الافاق ، تناولها العلماء بالدراسة وأولوها مزيدا من العناية وحللوها بعمق في البيئة والاجتماع ، وفي السلوك والاخلاق وفي الفكر والاصلاح ، وفي العطاء والانتاج ، كيف وهو من أجل المجتهدين المشهورين بأفكارهم الرشيدة وأنظارهم السديدة ، والمعروفين بشدة أتباعهم وتعظيمهم للشريعة المعصومة في السر والخفاء ، وفي الجهر والضياء .

وكفاه فضلا وثناء قول السلف الصالح كسفیان بن عیینة رحمه الله في الحديث الذي تردد ذكره وتعدد لفظه ، يوشك أن يضرب الناس آباط الابل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة : انه مالك بن أنس .

والناس اكيس من أن يمدحوا رجلا ٠٠٠٠ حتى يروا عنده آثار احسان قال القاضي عبد الوهاب البغدادي : لا ينازعنا في هذا الحديث أحد من ارباب المذاهب إذ ليس منهم من له امام من أهل المدينة فيقول المراد به أمامنا ، ونحن ندعي أنه أمامنا بشهادة السلف له أنه إذا أطلق عالم المدينة أو امام دار الهجرة فالمراد به مالك بن نعيم وغيره من علماء المدينة .

وقال الامام الشعراني رحمه الله تعالى في الميزان : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم مرة وقال لي عليك بالاطلاع على أقوال أمام دار هجرتي والوقوف عندها فإنه شهد آثاره .

فامتثلت أمره صلى الله عليه وسلم وطالعت الموطأ والمدونة الكبرى ، ثم اختصرتها وميزت فيها المسائل التي تميز بها عن بقية الأئمة عملا بأشارته صلى الله عليه وسلم ، ورأيتني رضي الله عنه يقف عند حد الشريعة لا يكاد يتعداها وعلمت بذلك أن الوقوف على حد ما ورد أولى من الابتداع ولو استحسن فإن الشارع قد لا يرضى بتلك الزيادة في التحريم أو في الوجوب . اهـ .

والى ذلك نتناول قضية من أهم القضايا ، ونظرية من اسد النظريات عنده وهي اعتبار استمرار عمل أهل المدينة راجحا ومقدما على غيره من أخبار الاحاد التي لم يصحبها عمل - اذ كان ذلك اصلا من أصول مذهبه ، وقاعدة من قواعد - - بيد أن هذا الاصل قد تعرض لكثير من النقد والتعقب ، حتى بلغ أحيانا حد الطعن والتعصب ، فمنهم من غاب عن نظره القصد والسدد ، ومنهم من عاب وقال هذا أمر حدد ، وكل نزاع فانما ينشأ عن سوء الفهم أو عن سوء القصد ، وكيفما كان الحال فالخلاف طبيعة بشرية لا تقاوم ، ولكنها قد تحاكم .

وقبل أن نأخذ في عرض القضية وتوضيح مراميها ، وتقديم شواهدنا نذكر بشيء من صفات الامام مالك اذ الاخلاق هي أساس العلم والنجاح ، وباب الخير والفلاح .

لقد كان رحمه معروفنا بالامامة في الفقه وأحكامه ، وبجودة النظر في مأخذه ومداركه ، وبالحظوة في معرفة السنن والآثار ، وحفظ سيرة رواة الاخبار ، فكما اعتبر ذلك أهل عصره ، واعترف به أهل عصره وشاهد ذلك أولا - أنه أول من وطأ للناس الحديث ، وأول من ألف في تفسير غريب الحديث ، وأول من اشتهر بالجمع بين شرف الفقه وشرف الحديث - وأنه أعلى سفدا وأثبت نظرا وأصح بصرا ، وشاهد ذلك ثانيا ان أبا عبد الله البخاري وهو ادري بعلم الحديث وبأهل الحديث قد ملا جامعه الصحيح بالرواية عنه - وفي الوقت ذاته لم يرو عن الامام الشافعي والامام أبي حنيفة ولا حديثا واحدا - وليس هذا خطأ من قدرهما ولا نقصا من مرتبتهما حاشا وكلا وانما هو بيان للمواهب ، وتقدير للمناصب ، واما الامام أحمد وهو من هو في الحديث فروى عنه حديثين لا غير لانه أدرك شيوخه ، وأهل الحديث يرغبون دائما في علو السند ، ولا ينزلون عن ذلك الا لغرض .

وقد كان رحمه الله حاملا لصفات العلم ولاخلاق العلماء ، وسالكا سبيل التبيين والتثبت في المشكلات ، ومتحررا عن الكلام في المعوصات ، وذلك ما سلك به مسلك الاولين ، وجعله يسير على سنن الماضين ، يراه الناس أهلا للرئاسة والصدارة ، ويرى هو نفسه دون ذلك - تواضعا لربه وهضما لنفسه ، ومن شأن العظماء عدم الرضا عن أنفسهم ، وقلة النظر الى أعمالهم قال مالك رحمه الله ربما وردت على المسألة تمنعني من الطعام والشراب والنوم فقل له يا ابا عبد الله ، والله ما كلامك عند الناس الا نقر في حجر ما تقول شيئا الا تلقوه بالقبول ، قال فمن أحق ان يكون هكذا ، الا من كان هكذا ، قال الراوي فرأيت في النوم قائلا يقول : مالك معصوم - وقال اني لانكر في مسأله منذ بضع عشرة سنة فما اتفق لي فيها رأى الى الآن وكان اذا سئل عن المسألة قال للسائل انصرف حتى انظر فيها فينصرف ويردد فيها فقليل له في ذلك فبكى ، وقال اني أخاف أن يكون لي من المسائل يوم وأي يوم - وكان اذا سئل عن مسألة تغير لونه ، ونكس رأسه ، وحرك شفتيه ، قللا ما شاء الله لا قوة الا بالله - وكان يقول من أحب أن يجيب عن مسألة فليعرض نفسه قبل أن يجيب - على الجنة والنار ، وكيف يكون خلاصه في الآخرة - وقال ما شيء أشد علي من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام لان هذا هو القطع في حكم الله ، ولقد أدركت أهل العلم والفقهاء ببلدنا وان أحدهم اذا سئل عن مسألة كان الموت أشرف عليه ورأيت أهل زماننا هذا يشتهون الكلام والفتيا ، ولو وقفوا على ما يصيرون اليه غدا لقتلوا من هذا وان عمر بن الخطاب وعليهما وعامة خيار الصحابة كانت ترد عليهم المسائل وهم خير القرن الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يجمعون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويسألون ثم حينئذ يفتنون وأهل زماننا هذا قد صار فخرهم الفتيا فبقدر ذلك يفتح لهم من العلم - قال ولم يكن من أمر الناس ولا من مضي من سلفنا الذين يقتدى بهم ، ومعمل الاسلام عليهم ، ان يقولوا هذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولون انا اكره كذا وأرى كذا ، واما « حلال وحرام » فهذا افتراء على الله « قل أرايت ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون » لان الحلال ما حله الله ورسوله والحرام ما حرماه .

- وسال رجل مالكا عن مسألة وذكر انه ارسل فيها من مسيرة ستة اشهر من المغرب فقال له أخبر الذي ارسلك انه لا علم لي بها قال : ومن يعلمها ، قال : من علمه الله . وسأله رجل آخر فلم يجبه فقال يا ابا عبد الله أجبنني فقال ويحك تريد أن تجعلني حجة بينك وبين الله فاحتاج اذا أولا ان أنظر كيف خلاصي ثم اخلصك ، وقد سئل عن ثمان واربعين مسألة فقال في اثنين وثلاثين منها لا أدري ، لو كان يقول في أكثر ما يسأل عنه لا أدري ، ويقول اذا أخطأ العالم لا أدري اصيبت مقاتله ، قال عمر بن يزيد فقلت لمالك في ذلك فقال يرجع أهل الشام

الى شامهم ، وأهل العراق الى عراقهم ، وأهل مصر الى مصرهم ، قال فأخبرت الليث بذلك فبكى وقال - مالك والله أقوى من الليث - قال أبو مصعب قال لنا المغيرة تعالوا نجمع ما بقي علينا مما نريد أن نسال عنه مالكا فمكثنا نجمع ذلك وكتبنا ، ووجه به المغيرة اليه وساله الجواب فأجابه في البعض وكتب في الكثير منه لا أدري فقال المغيرة يا قوم لا والله ما رفع الله هذا الرجل الا بالتقوى ، من كان منكم يسال عن هذا فيرضى أن يقول لا أدري - وكان يقول لأصحابه كما رواه عنه صاحبه معن بن عيسى القزاز انما انا بشر اصيب واخطئ فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وكل ما لم يوافق ذلك فاتركوه .

هذه الجملة القينا بها لتبين أن العلم لا ينمو ولا يسمو الا في قلوب أهل الدين والورع ، ولتتبين بها من يكون من العلماء أولى بالاجتهاد والاتباع ، وليتخذ ذلك قانونا في سائر العلماء فان هذه الصفات موجودة في سائر هداة الاسلام غير أن بعضهم أشد اتصافا بها من بعض .

ثم أنه لا جدال ان كل امام من أئمة الاجتهاد له قواعد معينة ، وتصاميم محددة يركزون عليها أحكامهم الفقهية ، ودلائلهم النظرية - وإذا تأملت منازع الفقهاء ، ومناهجهم في الفقه ، واجتهادهم في الشرع ، وجدت مالكا رحمه الله ناهجا في هذه القواعد خير المناهج ، وسالكا فيها أفضل المسالك ، ومرتبيا لمراتبها ومداركها أحسن ترتيب ، مقدما كتاب الله على الآثار ، ثم هي على القياس والاعتبار ، تاركا منها ما لم يتحملة الثقات العارفون بما يحملونه - أو ما يحملونه ووجد الجمهور من أهل المدينة قد عملوا بغيره وساروا على خلافه - وهم مركز الاسلام وموطن الايمان ، وأعرف بالقديم والحديث ، وأولى بالتمسك والتنسك - ولان للمدينة المنورة مزايا وفصائل ماثورة ، ولاهها مواقف ومقامات مشهورة - وقد تكلم الامام البخاري رحمه الله آخر كتاب الحج من جامع الصحيح على فضلها ، وتكلم في آخر كتاب الاعتصام على فضل أهلها ، وترجيح علمهم على علم غيرها ، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : المدينة كالكير تنفي خبيثها كما ينفي الكير خبث الحديد ، والخطأ في الدين خبث ، وقوله أن الايمان ليأرز الى المدينة كما تأرز الحية الى جحرها ، الى غير ذلك من الاحاديث التي تتكلم عن المدينة وخصائصها ، ومن ذلك ما أسنده البخاري في المنبر والمد والصاع وغير ذلك مما يدل على تقديم أهل المدينة في العلم على غيرهم وترجيح ما ذهب اليه مالك رحمه الله .

وقال القاضي عياض في المدارك - باب فضل علم أهل المدينة وترجيحه على علم غيرهم ولقتداء السلف بهم - قال زيد بن ثابت اذا رايت أهل المدينة على شيء فاعلم أنه السنة ، قال ابن عمر لو ان الناس اذا وقعت فتنة ردوا

الامر الى أهل المدينة لصلح الامر ولكنه اذا نعت ناعق نبعه الناس - قال مالك كان ابن مسعود يسأل بالعراق عن شيء فيقول فيه ، ثم يقدم المدينة فيجد الامر على غير ما قال فاذا رجع لم يحط رحله ، ولم يدخل بيته ، حتى يرجع الى ذلك الرجل فيخبره بذلك ، قال وكان عمر بن عبد العزيز يكتب الى الامصار يعلمهم السنن والفقه ، ويكتب الى المدينة يسألهم عن مضي ويعلمون بما عندهم ، وكتب الى أبي بكر بن حزم أن يجمع له السنن ويكتبها اليه فتوفي وقد كتب له ابن حزم كتباً قبل أن يبعث بها اليه قال مالك والله ما استوحش سعيد بن المسيب ولا غيره من أهل المدينة لقول قائل من الناس ، وقال عبد الله بن عمر بن الخطاب - كتب الى عبد الله بن الزبير - وعبد الملك بن مروان كلاهما يدعوني الى المشورة فكتبت اليهما ان كنتما تريدان المشورة فعليكما بدار الهجرة والسنة - وقال رجل لابي بكر بن حزم في أمر والله ما أدري كيف أصنع في كذا فقال أبو بكر يا ابن أخي اذا وجدت أهل هذا البلد قد اجمعوا على شيء فلا يكن في قلبك شيء - وقال الامام الشافعي : أما أصول أهل المدينة فليس فيها حيلة من صحتها - قال الامام مالك ابن سيرين أشبه الناس بأهل المدينة في ناحية ما يأخذ به .

قال مسعود بن كدام قلت لحبيب بن ابي ثابت ايما أعلم بالسنة أو بالفقه أهل الحجاز أم أهل العراق قال أهل الحجاز - وقال الشافعي رحمه الله كل حديث ليس له أصل بالمدينة ففيه ضعف)

(رسالة الامام مالك الى الليث بن سعد في هذا)

من مالك بن أنس الى الليث بن سعد سلام عليكم فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو اما بعد عصمنا الله واياك بطاعته في السر والعلانية ، وعافانا واياك من كل مكروه اعلم رحمك الله أنه بلغني انك تفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وببلدنا الذي نحن فيه ، وانت في امانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك اليك ، واعتمادهم علًا ما جاءهم منك ، حقيق بأن تخاف على نفسك وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه - فان الله تعالى يقول « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار » الآية . وقال تعالى « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فانما الناس تبع لاهل المدينة اليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وأحل الحلال وحرم الحرام ، اذ رسول الله بين أظهرهم ، يحضرون الوحي والتنزيل ، ويأمرهم فيعطونه ، ويبين لهم فيتبعونه ، حتى توفاه الله واختار له ما عنده طوأت الله عليه ورحمته وبركاته ثم قام من بعده أتبع الناس له من امته ممن ولى الامر من بعده فما نزل بهم مما علموه انفذوه ، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك - في اجتهادهم وحداثة عهدهم وان خالفهم مخالف

أو قال امرؤ غيره أقوى منه وأولى ترك قوله وعمل بغيره ، ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل ويتبعون تلك السنن ، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به لم أر لأحد خلافه للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لأحد انتخالها ولا ادعاؤها .

ولو ذهب أهل الإصصار يقولون هذا العمل ببلدنا ، وهذا الذي مضى عليه من مضى منا لم يكونوا من ذلك على ثقة ، ولم يكن لهم من ذلك الذي جازلهم فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك فيه لنفسك وأعلم أنني أرجو أن لا يكون وعائي إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله تعالى وحده . والنظر لك ، والظن بك ، فانزل كتابي منك منزلة ، فانك إن فعلت تعلم أنني لم ألك نصحا وفقها . والله وإياك لطاعته وطاعة رسوله في كل أمر وعلى كل حال والسلام عليكم ورحمة وقد وافقه الليث رحمه الله في جوابه ، على ما أشار إليه في كتابه ، وإنما تركته اجتناباً للطول وتقديراً للوقت ثم قال في المدارك « باب ما جاء عن السلف والعلماء في وجوب الرجوع إلى عمل أهل المدينة ، وكونه حجة عندهم وإن خالف الأكثر »

روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر أخرج بالله على رجل روى حديثاً العمل بخلافه - قال ابن القاسم وابن وهب - رأيت العمل عند مالك أقوى من الحديث - قال مالك وقد كان رجال من أهل العلم من التابعين يحدثون بالأحاديث وتبلغهم عن غيرهم فيقولون ما نجهل هذا ولكن مضى العمل على غيره .

قال مالك رأيت محمد بن أبي بكر بن حزم وكان قاضياً وكان أخوه عبد الله كثير الحديث رجل صدق فسمعت عبد الله إذا قضى محمد بالقضية قد جاء فيها الحديث مخالفاً للقضاء يعاتبه ويقول له ألم يأت في هذا حديث كذا فيقول بلى فيقول أخوه فما بالك لا تقضي به فيقول فأين الناس عنه - يعني ما أجمع عليه من العلماء بالمدينة - يريد أن العمل بها أقوى من الحديث - قال ابن المعذل سمعت أنسبنا سأل ابن الماجشون - لم يروى الحديث ثم تركتموه قال ليعلم أننا على علم تركناه - قال ابن مهدي ، السنة المتقدمة من سنة أهل المدينة خير من الحديث - وقال ربيعة ألف عن ألف أحب إلي من واحد عن واحد - قال ابن أبي حازم كان أبو الدرداء رضي الله عنه يسأل فيجيب فيقال أنه بلغنا كذا وكذا بخلاف ما قال فيقول وأنا قد سمعته ولكني أدركت العمل على غير ذلك - قال ابن أبي الزناد كان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء ويسألهم عن السنن والأقضية التي يعمل بها فيثبتها ، وما كان منه لا يعمل به الناس الفاه وإن كان مخرجه من ثقة ، وقال مالك رحمه الله أنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة كذا في نحو كذا وكذا ألفاً من الصحابة مات منهم بالمدينة نحو عشرة آلاف وباقيهم تفرق بالبلدان فأيها أخرى أن

يتبع ويؤخذ بقولهم - من مات عندهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين فُكرت - أو مات عندهم واحد أو اثنان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، قال عبيد الله بن عبد الكريم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألف عين تطرف انتهى . ولقد أشبع القاضي رحمه الله الكلام في هذه المسألة وأطال في توجيهها والدفاع عن وجوها ، وهي مسألة وإن تغناها الإمام مالك رحمه الله وأقام مذهبه عليها ، فهي قضية السلف الصالح من الصحابة والتابعين كما سمعت ورأيت وكان الاختلاف في فهم هذه القضية نشأ عن الاختلاف في القصد ومن المفهوم أن القصد هو الإجماع أو شبه الإجماع الذي لا مجال فيه للرأي - وهو العمل المستند إلى الدليل الشرعي لا مجرد العمل كما صرح بذلك علماء الأصول وقالوا يرجح الخبر على معارضه بعمل أكثر السلف - ويعمل أهل المدينة وقد قال الإمام مالك رحمه الله أحب الأحاديث التي ما اجتمع عليه الناس - ومن ثم كان رحمه الله في الموطأ يأتي بالآثار عن الصحابة والتابعين مبينا بها السنن وما يعمل به منها وما لا يعمل به ، وما يقيد به المطلق وما يخصص به العام ، وكثيرا ما تراه يقول في الموطأ - الأمر المجتمع عليه عندنا - أو السنة التي لا اختلاف فيها عندنا - أو من السنة كذا ومراده رضي الله عنه بذلك عمل أهل المدينة وليس اتباع عمل المدينة لعصمة أهلها ، وإنما ذلك لكونهم أعرف بالوحي وبالمراد منه ، وأعرف بالقديم منه والجديد - لأن المدينة مهبط الوحي وهم حاضرون فيها وغيرهم غائبون فيكون ضبط الوحي فيها أيسر وأكثر من أجل ذلك رجح العلماء والمحدثون الأحاديث الحجازية على الأحاديث العراقية إذا جاوز الحديث الحرة انقطع نخاعه .

وقال أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله في مبحث ترجيح الدليل باستدامة العمل بمقتضاه أو بكثرتة - ما نصه ومن هذا المكان يتطلع إلى قصد مالك رحمه الله في جعله العمل مقدما على الأحاديث - إذ كان إنما يراعي كل المراعاة العمل المستمر والأكثر ويترك ما سوى ذلك وإن جاء فيه أحاديث ، وكان ممن أدرك التابعين وراقب أعمالهم ، وكان العمل المستمر فيهم مأخوذا عن العمل المستمر في الصحابة ولم يكن مستمرا فيهم إلا وهو مستمر في عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو في قوة المستمر - وقد قيل لمالك أن قوما يقولون أن التشهد فرض فقال إما كان أحد يعرف التشهد فأشار إلى الإنكار عليه بأن مذهبهم كالمبتدع الذي جاء بخلاف ما عليه من تقدم .

وسأله أبو يوسف عن الأذان فقال مالك وما حاجتك إلى ذلك فعجبا من فقيه يسأل عن الأذان ، ثم قال له مالك وكيف الأذان عنكم فذكر مذهبهم فيه فقال من أين لكم هذا فذكر له أن بلالا لما قدم الشام سأله أن يؤذن لهم فأذن لهم كما ذكر عنهم ، فقال له مالك ما أدري ما أذان يوم وما صلاة يوم هذا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده من بعده يؤذنون في حياته وعند قبره وبحضرة الخلفاء الراشدين من بعده - فأشار مالك إلى أن ما جرى

عليه العمل وثبت مستمرا أثبت في الاتباع وأولى أن يرجع اليه - وقد بين في العتبية أصلا لهذا المعنى عظيما يجلب موقعه عند من نظر الى مغزاه - وذلك أنه سأل عن الرجل يأتي اليه الأمر يحبه فيسجد لله شكرا فقال لا يفعل ، ليس مما مضى من أمر الناس قيل له ان أبا بكر الصديق فيما يذكرون سجد يوم اليمامة شكرا أفسمعت ذلك قال ما سمعت ذلك وأرى أن كذبوا على أبي بكر وهذا من الضلال أن يسمع المرء الشيء فيقول هذا شيء لم نسمع له خلافا ثم قال قد فتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين بعده أفسمعت أن أحدا منهم سجد - اذا جأك مثل هذا مما كان في الناس وجري على أيديهم لا يسمع عنهم فيه شيء فعليك بذلك ، فانه لو كان لذكر لانه من أمر الناس الذي قد كان فيهم - فهل سمعت أن أحدا منهم سجد فهذا اجماع اذا جأك الأمر لا تعرفه فدعه ، هذا ما قال وهو واضح في أن العمل العام هو المعتمد على أي وجه كان وفي أي محل وقع ولا يلتفت الى قلائل ما نقل ولا نوادر الافعال اذا عارضها الأمر العام والكثير - وسجود الشكر ان فرضنا ثبوته عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يداوم عليه مع كثرة البشائر التي توالى والنعم التي أفرغت عليه ، فلم ينقل عنه مواظبة على ذلك ولا جاء عن عامة الصحابة منه شيء الا في النادرة مثل كعب بن مالك اذ نزلت توبته فكان العمل على وفقه تركا للعمل على وفق العامة منهم - ومن ذلك حديث الصيام عن الميت فانه لم ينقل استمرار عمل به ولا كثرة ، فان غالب الرواية فيه دائرة على عائشة وابن عباس رضي الله عنهم وهما أول من خالفاه فروى عن عائشة أنها سألت عن امرأة وعليها صوم فقالت أطعموا عنها - وعن ابن عباس أنه قال لا يصوم أحد عن أحد .

قال مالك ولم أسمع أن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن التابعين بالمدينة - أمروا احدا أن يصوم عن أحد ولا يصلي أحد عن أحد وانما يفعل ذلك كل أحد عن نفسه - فهذا أخبار بترك العمل دائما في معظم الصحابة ومن يليهم وهو الذي عول عليه في المسألة - وقد سأل عن سجود القرآن في المفصل وقيل له أتسجد أنت فيه فقال لا وقيل له انما ذكرنا هذا لك لحديث عمر بن عبد العزيز فقال أحب الاحاديث الي ما اجتمع عليه الناس وهذا مما لم يجتمع الناس عليه وانما هو حديث من حديث الناس .

وأعظم من ذلك القرآن - يقول الله تعالى « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات » فالقرآن أعظم خطرا وفيه الناسخ والمنسوخ فكيف بالاحاديث ، وهذا ظاهر في أن العمل بأحد المتعارضين دليل على أنه الناسخ للآخر اذ كانوا انما يأخذون بالاحدث فالاحدث من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عن ابن شهاب الزهري أنه قال أعياء الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسخه ومنسوخه وهذا صحيح - ولما أخذ مالك بما عليه الناس وطرح ما سواه انضبط له الناسخ من المنسوخ

على يسر والحمد لله - وبسبب ذلك ينبغي للعامل أن يتحرى العمل على وفق
الاولين فلا يسامح نفسه في العمل بالقليل الا عند الحاجة ومس الضرورة .

أما لو عمل بالقليل دائما للزمه أمور :

1) المخالفة للاولين في تركهم الدوام عليه وفي مخالفة السلف الصالح
ما فيها من الضرر .

2) واستلزام ترك ما داوموا عليه اذ المفروض أنهم داوموا على خلاف
هذه الاثار بأدامة العمل على موافقة ما لم يداوموا عليه مخالفة لما داوموا
عليه .

3) وكون ذلك ذريعة الى اندراس اعلام ما داوموا عليه واشتهار ما
خالفه والاعتداء بالافعال ابلغ من الاقتداء بالاقوال فالحذر من مخالفة الاولين
فلو كان ثم فضل ما لكان الاولون أحق به ، والله المستعان أه . ومن جزاء
ذلك لم يسمع أهل السنة دعوى الرافضة أن النبي صلى الله عليه وسلم نص
على علي رضي الله عنه أنه الخليفة بعده لان عمل كافة الصحابة على خلافه
دليل على بطلانه أو عدم اعتباره - ولان الصحابة لا تجتمع على خطأ وضلال
- وكثيرا ما تجد أهل البدع يستدلون بآل الكتاب والسنة يحملونهما مذهبهم
ويغترون بمشبهاتهم في وجوه العامة ويظنون أنهم على شيء فما يعمل
المتأخرون من هذا الجنس مخالف لاجماع الاولين وكل من خالف اجماع
الاولين فهو مخطيء وضال .

وبعد فما أثبتناه في هذه الكلمة المتواضعة والموضوعة في تحقيق أصل
من أصول المذهب المالكي كاف ان شاء الله في رد الاقاويل وشبه التأويل
- ودال على أن مالكا رحمه الله قد ألهم السداد وتصرف تصرف الرشاد ، وإن
ذلك ليس بدعا منه ولا خاصا به وانما هو السنة القائمة ، والعمل الدائم
المستمر ، والقول الصادر المتكرر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم وأتباعهم ، وإن ذلك داخل في نطاق الناسخ والمنسوخ - وإن الاجماع
أكبر من كل شيء ومنه اجماع أهل المدينة وذلك هو وجه الحق وعين الصواب
وآلى الله سبحانه المرجع والمآب .

الاستاذ محمد المكي الناصري

محصل على اجازات متنوعة فى الدراسات الادبية والقانونية ،
متخصص فى فروع الثقافة الاسلامية .

(الملكة المغربية)

المنهـب المالـكي منهـب المفارـبة المفـضل

للاستاذ الشيخ محمد المكي التناصري

تمهيد :

متى ذكرنا أئمة الشريعة من فقهاء الامصار المتبوعين في العالم الاسلامي منذ قديم الاعصار ، واستعرضنا الدور التاريخي العظيم الذي قاموا به في صيانة معالم الملة ، وتنظيم حياة الامة والدولة ، على اساس الكتاب والسنة ، وجب ان نطأ الى الراس تقديرا لاخلاصهم العظيم ، واجلالا لمقامهم الكريم ، وأعجابا بعبقريتهم الفذة وجهادهم المتواصل . فقد قاموا رضوان الله عليهم بالحفاظ على التراث الاسلامي الاصيل، المتسلسل اليهم منذ عهد الرسالة جيلا بعد جيل ، وتولوه بعنايتهم جمعا وتحصيلا ، وتمحيصا وتحليلا ، وتأصيلا وتأويلا ، وتفريعا وتفصيلا ، وتجريحا وتعديلا ، وانتصبوا لهداية الخلق ، تطوعا من تلقاء انفسهم ، دون تكليف من الدولة ولا من الافراد ، وأخذوا على عاتقهم اداء الامانة ، وتوجيه الامة والدولة الى طريق الحق والعدل ، ضمانا لمصالح العباد واستقرار البلاد .

وكان هدفهم الوحيد من اجتهادهم هو اصابة مقصد الشارع في كل ما يجتهدون . على هذا الهدف يلتقون ، ومن اجله يفترون ، فهم مجمعون عليه ، وان اختلفت طرقهم اليه ، وليس على وجه الارض من هم أكثر اتفاقا وأقل اختلافا منهم ، يتبادلون فيما بينهم - على القرب والبعد -

التقدير والاحترام ، واذا تناظروا كانت مناظرتهم للوصول الى الحق ، بريئة من الجدل والخصام . قال القاضي عياض فى كتابه « ترتيب المدارك » ، ينوه بمقامهم ، ويعرف بجهودهم : « ثم جاء من بعدهم من العلماء ، من اتباع التابعين ، والوقائع قد كثرت ، والنوازل قد حدثت ، والفتاوي فى ذلك قد تشعبت ، فجمعوا اقاويل الجميع ، وحفظوا فقههم ، وبحثوا عن اختلافهم واتفاقهم ، وحذروا انتشار الامر ، وخروج الخلاف عن الضبط . فاجتهدوا فى جمع السنن ، وبنوا القواعد ، ومهدوا الاصول ، وفرعوا عليها النوازل ، وسئلوا فاجابوا ، ووضعوا للناس فى ذلك التصانيف وبوبوها ، وعمل كل واحد منهم بحسب ما فتح عليه ، ووفق له . فانتهى اليهم علم الاصول والفروع والاختلاف والاتفاق ، وقاسوا على ما بلغهم ، ما يدل عليه او يشبهه . رضى الله عن جميعهم ، ووفاهم اجر اجتهادهم » .

وتقديرا لما وهبهم الله من مواهب وملكات ، وما بذلوه فى خدمة الاسلام والمسلمين من جهود وتضحيات ، نالوا عند الامة المقام المحمود ، وملأت محبتهم القلوب وجاوزت شهرتهم الحدود ، واتفق جمهور العلماء بعدهم على اتباعهم فى اجتهاداتهم ، والتفريع على اصولهم ، والتخريج على قواعدهم ، واعتنوا بدراسة كتبهم ومذاهبهم دون من قبلهم ، اكتفاء بما اختاروه وقرروه ، وانتقوه وحرروه - مع الاعتراف لمن سبقهم بمزيد العلم والفضل - واحلوهم من الامة الاسلامية محل الامامة والزعامة ، ولم يسمحوا بتنقيص احد منهم او توجيه طعن اليه او ملامة ، اعترافا بما لهم من منة على الامة ، وغيره على ما لهم من كرامة . قال الحافظ ابن عبد البر فى كتابه « جامع بيان العلم وفضله » : « لا يقبل فيمن اتخذه جمهور من جماهير المسلمين اماما فى الدين ، قول احد من الطاعنين » ، وقال ايضا : « من قرأ فضائل مالك وفضائل الشافعي وفضائل أبي حنيفة - بعد فضائل الصحابة والتابعين - وعني بها ووقف على كريم سيرهم وهدبهم ، كان ذلك له عملا زاكيا . نفعا الله بحب جميعهم » .

نعم اذا كان التطاول على مقام ائمة الشريعة ، وفى طليعتهم الائمة الاربعة بالتنقيص والتجريح ، والتعريض بهم بالتصريح او التلويح ، أمرا غير مستساغ ولا مقبول لا فى المروءة ولا فى الدين ، لانهم جميعا معترف لهم بأهلية الاجتهاد وممارسته ، والتوفر على أدواته ، ولان امامة كل

واحد منهم في الدين امر مجمع عليه عند جماهير المسلمين . فان مجرد الاندماج على المفاضلة بين امام وامام ، وترجيح مذهب على مذهب - لتحليل علمي أو غرض عملي - لا يمنعه شرع ولا طبع . ذلك أن التفاضل في درجات العلم والايمان امر تقبله وتقرره نفس نصوص القرآن . فقد قال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ، وقال تعالى : « ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله » ، وقال تعالى : « تلك الرسل . فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات » الآية ، وقال تعالى : « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتيناه داود زبوراً » . وقال تعالى : « فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل » . وفي حديث ابن عمر حسبما حدث به الامام أحمد ابن حنبل : « كنا نفاضل بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نقول : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، فيبلغ ذلك النبي (ص) فلا ينكره » .

واذا كانت المفاضلة بين الانبياء والرسل لا تنزع وصف النبوة او الرسالة عن أي نبي او رسول ، ولا تستلزم في حق أي واحد منهم - صلوات الله وسلامه عليهم - أدنى تنقيص ، اذ كلهم اصطفاهم الله واجتباهم من بين خلقه ، واذا كانت المفاضلة بين الصحابة رضوان الله عليهم لا تجرد أي صحابي من وصف الصحبة ومقامها الديني الرفيع ، اذ كلهم اسعدهم الله ومن عليهم بصحبة رسوله ، والعيش في كنفه ، وتلقي الدين من فمه الشريف غضا طريا ، فان المفاضلة بين الائمة المجتهدين وبين مذاهبهم المتبوعة لا تستلزم الغض من مقام أي امام ، ولا تستلزم الطعن في أي مذهب ، وانما هي مجرد مقارنة بين صفات هذا الامام او ذلك ، ومميزات هذا المذهب او ذلك ، ومجرد موازنة بين الظروف التي احاطت بكل امام وكل مذهب ، فجعلت من هذا الامام او ذلك اماما متبوعا في المشرق دون المغرب ، او متبوعا في المغرب دون المشرق ، وجعلت من هذا المذهب او ذلك مذهباً سائدا في هذه الرقعة من العالم ، بينما جعلت المذهب الآخر يسود في رقعة أخرى . فالائمة المجتهدون رضي الله عنهم ، وان كانوا لا يجتهدون الا في نطاق الشرع ، ولا يحومون في اجتهادهم الا حول مقصد الشارع فعلا او تركا ، نفيا او اثباتا ، هم ناس كبقية الناس ، يتأثرون ببيئتهم واعرافهم كما يؤثرون فيها ، ويفرزون من الآراء والاجتهادات ما تسمح به ملكاتهم وامزجتهم الخاصة ، اذ (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) ، واستعداد الجمهور لتقبل هذه الآراء او تلك

الاجتهادات ، يختلف من مكان الى مكان ، حسب اختلاف الاوضاع ، واختلاف الطباع ، قال ابو اسحاق الشاطبي في كتابه « الموافقات » : « واما اذا وقع الترجيح بذكر الفضائل والخواص والمزايا الظاهرة التي يشهد بها الكافة فلا حرج فيه . بل هو مما لا بد منه في هذه المواطن ، أعني عند الحاجة اليه » . ثم قال رحمه الله : « واذا كان كذلك فهو القانون اللازم ، والحكم المنبرم ، الذي لا يتعدى الى سواه ، وكذلك فعل السلف الصالح » .

وقال القاضي عياض : « ثم اختلفت الآراء والهمم في تعيين (الامام) المقلد منهم ، بحسب ما اعتقلوا فيه انه هو الأعلم والأولى بالاتباع ، أما من اعتقاد اعتقده ، او انتشار ذكره ونناء سمعوه ، او من اتباع له اعتقده واتبعوه ، او من تقليد لأبائهم او أهل بلادهم نشأوا عليه والقوه » .

والآن فلنشرع على بركة الله في عرض اللوابع المختلفة ، والاعتبارات المتنوعة ، التي جعلت من مغاربة المغرب والاندلس قوامين على مذهب الامام مالك ، خداما له ، معتزين به ، أوفياء له في الماضي والحاضر ، حتى أصبح المغرب معروفا في العالم كله بأنه القلعة الامامية للمذهب المالكي ، ومركز إشعاعه الدائم على القارة الافريقية .

(1) اعتبارات أدبية :

وهي أشبه ما يكون بالمناقب والبشائر التي تنشرح لها الصدور وتطمئن بها القلوب .

فمن هذا النوع حديثان شريهان اعتبرهما اتباع المذهب المالكي من مناقب امامهم ومذهبهم :

الحديث الاول :

قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابو هريرة : « يوشك الناس ان يضربوا أكباد الأبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة » .

وفى رواية أخرى : « يلتمسون العلم ، فلا يجدون عالما أفعد سن عالم المدينة » . وهذا الحديث أخرجه مالك نفسه ، وأخرجه الترمذي وحسنه ، وأخرجه النسائي والحاكم وصححه ، ورواه ابن عبد البر فى كتابه : (التمهيد لما فى الموطأ من المعاني والأسانيد) بسنده الخاص الى ابي هريرة مرفوعا ، وروى ابن عبد البر فى نفس السياق بسنده عن سفيان بن عيينة أنه قال : « نرى هذا الحديث الذي يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : تضرب أكباد الأبل فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة ، أنه مالك بن أنس » ، وبنفس المعنى صرح القاضي عبد الوهاب قائلا : « انه لا ينازعنا فى هذا الحديث أحد من أرباب المذاهب ، اذ ليس منهم من له امام من اهل المدينة ، فيقول : المراد به امامي ، ونحن ندعي انه صاحبنا بشهادة السلف له ، وبأنه اذا اطلق بين اهل العلم : (قال عالم المدينة وامام دار الهجرة) ، فالمراد به مالك عندهم دون غيره من علمائها ، كما اذا قيل (الكوفي) فالمراد به ابو حنيفة دون سائر فقهاء الكوفة » .

وأورد القاضي عياض فى كتابه : (ترتيب المدارك) ، نفس الحديث على اعتبار أنه أثر وارد فى عالم المدينة التي هي داره ، مستدلا بإضافة هذا اللقب اليه ، وإطلاقه عليه ، على لسان جماهير المسلمين ، ومحتجا بموافقة أحوال مالك للحال المخبر عنها فى الحديث ، وتأويل السلف الصالح له على ان المراد به مالك ، « وما كانوا ليقولوا ذلك الا عن تحقيق ، ولا ليذيعوه بمجرد التشبهى والهوى » وعزز رأيه بتأويل سفيان بن عيينة لهذا الحديث ، وتصريحه بأن المراد به هو الامام مالك ، مؤكدا فى نفس الوقت أن الامام مالكا هو الذي انتهى اليه علم المدينة ، فحدث بها وأفتى خلال نيف وستين سنة ، دون أن ينتقل الى غيرها او يستوطن سواها ، يأخذ عنه اهل المشرق والمغرب ، ويضربون اليه أكباد الأبل ، ثقة منهم بأنه اعلم اهل وقته ، ومصرحا بأن : « هذا الحديث قد عد من معجزاته صلى الله عليه وسلم ، ومن جملة ما أخبر به من الكائنات فكان كما أخبر » .

ونجد شهاب الدين القرأفي يشير فى مطلع كتابه الخالد « الدخيرة » الى نفس المعنى أيضا ، ويستدل على افضلية الامام مالك بورود هذا الحديث النبوي فيه ، واختصاصه بمهبط الرسالة وتظاهر الآثار بشرف معاليه .

الحديث الثاني :

قوله صلى الله عليه وسلم فى احدى الروايات الواردة بصحيح مسلم : « لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق لا يضر بهم من خالفهم » . وفى رواية - من خذلهم - حتى تقوم الساعة » .

وورد فى بعض طرقه بلفظ « لا يزال أهل المغرب » بفتح الميم وسكون المعجمة ، حسبما نبه عليه الحافظ ابن حجر فى فتح الباري ، وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم فى صحيحهما ، والترمذي وأبو داود فى سننهما ، من عدة طرق وبألفاظ متنوعة . وقد استدلل به شهاب الدين القرافي فى مقدمة كتابه الجامع « الذخيرة » على احدى المزاي الكبرى التى يمتاز بها مذهب مالك وأتباعه من المغاربة ، فقال : « ومنها ما ظهر من مذهبه فى أهل المغرب ، واختصاصهم به ، وتصميمهم عليه ، مع شهادته عليه السلام لهم بأن الحق يكون فيهم ، لا يضرهم من خذلهم الى أن تقوم الساعة ، فتكون هذه شهادة للامام مالك بأن مذهبه حق ، لانه شعارهم ودثارهم ، ولا طريق لهم سواه ، وغيره لم تحصل له هذه الشهادة » .

وعن مثل هذا الراي عبر أبو القاسم محمد بن جزى فى مقدمة كتابه : « القوانين الفقهية » ، اذ قال : « اما بعد ، فهذا كتاب قوانين الاحكام الشرعية ، ومساائل الفروع الفقهية ، على مذهب امام المدينة ابي عبد الله مالك بن انس الاصبحي ، اذ هو الذي اختاره أهل بلادنا بالاندلس وسائر المغرب ، اقتداء بدار الهجرة ، وتوفيقا من الله تعالى ، وتصديقا لقول الصادق المصدق صلى الله عليه وسلم : « لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » . قال الحافظ ابن حجر : اتفق الشراح على ان معنى قوله فى الحديث : « لا يضرهم من خالفهم » ، ان المراد علوهم عليهم بالغلبة ، ثم عقب على ذلك بالرد على من حاول ان يجعل من هذه المنقبة مذمة لاهل الغرب ، فزعم « ان المراد بقوله فى الحديث : « ظاهرين على الحق » ، أنهم غالبون له ، وأن الحق بين أيديهم كالميت ، وان المراد بالحديث ذم الغرب وأهله لا مدحهم » .

ومن هذا النوع ما جرى على السنة أئمة المسلمين وعلمائهم من شهادات متعددة بامامة مالك وعلمه وعبقريته وشماله الفاضلة ، ولا سيما

شهادات أقرانه ومعاصريه ، رغما عما هو متعارف من التنافس بين الإقران ، وما ينشأ عن المعاصرة من الاحتكاك وقلة الانصاف ، الأمر الذي زاد أتباع الإمام مالك تعلقا بمذهب امامهم ، واقتناعا بحسن اختيارهم .

فمن ذلك قول سفيان بن عيينة : « كان مالك سراجا ، ومالك حجة في زمانه » ، وقول ابن المبارك : « لو قيل لي اختر للامة اماما لاخترت لها مالكا » ، وقول يحيى بن معين : « كان مالك من حجج الله على خلقه ، مالك امام من ائمة المسلمين ، مجمع على فضله وثبته في الحديث » ، وقول حميد بن الاسود : « ما تقلد اهل المدينة بعد قول زيد بن ثابت كما تقلدوا قول مالك » ، وكان الأوزاعي اذا ذكر مالكا قال : « عالم العلماء ، وعالم اهل المدينة ، ومفتي الحرمين » ، وقال أحمد بن شعيب النسائي : « ما أحد عندي بعد التابعين أنبل من مالك بن أنس ، ولا أجل ، ولا آمن على الحديث منه » ، ومن ذلك قول ابن مهدي : « ما رأت عيناى أحدا أهيب من هيبة مالك ، ولا أتم عقلا ، ولا أشد تقوى ، ولا أوفر دماغا » ، وقول ابن المبارك : « كان مالك أشد الناس مدارة للناس وترك ما لا يعنيه » ، وقول ابن وهب : « الذي تعلمنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه » ، وقال يحيى بن يحيى التميمي : « أقمت عند مالك بن أنس بعد كمال سماعي منه سنة أتعلم هيئته وشمائله ، فانها شمائل الصحابة والتابعين » ، وقال الشافعي : مالك بن أنس معلمي ، ولا أحد أمن علي من مالك ، وعنه أخذنا العلم » ، وقال مطرف : « كان مالك اذا سئل من مسألة نزلت فكانما نبي نطق على لسانه » ، وقال محمد بن الحكم : « اذا انفرد مالك بقول لم يقله من قبله فقله حجة توجب الاختلاف ، لانه امام » ، وقال ابن وهب : « اذا لم أجد أثرا ، قلدت مالكا ، لان قوله اثر من الآثار » ، وقال ابن أبي أويس : « كان الناس كلهم يصدرون من رأى مالك بن أنس ، وكان للامير عنده رجل يسأله ، وكذلك للقاضي والمحتسب » ، وقلى علي بن المديني : « ما أقدم على مالك أحدا في صحة الحديث ، ومالك أمير المؤمنين في الحديث » ، وقال أبو عمر بن عبد البر : « معلوم أن مالكا كان من أشد الناس تركا لشذوذ العلم ، وأشدهم انتقادا للرجال ، وأقلهم تكلفا ، وأتقنهم حفظا ، فلذلك صار **اماما** . وقال في موضع آخر من كتابه « التمهيد » : « الاخبار في امامة مالك وحفظه واتقانه وورعه وثبته أكثر من أن تحصى ، وقد ألف الناس في فضائله كتب كثيرة ، وإنما ذكرت هاهنا فقرا من اخباره دالة على ما سواها » .

وقال سعيد بن عبد الجبار : « كنا عند سفيان بن عيينة فأتاه نعي مالك بن أنس فقال : « مات سيد المسلمين » .

(2) اعتبارات موضوعية :

أولا : أن الامام مالكا بنى مذهبه على الروايات المرفوعة الى النبي صلى الله عليه وسلم موصولة أو مرسلة ، وبعدها على قضايا عمر ، ثم على فتاوي ابن عمر ، وبعد ذلك على أقوال فقهاء المدينة مثل سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، وسليمان بن يسار ، وأبي سلمة ، وأبي بكر بن عبد الرحمن ، وأبي بكر بن عمرو بن حزم ، وعمر ابن عبد العزيز الذي هو أحد الراسخين في العلم ، وضم إلى العلم بالكتاب والسنة ، العلم بأقوال الصحابة وضبط أفضيتهم ، حتى قال فيه امام الحرمين : (وأما مالك رحمه الله في أفضية الصحابة (رض) فلا يشق غباره) ، « ولم يذهب عليه القياس ، لكن كان يتوقى ويتحرى ويريد التأسى بمن تقدمه » كما قال الشافعي لمحمد بن الحسن الشيباني عند ما تناظرا حول أي صاحبهما أعلم ، هل أبو حنيفة أو مالك ؟ .

ثانيا : أن الامام مالكا أقام مذهبه على أساس عملي متين ، فقد أدرك التابعين وعایشهم ، وراقب أعمالهم ، وتيقن أن العمل المستمر في المدينة على عهدهم إنما هو مأخوذ عن العمل المستمر في عهد الصحابة ، وأن عمل الصحابة لم يكن مستمرا فيهم ، الا وهو **مستمر في عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم** او في **قوة المستمر** ، وبذلك كان ما جرى عليه عمل أهل المدينة باستمرار ، أحق في نظره بالمراعاة والاعتبار ، ومن أجل ذلك ، يترك ما وجد الجمهور والجم الغفير من أهل المدينة قد عملوا بغيره وخالفوه ، إذ العمل العام المستمر هو المعتمد ، ولا يلتفت إلى قلائل ما نقل ، ولا نواذر الأفعال إذا عارضها الأمر العام والكثير ، كما حل ذلك أبو اسحاق الشباطي في « الموافقات » ، لا سيما وقد كان مالك أعلم الناس في وقته بسنة ماضية وسنة باقية ، وبالمعمول به من الحديث والمتروك ، كما نص على ذلك القاضي عياض في (ترتيب المدارك) . قال شهاب الدين القرافي في كتابه - (الذخيرة) : « أن الله تعالى أسعد مالكا وسدده لعمل أهل المدينة ، الذين ينقل أبنائهم عن آباءهم ، وأخلافهم عن أسلافهم ، الأحكام والسنن ، **النقل المتواتر** ، بسبب جمع

الدار لهم ولاسلافهم ، فيخرج المسند من حيز الظن والتخمين ، الى حيز العلم واليقين ، وغيره لم يظفر بذلك » .

ثالثا : ان الامام مالكا املى فى مذهبه نحواً من مائة وخمسين مجلداً فى الاحكام الشرعية كما نص على ذلك شهاب الدين القرافي فى كتابه « الذخيرة » فلا يكاد يقع فرع الا ويوجد له فتيا ، بخلاف غيره ، ممن لا يكاد يجد له أصحابه الا القليل من المجلدات « كالام » للشافعي ، وفتاوي مفرقة فى مذهب احمد وابي حنيفة فى كتب أصحابهم ، ثم خرج أصحابهم بقية مذاهبهم على مناسبات اقوال ائمتهم . قال القرافي معقبا على ذلك : « ومعلوم ان التخريج قد يوافق ارادة صاحب الاصل وقد يخالفها ، حتى لو عرض عليه المخرج على اصله لانكره ، وسكون النفس الى قول الامام القدوة اكثر من سكونها الى اتباعه بالضرورة » .

على ان نحو الثلث من مذهب ابي حنيفة قد خالفه فيه أصحابه محمد بن الحسن وابو يوسف ، اذ وجدوا السنن تخالفهم فيما تركه ، كما حققه القاضي عياض .

رابعا : ان الامام مالكا حاز قصب السبق وميزة الابتكار فى التصنيف الجامع بين الفقه والحديث ، وجرت عادته فى الموطأ وغيره على الاتيان بآثار الصحابة ، مبينا بها السنن ، وما يقيد مطلقاتها ، وما يعمل به منها وما لا يعمل به ، كما نبه على ذلك الشاطبي فى « الموافقات » ، وقد كان مالك « أول من ألف فاجاد التأليف ، ورتب الكتب والابواب ، وضم الاشكال ، وصنع من ذلك ما اتخذته المؤلفون بعده قدوة واماما ، هذا مع « صعوبة الابتداء ، وحيرة الاختراع » ، على حد تعبير القاضي عياض فى كتابه (ترتيب المدارك) ، وهذه الميزة الشخصية والعلمية التي امتاز بها الامام مالك هي التي قام بتحليلها والقاء الاضواء عليها امام جليل عبقرى من ائمة الاسلام فى القرن الثانى عشر الهجرى ، الا وهو قطب الدين الشيخ احمد بن عبد الرحيم الدهلوي الهندي المعروف بشاه ولي الله صاحب الكتاب الشهير فى فلسفة التشريع واسرار الشريعة « حجة الله البالغة » فقد وضع شرحين على الموطأ ، احدهما مختصر ، اطلق عليه اسم « المسوى » ، وثانيهما مطول اطلق عليه اسم « المصفى » . وقد جاء فى شرحه الاول قوله الرصين الدقيق ، القائم على التتبع

والاستقراء : « من تتبع المذاهب ورزق الانصاف علم لا محالة ان الموطأ عدة مذهب مالك وأساسه ، وعمدة مذهب الشافعي وأحمد ورأسه ، ومصباح مذهب أبي حنيفة وصاحبيه ونبراسه ، وهذه المذاهب بالنسبة الى الموطأ كالشروح للمتون . وعلم أيضا ان الكتب في السنن كصحيح مسلم ، وسنن أبي داود ، والنسائي ، وما يتعلق بالفقه من صحيح البخاري وجامع الترمذي ، مستخرجات على الموطأ تحوم حومه ، وتروم رومه ، مطمح نظرهم فيها وصل ما أرسله ، ورفع ما أوقفه ، واستدراك ما فاته ، وذكر المتابعات والشواهد لما أسنده » .

خامسا : ان الامام مالكا ظل طيلة حياته الطويلة يسخر مواهبه الفكرية ورصيده العلمي بالخصوص لفائدة الطلبة والسائلين وعامة المستفتين ، ولم يكن يرى من المناسب تضییع الوقت فيما لا يفيد الناس فائدة مباشرة تعود عليهم بالنفع العميم في حياتهم اليومية ، وتقدم لمشاكلهم الحلول الشرعية العملية ، ولذلك كان الناس يزدحمون على بابه لأخذ الحديث والفقه كازدحامهم على باب السلطان ، حتى كان له حاجب يأذن أولا للخاصة ، فاذا فرغوا ، أذن للامة . وكثيرا ما كان يقول : « لا أحب الكلام الا فيما تحته عمل » .

وسأله رجل عراقي عن مسألة غريبة لا يتصور وقوعها فقال مالك : « سل عما يكون ، ودع ما لا يكون » ، وسأله آخر عن سؤال مماثل فلم يجبه . فقال له لم لا تجيبني يا أبا عبد الله ؟ فقال له : « لو سألت عما تنتفع به أجبتك » .

ومن هذا المنطلق قرر حكماء الشريعة ان « كل علم لا يفيد عملا فليس في الشرع ما يدل على استحسانه ، وأن روح العلم هو العمل » . وهذه الروح الواقعية لامت العقلية المفريية كل الملاءمة .

سادسا : ان الامام مالكا كان مضرب المثل في التثبت في الفتوى ، والتحري في الاجتهاد ، والاحتياط في الدين . ومن مآثور كلامه في هذا الباب : « ربما وردت علي المسألة تمنعني من الطعام والشراب والنوم » - فقليل له : يا أبا عبد الله ، والله ما كلامك عند الناس الا نقر في حجر . ما تقول شيئا الاتلقوه منك » فأجاب قائلا : « فمن أحق أن يكون هكذا الا

من كلن هكذا » . ومن ماثور كلامه ايضا : ما شيء أشد علي من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام ، لأن هذا هو القطع في حكم الله ، ولقد أدركت أهل العلم والفقه بلدنا ، وأن أحدهم إذا سئل عن مسألة كان الموت أشرف عليه » وسئل مالك عن مسألة ، فقال : « لا أدري » . فقال له السائل : « أنها مسألة خفيفة » ، وإنما أردت أن أعلم بها الامير . وكان السائل ذا قدر . فغضب مالك وقال : « مسألة خفيفة سهلة ! ليس في العلم شيء خفيف . أما سمعت قول الله تعالى : (أنا سنلقي عليك قولا ثقيلا) ، فالعلم كله ثقیل ، وبخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة » وسأله آخر فلم يجبه . فقال له يا أبا عبد الله ، أجبني . فقال له : « ويحك ! أتريد أن تجعلني حجة بينك وبين الله ، أنا أحتاج أولا أن انظر كيف خلاصي ، ثم أخلصك » . وكان يقول : « أن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم » .

وهذا الموقف الصارم من التحري والنزاهة ضاعف الثقة بالامام مالك والمذهب المالكي عند اتباعه .

(3) اعتبارات ظرفية :

هذا النوع من الاعتبارات تتحكم فيه ظروف الزمان والمكان التي كان لها أكبر تأثير على تعلق المفاربة بالامام مالك ، واستمرار الرحلة اليه ، واعتمادهم في اقامة نظامهم التشريعي والقضائي عليه .

ذلك ان مقر اقامته الدائم الذي لم يفارقه منذ ولد الى ان فارق الحياة - الا للقيام بمناسك الحج - كان هو المدينة المنورة على ساكنها افضل الصلاة والسلام ، وهذه المدينة انفردت من بين مدن العالم بأنها العاصمة التأسيسية لأول دولة مثالية اقامها الاسلام ، ومنطلق جفافل الفاتحين الذين خرجوا يدعون الى الله لهداية كافة الانام ، ومدفن خاتم الرسل الكرام ، ومجمع نخبة النخبة من فقهاء السلف الابرار ، وموطن السلالة المباركة المنحدرة من المهاجرين والانصار ، وليس لاية عاصمة من العواصم الاخرى التي خلفت المدينة المنورة ، ما لها من المزايا المشتهرة ، والمناقب المقررة ، حتى أن الامام مالكا قال وهو يتحدث عنها للخليفة العباسي ابي جعفر المنصور : « ما على وجه الارض قوم

خيرا من اهل المدينة ، ولا خير من المدينة » فكانت بذلك مهوى افئدة المسلمين عموما ، وطلاب العلم خصوصا ، وبالاخص طلاب المغرب ، قال ابن خلدون فى مقدمته : « واما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه اهل المغرب والاندلس ، وان كان يوجد فى غيرهم ، الا انهم لم يقلدوا غيره الا فى القليل ، لما أن رحلتهم كانت غالبا الى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ دار العلم » .

ثم ان الامام مالكا اكرمه الله بالعمر الطويل ، والصبر الجميل ، فظل يحدث ويفتي ، ويؤلف وينتج ، ويراجع ويصحح ، خلال مدة تزيد على الستين سنة ، ولم تعاجله المنية ، كما عاجلت بقية معاصريه من الائمة ، فاستمر يؤدي رسالته الدينية والعلمية مدة ثلاثين سنة بعد وفاة ابي حنيفة ، وثلاثا وعشرين سنة بعد وفاة الازاعي ، وحوالي عشرين سنة بعد وفاة سفيان الثوري ، ومن أجل ذلك اتجهت الانظار كلها الى مالك ، واشربت اليه الاعناق ، وأصبحت اعز أمنية لطلاب العلم ، ولا سيما طلاب المغرب ، هي الالتحاق بركبه ، واغتنام الفرصة للاندماج فى صحبه ، حرصا منهم على تحصيل السند العالي فى الدين ، والارتواء مباشرة من المنبع الصافي بماء معين ، وتراجع مذهب الازاعي فى الاندلس ومذهب ابي حنيفة فى المغرب امام مذهب مالك الذي قام نشره منذ البداية ، على اساس متين ، وقد أشار الى هذه الميزة التي خص الله بها الامام مالكا شهاب الدين القرافي فى كتابه (الذخيرة) بفاية الايجاز فقال : « ومنها طول عمره سنين فى الاقراء والاسماع ، ومعلوم انهما ينبوع الاطلاع » وكانت وفاة مالك سنة تسع وسبعين ومائة حسبما صححه القاضي عياض ، وتوفي رحمه الله عن سبع وثمانين سنة ، او عن تسعين سنة كما جاء فى بعض الروايات .

ومما يؤكد المركز العظيم الذي احتلته المدينة المنورة بين بقية الديار ، وان المغاربة باتجاههم اليها أحسنوا الاختيار ، ما قرره المحدثون من « أن الاحاديث (المدنية) هي أم الاحاديث النبوية ، وهي أشرف احاديث اهل الامصار . ومن تأمل أبواب صحيح البخاري وجده يبدأ بها أول الباب كلما وجدها ، ثم يتبعها بأحاديث اهل الامصار ، مثال ذلك : مالك عن نافع عن ابن عمر - مالك عن هشام بن عروة - مالك عن موسى ابن عقبة » .

(4) اعتبارات مصلحة :

لقد بذلت النخبة المغربية المثقفة المتخرجة على يد الامام مالك وكبار اصحابه جهودا متواصلة فى بث علمه ونشر مذهبه ، عملا بوصيته لهم ، فقد كان يوصي طلبته عند وداعه لهم قائلا : « اتقوا الله وانشروا هذا العلم ، وعلموه ولا تكتموه » ، كما روى ذلك عنه ابن القاسم وغيره ، وكان يقول : « ان العلم اذا منع من العامة لاجل الخاصة لم تنتفع به الخاصة » ، وكان على اتصال مستمر مع اصحابه بعد تخرجهم عليه وعودتهم الى بلادهم ، ولا سيما الذين ينتصبون منهم للفتوى والقضاء ، فيتلقى استلتهم ، ويتولى الاجوبة عنها عن طريق الوافدين عليه من رفاقهم واصدقائهم ، ويسر بالغ السرور بنجاحهم وتفوقهم (مثال ذلك المكاتبات المتبادلة بين عبد الله ابن غانم القاضي وعبد الله بن فروخ المفتي والامام مالك) ، ولما اصبحت الجماهير المسلمة فى المغرب والاندلس على بينة من مذهبه ، وثقة به ، بفضل التوعية التي قامت بها النخبة المثقفة ، سهل على اولى الامر ان يعتبروا المذهب المالكي مذهبا رسميا للدولة والامة ، واعلنوا فى بلدهم وحدة القضاء ووحدة المذهب الذي يقع التقاضي بموجبه ، مع التزام القول المشهور والراجح وما به العمل ، وحققوا بذلك مبدا مساواة المواطنين جميعا امام القانون ، على خلاف ما كان العمل جاريا به فى بعض اقطار المشرق ، من تعدد محاكم القضاء ، تبعا لتعدد المذاهب ، وتفاوت الرعية فى الاحكام الصادرة عليها من محكمة الى اخرى ومذهب الى آخر ، واذا كان بعض الفقهاء من غير المالكية يرون ان اشتراط الامام على القاضي ان يحكم بمذهب معين يعتبر شرطا باطلا وتبقى التولية معه صحيحة ، او ان هذا الشرط باطل والتولية باطلة معا ، فان حذاق فقهاءنا يرون الانضباط الى امر واحد والحكم بمذهب واحد امرا لا بد منه ، ولا غنى عنه ، اذ به وحده تنضبط الاحكام ، وتضيق دائرة اللد والخصام ، قال ابو اسحاق الشاطبي فى الموافقات : « ... لم يكن بد من الانضباط الى امر واحد ، كما فعل ولاية قرطبة ، حين شرطوا على الحاكم ان لا يحكم الا بمذهب فلان ما وجده ، ثم بمذهب فلان ، فانضبطت الاحكام بذلك ، وارتفعت المفسد المتوقعة من غير ذلك الارتباط » ونبه الشاطبي الى « ان ترك الانضباط الى امر معروف يؤدي الى انخراط قانون السياسة الشرعية » ونقل عن الامام المازري ما

كتبه فى جواب له عن سؤال وجه اليه اذ قال : « ولست ممن يحمل الناس على غير المعروف المشهور من مذهب مالك واصحابه ، لان الورع قل ، بل كاد يعدم ، والتحفظ على الديانات كذلك ، وكثر الشبهات ، وكثر من يدعى العلم ، ويتجاسر على الفتوى فيه ، فلو فتح لهم باب فى مخالفة المذهب لاتسع الخرق على الراقع ، وهتكوا حجاب هيبة المذهب ، وهذا من المفساد التي لا خفاء بها » ثم علق الشاطبي على جواب المازري قائلا : « فانظر كيف لم يستجز المازري - وهو المتفق على امامته - الفتوى بغير مشهور المذهب ، ولا بغير ما يعرف منه ، بناء على قاعدة مصلحة ضرورية ، اذ قل الورع والديانة من كثير ممن ينتصب لبث العلم والفتوى - فلو فتح لهم هذا الباب لانحلت عرى المذهب ، بل جميع المذاهب ، لان ما وجب للشيء وجب لمثله » .

5) اعتبارات عقائدية :

عندما اخذت افكار النخبة المثقفة والسلطة الحاكمة فى بلاد المغرب والاندلس تتجه الى اقرار نظام تشريعي وقضائي ملائم للبيئة المغربية ، ومرض لمطامحها الفكرية ، كانت اقطار المشرق قد اصبحت مسرحا لتناحر الفرق والنحل ، واخذ تناحرها يؤتي اكله المر ، ويحدث من الخلافات والانقسامات ما يهدد وحدة المجتمع وسلامة الدولة .

ونظرا لبراءة مالك واصحابه من الشبه والبدع الضالة ، على خلاف كثير من حملة المذاهب الاخرين الذين جمعوا بين الانتماء لمذهبهم الفقهي والانتماء لاحدى الفرق الخارجة عن السنة ، فقد وقع الاختيار نهائيا على المذهب المالكي ، لضمانة الوحدة التشريعية والوحدة القضائية من جهة ، ولبعده عن كل ما تشم منه رائحة الخلافات الاعتقادية من جهة اخرى .

ووقع ترسيم المذهب المالكي بالاندلس سنة سبعين ومائة ، اى قبل وفاة الامام مالك بتسع سنين ، ويحدثنا الونشريسي فى كتابه « المعيار » ، ان الحكم المستنصر بالله ، وكان ممن بحث عن احوال الرجال ، ونقر عن اخبارهم تنقيرا لم يبلغ فيه شأوه كثير من اهل العلم ، كتب الى الفقيه ابي ابراهيم - وهو اسحاق بن ابراهيم التجيبي - كتابا جاء فيه قوله : « وكل من زاغ عن مذهب مالك فانه ممن رين على قلبه ،

وزين له سوء عمله . وقد نظرنا طويلا فى أخبار الفقهاء ، وقرأنا ما صنف من اخبارهم الى يومنا هذا . فلم نر مذهباً من المذاهب غيره أسلم منه ، فان فيهم الجهمية والرافضة والخوارج والمرجئة والشيعة ، الا مذهب مالك ، فانا ما سمعنا أن احدا ممن تقلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع، فالاستمساك به نجاة أن شاء الله تعالى .

وهذه الفقرات من كتاب « الحكم » تلقي الاضواء على أحد العوامل الأساسية التي دفعت الى اختيار المذهب المالكي من طرف مغاربة الاندلس والمغرب ، وقد حقق هذا المذهب فعلا الهدف الرئيسي من اختياره ، فحمى المجتمع المغربي من الانقسامات العقائدية ، وقوى تماسكه وتلاحمه لعدة قرون ، على خلاف ما وقع بالمشرق من الهزات والفتن ، وقد كان قضاة المالكية ، وفقهاؤهم واقفين بالمرصاد لكل من تحدته نفسه بالدعوة الى بدعة او ضلالة ولا سيما فى بيوت الله ، ومن اشهر بالوقوف منهم موقف الصرامة ، سحنون بن سعيد التنوخي منذ ولي القضاء، «حيث فرق حلق اهل البدع» . ولأمر ما قام الفاطميون منذ غلبتهم ، والموحدون اول ولايتهم بالانتقام من المالكية ، لانهم حجر عثرة فى طريق الدعوات المنحرفة ، لكن لم يلبث الموحدون أن راجعوا موقفهم، وتراجعوا عن ادعاء المهدوية وعصمة الامام ، فعاد المذهب المالكي الى عنفوان شبابه ، وما كادت سلطة الفاطميين تنقلص ، حتى عادت للمذهب المالكي صولته ومكانته من جديد .

وهناك اعتبارات أخرى أدت الى هذا الاختيار نمسك عن تحليلها الآن اضيق الوقت ، على ان نعالجها عند نشر هذا البحث موسعا شاملا بحول الله وقوته .

خاتمة :

لعل العرض الذي قمنا به عن مختلف الاعتبارات التي أدت الى اقرار المذهب المالكي والتمسك به كاف لاثبات حقيقة تاريخية وعلمية واجتماعية ، فحواها أن اختيار المذهب المالكي لم يكن أمراً عفويا ولا عشوائيا على غير هدى ، وانما كان عبارة عن قرار تاريخي حاسم ، اتخذته اجدادنا الميامين عن بينة وعلى بصيرة ، اقتناعا منهم بأنه أصلح المذاهب

الفقهية لاقامة نظام قانوني وقضائي شامل ، ملائم للعقلية المغربية الواقعية ، والمزاج المغربي المتزن ، نظام متوازن ومتكامل ، يضمن الحقوق ، ويبسط رواق العدل ، ويعين على حفظ الامن والاستقرار ، نظام يحمي الامة والدولة من الهزات والانحرافات ، بما وضعه من قاعدة « سد الذرائع » ويفتح الباب فى وجه التطور والتقدم باستمرار ، بما دعا اليه وركز عليه من اعتبار « المصالح المرسله » ، ويحفظ على المجتمع تماسكه وانسجامه ، بما اقره من « العوائد والاعراف » دون تزمّت ولا اجحاف .

يضاف الى ذلك ان اختيار المذهب المالكي كان « اختيارا قوميا » منذ البداية ، فقد تم اختياره والدعوة اليه على يد نخبة مغربية صميمة عملت على تلقيه بعد تلقيه ، وعملت على نشره والتصنيف فيه ، والكشف عن اصوله وقواعده ومراميه ، وتحليل فلسفته ، وتوسيع دائرته ، وقامت بدور فعال فى ابراز معالمه وامتداد حياته عبر القرون ، ولم يخدم المغاربة اى مذهب آخر مثل ما خدموا المذهب المالكي ، ففي خدمته واثرائه برزت العبقرية المغربية فى ميدان التشريع والقضاء جيلا بعد جيل ، وبذلك اصبح **تراثا قوميا مغربيا** ، الى جانب كونه **تراثا اسلاميا وعالميا** ، وليس من قبيل الصدفة ان يكون **مغربي** فق هو الذي بسط سلطان المذهب المالكي فى الاندلس ، الا وهو يحيى بن يحيى **المصمودي** الذي كان لاحد اجداده شرف الجهاد تحت قيادة طارق بن زياد ، وان يكون **مغربي** فق آخر هو الذي بسط سلطان المذهب المالكي فى المغرب ، الا وهو دراس بن اسماعيل **الجرأوي** .

يضاف الى ذلك ان حياة المغاربة تكيفت منذ عدة قرون باتجاهات هذا المذهب ، الذي نظم علاقاتهم الخاصة والعامة تنظيما دقيقا .

ويا حبذا لو اقام امير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله مؤسسة خاصة للتخصص العالي فى المذهب المالكي تدعى « دار الفقه الحسنية » على غرار « دار الحديث الحسنية » يتخرج منها شيوخ اجلاء من طراز القاضي ابي بكر بن العربي العفاري والقاضي عياض ، وشهاب الدين القرافي ، وابي اسحاق الشاطبي ، واضرابهم ، فليس ذلك على همة امير المؤمنين ببعيد . ولا يغني عن اقامة مؤسسة متخصصة من هذا

النوع ما يدرس فى كليات الشريعة وكليات الحقوق من ننف محدودة ، وقواعد معدودة لا تسمن ولا تغني من جوع ، لا سيما والمذهب المالكي فى هذا العصر أصبح يعتبر حتى عند غير المالكية منجما غنيا ، ومنبعا ثريا ، يلجأ اليه شيوخ الفقه ورجال القانون فى العالم العربي والعالم الاسلامي للنقل والاقتباس ، ويلبثون فى قوانينهم قواعد على نفس الاساس ، كما يعنى بدراسته والاقتباس منه والتنويه به كثير من رجال القانون والاستشراق الغربيين المنصفين ، فما علينا الا ان نرد لمذهبنا المالكي كامل الاعتبار ، وان نحمل لاماننا مالك بن انس فى قلوبنا كل اجلال واكبار .

وخير ما نختم به هذه المجالة ما قاله الحافظ ابن عبد البر فى كتابه (جامع بيان العلم وفضله) وهو يوصي طلاب العلم والدين : « ومن طلب السنن فليكن معوله على حديث الأئمة الثقات الحفاظ ، الذين جعلهم الله خزائن لعلم دينه ، وامناء على سنن رسوله ، كمالك بن انس ، الذي قد اتفق المسلمون طرا على صحة نقله ، وشدة توقيه ، ومن جرى مجراه » ثم قال بعد ذلك : « وانما مالك ومن ذكرنا معه أئمة عند الجميع ، لان علم الصحابة والتابعين فى اقطار الارض انتهى اليهم ، لبحثهم عنه ، رحمهم الله ، والذي يشذ عنهم يسير نزر فى جنب ما عندهم » ، الى ان قال : « ومن اقتصر على علم امام واحد ، وحفظ ما كان عنده من السنن ، ووقف على غرضه ومقصده فى الفتوى حصل على نصيب من العلم وافر ، وحظ منه حسن صالح ، فمن قنع بهذا اكتفى ، والاختيار له ان يجعل امامه فى ذلك امام اهل المدينة ، دار الهجرة ومعدن السنة » .

إذا جاء الاثر فمالك النجم ، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم ، وما احد امن علي فى علم الله من مالك بن انس .

- الامام الشافعي -

الاستاذ عبد الهادي التازي

محصل على شهادة العالمية بجامعة القرويين ودكتوراة الدولة فى التاريخ
متخصص فى الشريعة الاسلامية والتاريخ .

(الملكة المغربية)

المذهب المالكي كشعار من شعارات الدولة المغربية للدكتور عبد الهادي التازي

كان مما لفت أنظار الذين يؤرخون المملكة المغربية أن (المذهب المالكي) يكون شبه شعار من الشعارات الأساسية للدولة في هذه الديار ، فهو كالعلم والنشيد الوطني ، وكالعملة التي تعتبر مظهرا من مظاهر الكيان المغربي .

ومع أن المذهب المالكي أسس - كما قلنا - كشعار من شعارات الدولة ، فإن المشرع المغربي اكتفى عند صياغة الدستور بالنص - في الفصل السادس - على أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام دون أن يعين المذهب المالكي كشعار على نحو ما فعل بالنسبة للراية المغربية في الفصل السابع . . لماذا لأن المشرعين المغاربة - وهم من صميم أهل السنة - كانوا فيما يبدو - يرون أن من الابتداع إلى الدين أن ينص في الدستور - كما فعلت بعض الدول الإسلامية - على نعمت لم يكن معروفا على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

علاوة على أن النص على ذلك ربما كان مؤشرا للتقليص من حرية الراي ، الأمر الذي ظلت الدولة تحترمه عبر وجودها وظهورها ، وظلت ، نتيجة لذلك ، لا تمنع في مدارس المذاهب الإسلامية الأخرى على صعيد الدراسات العليا .

ولقد اهتم الاجانب الذين قصدوا بلادنا ، منهم الدبلوماسيون او الزائرون العابرون بالجانب الروحي او بالحري بالمذهب المتبع من طرف المغاربة ، وهكذا لاحظوا اجمعين أن المغرب شعب مسلم بكامله ، لا يوجد فيه اثر لنحلة أخرى غير الاسلام .. كما لاحظوا اجمعين - وهذا بيت القصيد - ان المذهب الذي يمارس فيه هو مذهب اهل السنة ، وبالذات مذهب الامام مالك رضي الله عنه .

ومن ثم عادوا يؤلفون ويترجمون ما يمس هذا الجانب ليساعدهم على معرفة أكثر للشعب المغربي ، أفلم نقرأ عن ترجمة أمهات المذهب المالكي الى اللغات الاجنبية ؟ لقد ترجم بوسكي (Bousquet) مختصر الشيخ خليل . وترجم بيرشي (Bercher) رسالة أن ابي زيد ... أو لم نسمع عن استيعاب الموسوعات العالية لرجال الفقه المالكي ؟ أفلم نر كيف أن في الاجانب من تخصص في هذا المذهب أو ذاك ، وغدا يكون وحده مرجعا من مراجع الفقه الاسلامي . ولا بد أنكم قرأتم عن الصراع الساخن الذي دار هنا بمدينة فاس في مطلع هذا القرن بين شخصيتين بارزتين من رجال جامعة القرويين ، وبين أحد رجال الاكاديمية الفرنسية ، ويتعلق الامر بالشيخ السي بوبكر بناني ومولاي أحمد بن الامون البلغيثي من جهة ، وبين البروفيسور موليراس من جهة ثانية .

ولعل من المطرف ان نكتشف من خلال (التاريخ الدولي للمغرب) ان هذه البلاد ظلت تناصر اهل السنة ليس فقط على أرض المغرب ، ولكن في كل مكان ، ومن ثم كان رفض المغرب لكل المحاولات التي كانت تهدف لفرض المذهب الشيعي كمذهب رسمي للدولة ، سواء هنا في المغرب عندما كان الفاطميون يبذلون النفس والنفيس لتركيع المواطنين المغاربة لطقوسهم وعاداتهم ، أو هناك في المشرق ايضا عندما حاول التتر (الذين اعتنقوا الاسلام) فرض المذهب الشيعي على المسلمين في آسيا الوسطى حيث وجدنا ان المغاربة يقفون الى جانب المذهب السنّي .

اقول هذا وامامي كتلة من وثائق تاريخية موكولة تتحدث عن
خطابات متبادلة مثلا بين اسطامبول ومراكش ، بين السلطان مراد
الثالث وبين السلطان أحمد المنصور الذهبي الذي بعث بجوابه
(سنة 993 هـ - 1585 م) حول محاولة الصفويين في ايران فرض المذهب
الشيعي على البلاد ...

كل هذا اذكره ... لاؤكد المقولة التي تقدمت بها والتي تتحدث عن
المذهب المالكي كشعار من شعارات الدول المغربية ...

وقد لفتت تلك الظاهرة البارزة نظر محكمة العدل الدولية في لاهاي
عندما طلب المغرب من منظمة الامم المتحدة ان تستشير المحكمة الدولية
حول ما اذا كانت هناك روابط للصحرَاء مع المغرب .

وقد كان ذلك في يولييه عام 1975 عندما طرح القاضي السويدي
بيترين (Petren) هذا السؤال الذكي على الاطراف المتنازعة :

يقول النص :

« نظرا للاهمية التي أعطيت في هذه المناقشات لقضية الدين فاني
- يقول الرئيس بيترين - أريد ان اطرح السؤال الآتي على المستشارين
المغاربة والموريطانيين والجزائريين :

« لقد وضع لنا ان السكان في المغرب وفي الصحرَاء الغربية
مسلمون سنيون تابعون للمذهب المالكي ، فهل هذا الانتساب للمذهب
المالكي خاصة تميزهم عن باقي سكان الاطراف الاخرى في بلاد المغرب،
مثلا سكان الجزائر المجاورة » . (1)

هكذا كان السؤال الذي نعتبره في منتهى الاهمية ، وبالنظر لما
يولييه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني دائما من عناية لقضية

(1) Est-ce que cette appartenance au rite Malékite serait une Particularité qui les distingue des habitants d'autre Parties du Maghreb, par exemple des habitants de l'Algérie voisine ?

الشورى فى البلاد ، فقد تفضل أعزه الله قدعا صباح يوم السبت 26 يوليه 1975 ثلة من العلماء والمؤرخين المغاربة لابتداء الراى أمام محكمة لاهاي .

لقد تجلى واضحا ان المغرب يتميز عن البلد المجاور :

أولا - تشبثنا بالمذهب السننى المالكى بلغ حدا بحيث لم يوجد له ولا يوجد له الى اليوم منافس أو مزاحم يستطيع ان ينال منه ، سيما اذا عرفنا ان المغرب الاقصى ظل الدولة الوحيدة التى حافظت على كيانها عبر التاريخ ، ولن تستطيع أية جهة أخرى ان تقتحمها بما فى ذلك العثمانيون الذين استولوا على بقية أقطار الشمال الافريقى والذين وردوا يحملون معهم المذهب الحنفى فنشروه فى الجهات التى استولوا عليها .

ثانيا - أن الرحالة المغاربة الذين كانوا يقصدون بلاد المشرق ، سواء كانوا من شمال المغرب أو جنوبه كانوا يشعرون بالمفاجأة عند تخطيطهم الحدود المغربية ، لما يرونه من مذاهب أخرى منتشرة بتلك البلاد غربية عنهم . وكلهم كانوا يعبرون عن ارتياحهم من واقع الامر فى بلادهم ، ذلك الواقع الذى يتمثل فى اجماع المغرب على مذهب واحد هو المذهب المالكى .

ثالثا - أن الحكومة المغربية كانت تشترط فى الشخصيات التى تتولى مناصب سامية بالمغرب أن تكون ملزمة بالمذهب المالكى ، بل وملتزمة بتدريس أمهات الفقه المالكى فى المناطق التى يتولى الحكم فيها . وهذا بخلاف الحال فى البلاد المجاورة ، فان هناك مذاهب أخرى كانت وما تزال منتشرة ولكل منها قضاتها وأئمتها .

رابعا - أن المذهب السننى المالكى كان يسود بالنسبة للمغرب فى كل الثغور والمدن التابعة للدولة ، تلك المدن التى وردت مفصلة مدينة مدينة ، ثفرا ثفرا ، ابتداء من وادى الذهب جنوبا الى ما وراء مليلية شمالا ، حسبما تشهد بذلك وثائق الخارجية المغربية فى مطلع هذا القرن .

خامسا - أن في عداد الاسباب التي جعلت المغاربة يقاومون المد العثماني نحو بلادهم علمهم بأن هؤلاء يعتنقون مذهباً غير المذهب المالكي الذي ورثه المغاربة عن اجدادهم واسلافهم والذي أصبح يكون شعاراً من شعاراتهم التي يمتزون بها .

سادسا - أن جل المخطوطات ، ان لم نقل كلها ، من التي توجد في المكتبات العامة والخاصة ، سواء في شمال المغرب او جنوبه بما في ذلك تخوم الصحراء . جلها مخطوطات وكتب فقه في المذهب المالكي على ما يكشف عنه واقع تلك المكتبات ، وهكذا تأكد أن لا صلة للجيران بهذا الجزء من الوطن الذي لم يعرف تسرباً لا للمذهب الحنفي ولا كذلك للمذهب الإباضي . وإنما ظل ينتسب للمذهب المالكي وحده ، ووحده فقط ، كالشأن في سائر اجزاء المغرب .

ولم يكن من الصعب على قضاة محكمة لاهاي أن يتأكدوا من صحة الأطروحة المغربية ، فقد وجدوا في الموسوعات المتداولة فيما بينهم والمكتوبة بكل لسان ما يؤكد أن المذاهب المعروفة في البلد المجاور لم تجد لها نفساً إطلاقاً في سكان الصحراء نتيجة لأنها أي الصحراء تكون مع المغرب حزاماً قوياً يجعل حداً لكل التطلعات الخارجية نحو المحيط الأطلسي .

ولا أريد هنا بهذه المناسبة أن أفصل الكلام عن الظروف التي بسط فيها المذهب المالكي ظلاله على ديار المغرب ، فلقد أولى مؤرخو التشريع الإسلامي هذه النقطة ما تستحقه من العناية ، ولكن لا بد لي مع ذلك أن ألاحظ أن القولة التي نقلها عن اللخمي أبو سعيد الحميري (ت 573) في كتابه (الحور العين) والتي يقول فيها : « أنه لا يعلم ناحية في الدنيا غلب عليها التشيع إلا مدينة قم في إيران وبلاد أدریس . (2) في المغرب » .

هذه القولة تظل في عهدة البلخي وفي عهدة الذين نقلوا عنه ، فان الامام أدریس بن عبد الله بن الحسن مؤسس دولة الادارسة ، الدولة

(2) الحور العين تحقيق كمال مصطفى ، طبعة طهران 1978 ، ص 193 .

الاسلامية الاولى فى المغرب ، كان هو نفسه رائدا من رواد المذهب المالكي بالمغرب ، اليس هو القائل فى مجال التقدير لمذهب مالك : « نحن أولى بمذهبه » ؟

نحن نعلم جيدا عن الصراع المذهبي الذي اكتسح بلاد المغرب منذ ان التجأ اليها الخوارج والشيعة والمعتزلة والحنفية والظاهرية . ولكننا نعلم كذلك ان بلاد ادريس كما يسميها البلخي ، كانت ثالثة قاعدة للمذهب المالكي بعد مدينة الرسول وحاضرة القيروان .

وهكذا فانه مهما نسب من فضل للمعز بن باديس ولزياد بن عبد الرحمن ، فان للادارسة اترا بارزا فى تشجيع الفقه المالكي وترويجه فى ديارهم ،، انهم لن ينسوا اطلاقا وقوف الامام مالك الى جانب قضيتهم فى المشرق ، عندما اصدر فتواه المعروفة فاستهدف معهم للاضطهاد والحرمـان ..

أردت بهذا التدخل أن أؤكد على دور الادارسة فى تثبيت المذهب كاختيار أول من اختيارات الدولة المغربية ، ولا بد أن لا نفعل عن الصراع المرير الذي كان يصدم دولة الفاطميين الشيعة مع دول الامويين السنة من أجل الاستيلاء على بلاد ادريس ..

كما لا ننسى الموقف التلقائي الذي اتخذته المغاربة ليس فقط للحفاظ على حيادهم أمام تنافس هؤلاء وأولئك ، ولكن الدفاع — وهذا مهم — عن شعار الدولة الذي ارتضوه وأقتنقوه .. ولم يكن ليؤثر فيهم ما لقوه من عنت وقهر وقمع وهم يتساقطون أمام اضطهاد الغزاة الذين كانوا يرغمونهم على ان يمارسوا شعائر لم يكونوا يعتادونها وهم ملكية ..

ولقد استرجع المذهب المالكي انفاسه بظهور دولة المرابطين التي عملت بتوجيه ابي عمران الفاسي (430 هـ) عندما أحال على أحد الرجال الذين كان يعتمد عليهم فى المغرب لنصرة المذهب المالكي . حيث شاهدت الامبراطورية المرابطة من جنوب أوروبا الى تخوم افريقيا . ومن الغرب الى الشرق وحدة تاريخية مذهبية لم يسبق لها مثيل ...

ولم تكن معارضة دولة الموحدين للمذهب المالكي فيما قد يبدو
الا ضرا من محاولة لاتخاذ موقف متوازن ازاء المذهب املا فى تحقيق
الوحدة الاسلامية الكبرى بين المشرق والمغرب . الم تقرا عن الموحدين
انهم كانوا يمهّدون لتوحيد جناحي العالم الاسلامي .. او لم نسمع عن
الصراع الخفي بين بلاط بغداد وبلاط مراكش ؟ فلعل التظاهر بموقف
تشجيع مذاهب شرقية اخرى .. ولعل الاجهار على بعض كتب الفروع
المالكية كانت وراءه اهداف بعيدة .. ؟

ولا بد ان نتساءل هنا عن اسباب هجرة بعض الادمغة المغربيــــة
الى اوربا من امثال الشريف الادريسي الجغرافي المشهور الذي استفاد
روجي الثاني من مقامه بصقلية فطاب اليه ان يضع له خارطة للعالم
ظلت الى الان حديث المجالس الاكاديمية التي اعتبرت الخارطة كأعلى
مستوى وصل اليه علم الكارتوغرافيا الاسلامية.. فهل ان الادريسي هاجر
لانه لم يكن راضيا على موقف «المصامدة» كما يسميهم ، ام انه كان يسخر
من دعواهم عصمة المهدي هذه الدعوى التي صدمت اهل السنة ؟ ام انها
انفة من سيطرة غير مقبولة بالنسبة له وخاصة فى الميدان العلمي .
ان حديث الشريف الادريسي عن « المصامدة » فى كتابه (نزهة المشتاق)
كان مليئا بالهمز واللمز ، فى الوقت الذي كان ينعت فيه روجي بالملك
المعظم . ، فقد وصفهم بانهم « يحجون » الى قبر محمد بن تومرت ولم
ينعته بالمهدي . ووصفهم بانهم ينهبون الاموال ويسفكون الدماء ويبيحون
الحرام ، كل ذلك بمذهب لهم يرونه حلالا . ؟

ان السر فى تنقل الشريف الادريسي الى صقلية ما يزال محتاجا
الى البحث والتنقيب .. ولا بد ان نتساءل ايضا عن السر الذي كان يكمن
وراء تراجع القاضي عياض عن السير فى ركب الموحدين بعد ان كان
اعلن ولاءه لهم فى الفترات الاولى من ظهورهم ، هل لانه كان مالكيـا
ملتزما ، وكان يرى فى اعتماد الموحدين المذاهب الاخرى ما يمس بذلك
الالتزام .. لا بد ان نرحل الى مدينة مراكش لنزور ضريح القاضي عياض
لنجد النص فى شاهد قبره على انه (مالكي المذهب) ولا بد ان نقبل

الافتراض بان النقش يرجع لتاريخ دولة بني مرين التي قدرت فى القاضي عياض تمسكه بمبداه ومذهبه ، ولا بد مع هذا أن نقبل الاطروحة التي تقول بأنه لو امتدت أيام الموحدين طويلا لامتدت السن المهيب الى مؤلفات القاضي عياض (أحد سبعة رجال مراكش) على ما يقول اليوسي ، فلولا بنو مرين الذين بادروا للاهتمام بتراث عياض لاصبح عياض فى عداد ضحايا الفترات القلقة من التاريخ !

مهما يكن فان دولة الموحدين لم تلبث ان انهارت تحت وطأة دعاة المالكية من امثال القاضي الذي كان اكبر واعظم من ان يغط بسهولة والذي يعتبر كتابه « المدارك » احدى وسائل الرد على الموحدين .

لقد استطاع بنو مرين بسرعة ان يسترجعوا ما ضاع ، وان يبعثوا ما فقد من كتب المالكية ، وفى صدرها كتاب المدونة الكبرى لسحنون التي نسخها فقهاء فاس من حفظ أبى الحسن علي بن عشرين عند ظهور ملوك بني مرين ..

ولكون المذهب المالكي شعاراً من شعارات الدولة — كما قلنا —
اهتم الحكام بكل ما يقوي ويدعم وينمي من الدراسات المتعلقة بالمذهب ، وأن الله ليزع بالسلطان ما لا يزعه بالقرءان كما يقولون .

وهكذا وجدنا الدولة المغربية تهتم بالموضوع وتكثر المجالس العلمية فى مختلف قواعد المغرب ، كما تهتم باعداد الاطر الصالحة لاشاعة المذهب سواء فى الجبل أو السهل ، فى البادية أو الحاضرة .

فلقد عرفنا تأسيس المدارس العلمية منذ عهد المرابطين . واستمر تشييدها أيام الدول المتلاحقة وخصوصا أيام عهد بني مرين ، أن هذه المدارس كانت تعتبر بمثابة احياء جامعية تؤوى مئات الطلاب . لقد شاهدنا سلسلة من المدارس ، ليس فقط فى مدينة فاس ، ولكن فى مدينة مراكش ومدينة سلا .. ومكناس ومدينة تازة ووجهة ،، لقد كانت جامعة القرويين بفاس فى واقع الامر غير التي نشاهد بنانا بين سوق

الشماعين والصفارين ، ولكنها كانت جامعة متحركة تسكن قرون الجبال
وتخوم الصحاري بمن يتخرج عنها من الطلبة الافاقيين الذين يعودون
لبلادهم فقهاء علماء .

لقد كان بفاس زهاء مائة وأربعين كرسيًا علميًا تابعًا لجامعة القرويين
ثلثها متخصص للدراسة الفقه المالكي ، وقد انتهى عدد المساجد لو
الفروع التابعة لجامعة فاس الى سبعمائة وأثنين وثمانين في بداية
العهد المريني .

والى جانب المدارس والكراسي والمجالس اهتمت السلطات باعداد
الكتاب الذي يدور محوره حول المذهب المالكي . وبهذا نفسر الثروة
الهائلة الضخمة التي تتوفر عليها المكتبة المغربية من حيث حصيلة
المخطوطات والكتب المتعلقة بالمذهب المالكي ، فليست هناك مكتبة
تخلو من عشرات النسخ لكتاب الموطأ الذي يعتبر أول مؤلف اسلامي
معروف ، وليست هناك مكتبة في المغرب تخلو من رسالة ابن أبي زيد
القيرواني (ت 386 هـ 996 م) ومختصر الشيخ خليل 776 - 374 (3)
وتحفة ابن عاصم 829 - 1426 وأرجوزة ابن عاشر 1040 - 1631
ومما يتصل بهذه الامهات من شروح وحواشي وهوامش وتعليق ..

ومن خلال استعراضنا للكتب والمادة التي يعتمد عليها المشايخ
بالمجالس العلمية نجد ان السلطات المغربية لم تتردد أيضا في استجلاب
المصنفات المتعلقة بالمذهب المالكي ، كما وقد شجعت المؤلفين المغاربة

(3) ظهر كتاب الشيخ خليل بعد نحو من عشرين سنة فقط على ظهوره بالمشرق ، والدخول
متن سيدي خليل الى المغرب قصة مطرفة . فقد حدث ان كان بتلمسان شاب جميل
المعيا أنيق الملبس على نحو ما سمعنا عن نصر بن حجاج في المشرق ... صادف
ذلك الشاب فتاة من بنات تلمسان فلم يشعر الا وقد رماها بنظرة مارقة ، فقرعت
اسماعه بهذه الآية الشريفة : « يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور .. »

وهنا خجل الشاب من وضعه وازمع على ان يقصد مدينة فاس ليشغل بما يعنيه
حيث وجدناه يحمل معه عام 805 هـ في جملة ما يحمل من كتب ، مختصر الشيخ
خليل الذي أصبح مرجعا للناس ومشغلهم ...

ولا بد ان لا ننس ان بالمغرب الاقصى جاليات كثيرة وردت اصلا من اليمن ومن
العراق والبصرة وبغداد ومن الشام ، وكل هؤلاء العراقيين والبصريين والبغداديين
وردوا مصحوبين كذلك بمصادر ومراجع مالكية ...

انفسهم على الكتابة ورصدت احيانا الجوائز السنية الذين يقومون بتحرير
المواضع المطروحة مما نرى آثاره فى كتب الفتاوى وللنوازل التي تعتبر
من أثرى مصادر الفقه ، وهي تعطى فكرة عن الحياة الاجتماعية
فى المغرب .

ولا بد ان نتساءل عن السر الذي يكمن وراء انسجام المغاربة مع
المذهب المالكي على النحو الذي نعرف ، فى كل الجهات لا تتميز فيه
طبقة دون الاخرى .

ان هناك عددا من الاسباب التي لفتت نظر المؤرخين والباحثين
ولقد استوعب الباحثون الاسباب التي ذكرها السابقون من أمثال
ابن خلدون ، على نحو ما قرأناه بمناسبة أسبوع الامام مالك بن أنس
الذي نظمته شباب النهضة الاسلامية بالمغرب أوائل السبعينات (4) ؟ .

وان السر الذي يكمن وراء انتشار المذهب المالكي هو انتساب
الامام مالك لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونحن نعلم عن تعلق
المغاربة بكل من او ما يمت بصلة لمثل هذه العتبة المقدسة ، ان
المدينة المنورة ليست كاي مدينة أخرى وانه لم يسمع فى التاريخ
ولن يسمع أيضا فيما اعتقد عن مغربي حج ولم يقم بزيارة المدينة
المنورة .. مستحيل . ومن أمثال المغربة المعروفة فى معرض
الاعمال الغير الكاملة مما يقول : « حج ما زار » ..

على ان هناك سببا بارزا آخر ، ذلك ان العرب الوافدين على
المغرب كانوا فى جلهم من أهل اليمن ، ومعلومة هي صلات لسكان
المغاربة الاصليين بالعرب اليمنيين ، وبما أن مالكا يماني ، فلا غرابة
ان نرى هذا التجاوب بين بني العم .

(4) أريد بهذه المناسبة ان أغتنم الفرصة لأذكر بان المصدر الذي كان يشير اليه الاستاذ
علال الفاسي رحمه الله عند انتقاده للاستاذ ميشو بيلير فى العدد العاشر من
مجلة الايمان ، كان هو المحاضرة التي ألقاها هذا الاستاذ بالفرنسية بعنوان :
« الزوايا الدينية » والتي طبعت أوائل العشرينات .

حضرت فى الشهر الماضى مؤتمر الأثار فى صنعاء ، ولشد ما كانت المفاجأة بالنسبة الى وأنا أقف فى المعرض الناجح الذى أشرفت عليه منظمة اليونيسكو ، أقف على اثرين : أولهما نماذج من الحروف الحميرية التى لم تكن تختلف فى مجموعها عن حرف (تيفيناغ) ، ثانيهما نماذج من تصاميم القصور اليمينية القديمة التى لم تكن تختلف إطلاقاً عما اعتدنا مشاهدته فى ورزازات وفى قصبة ابن شهاب بصفة خاصة على ما رأينا فى اللوائق التى عرضتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بمناسبة يوم النداء العلمى لانقاذ مدينة فاس بمتحف البطحاء .

أريد القول ، انه كان هناك تجاوب واضح بين السابقين واللاحقين قرب (الموالك) بعضهم بعضاً ..

ولكن هل كان نشر المذهب يقتصر على العلماء من الرجال ؟ أن التاريخ ليسجل ان المرأة المفريية قامت بدورها فى سبيل توعية المواطنين من بنى جنسها .. ان فى حملة تلك الكراسى العلمية ما كان موضوعاً بحيث يستفيد منه الرجال والنساء على السواء .

فلقد كان الكرسي الشهير المعروف بكرسى الأسبوع الأعلى يقع فى زاوية من المسجد تحت الخلوة التى كان النساء يقصدنها والتى كانت تطل على الكرسي المذكور ، يفصل بينها وبين المسجد حاجز من شبالك خشبي ،، هناك كن يستمعن لرسالة ابن أبى زيد ومختصر خليل .

كما كان هناك كرسي مماث يقع تحت مستودع ابن عباد ظهر خصّة (فوارة) لعين يمكن النساء من متابعة الدرس من فوق ، دون أن يكشف عن تقابهن ..

ومن فى الناس لا يعرف أن الست خيرونة كانت لها يد فى نشر العقيدة الأشعرية بدور الفقهاء اللائي يتوزعون على حارات المدينة ، وفى كل حومة من قواعد المغرب .

لقد كان لانتشار المذهب المالكي وتوحيد الناس على خطاه أثره على كل من الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية .

قد ساعد من جهة أولى على ازدهار الحركة الفكرية وتركيزها في اصول المذهب ومداركه ، فكلم الف من كتاب ، وكلم حرر من موضوع وكلم من نظرية طرحت على بساط البحث .. آلاف من المسائل والقضايا فيها ما كنا نعتبر إيراده ضربا من العبث بالوقت والورق لكنه حصل بالفعل ونحن نعيشه ...

سأذكر لكم على سبيل الفكاهة نازلة من النوازل الفقهية مرت بي في باب اليمين من مختصر الشيخ خليل ، عندما تحدث عن الزوج يقدم لزوجته قطعة لحم وهو يحلف لها ان تأكلها ، فتخطف الهرة قطعة اللحم فحتى لا يحن ولا يقع في مأساة طلاق مثلا ، قام الزوج بشق جوف الهرة واخراج القطعة وتقديمها لزوجته من جديد .. هل يكون بارا في قسمه او حائثا . ؟ اسمعوا للنص - ان صح التعبير - للشيخ خليل حول هذه النازلة : « وفي لتأكلها فخطفتها هرة فشق جوفها واكلت قولان »

لا أخفيكم انني وطلبتني ، كنا نستبعد ان تجري هذه النازلة ، وان يقوم شخص بشق بطن هرة لاخراج القطعة .. لكننا جميعا قرأنا وشاهدنا في الصحف منذ شهور خلت صورة لطفلة لا أذكر جنسيتها اقتطع كلب أنفها فعمد أهلها بسرعة الى الكلب وتحيلوا على اخراج ما في جوفه حيث أعيد زرع الانف في وجه الطفلة ؟ وقريب من هذه النازلة وقع في دولة البحرين قبل أسابيع ، فهل كان الشيخ خليل يجازف عندما كان يأتي بمثل هذه النوازل .. الواقع اننا نحن بقصورتنا وضيق أفقنا كنا آثمين في اتهام فقهاءنا بالتحليل والتصوير والتعمل ...

وان من اطراف أنواع النقاش الذي كان في الواقع وليدا لمبادئ المذهب المالكي ، ذلك النقاش الذي احتد بين رجال الفقه منذ قرون حول موضوع يعتبر اليوم حديث الساعة في مجالس القضاء وفي ندوات الاذاعة والتلفزة ، ويتعلق الامر بالزوجة تشارك زوجها في أشغاله

وتخفف من أعبائه ، هل تشاركه فى الاموال التي تدخل عليه ، لعلكم تسمعون بين الفينة والاخرى بأن هذه الموظفة تشكو من زوجها . انه يريد ان يستبد بحالاتها وان هذا لموظف يريد ان تكون الاملاك باسمه دون زوجته .

لقد كان للفقهاء المغربي ابن عرضون الشفشاوني راي رائد عظيم حول المرأة تخدم فى بيتها مع زوجها الخدمة الظاهرة والباطنة من خدمة الزرع فى الصيف والفواكه فى الخريف ولقط الزيتون وشبه ذلك وخدمة البيت كلها من طحن وخبز وحطب .

ابن عرضون يقول بحق المرأة فى اقتسام الثرة مع زوجها على التساوي . لقد كان لهذه الفتوى صدى كبير فى اواسط العلماء . وكان من اشد الفقهاء تحاملا على هذه الفتوى الشيخ عبد القادر الفاسي الذي كان يرى ان عرف مدينته يخالف تلك الفتوى التي تعتبر فى نظري فتوى حية رائعة استمعوا الى هذه الابيات من العمل الفاسي :

وخدمة النساء فى البوادي	للزوج بالدرس وبالحصاد
قال ابن عرضون لهن قسمة	على التساوي بحساب الخدمة
قالوا : لهم فى ذلك عرف يعرف	لكن اهل فاس فيها خالفوا

اعتقد انه لو عاش الشيخ عبد القادر الفاسي اليوم وراى السيدات فى مدينته وفى المغرب كله يتزاحمن مع الازواج على الشغل . . ولو راى ان فيهن من لا تعتبر ان مالها ومال زوجها سواء . لكان استرشد بمذهب ابن عرضون فى ان يجعل للزوجة حصة نسبية من ثروة زوجها على مقدار ما تتقاضاه ويتقاضاه .

اما عن الاثر السياسي الذي كان المذهب المالكي فاطنه ابرز من ان يرضح فقد عرفنا عن الكسب الذي جنيناه من وحدة المذهب سواء فى الخارج او الداخل . . ففى الخارج كان عوننا لنا على مقارعة الصليبية التي كانت تهددنا من الشمال ، فكنا نألف ولا نختلف ، وكنا نتجه فى وحدة مترابطة للقتال لا نجد وراعنا من يشبط او يفشل او يخذل ؟

وكنا من الناحية الداخلية ايضا كتلة واحدة وراء القائد.. لا يستحسن
الواحد منا ما يستخفه الآخرون ولا يستنكر الواحد منا ما يستصغره
الآخر ..

وكما كان لنشر المذهب المالكي اثره على الناحية الفكرية والسياسية
كان له اثره كذلك على الناحية الاقتصادية .. ضرورة ان توحيد المذهب
يعني اختفاء الصراعات العقائدية المتلفة والمدمرة . وانه ما خرب ويخرب
اقتصاد البلاد الا التناحر والتطاحن .. امامكم وامامي عدد من الدول التي
تتمزقها المذاهب ، فالشمال سنة والجنوب شيعة ، والسنة بدورها فرق،
والشيعة كذلك فرق .. وكل فرق تتزعمها آية . طاقات مفتتة وجهود
مبعثرة .

كنا نعيش مع النازلة الواحدة في المدينة الواحدة ، لكل رأيه
فيها ، قد يصل الرأي لدرجة تكفير الرأي الآخر .. وهنا يضيع السر
وتتهدد المروءة .. فهؤلاء يحرمون وأولئك يبيحون والآخرون يجلدون
والمواطنون بين هؤلاء وأولئك تائهون ..

هذا وان من الواجب التأكيد على ان المملكة المغربية كانت
تساعد بل تعمل على تصدير المذهب المالكي لما وراء البحار ولما وراء
الصحراء .. الى تخوم افريقيا ومجاهل آسيا .

وهكذا فان كل الذين ارخوا للحركة الفكرية في دول افريقيا وعرفوا
بالوجود الاسلامي هناك ، واهتموا بنوع للمذاهب المتبعة في تلك
البقاع .. كلهم كانوا منصفين عندما عزوا انتشار المذهب المالكي الى
رجال سافروا من المغرب الى تلك الاعماق ، او طلبه شدوا الرحلة
الى جامعة القرويين من تلك الافاق ليعودوا الى اوطانهم مزودين مؤهلين .

ثم هل يغيب عن ذاكرتنا ما تناقلته مذكرات الرحالة الذين جابوا
آسيا ... مذكراتهم التي تتحدث عن أن تلك الجهات النائية مدينقة في اسلامها
بل وفي انتسابها للمذهب المالكي الى حجاج مغاربة قصدوا تلك الثغور
فانقطعوا اليها دعاء مرشدين .

وهل يجهل أحد منا دور ابن بطوطة نفسه فى التعريف بالمدھب المالكي أثناء رحلته الطويلة التي استوعب ثلثي العالم .. ولقد وقفت فى أوائل السبعينات على خزانة فى (دبی) كانت فى ملك الشيخ محمد ابن عبد السلام الريفي الذي كان قاضيا فى (ديره) والذي ترك جملة من الكتب تعتمد على الفقه المالكي صارت الى وزير الدولة الاستاذ المرحوم ابن سليم على ما نشرته فى ابانه بالمجلات المشرقية والمغربية .

وقد ذكر له الشيخ راشد حاكم دبی بانه تتلمذ على شيخ اخذ الاصول المالكية عن علماء مغاربة .

ولقد اكتسب المدھب المالكي بالمغرب شعبية لم يبلغها واصل .

لقد كان الناس وخاصة منهم الذين يقضون سحابة يومهم فى المصنع أو المتجر ، كانوا يتمكنون فيما بين العشائين من حضور مجالس علمية رائعة تقوى من ذاكرتهم وتساعدهم على معرفة الحلال والحرام ، فكانت هذه الدروس الليلية بمثابة النشاط الموازي الذي يعوض المعوقين والمنشغلين .

هل بعد هذا نحن بحاجة لان نعرف صدق المقولة السائرة :
« الاعراف فى ديار المغرب لا بد ان نجد لها سنداً فى الفقه المالكي » ؟

ولنستعرض امامنا بعض المقولات التي تجري عفوا على السنة الناس وهي مما يرجع لاصل فى الفقه او مدرك من مدارك السنة .

كثيرا مما يحدث ان ندخل على قوم وهم يتناولون اكلهم فنقرأ السلام عليهم ، ولكنهم عوض ان يجيبوا عن السلام يقولون : « لا سلام على طعام » وهم ولو انهم يقصدون الى دعوتك لمشاركتهم فى الطعام ، لكنهم ينطلقون من اصل مالكي منصوص عليه فى باب الجهاد من مختصر الشيخ خليل عند قوله وهو يردد فروض الكفاية : « ورد سلام » ، فقد ذكر الدسوقي على الاكل ولا يرد « ومعلوم ان مطالبة الاكل برد السلام قد يعرضه وهو يجيب ، الى الاختناق ..

ويتفق ان تجد نفسك فى ازدحام على حانوت سفاح ويحاول آخرون ان يتجاوزوا الصف ويحصلوا ، من فوق رأسك على سفنح فتسمع آخرين يحتجون بقول الفقهاء (قضى للسابق) .. وعندما يسمع الناس هذه الكلمة الصغيرة فى مبناها ، الكبيرة فى معناها ، يلوذون بالصبر والاناة انتظارا لدورهم ونوبتهم ..

ويحدث ان تجتمع مع قوم وتحدث اليهم عن جدى شخص من الاشخاص ويقتنعون معك بما تقول ، لكنه لا يلبث ان يظهر شخص اقدر واكفا واجدر فيميل القوم الى تفضيل هذا الاقدر الاكفا الاجدر مرددين قاعدة الفقه المالكي : « اذا حضر الماء بطل التيمم » ..

لكن الاكثر طرافة من هذا ان تسمع بعض المغاربة وهم يتحدثون عن شخص متساهل متحيل فى سلوكه ، ينعته بقولهم « مسلم حنفي » ، فماذا كانوا يقصدون ؟ ليس الامر فى نظري الا انعكاسا لروح النقد المستمر من طرف المالكية لزملائهم الحنفية ..

ولا بد لشرح هذه القولة من استعراض حالة من حالات الخلاف بين السادة الحنفية والمالكية ، ويتعلق الامر بقضية الحيل فى الاسلام هل تجوز او لا تجوز ؟ نحن نعلم ان الحنفية يجيزون التحيل يقوم به المسلم للتفقت من اداء واجب من الواجبات : مثلا شرط زكاة المال عندنا ان يمر عليه الحول .. لكن الحنفية تقول : لو ان هذا المالك تحيل فوهب ماشيته مثلا لزوجته قبيل انتهاء الحول ثم تحيلت هي الاخرى فباعت لزوجها الماشية بعيد ذلك لما وجبت لا عليها ولا عليه زكاة ولو استمرا يتلاعبان كذلك مدى الحياة .

المالكية لهم موقف ازاء الحيل .. فالحيل التي تهدف لنسف ركن من الاركان او ابطال ادب من الآداب لا تجوز ، لكن الحيلة التي يقصد منها التخلص من ظلم او التقليل من كارثة لا بأس انها تجوز . سوف اكتفى هنا باحالتكم على كتب الاصول لتتبع الموضوع ، فان ما كان يهمني هنا ترديد بعض المغاربة لعبارة (مسلم حنفي) فى معرض التعبير عن التساهل ... هناك اقوال اخرى تجري على اللسان نحو قولهم :

(صلاة الشك باطلة) عندما يقررون الابتعاد عن نتيجة مشكوكة الى نتيجة اخرى محققة الفائدة .. كما تجري على اللسان كثيرا قاعدة « لا ضرر ولا ضرار » وكلمة « الضرورات تبيح المحظورات » ، وعبارة الشيخ خليل فى فصل غسل الميت « المعين مبتدع » وعبارته فى باب ازالة النجاسة : « وعفى عما يعسر » و « لا يستنجى من ريح » .

دعونا فى هذا الجو الشعبي المرح ، ان الحجاج المغاربة يعرفون ان (ابن عاشور) فاق كل مطوف ممن عرفتهم مكة والمدينة (الحرمان الشريفان): لانه يصف مناسك الحج ومراحله بدقة واتقان وكأنما هو دليل ازرق ...

وان المصلين المغاربة يعرفون كذلك ان رسالة ابن ابي زيد القيرواني تأتي فى القيمة عند وصفها لشعائر الصلاة ... ولأجل هذا وذلك كان فى العبارات الشائعة والصائبة لدى عوام الناس قولهم : «صل بالرسالة وحج بابن عاشر» أى اذا اردت ان تتقن حجك فاعهد على وصف ابن عاشر ، واذا اردت ان تتقن صلاتك فعليك بالرسالة .

وكثيرا ما نرى الناس يتبادلون الراي حول عمل ما من الاعمال هل يقومون به البداية او فى النهاية ؟ فنسمع احدهم يردد ما ورد فى فصل السهو من مختصر الشيخ خليل : « وصح ان قدم او آخر » ويقتنع الكل بأن المهم فى الامر أن يتم انجاز ذلك العمل سواء اكان هذا فى هذا الموقف او ذاك .

ومن منا لم يسمع بالمثل الجاري على الالسننة والذي يقول : (المحتب فضولي) ان كلمة الحتب تحريف للفظ (محتسب) ، والمحاسب وظيف حضاري كما تعلمون من اختراع المالكية ، يعنى الشخص الذي ينصبه امير المؤمنين لكي يسهر على راحة وسلامة المواطنين ، فهو يتدخل لمراقبة ما يباع لهم من مأكول وما يحكي لهم من قول ، وفيما يلبسون وما ينسجون ... وحتى فيما يبنون وما يفرسون ، فعليه اذن ان يكون اداة متحركة يقتحم كل معمل وكل مكتب وكل مطبخ ، فهو بحسب وظيفته هذه يجب ان يكون «فضوليا» والا فهو ليس بمحتسب ؟

سمعت بعضهم يرددون عبارة سيدي خليل في باب الحج : «ولذلك اتخذت السلاليم» في معرض نكتة دقيقة لا تخلو من طرافة ، وحتى نتذوق عمق النكتة اذكر أن هناك أمورا تعتبر من قبيل المكروه بالنسبة للزوج المحرم في الحج ، مثلا حمل زوجته الحاجة للمحمل لما قد يجره ذلك من استلذاذ يتنافى وحرمة الحج . ومن أجل ذلك وضعت السلاليم رهنا إشارة الحاجات ليصممـدن بها الى المحمل فلم يكن من العبث وجود « السلاليم » ومجرى (سلاليم) ، يعني اذا رايت تدبيرا ما فاسأل ، فانك مدرك أسبابه ... ونحن كثيرا ما نشاهد تشريعا من التشريعات يتخذ ، وفي البداية قد لا نعرف أسرار وضع ذلك التشريع ، لكننا لا نلبث ان ندرك لماذا اتخذت السلاليم؟

ان هناك كثيرا من الافادات الجارية على اللسان ، مما يدل على شعبية المذهب المالكي ورواج الامهات التي تعالجه ..

افلم يرد على مسامعنا المثل السائر : « مخزن جابر ولا رعية فاسدة » وهو يعني ان الحكومة الجائرة افضل من شعب فاسد « وهو الفقه الذي نقله الديباج (ص 276) عن الإمام مالك بلفظ آخر : « سلطان جائر سبعين سنة خير من أمة سائبة ساعة من نهار » .

وهل لا نتذكر ما جرى من نقاش بلغ حد الشنثان حول ما نسب استرواحا للإمام مالك : « يجوز قتل الثلث لاصلاح الثلثين » (5) .

وكثيرا ما نسمع الناس يتحدثون عن عدم ما خرج في ان يدافع المرء عن كفاءته ، ان يشعر الآخرين بصفة او بأخرى انه أهل لهذا المنصب او ذاك ، وانه يشرح نفسه لهذا المكرمة او تلك فيرددون قولة الغيـسخ خليل التي تشجع الفقهاء على ان يطالبوا بمنصب قاض مثلا اذا كانوا يرون أنفسهم مقتدرين على ذلك ، فالناس يقولون : (ونعـب ليشهر عليه) اي انه من المستحب بالنسبة للعارفين ان يتقدموا بترشيحاتهم للانتظام في السلك شريطة ان يكون غير جهلة .

وكثيرا ما يستشهد العامة عندما يلحظون تنافر وتناحر ، بل وتآمر اصحاب الحرفة الواحدة فيما بينهم ، فيقول بعضهم « خوك فى الصنعة عدوك » ولكن الخواص منهم يرددون قولة الشيخ خليل « **وعالم على مثله** » اى ان شهادة العالم على مثله لا تجوز نظرا لما يوجد عادة بين « الزملاء » من تنافر وتطاحن ، الامر الذي جعل بعض الفقهاء يعطونهم تشبيها مريرا يجعلهم « كالتبوس فى الزريبة » على حد تعبيرهم .

وكثيرا ايضا ما يستشهد العامة عندما يلحظون مبالغة زائدة تصدر من قوم بعيدين غالبا من موقف المبالغة يقولون : « اهل الميت صبرو والمعزون كفروا » لكن الخواص منهم يقولون : « مالكي اكثر من الامام مالك ... »

الى غير هذه المقولات التي نكتفي بالاشارة اليها والتي تعبر عن تغفل المذهب المالكي فى المغرب بما يقوم عليه من قواعد وما يحتضنه من آداب جعلت المغاربة يحفظونها ويرددونها فيما بينهم كما يرددون الامثال الشعبية .

وعند ما كان المغرب يتعرض للعدوان العسكري فى مختلف العصور الممتاخرة ، كان المغاربة قاطبة ذكورا واناثا يندفعون نحو ساحة القتال وكانهم جميعهم يحفظون قول الشيخ خليل فى باب الجهاد : « **وتعين بفجء العدو وان على المرأة** » اى ان الجهاد يصبح فرض عين على كل مواطن ومواطنة اذا ما اقدم العدو على اقتحام الارض ..

ومن ثمت قويت حاسة الجهاد لدى المغاربة والمغربيات الذين ظلوا وظلل بالمرصاد لكل المتربصين والطامعين . ويحسبكم أن ترجعوا لقراءة ما كتب عن الظروف التي واكبت عقد الحماية ونسفها سواء سنة 1912 او 1955 لتعرفوا مدى ايمان المغاربة بصدق قول سيدي خليل : « **وتعين بفجء العدو وان على المرأة** » .

ثم وحسبكم أن تعيشوا مع هذه الجملة وانتم تسمعون للمواقف المغربية فيما يتعلق بقضيتنا المصيرية وحدثنا الترابية ...

ولا بد ان نبحث آثار الامام مالك ، ليس فقط في اقوالنا وافادتنا ،
ولكن ايضا على مظاهرنا وفي حياتنا الاجتماعية ...

لعلنا قرانا بعض الوصف لما كانت عليه حياة الامام مالك ، سواء من
مدارك عياض أو من المعاجم التي ترجمت لمالك ، فكلها مطبقة على أنه
كان يلبس الثياب المعدنية والخراسانية والمصرية الغالية الثمن ، وكان
- وهذا بيت القصيد - اختار له من اللون الثياب الريفية التي يلبسها
اللون الأبيض .. وكان كثيرا ما يقول احب للقارىء ان يكون أبيض الثياب.

وبذلك وضع الامام مالك تقليد رفيعا للذين يتصددرون لمجالس
العلم والتدريس .. وبذلك أيضا خط الطريق لرجال الدولة ان يسنوا
لهم قوانين تعتمد على تجربته واختياره ...

ومن هنا لا يعرف ان المغرب كان الدولة الوحيدة في العالم التي
أصدرت مرسوما ملكيا (ظهيرا) عام 684 هـ - 1285 م يقضي باتخاذ
الملابس البيضاء شعارا للدولة .

لا اكتمكم انني لم أقف في سائر مطالعتي على أمة من الامم اهتمت
بتشريفات اللباس منذ أواسط القرن السابع الهجري ، كما كان الامر
بالنسبة للمملكة المغربية .

ان الامر يتعلق بالظهير الذي أصدره أبو يوسف يعقوب يوم
الاحد العشرين من شعبان الموافق تاسع عشر أكتوبر من التاريخ
السابق ، بأن لا يلبس **الا الأبيض** ، وكان ذلك بمناسبة لقاء القمة الذي
تم بين العاهل المغربي وبين العاهل الاسباني صانشو ، لقد أمر
السلطان في يوم اللقاء باظهار شعائر الاسلام وشدد على لبس الأبيض ،
فكان منظرا فريدا ويوما مجيدا ، اجتمع فيه الملكان : المسيحي وحاشيته
وهم في سود الثياب ، والمسلم وحاشيته وهم يرتدون الملابس البيضاء .

وهكذا نرى ان تاريخ **اللباس الأبيض** في المغرب علاوة على أنه
تقليد لسلوك الامام مالك ، فانه يقترن بأحداث وطنية بالغة الأهمية ،

ومن ثم كان (البياض) صفة مميزة للطبقة العالة ، ولما اعتذر الاستاذ ابو الحجاج الانفاسي عن قبول الملابس البيض التي بعث بها اليه السلطان ابو عنان ، قال له الرسول مبلغا رسالة السلطان : « انما قصد يرسلها أن يمتاز أهل الخطاة العلمية عن غيرهم .

أيها السادة :

انكم ستطربون ولا شك وانتم تقراون عن تاريخ التقاليد الجامعية فى شتى المؤسسات . انكم ستجدون اسم الامام مالك كشخصية من الشخصيات الاولى التي وضعت قواعد مرسومة لمن يريد التصدي لنشر العلم ، لمن يريد أن يلقي درسه بين الطلبة حتى يظل طيلة القاء الدرس مرفوع المعنوية لا يشر بأنه يلبس رديئا .

وبهذا تدركون مدى ما يرتكبه الاستاذ اليوم من عبث وسخف عندما يتعمد أن يدخل على تلاميذه وهو على حال من اللباس لا تتناسب لفريق ، ولا تلوي على طريق ! .

أيها السادة :

ان الحديث عن المذهب المالكي يظل مقارنا الحديث عن ميلاد المملكة المغربية ، لقد ظهر تقريبا فى عصر واحد ، ومن ثممت فان المغرب يعتبر وارث المدينة المنورة فى هذا التراث ، ومن ثممت ايضا نظر المؤرخون الى هذه الديار المغربية على انها دار سنة ... عملت باستمرار على تطور المذهب وازدهاره ، اقتناعا بأنه أي المذهب المالكي صياغة محكمة لرسالة الاسلام التي لا تتقيد بزمان ولا مكان ، رسالة للامس واليوم والغد ، رسالة لا تعرف حدودا جغرافية ، ولا تعترف بفروق فى الجنس واللون ...

لقد كان هدف سلفنا الصالح من توحيدنا على مذهب واحد ، هو صهر كياننا فى بوتقة واحدة أمام كل تهديد سواء أكان ذات التهديد صيليبا كما كان ، او ايديولوجيا كما يكون ...

وكما كانت وحدتنا الدينية بالامس ضمانا لنجاحنا في مسيرتنا ،
فستظل وحدتنا اليوم بشيرا لتوفيقنا ونصرتنا وظفرنا ... وسيكون
علينا أن نذكر اسم الإمام مالك ضمن أسماء الشخصيات البارزة التي
كان لها اثر قوي على صنع تاريخ المغرب ، سنذكر اسمه لزوما ، كما
نذكر اسم بطل وقعة الزلاقة ، وقعة وادي المخازن ... كما نذكر اسم
بطل الاستقلال ورائد المسيرة الخضراء ... الكل وعلى مستوى عال
له في هذا المغرب وجود ، والكل له على هذا المغرب يد ..

واذا كان المغرب قد اتخذ ويتخذ من هذا المذهب دثاره وشعاره ،
واذا كان يعتز برجاله هذا المذهب على انهم رجاله وقادته ، فمن
حق العالم الاسلامي ان يتذكر أن الفضل في صعود الاسلام بهذا الجناح
من ذلك العالم ، يرجع لأولئك الحماة الاوفياء الشرفاء الذين أدوا الرسالة
في البداية وما يزال أبناؤهم يشقون بها الطريق الى النهاية ...

حدثني عن مالك أنه بلغه أن لقمان الحكيم أوصى ابنه
فقال يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فان الله يحيي
القلوب بنور الحكمة كما يحيي الله الارض الميتة بوابل
السماء .

- الإمام مالك بن أنس -

الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله

محصل على اجازة فى الحقوق
متخصص فى الشريعة والحقوق والتاريخ .

(الملكة المفريية)

الفقه المالكي والوحدة المذهبية بين المغرب وصحرائه

بقلم : الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله

ان من تتبع بدقة شبكة تطور الفكر المذهبي في افريقيا ، يلاحظ باندهاش ان خطوط هذه الشبكة وحدودها تعانق اطراف خريطة واسعة ترسم اجزاء المغرب بسهوله وجباله وصحرائه ، فلننظر الى خريطة افريقيا ولنتابع كيف دحر المذهب المالكي ، وكيف تطور ، ولماذا اختار بعض المناطق أو اختارته دون غيره . . ولماذا عانق هذا الاختيار بدقة علمية متناهية يقف امامها العالم الجغرافي مشدوها .

ويمكن رسم معالم هذا الخط على المراحل الآتية :

ان منبع الالهام الفقهي والاصولي انيثق من مصدر الاسلام الاول ، وهو مدينة الرسول عليه السلام ، وقد كان هذا العامل ، اول باعث على اختيارات المغاربة في مذهب الامام مالك لسببين هما : ان المدينة المنورة هي اطار هذا المذهب ولأن عمل أهل المدينة هو منبعه ومثاره ، وإذا اعتبرنا أن المغرب عاش فترة مخاض في تاريخه سماها (كويبي) بالعصور الفامضة تارجع خلالها بين مذاهب أبي حنيفة والشافعي والاوزاعي وبعض الاتجاهات الخارجية والرافضية / فان نهاية القرن الرابع كانت بداية استقرار في الاعتبار والانتيار بالمغرب ، وحتى في هذه الفترة ، وبالنسبة ايضا ، لمذهب الخوارج ، فاننا نلاحظ أن المدينة المنورة كانت مصدر الالهام ، حيث توجه العالم (سمكن بن واسول) والد لمير سجلماسة المدراري الى المدينة المنورة لآخذ أصول العقيدة

الخارجية عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس ، ومع ذلك فقد شعرت الدولة المدراية التي تأسست عام 140 هـ / 757 م أنها على غير صواب ، فاختار أميرها (الشاكر لدين الله) فى منتصف القرن الرابع ، مذهب مالك ، مستعيضا باتجاهه الوجدوي عن البط الفكرى الذى عاشت فيه الصحراء آنذاك نحو من قرنين ، ولم يكد ينتصف القرن الخامس حتى هب الملمثون من الصحراء فى حركة تآزرت تلقائيا مع الاتجاه العام الذى كان سائدا آنذاك فى المغرب والاندلس ، فاستأصلوا الشيعة الموسويين فى اغمات والروافض بالاطلس الكبير (حسب البكرى وابن حوقل) والجليلين (بماسة وثارودانت) كما قضوا على النحلة البرغواطية التى انحدرت من فكرة خارجية شرقية دخيلة تمكنت الى الآن فى الجزائر وتونس ، بالاضافة الى مذهب الامامين ، الشافعى وأبى حنيفة .

وفى نفس الوقت كانت فاس ملتقى لمذاهب السنة وخاصة مذهب الامام مالك الذى اقام أصله المولى ادريس الاكبر باسناد منصب القضاء لاول شخصية عربية هي محمد بن سعيد القبسى تلميذ الامام مالك ، وسفيان الثوري ، (الجنوة ص 13) .

واذا كانت هناك فى المغرب مظاهر خارجة عن مذهب مالك ، فانما هي اختيارات حرة استمرت الى القرن الرابع ، حيث أصبحت (جامعة القرويين) منبع المعرفة المقارنة فى افريقيا (جامعة الازهر) بمائة عام ، وقد نقل (أبو جيدة الفاسى) من الشرق وثائق شافعية ، وقد توفي عام 360 هـ / 970 م (السلوة ج 3 ص 13) . والواقع أن مدينة فاس بفضل مؤسسها المولى ادريس الذى يعتبر أول وآخر مثال فى تاريخ الإنسانية لرجل دخل وحيدا فريدا عدا موله راشد فالتفت حوله (عام 177 هـ / 793 م) قبائل البربر عن بكرة أبيها كما قال ابن خلدون وهي المستعصية التى لم ترضخ قبل ذلك لاحد وتعزز ذلك منذ تأسيس القرويين بالتفاف قرطبة والقيروان حول فاس ، حيث هاجرت أربعمائة أسرة قيروانية مثل آل الفهرس الذين أسسوا جامعة القرويين وثمانية آلاف عائلة (او ثمانمائة فى رواية أخرى) من قرطبة بعد (ثورة الربيعيين) ،

وكان ذلك بزعمه رجل بربري من طنجة من قبيلة نفزة ، وهو يحيى بن يحيى الليثي المتوفى عام 234 هـ / 848 م . وقد سمع الموطن مالك وسفيان بن عيينة (التهذيب ج 11 ص 300 / النفع ج 1 ص 332 / ابن خلكان ج 2 ص 216 / جلوة المقتبس ص 359 / المغرب ج 1 ص 163 / ابن الفرصي ص 44 / الديباج ص 350) . ومن الغريب أن كلام ابن الأندلس والمغرب اتجاها نفس الاتجاه حيث ألزم هشام بن عبد الرحمن الأموي كافة أهل العدو الشمالية بمذهب مالك ، وذلك بدعوة من يحيى الليثي النفزاوي ، ونفزة يرجع إليها نسب ابن أبي زيد القيرواني ، وآل بناني ، وأول من نزل منهم بالصحراء في القرن الخامس هو محمد الصديق بناني ، حيث توغل داخل الصحراء إلى السودان . وتشخص قبيلة نفزة الصحراوية في زينب بنت اسحاق النفزاوي الهواوية التي كانت زوجة أبي بكر بن عمر الكدالي ثم يوسف بن تاشفين بعده .

فمذهب مالك تعزز أذن في الأندلس بحركة نابغة من المغرب في شخص يحيى الليثي الذي كان قاضي القضاة عند الأمويين ، كما تعزز في أفريقيا بفضل مرونة سحنون (الجذوة ص 360) بالإضافة إلى الاعتراف بالجميل للإمام مالك الذي ساند العلويين ضد خصومهم العباسيين ببغداد ، ولم يكد المرابطون يدخلون مدينة قاس خلال القرن الخامس ، حتى اتجهوا في تعزيز جامعة القرويين ، فوسعوا بلاطاتها ، وأوصلوها إلى ما هي عليه الآن مندهشين مما لاحظوه من تقاطر رواد المعرفة والفكر عليها من الأندلس وأفريقيا الشمالية ، حيث تجلت وحدة الفكر المذهبي في مظاهر مختلفة ، كان أقلها الاستناد في قراءة القرآن منذ القرن الرابع إلى قراءة نافع ، وكذلك على عملية الوقف الهبطي تبسيطا لتلقين القرآن في الكتابات التي كانت مجرد جناح في المسجد ، امتد إلى الصحراء بنفس الاسم ، حتى سميت قرية في شنقيط بالامسيد في حين أن الكلمة المستعملة في الشرق ، هي الكتاب ، وفي السودان الشرقي الخلوة .

ولا يخفى أن العالم (ميمون الصحراوي) المتوفى 506 هـ (وقيل 530 هـ حسب ابن الأبار) هو شيخ القاضي عياض (الاعلام للمراكشي

ج 7 ص 239) امام المذهب المالكي في المغرب وصاحب (المدارك) التي هي سجل رجالات المذهب ، حيث نوه بانتشاره آنذاك (ص 65) في المغرب الاقصى والصحراء الى بلاد من اسلم من السودان باستثناء المغرب الاوسط الذي كانت فرق الخوارج الصفرية والاباضية قد تغفلت فيه وخاصة في بلاد الزاب وحول تلمسان وتاهرت .

وقد كان تمسك الصحراء بمذهب الامام مالك اوثق وابلغ ، اذ عن طريق هذا المذهب تأسست الدولة المرابطية منبثقة من الصحراء بدافع من (واجاج بن زلو) الذي اختار (عبد الله بن ياسين) بايعاز من (ابي عمران الفاسي) امام المذهب في تونس ، ولذلك كان اهل الصحراء يهتمون بحفظ شيئين اثنين في مقدمة ما يحفظون ، وهما : كتاب الله بقراءة نافع ووقف ابي جمعة الهبطي ، ومدونة سحنون ، حتى ذكر اليوسي من رجال القرن الحادي عشر في حديثه عن الرجراجيين ان اهل (ذغوغ) الذين انتشروا في المغرب وصحرائه كان يحفظ المدونة منهم عن ظهر قلب 6760 من الرجال ، وخمسائة من النساء (المعسول ج 4 ص 9) ورغم ما قد يكون في ذلك من ايفال فهو يعطينا صورة عن قوة مذهب مالك في الصحراء ، وقد ذكر المؤرخون ايضا ان اهل رجراجة في الساقية الحمراء وما والاها حفظ منهم القراء والمدونة ثلاثمائة امرأة . وقد شاهدت في ارباض (تافراوت) قبور عشرين امرأة ممن كن يحفظن المدونة ، ومعلوم ان (العتبية) التي انتشرت في المغرب وصحرائه صنّفها محمد ابن احمد بن عبد العزيز العتبي ، تلميذ يحيى بن يحيى الليثي وان كان ايضا تتلمذ لسحنون .

وقد اختلفت الرواية الفقهية عن صاحب مالك بن انس الاساسي ، وهو عبد الرحمن بن القاسم ، فاسد بن الفرات ، اخذ عنه أجوبة المدونة من حفظه ثم اخذها عنه سحنون بعد ذلك ، وقد رجع عن الكثير مما كان قد اجاب به اسد بن الفرات الذي كتب له ابن القاسم ان يصلح اسديته على ما عند سحنون .

أما (العتبية) التي هي كتاب « المستخرجة من الاسمعة » فقد جمعها محمد بن أحمد العتبي القرطبي (255 هـ / 868 م) من أحد عشر سماعاً ، منها سماع ابن القاسم وأشهب وابن نافع أصحاب مالك ثم ابن وهب والليثي وابن مرتيل وسحنون وابن أصبغ (من الثمانية وكلهم عن ابن القاسم) .

وقد تناول ابن رشد الجدة هذه (العتبية) بالبيان والشرح والتعليل والتوجيه والتأويل والتحصيل في كتابه (البيان والتحصيل) ، فالتحصيل جمع نتائج العمليات السابقة في عبارات قليلة واضحة تلخص الأحكام ، وقد حظي هذا الكتاب بعناية كبرى ، فتبيناه خليل في مختصره ، وقد أخذه بالإجازة من ابن المؤلف أبو القاسم عبد الرحمن بن عيسى الفاسي (ابن الملجوم) (836 هـ) واختصره ، كما شرحه أبو إبراهيم بن قائد بن موسى الزواوي القسطنطيني (857 هـ) في كتابه (الجامع الكبير) واعتنى به السلطان سيدي محمد بن عبد الله حيث كون لجنة عام 1174 هـ لنشء الكتاب وتصحيحه ، تكونت من السادة محمد التاودي بن سودة وعمر بن عبد الله الفاسي ومحمد بن عبد القادر الفاسي وعبد القادر بوخريص ، وأنجزت الكتاب في 20 مجلداً بخط أحمد الغزال .

فلاسدية اذن هي أصل المدونة جمعها أسد بن الفرات (213 هـ / 828 م) عندما ذهب إلى العراق ، فدون ما سمعه من المسائل الفقهية على طريقة العراقيين ثم لقي أصحاب مالك كابن القاسم (191 هـ) فأضاف أجوبة عن هذه المسائل التي هي تفريعات وفروض ، في حين أن الفقه المالكي كان يقتصر على النوازل ، ثم أخذ (سحنون) المدونة وعاد بها إلى مصر وعرضها على ابن القاسم ، وأصلح فيها مسائل ورتبها وبوبها واحتج ببعضها بالأثر والاحاديث ، وحتى ابن الفرات تراجع عن اجتهاداته الواضحة .

ولعبد الملك بن حبيب (الواضحة) وهي أصل (العتبية) استخرج فيها المعاني والقواعد التي قامت عليها الفروع . ولم يكن عالماً بالحديث ومعرفة صحيحه من سقيم ، لهذا أهتم بالفروع أكثر من الأصول .

والعتبية هي لمحمد بن عتياب (255 هـ) وتسمى المستخرجة جمعها من عدة مصادر (ابن القاسم وأشهب والليثي وشبظون والواضحة وكلها كتب مسائل ونوازل) وأكثر فيها من المسائل الشاذة ، لذلك قال محمد بن وضاح بأن في المستخرجة خطأ كثيرا ، وقد تناول البيان والشرح والتعليل والتوجيه والتحصيل لابن رشد الجد مسائل المذهب حسبما ورد في المستخرجة دون تأصيل من الكتاب والسنة .

وقد شرحها واختصرها محمد بن عبد السلام سحنون (256 هـ / ولخصها ابن أبي زيد القيرواني (مالك الاصغر وقطب المذهب (386 هـ) في كتابه (المختصر) و (النوادر والزيادات على المدونة) (أزيد من مائة جزء) .

ثم اختصر (البرادعي) كتاب النوادر في كتابه (التهذيب) الذي جمع فيه 36.000 مسألة اتقن ترتيبها وتبويبها .

ثم جاء ابن يونس التميمي (451 هـ) فنقل معظم ما في (النوادر) وغيره من الامهات في كتابه في (الفقه) المسمى (مصحف المذهب) وهو أحد المصادر الاربعة التي اعتمدها خليل في مختصره . وقد شعر فقهاء المغرب والاندلس بأن الفكر المالكي بدأ ينزلق في تفرعاته خارج نطاق الاصلين وأحس بابتعاد الفقهاء عن التشريع الاسلامي الاصيل أمثال قاسم بن سيار الاندلسي (276 هـ) الذي ألف في الرد على العتبي وابن مزين كما قام محمد بن وضاح وبقي بن مخلد وعباس الفارسي القيرواني المحدث (الذي أحرق بنفسه المدونة وكتب الرأي وسط القيروان ، أوائل القرن الثالث الهجري حتى أدبه أسد بن الفرات (المدارك ج 3 ص 300 ط . وزارة الاوقاف بالرباط) وسعيد بن الحنّاد القيرواني (330 هـ) وأبو بكر بن العربي (543 هـ) في القواصم والعواصم وابن عبد البر .

ومهما يكن فقد وصلت المدونة الى المغرب الأقصى عن طريق
درايس بن اسماعيل الفاسي « وهي أصل المذهب المرجح روايتها على
غيرها عند المغاربة وإياها اختصر مختصروهم وشرح شارحوهم ، وبها
مناظراتهم ومذاكرتهم » (المدارك ج 2 ص 472) .

سمع ابن المجوز عبد الرحيم بن أحمد الكتامي (413 هـ / 1022 م)
مختصر المدونة عن ابن أبي زيد القيرواني (المدارك ج 4 ص 720 /
الديباج ص 139) .

وقد ذكر عياض أن مختصر المدونة والنوادر وكلاهما لابن أبي زيد
القيرواني ، عليهما المعول بالمغرب في التفقه (المدارك ج 4 ص 494)
(توجد نسخة من النوادر بخزانة جامعة القرويين) .

وكان ابن بشكوال محمد بن يوسف بن الفخار يحفظ المدونة
والنوادر ويوردها من صدره (راجع ابن بشكوال) .

ولأبراهيم بن عبد الرحمن التسولي التازي (747 هـ / 1346 م)
تقييد على المدونة (جمعه من تقارير شيخه أبي الحسن الزرديلي .

(ايضاح المكنون لشرح مدونة سحنون) لعلي بن عبد الحق
الزرديلي أبي الحسن الصغير (719 هـ / 1319 م) . (المكتبة الوطنية
بتونس (95 م) .

وذكر ابن مرزوق الحفيد أن تقايد الشيخ عبد العزيز بن محمد
القوري الفاسي (750 هـ / 1349 م) صاحب الشيخ أبي الحسن
الصغير - على المدونة من أحسن التقايد . كما أن أعلم الناس بالمدونة
هو عبد المومن بن محمد الجناتي أبو فارس الفاسي (746 هـ / 1345 م)
(النيل ص 156) .

وقد شرح المدونة أو قيد عليها علماء أفذاذ ، منهم :
أبراهيم الأعرج البادسي .

- تعليق على المدونة لابي بكر عثمان بن مالك زعيم فقهاء المغرب .
- (طرر على المدونة) لابن مطر الورياغلي ابي اسحاق الاعرج (683 هـ / 1284 م) .
- ابو عمران موسى بن ابي علي الزياتي الزموري نزيل مراكش (702 هـ / 1302 م) .
- ابو عمران الفاسي : (مسائل فقهية مختصرة من المدونة) (خع 1839 د) (م = 17 - 52) (خاصة حول تزويج المرأة) .
- (شرح بعض المدونة) لاحمد بن علي بن قاسم الزقاق (932 هـ / 1525 م) .
- تقييد على تهذيب المدونة لابي سعيد خلف بن ابي القاسم الازدي البرادعي لعللي بن محمد الصغير الزرويلي المعروف عند المشاركة بالمغربي (719 هـ / 1319 م) نسختان بدار الكتب الوطنية بتونس . (ق . 232 س 31 / ق . 200 س 31 / ق . 277 س 31 / ق . 232 الى 256 - س . 22)
- وذكر صاحب الدوحة (ص 2 ط . فاس) ان له شرحا على المدونة واسم كتاب البرادعي (تهذيب مسائل المدونة) خع 1989 د (307 ص - الجزء الاول فقط) .
- راشد بن ابي رشاد الوليدي (الجدوة ص 123 / نيل الابتهاج ص 101) .
- (تقييد على المدونة) لعبد العزيز بن محمد القروي الفاسي (750 هـ / 1349 م) قيده عن ابي الحسن الصغير (الجدوة ص 269) .
- عبد الله بن ابي زيد القيرواني صاحب كتاب النوادر والزيادات على المدونة حيث لخص مذهب مالك ، توفي بتونس (386 هـ / 997 م)

(خع 731 - 1 د / خق ل 40 - 793 / شجرة النور ص 96 /
تذكرة الحفاظ ص 1021) .

— (شرح المدونة) لعبد الله بن اسماعيل الاشبيلي قاضي اغمات
ومراكش كان يميل في فقهه الى النظر واتباع الحديث (497 هـ /
1103 م) . املاها عبد الله الفاسي التادلي من حفظه (كان يقرئ
عام 623 هـ / 1226 م) (النيل ص 118) .

— (مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح مشكلات المدونة)
لعلي بن سعيد الرجرجي (خق = ق 88) (الجزآن الاول والرابع)
نسبه بروكلمان في تاريخه (ج 3 ص 282) الى ابن رشد الجد .

— شرح على المدونة للقاضي عياض يسمى (مناهج التحصيل) لخص
فيه ما وضع للائمة من التأويلات واعتمد على كلام ابن رشد الجد
وتخریجات اللخمي .

— (تعليق على المدونة) لمحمد بن سليمان السطي (750 هـ / 1349 م)

— (تعاليق على شرح المدونة) لابي الحسن الصغير بقلم محمد بن
عبد العزيز التازغدري مفتي فاس ومشاور الدولة (833 هـ /
1428 م) (الجلوة ص 148) .

آخر حفاظها بفاس امام الجماعة محمد بن قاسم القروي (872 هـ /
1467 م) .

— شرح المدونة لموسى بن ابي علي الزناتي الزموري (702 هـ / 1302 م)

— (مسائل فقهية مختصرة من المدونة) خع 1839 د (م = 17 - 52)
لموسى بن محمد بن معطي العبدوسي مفتي فاس وشيخ ابن قنفذ .

— الامام المازي - توجد نسخة من شرحه للمدونة (279 ص) هي
من نوادر المخطوطات في (خع 150 د) عشر عليها في الزاوية
الناصرية بتامكروت .

ذكر حسن حسني عبد الوهاب في كتيبه حول الامام المازري (ص 63) ان بمكتبة القرويين جزءا فريدا منه ، وقد لاحظ محمد ابراهيم الكتاني ان هذا الجزء غير موجود على ما يظهر نظرا لعدم اباته في برنامج كتب القرويين . وقد احرقها الموحدون (النيل ص 118) ، وعندما احرقوها املاها من حفظة علي بن عشرين الحافظ (الاعلام للمراكشي ج 8 ص 311 خ) .

واذا حاولنا ان نستعرض الحجج الشاهدة بمدى تغفل مذهب مالك في الصحراء انطلاقا من جامعة القرويين ، فلن تكفيها مئات الصفحات ولدي من ذلك قوائم مدرجة في كتابي « معلمة الفقه المالكي بالمغرب » . ولنضرب لذلك امثلة بسيطة في خصوص مصنفات أصبحت تشكل المصادر الكلاسيكية للفقه المالكي بالمغرب وهي مختصر الشيخ خليل وتحفة ابن عاصم ولامية الزقاق (خع 1360 د) .

فقد شرح مختصر خليل احمد بن بابا السوداني التنبكتي ومحمد بن عبد الكريم التواتي ، كما ألف الاول في مبهمات خليل (مخطوط في خم 4975) وشرح صغرى السنوسي في عقيدة المذهب ، وقد نظم محمد يحيى الولاقي (منهج الزقاق) وشرح محمد بن محمد الدليمي لاميته (خم 8921) (خع 2140 د) وشرح بابا بن احمد ييبا الشنجيطي (التحفة العاصمية) وألف محمد بابا الصحراوي كتابا في الاصول لدعم مذهب مالك ، وكان محمد بن يوسف الركاكبي مرجع الصحراء في فقه مالك ، حيث كان لا يجاري في الفتاوي في فقه المذهب ، وهو خريج القرويين ، ومن اخوته الخليل الفقيه المشهور في القضاء والفتوى ، ومنهم تخرج في القرويين ايضا الشيخ عبد الرحمن بن احمد الشنجيطي المتوفى عام 1224 هـ / 1809 م ، وقد برز في المذهب على اهل عصره ، وكان شيخ الجماعة بقايس مدة اقامته بها ، ومعلوم انه عن طريق الشيخ ابي بكر بن عبد الرحمن القندوسي المتوفى عام 1244 م انطلق الاسناد لكثير من العلوم الشرعية وخاصة في مذهب مالك في الصحراء وحدها ، بل حتى في شمال المغرب عن طريق المسند الفقيه السيد التهامي ابن رحمون .

وحتى بين النساء نجد العديداً مثل الغالية بنت ابراهيم السباعية التي تخرجت في الحوض بالصحراء والتي كانت تحفظ مختصر خليل ، وكان لها باع طويل في فقه المذهب وخاصة الفرائض ، وقد تمسك ولدها الحاج عبد الله الجراري بمذهب مالك رغم دراسته في الأزهر حيث عاد الى طرfaة عام (1311 هـ / 1893 م) بعد أن اقام في رواق المغاربة وجال في افغان والهند والاسفانة ، وكانت شيخات العلم تدرسن مختصر خليل لجموع النساء كالعالمة الكنتية زوجة الشيخ المختار التي ختمت المختصر في درس خاص بالنساء ، في نفس الوقت الذي ختم زوجها درسه للرجال ، وقد ألف فيهما ولدهما العلامة محمد بن الشيخ المختار كتابه « الطريفة والتالدة في مناقب الشيخ الوالد والشيخة الوالدة » ويوجد بخزانة جامعة القرويين (خق ل 40 / 779) في مجلدين لوثائق فقهية في شأن أصول أملاك المزابيح قرب وادي كير والساورة على مذهب مالك ، وذلك من قبل زوجة المولى اسماعيل أم مولاي زيدان عام (1111 هـ / 1699 م) .

واذا راجعنا لائحة الكتب الدراسية التي كانت مرجع فقهاء الصحراء نجدها لا تختلف عنها في جامعة القرويين ، وقد أعطانا أحمد بابا السوداني في ترجمته عن نفسه صورة لذلك (كفاية المحتاج ، والاعلام للمراكشي ج 2 ص 100) ، كما تتجلى وحدة المنهجية وطرق التدريس بين السهول والصحراء في المغرب الوالد فيما كتب من دراسات في الموضوع (المعسول ج 13 ص 10) ، ومن ذلك أن الطلبة كانوا يكتبون في مجموع المغرب أسفل ألواح القراءان متون للمرشد المعين والمختصر والتحفة في مذهب مالك .

وكان ملوك المغرب وخاصة العلويين الاماجد يستعينون برجال الفتوى من علماء المذهب في الصحراء ، مثال ذلك محمد البوهالي الركابي الذي استقدمه جلالة الحسن الاول عام (1291 هـ / 1874 م) . وعاش في بلاطه عشر سنوات ثم عاد الى باعمرانة وباقي الصحراء مزودا بتكوين اقوى في مدرسة القصر العامر التي كانت منبرا يتبارى فيه كبار

العلماء وخاصة فى المجالس الملوكية ، وكان التبادل موصولا يدل عليه وجود قضاء صحراويين متعددين فى الحواضر ، مثل عثمان التواتي قاضي سلا المتوفى عام 1158 هـ ، ومعلوم أن العمل السجلماسي فى تدوين ما جريات فقه المذهب يعزز العمل الفاسي ، وكلاهما مستعمل فى السهول والجبال والصحراء الى حدود النيجر ، لان قاضي تارودانت عاصمة سوس ، كان هو قاضي القضاء ينسحب نظره على كل قبائل الصحراء التي كانت تشكل كما يقول سيدي العربي بن السائح فى بغيته (ص 74) بلدا هو أقصى المغرب . ومن هؤلاء محمد بن أبي بكر الاقاوي الذي تولى القضاء بظهير شريف مؤرخ ب 1124 هـ كقاض للقضاء ومفتي اكبر فى تخوم الصحراء ، وقد تحدث صاحب كتاب « أربعة قرون من تاريخ الصحراء » الاستاذ مارتان عن ظواهر تعيين القضاء فى الصحراء الشرقية طوال أربعة قرون (راجع خاصة القضاء فى توات ص 314) ، ومنهم أيضا أحمد دوكتا بن محمد المختار مفتي تيندوف الذي كان مرجع الصحراء كلها فى الفتيا ، ومن مظاهر اعتزاز فقهاء الصحراء بالمذهب المالكي أنهم كونوا ما سموه بطريق الفقهاء ، وهي سبيل الحجيج من مصر الى المغرب تمر عن طريق فزان وتوات لا عن الجزائر (راجع رحلة ابن مليح التي أشار اليها صاحب الاعلام ج 4 ص 276) .

وهناك مئات أعلام الفقه المالكي من المغاربة عينوا قضاة فى حواضر الشرق العربي كقضاة مالكية ، نظرا لما عرف به علماء المغرب سهولا وصحراء من ضلعة وعمق فى هذا المذهب بين اخوانهم المالكية فى العالم الاسلامي ، وقد تولى يونس بن طرية القصري (قصر كتامة) قضاء طرابلس الغرب ، كما تولى التدريس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة عام (641 هـ / 1243 م) . (تكملة الصلة لابن الأبار ج 3 ص 741) . ولدينا قائمة لهؤلاء العلماء الذين تولوا القضاء أو تدريس الفقه المالكي فى الشـرق .

الاستاذ ابراهيم صالح الحسيني

محصل على الاجازة العلمية فى الشريعة الاسلامية من الازهر .

(نيجيريا)

1. The first part of the paper is devoted to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x f(t) dt$$

الامام مالك ، امام دار الهجرة ، واثره فى تطور القضايا التشريعية

بقلم : الشيخ ابراهيم صالح بن يونس الحسيني

الحمد لله ، والصلاة على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه
وتابعيهما باحسان الى يوم الدين .

هو امام دار الهجرة ، مالك بن انس بن مالك بن ابي عامر بن عمرو
الاصبحي ، نسبة الى ذي اصبح الحارث ابن عوف ، قبيلة كبيرة
ينتسب اليها بعض ذوات اليمن .

ولد الامام رضي الله عنه عام 93 فى منطقة على مبعدة من المدينة
عرفت بوادي المروة ، وكان ابوه يعمل فى صناعة النيل ، وكان جده مالك
ابن ابي عامر تابعيا محدثا ، يروي عن عمر وطلحة وعائشة وابي هريرة
وعثمان رضي الله عنهم ، وكان يكتب المصاحف ايام عثمان على ما قال
الطبري ، ولما قتل عثمان سيطر القتلة على المدينة فتأخر دفنه ، اذ هاب
الناس بطش الارهايين ، فتصدى لدفنه جماعة من اهل الشجاعة والفتوة
فيهم جد الامام رضي الله عنه مالك بن ابي عامر هذا ، كما كان عمه ابو
سهيل ابن مالك ، من اخوة اربعة يروون العلم عن ابيهم ، وكان هو وابوه
يدخلان على عمر بن عبد العزيز ايام خلافته ، وكان مالك يروي عن عمه ابي
سهيل ، كما كان ابن شهاب القرني شيخ المدينة ، وشيخ مالك بن انس يروي
عنه ، ويقال ان اول من قدم الى المدينة من اسلافه هو مالك بن ابي عامر

وقيل أبو عامر بن عمر ، وهو الذي قدم من اليمن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان من أجلاء الصحابة الذين شاركوا في جميع الغزوات سوى بدر ، لأنها وقعت قبل قدومه .

ومن هذا البيت خرج مالك بن انس ، عالم المدينة وأمام دار الهجرة ، والذي يقول فيه الشافعي ، مالك حجة الله تعالى على خلقه . ويقول مالك معلمي وعينه أخذت العلم ، وقال إذا جاءك الحديث عن مالك فشد به يدك وإذا جاء الأثر فمالك النجم ، ويروى : إذا ذكر العلماء فمالك النجم . وقال ابن عيينة : انا كنا نتبع آثار مالك وننظر الى الشيخ ان كتب عنه وان تركناه .

وهكذا تتوارد شهادات رجال العلم والمعرفة لمالك ناصر السنة ، ورافع رايها ، وأرث علم الحجاز ، وستاتي الكثير من الشهادات أثناء الحديث عنه ان شاء الله .

مبدأ امره :

عند ما انتقل مالك من وادي المروة الى العقيق بقرب المدينة، عاش مع اخ له من تجارة البز بمبلغ ضئيل قدره أربعمائة دينار ، حتى وجهته امه الى كتاب بني تيم فحفظ القرآن على قارئ المدينة ، أول السبعة ، القراء ، الامام نافع بن عبد الرحمن ، بن أبي نعيم ، مولى بني تيم، ثم وجهته الى أشهر فقهاء آل تيم آنذاك ، وهو ربيعة بن أبي عبد الرحمن بن هرمز مدة طويلة لم يخلطه فيها بغيره وتأثر بحكمته كما سيأتي .

وقد اعتزل مجلس ربيعة آخر الامر ، من أجل المسائل التي انتقدها عليه كثير من تلامذته كما جاء واضحا في رسالة الليث بن سعد الى مالك حيث جاء في تلك الرسالة : وكان خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ما قد عرفت وحضرت وسمعت قولك فيه ، وقول ذي الرأي من أهل المدينة يحيى بن سعيد، وعبيد الله بن عمر، وكثير بن قرقد، وغيرهم كثير ، ممن هو أسن منه ، حتى اضطررت ما كرهت من ذلك الى فراق مجلسه، وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعت به على ربيعة من ذلك ، فكنتما من الموافقين فيما أنكرت ، تكرهان منه ما أكرهه ، ومع ذلك بحمد الله عند

بيعة خير كثير ، وعقل أصيل ، ولسان بليغ ، وفضل مستبين ، وطريقة حسنة في الإسلام ، ومودة صادقة لآخوانه عامة ، ولنا خاصة ، رحمه الله وغفر له وجزاه بأحسن من عمله . ومن شيوخه أيضا ، محمد بن المنكدر ، وكان لا يكاد يسأله أحد عن حديث إلا بكى ، يقول مالك : كنت إذا وجدت من نفسي قسوة آتي ابن المنكدر ، فانظر إليه فأبفض نفسي إياها ، ثم أتجه إلى الأخذ عن الإمام جعفر بن محمد الصادق ، فلازمه حتى اشتهر بالانتساب إليه والأخذ عنه ، وكان مالك يقول : كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الرعاية والتبسم ، فإذا ذكر عنده جده النبي صلى الله عليه وسلم أخضر وأصفر ، ولقد اختلفت إليه زمنا وما رأيته يحدث عن رسول الله إلا على طهارة ، ولا يتكلم فيما لا يعنيه ، وكان من العلماء والعباد والزهاد ، الذين يخشون الله ، وما آتيته قط ، إلا ويخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتي ، وعلى كل ، فقد أخذ مالك عن خيار أهل زمانه ، فأكثر عن أهل العلم والفضل والمعرفة ، حتى كان أخذه عن شيخ بمثابة توثيق لذلك الشيخ ، ومما يدل على توسعه في الأخذ مع التحرك التام ، ما نقله السيوطي عن الدولقي : أخذ مالك عن تسعمائة شيخ ، ثلاثمائة من التابعين ، وستمائة من تابعيهم ممن اختاره وأرضاه ، لدينه وفهمه وقيامه بحق الرواية وشروطها ، وسكنت النفس إليه ، وترك الرواية عن أهل دين وصلاح لا يعرفون بالرواية . قال السيوطي : ومن الأعلام الذين روى عنهم نافع ، مولى ابن عمر وزيد بن أسلم والزهري وأبو الزناد - وقد تقدما - وعبد الرحمن ابن القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق ، وأيوب السخيتاني ، وثور بن زيد الديلي ، وإبراهيم ابن أبي عبلة المقدسي وحמיד الطويل . ثم ذكر ربيعة وهشام ابن عروة ويحيى ابن سعيد الأنصاري ، وعائشة بنت سعيد ابن أبي وعاص ، وخلق ، قال : وروى عنه كثير من شيوخه ، كالزهري ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، بل قيل أن مالكا ما روى عن أحد إلا روى عنه ذلك الشيخ بعد ذلك ، إلا نافع بن أبي نعيم المقرئ .

انعقاد الإجماع على إمامة مالك :

ولقد انعقد إجماع علماء الأمة على إمامة مالك وجلالة قدره وثقته وإمامته ، حتى قال وهيب ليحيى بن حسان : ما بين شرقها وغربها أحد آمن عندنا على العلم من مالك ، والعرض على مالك أحب إلي من السماع من

غيره . وقال أبو مصعب عن مالك رحمه الله ، ما افتيت حتى شهد لي سبعون محنكا اني اهل لذلك .

وقد اتفق على ذلك شيوخه واقربانه ومن جاء بعدهم . وقد اشتهر عند المحدثين أن اصح استاذ هو مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ، ثم مالك عن الزهري ، عن سالم ، عن ابن عمر ، ثم مالك عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة .

صفات مجلس مالك :

جلس مالك في أول أمره للدرس في المسجد ، ثم نقل أخيرا درسه الى بيته ، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم ، وكل رجلا مهيبا نبيلًا ، ليس في مجلسه شيء من المراء واللفظ ، ولا رفع صوت ، اذا سئل عن شيء فاجاب سائله ، لم يقل له من أين هذا ، وكان له كاتب قد نسخ كتبه يقال له حبيب يقرأ للجماعة ، فليس أحد ممن حضر يدنو منه ، ولا ينظر في كتابه ، ولا يستفهمه ، هيبة واجلالا، وكان حبيب اذا أخطأ فتح عليه مالك، ولم يكن يقرأ كتبه على أحد ، وهذه هي عادته ، الا ان يحيى بن بكير ذكر انه سمع الموطأ من مالك أربع عشرة مرة ، وزعم ان أكثرها بقراءة مالك ، وبعضها بالقرأة عليه انتهى . رواه ابن سعد عن محمد بن عمر الواقدي .

وأخرج الخطيب عن ابراهيم بن هارون الليثي، وكان من جلساء مالك، قال : كان مالك لا يحضر مجلسه لفظ ولا لغو ، وكان مهيبا ، اذا سئل عن الشيء فاجاب سائله لم يراجع ، ولم يقل له من أين أتيت ؟ وروي أن شاعرا دخل عليه فمدحه فقال :

بدع الجواب فلا يراجع هيبة * والسائلون نواكس الاذقان
ادب الوقار وعز سلطان التقى * فهو المطاع وليس ذا سلطان

واما الاخلاص عنه فهم أكثر من أن يحصيهم مقال مختصر ، فقد عدد الخطيب منهم تسعمائة وستين تلميذا ، وقيل ألف الا سبعة أنفس سرد أسماءهم السيوطي في كتاب « تزيين الممالك » وزاد عليهم عددا جما .

ونقل عن القاضي عياض انه الف كتابا فى رواية مالك ، ذكر فيه نيفا من
الف اسم وثلاثمائة اسم ، انتهى .

ويكفي ان ممن روى عنه أو حضر مجلسه ، الائمة الثلاثة المجتهدون
الامام أو حنيفة ، والامام الشافعي مباشرة ، والامام أحمد بواسطة الشافعي ،
وأما المختصون بفقته مذهبه وفتاويه ونقله الى الامصار والاقطار ، فكثيرون
وأكثرهم عناية بذلك أصحابه المدنيون والمصريون والعراقيون ،
وهكذا عاش مالك حياة عامرة بالجهد والإصلاح والعمل ، حتى توفي سنة
تسع وسبعين ومائة ، وعاش أربعاً وثمانين سنة .

أثر مالك على الأمة :

ان الامام كما هو معلوم ، لا يمثل فى علمه وفقهه وأثره التشريعي
فكره فحسب ، وإنما يمثل المدينة المنورة بكل ما تحتويه هذه الكلمة من
معنى بعيد المرمى ، فالمدينة بعد هجرة الرسول إليها ، واجتماع عشرات
الآلاف من أصحابه عليه السلام بها حوله ، يشاركونه فى بناء الأمة الإسلامية
ويصاحبونه فى غزواته ورحلاته ، ويصفون اليه وهو يتلو عليهم آيات
الكتاب ، ويعلمهم الحكمة ويذكهم ، ويوجههم الى ما فيه سعادتهم . وفيهم يقول
الرسول صلى الله عليه وسلم : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين
يلونهم » ، لم تبق مدينة عادية ، بل أصبحت هي المركز التشريعي المتكامل
ومجتمع السنة العملية بلا شك ، وكان من عناية الله بالامام مالك ، ان
نشأ فى هذا الوسط ، وفى هذا الجو الذي صنعت به هداية الله تربية
محمد ، وأشرف محمد ، ومجتمع المدينة وثيق الصلة بسيرة الرسول
وسيرة كبار أصحابه ، خاصة الذين قام مذهب مالك عليهم . وهم أبو بكر
الصديق ، وعمر الفاروق ، وعلي بن أبي طالب ، فكان وارث علوم أصحاب
محمد فى المدينة ، ووارث علم فقهاء السبعة ، ويمتاز أهل المدينة باتباع
السنة ، وعدم التساهل فيها ، وكان ذلك واضحاً ، فى أسلوب مالك فى
الحكم ، والفتوى ، والتعليم . وبما أن عمر بن عبد العزيز أفضل مثال للزعامة
والقيادة بعد الخلفاء الراشدين ، تأثر به مالك جداً ، وبذلك يكون الامام مثل
فكر المدينة ، وكان وسطاً فى كل شيء ، فى مأكله ، ومشربه ، وملبسه ، فكان كما
قيل ، بالإضافة الى ما وهبه الله من بسطة فى الخلق ، وجمال الصورة ،

حسن اللباس ، أتيق المجلس ، فكان يطعم الجيد ويطعمه ، وقد صدق من قال فيه أنه قد رزقه الله تعالى قوة وصحة في الجسم ، وعقلا رصينا وذكاء خارقا ، فهو طويل القامة ، عظيم الهامة ، شديد بياض الوجه ، صالحا تقيا مهابا من قبل الجميع ، غير هيب ولا متردد في قول الحق ، ولو أدى ذلك الى تعريض نفسه للاذى ، متشددا في متابعة السنة ، لا يتسامح حتى في صغير الامور ، ويقول : أخشى ان تكون المخالفة فتنة ، يشير بذلك الى قوله تعالى : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم » حتى قال فى التثويب انه ضلال مع خفة الامر فيه .

تسامح مالك رحمه الله مع علماء الامة :

كان لا يرى أن الخلاف بين علماء الامة بسبب الادلة الواصلة اليهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، موجب للعداء او التفكير ، لذا لما عرض له أبو جعفر المنصور ، حمل الناس على فقهه وموطأه، رفض هذا العرض . فقد روى ابن سعد عن الواقدي ، انه سمع مالكا يقول : لما حج أبو جعفر دعاني فدخلت عليه وحدثته ، وسألني فأجبتة ، فقال اني عزم ان آمر بكتابتك الذي وضعته - يعني الموطأ - فينسخ نسخا ثم أبعث الى كل مصر من أمصار المسلمين بنسخة ، وأمرهم بأن يعملوا بما جاء فيه ، ولا يتعدونه الى غيره ، ويدعو ما سوى ذلك من العلم المحدث ، فاني رأيت أهل العلم رواة أهل المدينة وعلمهم . فقلت يا أمير المؤمنين ، لا تفعل هذا فان الناس قد سبقت اليهم اقاويل، وسمعوا احاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم، وعملوا به ودانوا به من اختلاف الناس وغيره ، وأن ردهم عما اعتقدوه شديد ، فدع الناس وما هم عليه ، وما اختار أهل كل بلد لانفسهم . فقال لعمرى ، لو طأعتني على ذلك لامرت . وهذا من اكبر الادلة على نزاهة مالك وصدق نيته في نشر الدين ، وانصافه ، مع أن ما انفرد به النازحون من الصحب الكرام بالنسبة لما أجمع عليه ساكنوا المدينة من الصحابة ، أمر يسير ، ولو كان مكان الامام غيره من الدعاة الى انفسهم ، او المعجبين بأرائهم ، لطار لهذا الامر ، ولما تردد فى ايقاع النكاية بخصومه فى سائر الاقطار .

وكان مالك فى اجتهاده وتعليمه وافتائه ، يتجنب التكلف ، ويتعد بنفسه عن مجالسة المتكافين ، فقد كان معجبا بابن هرمز الاعرج وكان يقول :

« جالست ابن هرمز ثلاث عشرة سنة فى علم لم ابته لاحد من الناس ، قال وكان من أعلم الناس بالرد على اهل الاهواء ، وبما اختلف فيه الناس » ، وكان مالك يقتدي به وياخذ بحكمته ، ويقول سمعت ابن هرمز يقول: « ينبغى للعالم ان يورث جلساءه قول لا ادري ، حتى يكون ذلك أصلاً فى ايديهم يفزعون اليه ، فاذا سئل احدهم عما لا يدري قال لا ادري » . قال ابن وهب : « كان مالك يقول فى اكثر ما يسأل عنه لا ادري » .

واخرج الخطيب البغدادي ، وابن عبد البر عن الهيثم بن جميل، قال: « شهدت مالكا سئل عن ثمان واربعين مسألة فقال فى اثنتين وثلاثين منها لا ادري » . قال ابن الخطيب : « سمعت مالكا يقول حقا على طالب العلم ان يكون له وقار وسكينة وخشية ، وان يكون متبعا لاكثر من مضى قبله » . واخرج ابو نعيم باسناده قال : سأل رجل مالكا عن مسألة فقال له : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ، فقال الرجل أرايت ، قال مالك فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم » . وكان رحمه الله معظما للسنن ، حتى انه لا يجلس للتحدث الا وهو على اكمل الحالات . واخرج ابو نعيم عن معن ابن عيسى ، قال : كان مالك اذا اراد ان يجلس للحديث اغتسل وتبخر وتطيب ، فاذا رفع احد صوته فى مجلسه زجره وقال : قال الله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي » . فمن رفع صوته عند حديث رسول الله فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن ابي ايس قال : « كان مالك اذا اراد ان يحدث توضأ ، وجلس على صدر فراشه ، وسرح لحيته ، وتمكن فى الجلوس ، موقرا بوقار وهيبة، ثم حدث، فقليل له فى ذلك، قال احب ان اعظم حديث رسول الله ، فلا احدث الا وأنا على الطهارة ، اجلالا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وجاء عنه انه كان بالاضافة الى ما تقدم ، يفتسل ويلبس ثيابا جددا ، ثم يحدث ويقول : « ليليتي منكم اولوا الاحلام والنهى » . وروى عنه انه قال: « عندي احاديث ما حدثت بها قط، ولا سمعت مني، ولا احدث بها حتى اموت .

وعن الشافعي قال : « قيل لمالك ، عند ابن عيينة احاديث ليست عندك قال : وأنا احدث عن الزهري بكل ما سمعت » . لا اريد ان اطيل ، وعلى الجملة فالامام يعتمد دائما ما وضع واستبان من الادلة فى وروده ودلالته

ويتجنب الشواذ ، وهذا ما حمّله على التزام علم أهل المدينة ، مع اعترافه
للآخرين بفضلهم وديانتهم .

فقه مالك :

أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال : « يوشك أن يضرب الناس أكباد الأبل في طلب العلم
فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة » . ففي الحديث إشارة واضحة
إلى امتياز المدينة وعلمائها وعلى رأسهم مالك ، بالعلم والفقه والمعرفة
بعد عصر النبوة ، كيف لا وهي مأوى الصحابة ، خصوصاً السابقين الأولين
منهم ، فقد استبقاهم عمر في المدينة لفضل نصحتهم ، ولسعة علومهم ،
ولامحاضهم النصيح له في إدارته لأمور المسلمين ، وضنا منه بهم أن يقتلوا
وهم حملة علم الشريعة ، بذلك صارت المدينة هي عاصمة الإسلام ، ومجتمع
أفكار علماء الصحابة والتابعين .

ولما جاء العصر الثاني هاجر كثير من العلماء من أوطانهم إلى المدينة،
لاستقرارها ، ولكثرة الفتن بغيرها ، أولاً لأنها مهبط الوحي ، ومكان جثمان
النبي صلى الله عليه وسلم ، ومأوى الصحابة ثانياً . فكان أهل العلم من
التابعين من المدينة أكثر ، وبالعراق والشام قلة ، ونشأ مالك رحمه الله
في هذا المجتمع ، وأخذ العلم عن خيار رجاله . وقد تخير من هذا الخيار
فكان يقول : « أن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه ، لقد أدركت
سبعين ممن يقولون قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه
الأساطين - مشيراً إلى أعمدة المسجد النبوي الشريف - فما أخذت
عنهم شيئاً ، وأن أحدهم لو أؤتمن على بيت مال لكان أميناً ، إلا أنهم لم
يكونوا من أهل هذا الشأن » . فكان رحمه الله حريصاً على أن يجمع ما في
المدينة من آثار الصحة ، وعلومهم ، وفتاويهم ، وأقوال النبي صلى الله عليه
وسلم ، لذلك نراه يحرص على علم الزهري عن مشايخه يقول ابن شهاب
جمعنا العلم من رجال في الروضة وهم سعيد بن المسيب وأبو سلمة
وعروة والقاسم وسالم وخارجة وسليمان ، قلت : وهؤلاء الفقهاء السبعة
هم أساس فقه الحجاز واتصل بهم مالك عن طريق مشايخه ، وكان وسيلته
إلى علم آل عمر بن الخطاب ، نافع ، وزيد بن أسلم وغيرهم . كما أن وسيلته

الى علم آل بيت النبي ، الى جانب جعفر بن محمد ، الباقر عبد الرحمن بن هرمز الاعرج مولى الهاشمين . كما ان صلته بالتعيين المتعددة الجوانب ثابتة ، وخصوصا عن طريق اخذه العلم عن شيخه ربيعة ابن ابي عبد الرحمن وعلى كل حال ، فمالك يفلح عليه جانب الرواية ، مع فقه وثيق الصلة بالكتاب والسنة ، ويكره الامعان في الرأي ، وكان يكره الخوض في المسائل الفرضية ، حرصا منه على السنة ، وتجنبيا للناس من الايغال في الاقيسة والآراء التي لا تستند على أدلة النقل ، وكان يرى أن القياس ، انما هو على ما تقرر من أصول الكتاب والسنة ، وسنة الخلفاء الراشدين ، وفتاوي كبار علماء المدينة من الصحابة والتابعين .

ولمالك الفقيه المحدث ، منهج اختص به في الفقه والاستنباط ، فكان امام دار الهجرة يأخذ بكتاب الله تعالى أولا ، فان لم يجد في كتاب الله نصا اتجه الى السنة ، وقد استوعبها حفظا ودراسة ، ويدخل فيها عنده جميع احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، القولية والفعلية ، والتقرير ، وما اضيف اليه عليه السلام من الصفات والشمال ، وتشمل كذلك فتاوي الصحابة ، الشاملة لقول الصحابي ومذهبه ، كذلك شاملة لاقضيتهم واجتهاداتهم ، وكثير ما يسميها بسنة من مضى من أهل العلم . ومن هذا الباب عمل أهل المدينة ، وهو شامل أولا لما قال به بعض أئمة الصحابة وكبار التابعين من أهل الحل والعقد ، وكثيرا ما يعبر عن هذا بقوله : « عليه العمل عندنا » ، وثانيا لما اتفق واجتمع عليه أهل الفتوى بالمدينة من الصحابة الى كبار التابعين ، ممن عليهم الاعتماد وفيه يقول : « هو الامر المجتمع عليه عندنا . وكان عمر بن عبد العزيز يجمع فقهاء المدينة ويسألهم عن السنن والاقضية التي يعمل بها فيثبتها ، وما لا يعمل به الناس يطرحه ، وكان يقال لابي الدرداء ، قاضي الخليفة عمر بن الخطاب ، بلغنا كذا وكذا بخلاف ما تقول ، فيجيب وأنا قد سمعته ، ولكن أدركت العمل على غير ذلك . وهكذا بنى مالك في فقهه على اليقين .

ومن أصوله اضافة الى ما تقدم ، القياس ، وهو الحاق امر غير منصوص على حكمه بآخر منصوص على حكمه ، لاشتراكهما في وصف هو علة الحكم ، ويدخل هذا الباب ، اعتبار المصلحة ، وسد الذرائع ، والعرف والعادات ، اذن تكون الأدلة عنده هكذا :

1 - الكتاب : ومنزلته فوق جميع الأدلة ، لانه أصل التشريع، والحجة القاطعة فيه ، ومجتمع أحكام الله الخلدة الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، وهو مقدم عنده على السنة فما بعدها ، يأخذ بالنص الصريح الذي لا يقبل التأويل ، ويأخذ بالظاهر الذي يقبل التأويل ما دام ليس هناك من الشريعة ما يدل على وجوب التأويل ، يأخذ من مباحث الكتاب بمفهوم الموافقة ، وهو فحوى الكلام ، وذلك بأن ينص القرآن على حكم ويفهم ما هو أقوى منه في معنى هذا الحكم من هذا النص من غيره عناء عقلي ، مثل قوله تعالى : « ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما » ، فان هذا النص يفهم منه بالاولى النهي عن الشتم والضرب . وكذلك قوله تعالى : « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا » الآية . فان هذا النص يفهم منه النهي عن افساد مال اليتيم واهلاكه بأى وجه من وجوه الافساد والتدبير او التقصير فى المحافظة عليه ، كما انه يأخذ بمفهوم المخالفة ، هو ان يجيء الحكم مقيدا بوصف غير غالب او نخوه ، فيفهم ذلك نقيض الحكم عند تخلف النص ، وذلك مثل قوله عليه السلام : (فى سائمة الغنم زكاة) . فان هذا النص يفهم منه ان السائمة من الغنم او الابل او البقر، وهي التي ترعى العشب بنفسها زكاة . ويفهم بالمخالفة ان المعلوفة لا زكاة فيها وبذلك اخذ الشافعي ، فى حين ان الامام لم يأخذ بهذا الحديث ، وأوجب الزكاة فى المعلومة ، لان الوصف هنا خرج مخرج الغالب، وليس العصد منه تعليق الحكم عليه . ويأخذ الامام أيضا بالتنبيه على علة الحكم كما فى قوله تعالى : « قل لا اجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة او دما مسفوحا او لحم خنزير فانه رجس ، او فسقا أهل لغير الله به » . فان هذا يفيد ان العلم فى التحريم انه رجس ، اى طعام خبيث رديء ، يلحق به كل ما يماثله فى هذه الصفات ، والامام يعتمد على مثل هذه الأدلة من السنة أيضا ، وان كان القراءان هو المقدم . وقد ورد حديث غسل الاناء من ولوع الكاب سيما اولاهن بالتراب ، حكما بنجاسة فمه ، والفى استعمال التراب . وقال ان ندب الفسل للتعبد كيف لا وقد قال تعالى : « وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم » ، وقال : « كيف يباح صيده ويكون نجسا » . ومنح النيابة فى الاعمال البدنية ، الا ما كان من الوصية بالحج عن الميت ، وترك العمل بالاحاديث الواردة فى هذا المجال ، لقوله تعالى : « وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى » .

2 - السنة : وثأتي في المرتبة الثانية في اعتباره ، وهو يأخذ بها ويشدد في ذلك ، ولا يترخص في ردها ، ويأخذ بالدرجة الاولى بالمتواتر منها، وهو الذي رواه جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب، عن جمع مثلهم، حتى يصلوا بذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويأخذ بالمشهور ايضا ، وهو ما رواه جماعة لم يبلغوا حد التواتر ، ثم رواه عن الصحابة عدد يلزم منه اشتهاار الحديث ، ويؤمن اتقاقهم على الكذب ، ويكفي في ذلك ان يشتهر في عصر التابعين واتباعهم ، وهذا شأن كثير من السنن التي دونت في الصحاح والسنن ، والموطأ ، والمسائيد المشهورة . وهو يقرب في القوة من المتواتر .

واما الاحاد ، وهو الذي يتواتر ، ولم يشتهر في عهد التابعين ، ولا في عهد اتباعهم ، ويقدم مالك رحمه الله ، عمل أهل المدينة على خبر الاحاد .
واما هل يقدم عليه القياس أو لا ؟ فخلافا نقله ابن رشد في المقدمات .

ومثال تركه للعمل بخبر الواحد لانه لم يكن معمولاً به في المدينة حديث خيار المجلس وهو : البيعان بالخيار ما لم يتفرقا . وقد تركه قائلا : «ليس عندنا حد معروف في ذلك» ، وقد اول ذلك أصحابه، بأن التفرق المذكور هنا بالكلام وليس بالابدان ، وقد يترك العمل بخبر الواحد سدا للريعة كما في حديث صيام ست من شوال ابتداء من اليوم التالي ليوم الفطر ، فقد ترك الامر بصيامها خشية من أن يريدوا العامة في رمضان فيؤدي بهم الامر الى صيام العيد ، وأن كان المروى عنه في سيرته انه كان يصومهما ولا يمنع من يفعل ذلك من فقهاء أصحابه .

3 - عمل أهل المدينة : وكان الامام يعتبر بعمل أهل المدينة كما قدمنا ، ويعده حجة اذا كان هذا العمل متفق عليه في الجملة بينهم ، وكان مما لا يمكن الا أن يكون نقلا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ورث عن شيخه ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، ألف عن ألف خير من واحد عن واحد . ومعلوم ان الصحابة في عهد الخلفيتين متوفرون في المدينة ، وكان الخليفة اذا أراد تنفيذ حكم يجمع أهل الحل والعقد ، وذوي العلم والمعرفة من الصحابة ، ويسألهم ، ويدلي كل واحد بما بلغه في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيأخذ الخليفة بما اجتمع وتواطأ عليه رأيهم، ويكون سنة متبعة اكتسبت الشهرة منذ تلك اللحظة، وهذا ما دعا الامام الى تقديم عمل أهل

المدينة الذي هو فى حد ذاته مبني على خبر آحاد ، لكنه تقوى بتواطؤ الصحابة وكبار التابعين عليه ، ولم يكن مالك هو اول من اخذ بعمل اهل المدينة ، وانما قبله كان دأب القضاة واهل الفتوى ، كما فى قصة أبى الدرداء السابقة ، وقد روي عن القاضي محمد ابن أبى بكر بن عمر بن حزم انه قيل له فى حكم قضى به : الم يأتي فى هذا حديث كذا ، فقال بلى ، فقيل له ، فما بالك لا تقضى به ، فقال ، فأين الناس ، يعني أين ما اجمع عليه الصلحاء بالمدينة ، فيرى أن العمل به أفضل لتقويه باتفاق الناس عليه ، باعتبار انه منقول عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان تركه خبراً لخبر ، هو أقوى منه اذا لم يمكن الجمع بينهما ، وهو الترجيح ، أحد مسائل الاجتهاد والقياس .

4 - فتوى الصحابي وقوله : ومالك قد اخذ بقول الصحابي وفتواه وعد ذلك من قواعد مذهبه ، خاصة اذا قال الصحابي او أفتى بما لا يعلم الا من النقل ، ومعنى هذا أنه يقبل قول الصحابي وفتواه ، لقطعه بأن الصحابة كانوا متبعين ، وليسوا مبتدعين ، وانهم يستندون فى أكثر الاحيان على سنة قد تخفى على غيرهم ، وفى هذا الموضوع آراء كثيرة ، فلتراجع فى مطائنها وكان الامام يأخذ بفتاوي كبار التابعين ، وأن كان لا يرفعها الى مستوى قول الصحابي ما لم تكن اجماعاً ، والا جعلها مثل قول الصحابي ، لاستناد الاجماع على دليل شرعي ، وان جهله الناس ، واهملوه فلم ينقلوه .

5 - القياس والمصالح والمرسلة والاستحسان : وعلمنا مما تقدم ان الامام كان يأخذ بالقياس ، وهو قياس الفروع على الاصول ، وهو شامل للقياس المشهور فى اصطلاح الاصوليين ، وهو الحاق امر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه ، لاشتراكهما فى وصف هو علة الحكم الثابت للمقيس عليه ، واما الاستحسان ، فهو ان يقتضى القياس الحاق المسكوت عن حكمه بالاصل الذي صرح بحكمه ، وتقتضى المصلحة الجزئية عدم ذلك ، فيرجع الامام هذه المصلحة الجزئية ويحكم بها ، وهذا نوع من انواع الاستحسان ، وهناك نوع آخر هو صريح الاستحسان ، وهو الحكم على مقتضى المصلحة حيث لا نص ، سواء اكان فى الموضوع قياس ام لا ، وهذا شامل للاستحسان فى اصطلاح الاصوليين ، كما انه شامل للمصلحة المرسلة .

وهي المصلحة التي يشد لها دليل خاص بالاعتبار أو الالفاء ، فيؤخذ بها حيث لا نص ، شريطة ان يكون في الاخذ دفع للحرَج ، وتحقيق لمصلحة شرعية ، وكما ان الشرط والصلاح يجب ان لا يتصادم مع حكم الشرع ، فكذلك انما يعتبر من المصالح ما أقرت الشريعة اعتباره . وبذلك يتضح ان من اصول مذهبه ، المصالح المرسله ، اي اعتبار المصلحة اذا لم يكن نص من القراءان أو السنة ، لان الشرع ما جاء الا لرعاية مصالح الناس ، فكل نص شرعي ، فهو مشتمل على مصلحة هي الحكمة فيه،وبعيدا عن شقاق الكلام ، وبعيدا كذلك عن الانسياق وراء استحسنات العقول المنحرفة ، اذ المصلحة تعتبر بالشرع أولا عند الامام .

ومن ابرز ما امتاز به المذهب المالكي في المصالح ، هو اباحته للامام ان يوظف الخراج على الناس اذا خلا بيت المال مما يفي بحاجة الجند ، واجاز انعقاد الامامة الكبرى لمن قصر عن رتبة الاجتهاد ، لان اصل الامام مصلحة ضرورية ، واشترط علوم الاجتهاد كمالي ، واذا تعارضت الضروريات والكماليات ، كان المرجع هو الضروريات . وكذلك يدخل في هذا الباب اذن الامام للذمييـن ان يحدثوا في ارض العنوة كنائس ، او يأذن لهم بترميم ما تهدم منها ، اذا رأى في ذلك مصلحة راجحة ، كما ذهب اليه اصحاب مالك في الاندلس ، ويدخل تحت هذه القاعدة ، كثير من المعاملات التي يجري الآن التعامل بها بين الناس ، فيما لو عكفنا على دراستها على ضوء الفقه الاسلامي ، دراسة جادة وهادفة ، وبعيدة عن الطيش والخفة .

6 - النرائع : وهذا من الاصول التي اشتهر عن الامام الاخذ بها وظهرت في كثير من فروع المذهب المالكي ، واساسها هو ان الخوف من الوقوع في المحظور ، موجب لتجنب تعاطي بعض المباحات ، وقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنه : «التقوى : ان تترك ما ليس به بأس خشية الوقوع فيما به بأس» . اذن كل ما ادى الى محرم فهو حرام،وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ، بقدر التمكن من فعل هذا الواجب . وكذلك ما يترتب على فعله مصلحة يكون مطلوبا ، كما ان ما يترتب على فعله مفسدة يكون محظورا .

وقد قسموا ما يؤدي الى مفسدة الى اربعة اقسام :

الاول : ما يؤدي الى مفسدة مقطوع بها ، كحفر بئر خلف باب الدار بحيث يسقط فيها الداخل منه .

الثاني : ما يغب على الظن انه يؤدي الى مفسدة ، كبيع العنب لمن يمكن ان يعصر منه الخمر ، او من يبيع الى الحربيين ما يتقوون به على حرب المسلمين . وهذا فيما اذا لم تكن هناك حرب ، والا كان من القسم الاول .

الثالث : ما يؤدي الى مفسدة فقط في النادر والغالب عدم ادائه الى ذلك ، كحفر البئر في موضع مناسب لا يتأذى به أحد .

ومما اشتهر على السنة الناس : ان النادر لا حكم له .

الرابع : ما يكون ادأؤه الى المفسدة واقعا بكثرة ، كالشأن في بيع الاجال ، فقد تؤدي الى الربا في بعض الصور ، وقد ينذر بعض الناس بالاباحة الاصلية ، الى استباحة ما حرم الله تعالى . والقسمان الاولان يمتنعان سدا للذريعة ، والثالث يباح مطلقا لان النادر لا حكم له . واما الرابع فقد تنازعه عاملان : عامل الاذن الاصيلي ، وعليه فهو حلال ، وعامل ما قد يؤدي اليه ، وعلى هذا فهو حرام ، ويرجح جانب الحل ، مع اعتبار نية المتصرف ، فان قصد المحظور ، فعليه اثم قصده ، والا كان تصرفه جائزا .

7 - الاستصحاب : وهو ان ما تقرر من حكم لعين او شيء ، يجب ان يستمر حتى يوجد دليل على تغيره ، وهو استصحاب البراءة الاصلية ، اي ان ذمة المكلف يجب ان تكون فارغة عن الشغل بأي تكليف حتى يدل على شغلها بالتكليف دليل ، ومن أمثلة هذا ، استصحاب اباحة الاشياء قبل وجود ما يدل على المنع ، ومن هنا قالوا : « الاصل في الاشياء الاباحة حتى يوجد دليل المنع » ، فالعقود والشروط والمعاملات على عمومها والالتزام بها ، الاصل فيها الاباحة ، حتى يوجد دليل ينقل عن هذا الاصل ، وقد قال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

8 - العرف : ومن الامور التي اعتبرها مالك واحترمها، العرف القولي والفعلي ، وكان في كثير من الاحيان يحكم تبعا لما تعارف عليه الناس في الاجال والشروط وغير ذلك . ويقول كل ما عده الناس بيعا فهو بيع . وعندما عرض لحديث البيعان بالخيار في الموطأ قال : ليس لهذا عندنا حد معروف ، ولا امر معمول به . وعندنا كل ما يعتبره الناس ضررا في التعامل ، يكون ضررا يجب دفعه ، وهناك جزئيات لهذا الاصل في المذهب كثيرة ، لا نطيل بها حيث ان محلها هو كتب الفروع .

وباختصار ، يمتاز الفقه المالكي بال مرونة والتيسير والشمول ، حيث انه مبني على المصلحة ، وملاحظة احكام الضروريات ، ويفتح باب الترجيح بين الادلة ، ويقر ما وقع موافقا لدليل المخالف ، من العقود والعبادات، مع مرجوحيته عنده بالاصالة .

والجدير بالملاحظة هنا ، هو ان هذه الاصول التي اخذ بها مالك وافقه عليها اكثر الائمة ، فهم جميعا يتفقون على الاصول الاربعة ، الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وهذه لا خلاف فيها ، وانما اضاف اليها مالك ما ذكر ، كما فعل باقي الائمة بالنسبة لبعض تلك الاصول ، والاجتهاد هو سبيل الباحث لادراك حكم واسرار التشريع الاسلامي . وطلب الدقة في نسبة الاقوال الى اصحابها ، يعرض على المرء ان يرجع الى الكتب التي تضمنت تلك الاقوال ، وبينتها ، وشرحت ما اشكل من كلام ائمتها ورجالها .

كتب الامام مالك ومسائله :

وصل الينا عن الامام آثار كثيرة ورسائل متعددة، رواها عنه اصحابه، من تلك الآثار ، كتاب المجالسات ، الذي دون فيه ابن وهب ما سمعه عن الامام في مجالسه، وهو كتاب يشتمل على احاديث وآثار، وسنن وآداب ، وهو ينسب لابن وهب ، لانه كتبه ورتب مضامينه، وهناك رسالة في القدر، بعث بها مالك الى ابن وهب ، ورواها تلميذه ابن وهب المذكور عنه ، ومنها رسالته الى هارون الرشيد ، وهي متداولة بين ايدي الناس . ومنها رسالة في الاقضية ، كتبها لبعض القضاة ، رواها عنه بعض اصحابه ، ورسالة في احكام الفتوى ، وقد تنسب اليه اشياء غير هذه ، الا ان بعض علمائنا يتوقفون في بعض هذه الآثار . ولكن الذي لا يشك فيه انسان ، ونقله الكافة

عنه ، فهو كتابه الموطأ، الذي يعتبر بحق، أول كتاب في السنن والآثار، وأعمال الصحابة واجتهاداتهم في فتاويهم ، وكان الناس قبل الموطأ ، يعتمدون على ذاكرتهم وحفظهم ، وكان لديهم من الذكاء والفطنة وسيلان الذهن ، ما شهد لهم به المخالف قبل الموافق ، هذا وكان كثير من الأئمة منذ عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، يحاولون كتابه السنن والآثار وجمعها ويحجمون عن ذلك ، خشية اختلاطها بالقرآن، خصوصا والأمة في أول مراحل بنائها ، وتطورها من البداوة الى الحضارة ، ولا يزال الداخلون في الاسلام الجدد، يقدون الى المدينة المنورة من كل جهة ، ومع هذا الاحجام ، فقد كتب بعض الصحابة لنفسه احاديث كثيرة، مثل عبد الله بن عمرو بن العاص ، وهناك كتب من النبي الى بعض عماله ، نضمت سننا كثيرة، فهناك كتاب الزكوات وصحيفة عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وصحيفة بهر بن حكيم، عن أبيه عن جده . وصحيفة علي بن أبي طالب ، التي شملت الدماء وأشياء أخرى . وصحيفة أبي شاه ، التي تضمنت بعض الاحكام التي عهد بها النبي لامته ، في خطبته في حجة الوداع ، الى غير ذلك مما يجب ان يعتبر هو أول التدوين للسنن والآثار . واما ما كان من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فليس الا الجمع والتدوين ، الذي اتسم بالرسومية ، ولا شك ان لهذا الامر أهمية خاصة ، فقد أصدر أوامره لابن شهاب الزهري ، ان يجمع له ما قدر على جمعه من السنن ، ومع انه لم يتم له ما أراد ، الا ان الفكرة ظلت قائمة تنتظر التنفيذ ، ولما جاء عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، قيل انه حاول جمع الناس على مذهب واحد في القضاء والفقه ، وهو ما عليه أهل المدينة من الفقه والسنة والاثار ، فطلب الى العلماء ان يفعلوا ذلك ، فكتب غير واحد من العلماء كتباً اطلقوا عليها اسم الموطأ ، وكان من جملة من طلب اليه ذلك، مالك ابن أنس، امام دار الهجرة ، فكتب موطاه الذي وصل الينا ، وأراد المنصور أن يحمل الناس جميعا على ما في الموطأ ، ولكن مالكا رفض ذلك ، متعللا بما تقدم ذكره في صدر هذا المقال .

والموطأ كتاب حديث وفقه ، منزلته بين علماء الامة ، هي منزلة صحيح البخاري وصحيح مسلم، بل ما تضمنه من الاحاديث، يعد من أصح الصحيح، وهو حجة عند مالك واتباعه ، وعند باقي فرق الامة ، كما عليه الجمهور، وجميع ما فيه مسند الا اربعة احاديث، وقد خرج احاديثه ابن عبد البر في التمهيد وفي التفتي والاستذكار ، والف في شواهد القاضي اسماعيل بن حماد ، كتابا في عشر مجلدات ، وشرحه ابن الحذاء ، في ثمانين جزءا، وقد

قال الشافعي ، ما بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك ، رحم الله الجميع .
وقد ذكر فيه الامام ، الاحاديث الخاصة بالموضوع الذي يناقشه ، ثم يقفي
ذلك بعمل اهل المدينة المجمع عليه ، ثم رأي من التقى من بهم من كبار ثقات
التابعين وصلحائهم ، وآراء للصحابة واقضيتهم ، وآراء وفناوي من جاء
بعدهم ، وهو في كل ذلك يركز على الاتباع ، ويتجنب الابتداع ، ولذلك قال :
اما أكثر ما في الكتاب فرأي لعمرى ما هو برأي ولكنه سماع من غير واحد
من اهل العلم والفضل ، والائمة المقتدى بهم ، الذين أخذت عنهم ، وهم الذين
كانوا يتقون الله ، وكبر علي فقلت رأيي ، وكان رأيهم مثل رأيي ، مثل رأي
الصحابة الذين ادركوهم عليه ، وادركتهم انا على ذلك ، فهذه ورائة توارثوها
قرنا عن قرن الى زماننا ، فهو رأي جماعة ممن تقدم من الائمة .

واقد بلغ عدد من روى عنهم الامام في الموطأ ، خمسة وتسعين محدثاً ،
منهم تسعة وثمانون من كبار شيوخ المدينة وعلماءها ، وستة فقط ، من
خارجها . ومع ان مالكا لم يرحل لطلب العلم ، فقد تجمع لديه من الاحاديث
ما لم يجتمع لغيره ، بسبب وجوده في المدينة المنورة ، التي اشتهر بالعلم
والفتيا بها كثير من كبار الصحابة والتابعين ، خاصة بعد ان أصبحت مأوى
ومأمناً للهاربين من الدنيا ، ومن المشاركة في الامور السياسية ، عاملين
بحديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :
« يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتتبع بهن شعف الجبال ومواقع
القطر ، يفر بدينه من الفتن » .

ولقد ذاع صيت الامام مالك امام دار الهجرة وموطأه ، لا في المدينة
وبلاد الحجاز واليمن فحسب ، وانما في الاقطار الاسلامية ككل . فأقبل
على رواية الموطأ عنه جمهور كبير من الطلبة .

قال القاضي ابو بكر بن العربي في شرح الترمذي ، الموطأ هو الاصل
الاول واللباب ، وكتاب البخاري هو الاصل الثاني في هذا الباب ، وعليهما
بنى الجميع كمسلم والترمذي . قال وذكر ابن الهباب ان مالكا روى مائة
الف حديث ، جمع منه في الموطأ عشرة آلاف ، ثم لم يزل يعرضها على
الكتاب والسنة ، ويخبرها بالاثار والاخبار ، حتى رجعت الى خمسمائة ،
وقال الكيا الهراسي في تعليقه في الاصول ، موطأ مالك ، كان اشتمل على
تسعة آلاف حديث ، ثم لم يزل ينتقي حتى رجع الى سبعمائة . وأخرج

ابو الحسن بن فهر في فضائل مالك عن عتيق بن يعقوب ، قال ، وضع مالك الموطأ على نحو من عشرة آلاف حديث ، فلم يزل ينظر فيه في كل سنة ويسقط منه حتى بقي منه هذا . وقال سليمان بن بلال ، لقد وضع مالك الموطأ وفيه أربعة آلاف حديث أو أكثر ، ومات وهي ألف حديث ونيف ، يلخصها عاما عاما ، بقدر ما يرى انه اصلح للمسلمين ، وامثل في الدين ، اورده القاضي عياض في المدارك - انتهى من التنوير - .

روى الموطأ كما قلنا كثير ، ولكن اشهر روايات الموطأ المتداولة الآن روايتان : احدهما رواية يحيى بن يحيى الليثي ، وهي النسخة التي طبعت في مصر ، وانتشرت في سائر انحاء المعمورة . وثانيهما رواية الامام محمد بن الحسن الشيباني ، صاحب ابي حنيفة ، والنسخة الخاصة بهذه الرواية طبعت في الهند ، وعليها وضع الامام شاه ولي الله الدهلوي شرحه ، وما زال مالكا ينقح ويهذب احاديث الموطأ حتى عادت الى ما هي عليه الآن .

والاختلاف في عدد احاديث الموطأ ، سببه اختلاف الروايات عن الامام ، فكل رواية قد اختصت بعدد من الاحاديث ، يزيد او ينقص بحسب التهذيب والتلخيص الذي يجريه الامام من وقت لآخر على احاديثه .

وسيرة مالك رحمه الله في درسه دائما ، الجلوس في المسجد النبوي ، وكان يجلس في مجلس عمر بن الخطاب ، ويسكن بمنزل عبد الله ابن مسعود ، ثم اختص بالجلوس في بيته . قال الواقدي ، كان مالك يأتي المسجد ، ويشهد الصلوات والجنائز ، ويعود المرضى ، ويقضي الحقوق ويجلس في المسجد ، فيجتمع اليه اصحابه ، ثم ترك الجلوس في المسجد فكان يصلي وينصرف الى مجلسه في داره ، وترك حضور الجنائز ، فكان يأتي اصحابه ويعزيهم ، ثم ترك ذلك كله ، فلم يكن يشهد الصلوات في المسجد ولا الجمعة ، ولا يأتي احدا يعزيه ، واحتمل الناس له ذلك حتى مات ، وكان ربما قيل له في ذلك ، فيقول ليس كل الناس يقدر ان يتكلم بعمره .

وكان مرة يجلس للحديث ، ومرة للمسائل والفتاوي ، ولهذا رجال ، ولذلك ايضا رجاء ، ومن اكبر تلك الموسوعات الفقهية التي نقلت عنه ، مدوية اسد ابن الفرات ، التي اخذ مسائلها عن ابن القاسم في مصر ، ورجع بها الى

القيروان، فكتبها عنه سحنون ابن سعيد، وكانت تسمى الاسدية، ثم جاء بها سحنون الى ابن القاسم سنة 188 للهجرة، فعرضها عليه، وأصلح فيها مسائل، ورجع بها الى القيروان سنة 191، غير مرتبة المسائل، ولا مرسومة التراجم، فصحح سحنون أكثرها، واحتم لبعض مسائلها بالآثار من روايته من موطأ ابن وهب وغيره، وبقيت منها بقية على أصلها، وتبلغ مسائل المدونة اثنتين وثلاثين ألف مسألة، وهذه المدونة موسوعة فقهية كبيرة، تمتاز باليسر والسهولة والشمول، وهي المرجع الاساسي في الفقه المالكي. ومن كتب من اتباع الامام مالك، عبد الله بن عبد الحكم المصري ألف ثلاثة كتب، أولها المختصر الكبير، والثاني المختصر الاوسط، والثالث المختصر الصغير.

فالمختصر الصغير، قصره على الموطأ، والاوسط، قسمه الى قسمين، أحدهما، أكثر فيه من الآثار، وهو من رواية القراطيسي، وثانيهما، من رواية ابنه محمد، وسعيد بن حسان، وقد قالوا: أن مسأله المختصر الكبير 18 ألف مسألة، والاوسط 4 آلاف، والصغير احتوى على ألف ومائتي مسألة. أما اصبح بن الفرج، فصنف كتاب الاصول، وكتاب سماعه من ابن القاسم، اثنتين وعشرين كتابا، وألف محمد بن عبد الله بن عبد الحكم كتابا مثل القراءن، وكتاب الوثائق والشروط، وكتاب آداب القضاة، وكتاب الدعوة والبيانات، وبإجملة أن أهم أمهات هذا المذهب بعد المدونة كتاب الواضحة، لعبد الملك بن حبيب، ثم العتبية، لمحمد بن المواز، ثم الميسور القاضي اسماعيل، والمجموعة، لابن عبدوس، والسليمانية، لابي الربيع سليمان ابن سالم القطان، أحد أصحاب الامام سحنون، والمختلطة، لابن القاسم، وهي نفس المدونة، إلا أنها بدون ترتيب. والمدونة، موسوعة فقهية كبيرة، جمعت الكثير من القواعد والاصول التشريعية، شرح منها محمد بن سحنون أربعة كتب. كما شرحها آخرون، واختصرها خلف بن القاسم الأزدي، المعروف بابن البرادعي، وشرحها سند بن عنان الطراز، وآخرون، وفي كثير من المناسبات يشير الشيخ خليل في مختصره الى هذا الاختصار.

ثم استمر علماء المذهب في تقريب ما تضمنته هذه الاصول من مسائل فقهية، تهم الباحث من علوم الشريعة، في يسر وسهولة، وكانوا يعتبرون أن أقرب وسيلة الى حفظ المسائل واتقانها، هو استظهارها

فكتبوا المختصرات ، وكان من أعظمها مختصر ابن الحاجب ، المتوفى عام 646هـ الذي شرحه خليل بن اسحاق في القرن التالي ، في ستة مجلدات ، وسمى شرحه التوضيح ، تخير فيه ما رجع من شروح السلف والمتقدمين ، ثم ألف مؤخرًا كتابا ، هو اختصار لما تفرق في ذلك الشرح وأصله ، وهو كتاب مختصر الشيخ خليل بموقد انكب الناس منذ ذلك التاريخ على دراسته وشرحه والتعليق عليه ، وبالجمل ، فعليه وحده الآن الاعتماد في فهم الفقه المالكي لمن أراد التوسع أو التعمق ، وكانت وفاته رحمه الله عام 767 هـ وقد انتشر هذا المذهب في كثير من البلاد خارج الحجاز ، فانه ظهر في مصر في حياة الامام مالك ، اذ ادخله فيها تلامذته الذين حملوا عنه مسائله ، أمثال عبد الرحمن بن القاسم ، وعبد الله بن عبد الحكم ، وعبد الرحيم بن خالد ، وأشهب ، وغيرهم ، ممن اتخذ مصر مستقرا ومقاما .

وكان أكثر من سبق الى الرحلة الى مالك ، المصريون ، والمصريون من اهل افريقيا والاندلس ، وهم الذين تولوا نشر هذا المذهب في شمال افريقيا كله وفي الاندلس ، ثم ظهر هذا المذهب بالبصرة وبغداد وخرسان ، بواسطة بعض ممن اخذ عن تلامذة مالك ، مثل أحمد بن المعز بن غيلان العبدي ، من أصحاب عبد الملك بن الماجشون ، ومحمد بن مسلمة ، وأبو اسحاق اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل بن حماد بن زيد القاضي ، الذي نشأ بالبصرة واستوطن بغداد ، والامام يعقوب بن شيبه صاحب المسند العمل ، وأبي ذر الهروي المحدث ، من أقران الدارقطني ومعاويه ، وأحمد ابن فارس ، أحد أئمة اللغة والادب ، والامام أبي بكر ابن مجاهد ، شيخ المقرئين ببغداد والمشرق كله ، والامام أبي بكر الشبلي الصوفي والفقيه ، وأمثالهم من أفاضل علماء هذا المذهب .

وعند ما انتقل المذهب من الحجاز الى افريقيا بواسطة تلاميذه الامام المعاربة ، كانت افريقيا على مذاهب اهل الحديث ، كما هو شأن الفاتحين الذين دخلوها حاملين معهم راية الاسلام .

وأما الاندلس ، فقد كانت على مذهب الاوزاعي في الاغلب ، ولكن هناك اقلية على مذهب الامام أبي حنيفة رحمه الله ، ثم انتشر المذهب هناك حتى شمل جميع بلدان المغرب وبلدان افريقيا المسلمة . وقد لعب يحيى ابن يحيى الليثي رحمه الله في ذلك دورا هاما ، وكذلك الامام عبد السلام

ابن سعيد المعروف بسحنون . وكان سحنون متسامحا مع بعض القضاة
الاحناف ، فقد كان يوليهم ويقرهم على القضاء على المذهب الحنفي وعلى
اي حال ، فان هذا المذهب وصل الى الممالك الاسلامية في غرب افريقيا
ولا يعرف حتى الآن غيره ، وكان دخوله بلاد كانم وبرنو ، على ايدي علماء
وفدوا الى تلك البلاد من مصر ومن توات والمغرب ودور تنبكتو في هذا
الشان كبير وبارز ، فقد دلت الوثائق وسلاسل العلماء على صلات كبيرة
وواسعة . ترتبط تلك البلاد ببلدان المغرب بقسميه الأدنى والاقصى ، فان
الموافقة بيننا في تيجيريا وتشاد والكمرون والسودان وبين المغرب في
العقيدة والشريعة متطابقة ومتكاملة من كل الجوانب ، فالعقيدة الاشعرية
والمذهب المالكي هما نفسهما هناك وهنا ، بل وكذلك القراءة أيضا هي
رواية ورش عن نافع ، وحتى الخط ، فالخط الافريقي ، هو نفس الخط
المغربي مع تغيير بسيط ، بل هناك عادات أخرى متشابهة ، وأود ان أشير
قبل انتهاء هذا المقال الى نقطة هامة ، وهي ان هذا المذهب ، واحد من أربعة
مذاهب ، أجمعت الامة الاسلامية مؤخرًا على اعتبارها ، واعتبار ان أئمتها
مقبولون ، ومقبولة مذاهبهم ، في العقائد او الفقه او الاخلاق او مناهج
التفكير العامة ، وليسوا من البدعة في شيء ، ومقلدهم سالك طريق
البداية ، اذا كان قاصرا عن أخذ الحكم من الكتاب والسنة وادلتها .

ولعلماء المذهب المغاربة فضيل ، ليس على المالكية في الممالك
الاسلامية في غرب افريقيا فحسب ، وإنما على المسلمين عامة . في جميع
انحاء المعمورة . ونظرة بسيطة في كتب الرواية ، تريك ذلك بكل وضوح،وعلى
سبيل المثال ، انك اذا راجعت كتاب «فتح الباري» وهو أضخم كتاب في
شروح الحديث ، وجدته يعتمد على شروح الامة المالكية المغاربة ، لهذا
الكتاب العظيم او لغيره من كتب الحديث ، فقد نقل : عن الاصيلي ، وابن
الحذاء ، وابن بطل ، وابن عتاب ، والمهلب بن أبي صفرة ، وابن عبد البر، وأبي
الوليد الباجي ، والقاضي ابن علي الجياني ، والفاسي ، والداودي، والمازري،
وابن العربي ، وابن رشد ، والقاضي عياض ، وابن بشكوال ، والسهيلي ،
والقرطبي ، وابن التين ، وابن أبي جمرة الفاسي ، والعلامة ابن المنير، كل
هؤلاء من المغاربة اعتمد عليهم الحافظ في شرحه على البخاري، سوى زين
الدين ابن المنير ، فهو أسكندراني ، وها هو ابن مالك،الذي لا زال الناس
يدرسون نسخة اليونيني من البخاري التي صححها له ، وكفى بذلك فخرا .

وليس هذا من قبيل القول بالرأي في الدين ، خصوصا اذا لاحظنا معنى قوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » ومن هذا المنطلق أصبحت دراسة العقائد والمسائل الفقهية على قواعد الأئمة وأصولهم ، أمرا أساسيا في تكوين المسلم تكويننا صحيحا وسليما .

ولقد شاع وذاع ، وانعقد عليه شبه اجماع ، أن عقائد أهل السنة ، مع كونها مجتمعة في الكتاب والسنة ، يستحسن أن تدرس على قواعد وأسس وضعها أئمة أهل السنة ، مثل الإمام أبي الحسن الأشعري ، والإمام أبي منصور الماتريدي ، وهي أصول قابلة للتأويل أو التسليم للنصوص بحسب اعتبارات مفهومة من الأدلة الكلية ، ولا حرج من سلك مسلكهم من المسلمين ، وكذلك اتفقوا على لزوم اتباع أحد هؤلاء الأئمة المجتهدين وعلى أن متبع أحد الأئمة الأربعة لا يعتبر مبتدعا ، بل متمسكا بالسنة ، وهكذا في مناهج التزكية والأخلاق ، اتفقوا على أن أفضل ما وصل إليه رجال التربية الإسلامية ، طريقة الجنيد ، والمحاسب ، وأبي طالب المكي وأخيرا الغزالي ، وفي جميع هذا المذاهب ، يوجد متعصب ومعتدل ، والعبرة بنهج المعتدلين ، فالمتعصب المتطرف ، لا يستطيع أن يرى الحجة أو يدرکها ولو كانت نصب عينيه ، لما قد تقرر في نفسه أن الحق منحصر في مذهبه ، ولقد ظهرت مذاهب جديدة ، تدعو إلى رفض المذاهب كلها ، بحجة أن هذه المذاهب فرقت الأمة ، وحالت دون اجتماعها على رأي واحد ، ومذهب واحد ، أو بحجة أن هؤلاء الأئمة قد فاتت كل واحد منهم أحاديث صحيحة ونحن نقول لأخواننا هؤلاء أن هذه المحاولة قد فكر فيها كثيرون قبلهم ، ومن أمثلة ذلك نية المنصور على حمل الناس على كتاب الموطأ وتجديد هذه الفكرة على عهد الرشيد ، ولكن مالكا يرفضها ، لأنه يعلم أن هذا يستحيل في أمة بهذه الكثرة ، وبها الملايين من العقول المثقفة ثقافة إسلامية أخذت من القرآن والحديث ، وليس فهم رجل منهم أولى بالأخذ من فهم رجل آخر ، ما لم يسنده دليل صريح ، وأما بخصوص ما يقال من أن هؤلاء الأئمة ، قد فاتهم بعض الأحاديث ، فعلى تقدير صحة هذه الرعون ، فمن الذي في هذا العصر يدعى أنه احاط علما بجميع الأحاديث النبوية ، إذن ، فإن الدعوة إلى ترك المذاهب الأربعة بهذه الحجج ، دعوة خاطئة ، وبما أن هؤلاء الدعاة إلى مثل هذا الرأي منقسمون على أنفسهم ، ومتعددة أهدافهم ، فانهم يدعون في ضمن هذا ، إلى استبدال أربعة مذاهب ، بما لا ينحصر من المذاهب المتناقضة ، ومن المعلوم أن الاختلاف بين هذه المذاهب

الأربعة، لم يبلغ الى حد تكفير بعضهم بعضا ، بعكس هذه المذاهب الجديدة التي اجمع دعائها على ان الاختلاف بين الناس ، ينقسم فقط ، الى اسلام وكفر، فمن وافقهم فهو مسلم، ومن خالفهم يعدونه كافرا ، ولو كان معه الكتاب والسنة، فاذا عرفنا هذا ، فانه ليس من الحكمة ان نهدم ثقافة اسلامية كاملة لامة ، جهدت وعكفت على جمعها وتمحيصها ملايين العقول العديدة وصقلتها خبرة أربعة عشر قرنا ، لمجرد هذه التهم التي لم تصادف محلها ، وكل المسائل والجزئيات في قضايا الفقه المنتشرة في هذه المذاهب مسندة بأدلة من الكتاب او السنة ، او اجماع الامة ، او القياس الذي يفيد عموم النص ، وان عجز عن ادراك ذلك القاصرون، ومما لا جدال فيه، هو انه حتى في هؤلاء الدعاة عدد كبير عاجز عن اخذ الحكم أو التعرف عليه من الكتاب والسنة ، وبما ان الله اوجب على القاصر ان يسأل العالم ، فلا بد من رجوع بعضهم الى بعض في تعرف الحكم الالهي ، اذ المسلم لا يحل له ان يفعل شيئا حتى يعلم حكم الله فيه ، واذا كان هذا جائز بالنسبة لهم فما بالهم يحرمون منه الآخرين ، كيف وقد رتب الله هذا المجتمع وقسم افراده الى أمر ومأمور ، فقال عز من قائل : «يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » اذن ، فلا بد من الاقتداء بالذين هم اولى بذلك ، لما اختصاصهم الله به من علم ومعرفة ، واحاطة بأدلة الشرع بحسب الوسع البشري ، ولن ياتي أحد من المتأخرين بأفضل مما جاء به هؤلاء الأئمة ومذاهبهم ، التي يجب ان تكون هي الاصل لكل نهضة ثقافية في مجال التشريع الاسلامي نعتزم القيام بها .

التشكيك في علوم السلف ، تشكيك في الاسلام كله

ان التشكيك في علوم سلف هذه الامة الذين باشرنا تقل الاسلام حتى اوصلوه بكل امانة اليها ، لا يقل خطرا عن التشكيك في الاسلام ، لان الكتاب والسنة الذين هما اساس الاسلام ، لا يصلان اليها الا عن طريقهم فكيف نشكك في عقائدهم ، وفي سلامة صدورهم ، ونحن نعتمد على رواياتهم ، ولقد يبالغ البعض في هذا الموضوع ، ويذهب به التعصب بعيدا عن المعقول ، فيدعي ان ليس لهذا الفقه في مذاهبه الأربعة ، صلة بالكتاب والسنة ، ويحاول خلق الشبهات حول هذا الموضوع ، ونحن نقول ان كل من ادعى هذا الادعاء، فقد كذب على الله ، وكذب بما لم يحيط به علما وفضح نفسه فيما يدعيه من معرفة للكتاب او السنة ، فما هي مؤلفات

ائمة هذه المذاهب ؟ فبعض مؤلفات المالكية هي الموطأ والتمهيد ، والاستذكار ، والبداية والنهاية ، لابن رشد ، وغيرها (1) وكتب المذهب الشافعي مشحونة بالأدلة ، فدونت الام ، والرسالة ، واختلاف الحديث والروضة ، والمذهب ، والمجموع الذي شرحه به النووي ، الى غير ذلك . ومن كتب المذهب الحنبلي ، يكفي كتاب المغزى ، والشرح الكبير ، واما من مذهب الامام ابي حنيفة ، فلو نك كتاب الجواهر المنيفة ، وكتاب شرح معاني الآثار ، وكتاب نصب الراية للزيلعي ، الى غير ذلك ، كل هذه الكتب وغيرها كثير تكذب جميع تلك الادعاءات الخاطئة . وفي نهاية المطاف يسرنني ان اتناول موضوع السنة والبدعة لنرى سماحة الاسلام ، وأين هي البدعة المذمومة ؟

السنة والبدعة

السنة عند علماء الاصول تطلق على ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من الاقوال والافعال او التقارير ويدخل فى الافعال ما هم به النبي صلى الله عليه وسلم او اشار اليه وان لم يتواتر نقل الصادر عند جمهور العلماء وسنة الخلفاء تابعة لسنته عليه السلام لقوله : (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين) . ومن السنة ايضا ما اضيف الى النبي صلى الله عليه وسلم من الاوصاف والشمايل والصفات الخلقية .

والمحدثون يعرفونها بأنها ما اضيف للنبي صلى الله عليه وسلم من قول او فعل او تقرير او صفة خلقية وما يتصل بالرسالة من احواله الشريفة قبل بعثته عليه الصلاة والسلام مما يرد ذكره فى بعض المناسبات الدينية كمناسبة ولادته الشريفة ، وللفقهاء ايضا تعريفات للسنة مختلفة وأشمل ما يقال فى ذلك : هو انها ما فى فعله ثواب وفى تركه عتاب لا عقاب أى انها ما فى تركه ملامة احترازا عن النقل الذي فى فعله ثواب وليس فى تركه عتاب ولا عقاب .

(1) وفى الفتاوى يكفي كتاب « المعيار المعرب » ، عن فتاوى علماء افريقيا والاندلس والمغرب « وهو يبرهن على تمشي هذا المذهب مع حاجات هذا العصر .

ونفي العقاب أحترز به عن الغرض أو الواجب الذي في فعله ثواب ،
وفي تركه عقاب ، أي عذاب بالنار ، وفي مجال العمل والاعتقاد، فالسنة تطلق
على ما يقابل البدعة لقوله عليه السلام : (فليكن بسنتي وسنة الخلفاء
الراشدين ، وأياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة
ضلالة ، وكل ضلالة في النار) .

فالسنة هنا تعني ما وافق عليه النبي صلى الله عليه وسلم من
العقد والعمل ، كان ذلك منصوصا عليه في القرآن أو في الحديث أو
راجع إليهما . وعلى هذا تكون السنة كلمة شاملة للشريعة الإسلامية كلها
في أمتها، من كتاب وسنة واجتهاد، مستند إلى واحد منهما، بشرط الصحة
في الاجتهاد ، أو تكفي الصحة في نظر المجتهد وموافقيه ، لا في نظر مخالفه
في الاجتهاد ، وعليه يدل صنيع الفقهاء في تصويبهم لأراء الأئمة المجتهدين ،
ومن هنا يتضح ما قلنا سابقا من أن السنة تعني ما دلت عليه تلك الأدلة
التي تقدم ببيانها ، وهي ما جاء به الرسول عليه السلام ، وفيه يقول تعالى :
« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوه » . وقال : « وما كان
لهم من ولا مومنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من
أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » . وقال : « ومن
يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل من الله » .
وقال تعالى : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » . وقال : « قل أن
كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » . وقال تعالى أيضا : « فلا وربك
لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا
مما قضيت ويسلموا تسليما » . وقال : « فليحذر الذين يخالفون عن
أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم » .

وأما البدعة فهي كل ما خالف هذه السنة التي أمر الله باتباعها
وانتهاجها ، قصد ذلك مخترعها أم لا ، وهي في اللغة تعني كل شيء أحدث
على غير مثال سابق ، سواء كان محمودا أو مذموما .

والى انقسامها الى محمودة ومذمومة ذهب الإمام الشافعي ونقل
الإمام أبو شامة في كتاب « الباعث، إلى انكار البدع والحوادث » عن خرمة بن
يحيى قال : سمعت الشافعي رحمه الله تعالى يقول : البدعة بدعتان : بدعة

محمودة ، ويدعو مذمومة ، فما وافق السنة فهو محمود ، وما خالف السنة فهو مذموم . وقال الربيع ، قال الشافعي رحمه الله تعالى : المحدثات من الامور ضربان :

احدهما : ما أحدث يخالف كتابا او سنة او اجماعا او اثرا ، فهذه البدعة الضلالة .

الثاني : ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا ، فهي غير مذمومة الخ .

وقال الشيخ عبد الحق الدهلوي في شرح المشكاة : أعلم ان كل ما ظهر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعة ، وكل ما وافق - يريد من البدعة - اصول سنته وقواعدها او قيس عليها فهو بدعة حسنة . وكل ما خالفها فهو بدعة سيئة وضلالة . ولابن رجب الحنبلي في شرح الاربعين كلام يشبه هذا : والمراد بالبدعة ما أحدث مما لا اصل له في الشريعة يدل عليه . اما ما كان له اصل من الشرع يدل عليه ، فليس ببدعة شرها ، وان كان بدعة لفة .

وباختصار ، فان علماء الامة الاسلامية كادوا ان يجمعوا على ذلك ، وهو ان البدعة التي جاءت الشريعة بدمها ، هي المخالفة للشريعة ، اعني ان دليل الشريعة العام والخاص لا يشملها .

ومن هنا ندرك ان تمييز البدع والمحدثات ، أمر يحتاج الى علم كثير وفهم كبير ، واطلاع واسع ، والا آل الحال الى ما تردت فيه بلادنا الآن من انكار السنن ، وتكفير عامة المسلمين ، الذي اتخذه بعض الجهال عادة لهم .

وقد حدثت امثلة لبعض البدع المذمومة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، ولكنه ردها كما حدثت المحمودة فأقرها .

ومثال البدعة المذمومة التي حدثت في عهده ولكنه عليه السلام نهى عنها ، اعتزام بعض الصحابة على عدم النوم ، والبعض الآخر على عدم الفطر نهارا أبدا ، واعتزام الآخر على اعتزال النساء، فلما أخبر عيله السلام بذلك ، صعد المنبر وقال لهم : ما بال اقوام كذا وكذا : « فمن رغب عن سنتي فليس مني » والقصة في الصحيح .

وكذلك حدث التشدد في العبادة ، وخاصة قيام الليل ، من بعض الصحابة ، فنهاهم عنه علما منه بأنهم لا يطبقونه، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: كانت عندي امرأة من بني أسد ، فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من هذه ، قالت ، قلت : فلانة ، لا تنام بالليل ، فذكرت من صلاتها ، فقال : « مه ، عليكم ما تطيقون من الاعمال ، فان الله لا يمل حتى تملوا » مع انه صلى شكرا لله تعالى حتى تورمت قدماه .

وكذلك امتناعه عن الخروج للصحابة لصلاة التراويح ، خشية أن تفرض عليهم ، هذا وما قبله باعته الشفقة .

وكذلك حدثت قصة أخرى اخرجها البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب اذا هو برجل قائم فسأل عنه ، فقالوا أبو اسرائيل ، نذر ان يقوم ولا يقعد ، ولا يستظل ولا يتكلم ، ويصوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مره فليتكلم ، وليستظل ، وليقعد ، وليتم صومه . وفي رواية انس مرفوعا : ان الله لغني عن تعذيب هذا نفسه ، وآه يمشي بين ابنية . وفي بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم ادرك شيخا يمشي بين ابنية يتوكأ عليهما فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما شان هذا ؟ قال ابنه يا رسول الله كان عليه نذر فقال صلى الله عليه وسلم : اركب ايها الشيخ ! فان الله غني عنك وعن نذرك . (راجع الصحيحين والسنن ومسنند الامام احمد) . كل هذه الآثار وامثالها كثير تمثل جانب البدعة التي حدثت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقرها .

واما مثال ما حدث في عهده وله اصل في شريعته عليه السلام فأقره فكثير ، وهو مثال للبدعة المحمودة فمن ذلك :

اقراره عليه السلام لبلال على التزام المداومة على صلاة ركعتين بعد كل وضوء مع الاشارة بصنيع بلال هذا ، ففي البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر : يا بلال ، حدثني بأرجى عمل عملته في الاسلام ، فاني سمعت دف نطيك بين يدي في الجنة ، قال ما عملت عملا أرجى عندي اني لم اظهر طهورا في ساعة ليل او نهار ، ألا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي (ودف

نعليك كما فسرہ البخاري حرکتہما) ، والحديث رواه الترمذي، والحاكم في المستدرک ، وفيه اقرار النبي لبلال على اجتهاده في هذه العبادة ، وهي التزامه صلاة ما قدره الله له من النوافل ، وهو الركعتان ، كما جاء في رواية الترمذي ، فقال بلال : يا رسول الله ، ما اذنت قط ، الا صليت ركعتين ، وما اصابني حدث قط ، الا توضأت عندها ورأيت ان لله علي ركعتين انتهى ، وبما ان اصل المحافظة على النوافل والظاهرة مندوب اليه المسلم ، ومتروك تحديد وقت الاباحة المناسب لظروف المسلم للمسلم نفسه ، أقر الرسول عليه الصلاة والسلام بلالا على هذا الاجتهاد ، ولم يعتبره تشريعا جديدا ، ولم يعده في البدع المذمومة ، بل صار سنة باقراره عليه السلام .

ومثل الاقرار على نوع من العبادة يحدثه أحد المسلمين بحضرته عليه السلام ما جاء في حديث رفاع بن رافع الزرقني قال : كنا يوما نصلي وراء النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رفع رأسه من الركعة قال : سمع الله لمن حمده ، قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد ، حمدا كثيرا مباركا فيه ، فلما انصرف قال : من المتكلم ، قال أنا . قال : رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أول . رواه البخاري والترمذي والنسائي ، وفيه اجتهاد هذا الصحابي في الدعاء في الصلاة مع قوله عليه السلام : « صلوا كما رأيتموني أصلي » . ومثال الاقرار في الدعاء أحاديث كثيرة ، منها حديث انس الذي رواه أحمد والترمذي ، وابن حبان في صحيحه ، ان النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يدعو : اللهم اني أسألك بأن لك الحمد ، لا اله الا انت الجنان المنان بديع السموات والارض ، ذا الجلال والاکرام ، يا حي يا قيوم . فقال لقد سأل الله باسمه الاعظم . ومثله حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه انه قال : سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو ويقول : اللهم اني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله الذي لا اله الا أنت ، الاحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد . فقال : والذي نفسي بيده ، لقد سأل الله باسمه الاعظم الذي اذا دعي به اجاب ، واذا سئل به أعطى . رواه الترمذي وغيره ، وقال حديث صحيح .

ومن ذلك اقراره المرأة على عد التسبيح بالحصا ، مع ارشاده لها الى ما هو اسهل منه ، فقد اخرج أبو داود عن عائشة بنت سعد ابن أبي وقاص ، عن

أبيها أنه دخل مع النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة وبين يديها ثوبى
او حصا تسبح به ، فقال : اخبرك بما هو أيسر عليك من هذا او أفضل
فأقل : سبحان الله عدد ما خلق في السماء ، وسبحان الله عدد ما خلق في
الأرض ، وسبحان الله عدد ما خلق بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو خالق
والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول
ولا قوة إلا بالله مثل ذلك . رواه النسائي والترمذي . وهذا ونحوه مثال
لما حدث في عهده من الأقوال والأفعال ، مما يصاح مثالا للبدعة المحمودة .
فالمذاهب وما اشتملت عليه في مجال العبادات والمعاملات من هذا
القسم . فإذا أمنت النظر فيما سقناه هنا . اتضح لك معنى السنة ومعنى
البدعة الحقيقية ، وهي كل ما حدث مخالفاً لدلالة الشرع العامة والخاصة
وغير داخل تحت أي كلية من كلياته ، فكثير مما يلجج الجهال بكونه من
البدع المحدث ، لا يدخل في البدع الشرعية ، ذلك لأنهم لقصورهم في اللغة
والأصول ، وعجزهم عن التمييز ورد الفروع إلى أصولها ، يطلقون كلمة بدعة
على كل ما جهلوه ، ومن أعظم البدع في الإسلام ، تقديم الجهال على العلماء
واسناد المناصب الدينية لمن لا يستأهلونها لجهلهم ، او لفقدان شرائطها
فيهم ، فيتخذون الافتاء بالجهل حرفة لهم يتعيشون من ورائها ، فيحرفون
الآيات ويبدلون ، ويكذبون على الله ورسوله . وقد قال تعالى : « ولا تقولوا
لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب .
ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » .

ومن أعظم البدع التي عمت بها الباطل في هذا العصر ، الذي ساد فيه
الروبيضة أخذ الدين ممن ليس له دين ، وتحريف القرآن ، وتكذيب آياته
البينات .

ومن أكبر ما ابتلي به هؤلاء ، حمل آيات نزلت في المشركين والكفار
على المؤمنين ، وهذه هي بدعة الخوارج ، ففي الصحيح ان ابن عمر كان يرى
الخوارج شرار خلق الله ، وقال أنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار
فجعلوها على المؤمنين . حتى ترى الرجل يصبح مومناً ويمسي كافراً
طبقاً لما أخبر به عليه الصلاة والسلام . ففي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة
قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بادروا بالأعمال فتناً كقطع
الليل المظلم ، يصبح الرجل مومناً ويمسي كافراً ، ويمسي مومناً ويصبح
كافراً يبيع دينه بعرض الدنيا .

وأخرجه احمد والطبراني عن الضحاك بن قيس وفيه : يبيع اقوام اخلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا .

وأخرجه الحاكم من حديث معاذ في آخر حديث عوف بن مالك قال خمس اظلتكم من ادرك منهن شيئا ثم استطاع ان يموت فليمت : ان يظهر التلاعن على المنابر ، ويعطى مال الله على الكذب والبهتان ، وتسفك الدماء بغير حق ، وتقطع الارحام ، ويصبح العبد لا يدري اصال هو ام مهتد .

وروى الطبراني في الاوسط من حديث سلمان رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا ظهر القول ، وخزن العمل ، واختلفت اللسان ، وتباغضت القلوب ، وقطع كل ذي رحم رحمه ، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » .

فنسأل الله لنا الهداية والتوفيق ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ان المجاهدين الاولين فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا اذ ذاك جيشا منظما ولا جيشا محترفا ولكنهم بهروا العالم بما حققوه من فتوحات لم تكن فتوحات السبب فقط ، ولكن فتوحات الاخلاق ، فتوحات الاسلام .

— جلالة الحسن الثاني —

الاستاذ عبد السلام المسفيوي

محصل على العالمية ، متخصص في البحث و احياء
التراث العلمي .

(الملكة المغربية)

قَبَسٌ مِنْ تَارِيخِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ

لِلإِسْتَاذِ عَبْدِ السَّلَامِ جَبْرَانَ الْمَسْفِيوِي

إِيَّهَا السَّادَةُ :

يسعدني أن ألقى على مسامعكم الكريمة كلمة وجيزة كقبس من تاريخ الإمام مالك ، ذاكم الإمام الجليل الذي أغنت شهرته العلمية ومآثره السنية عن التعريف به والإشادة بذكره رغم ما وضع في ترجمته من التأليف العديدة والتصانيف المديدة ، لا بد أن أذكر من ذلك الشيء اليسير تبركا وتنويها بجنايته الأثيرة . وقبل الدخول في الموضوع نشير إلى المدرسة التي أنبتت هذا الإمام العظيم وهي المعروفة بمدرسة أهل المدينة يعود أصل هذه المدرسة إلى عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت حلقات الدراسة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه أيضا تدبر شؤون الدولة الإسلامية ، وكان الاعتماد العلمي آنذاك على ما حفظ في الصلوات أكثر مما كتب في السطور لشدة الإيقان وسيلان الأذهان ، فظهر من تلك المدرسة جماعة من الفقهاء الأعلام الحاملين رؤية الإسلام ، من أشهرهم سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وأبو بكر ابن عبد الرحمن وسليمان بن يسار وخارجة بن زيد وعبيد الله بن عبد الله في ذلك الوسط العلمي تمخض الزمان فولد الإمام مالك نادرة البطون عام 93 هـ وكان أصله عربيا من قبائل اليمن ، وهو أبو عبد الله مالك بن أنس

الاصبحي بن مالك بن ابي عامر ابن عمرو بن الحارث بن غيمان ، ابوه ينتمي الى قبيلة أصبح من قبائل اليمن ، وينتمي نسب امه الى قبيلة الازد واسمها العلية بنت شريك ، وجده قد نزل بالمدينة حينما اتاها متظلماً من بعض ولاة اليمن فاختارها مستقراً ومقاماً ، وتظاهر مع عائلة قرشية من بني تيم بن مرة وكان حلفه فيهم ، وكان جده مالك المذكور من كبار التابعين ، ومن الاربعة الذين حملوا عثمان بن عفان الى مرقده الاخير ليلا اخذ ، وأخذ منه .

أخذ عن عمر بن الخطاب وعن عثمان بن عفان وطلحة بن عبد الله وعائشة أم المؤمنين وأخذ عنه بنوه منهم والد الامام انس وابو سهيل نافع، المعدود من شيوخ ابن شهاب الزهري وقد تأخر عنه في الوفاة كما في فتح الباري . نشأ مالك في بيت متجه لاكتساب العلم واقتنائه وتعلمه وتعليمه وفي بيئة مليئة بالطموح للعرفان فوجه في اول نشأته همته القعساء لاخذ العلوم وللارتواء من يتابعها الفياضة بالفهوم وبذل أقصى جهده في تحصيل المعارف وتحمل المشقة ودل الصعاب في سبيل التقاط فرائدها ، وكان له خبير معين من والدته الازدية لما لها من كبر العناية بمظهره كمخبره تلبسه عند الذهاب لطلب العلم احسن الثياب وتختار له المأخذ العلمية الصافية كقولها له اذهب الى ربيعة الراى فتعلم من ادبه قبل علمه .

فكان يقتطف من رياض العلم اطيب ازهارها ، ويجتني احلى ثمارها حتى أصبح قدوة للانام وحجة في حديث الرسول عليه السلام وعمدة كبرى في فقه الاسلام ، وكان معجباً باحد شيوخه وهو عبد الرحمن بن هرمز المعروف بالاعرج وقد قال رضي الله عنه فيه : جالست ابن هرمز ثلاث عشر سنة في علم لم ابته لاحد من الناس ، قال وكان أعلم الناس بالرد على اهل الاهواء وبما اختلف فيه الناس ، وكان رضي الله عنه يتأدب بأدبه وبأخذ بحكمته وقد قال جلساؤه في ذلك سمعت ابن هرمز يقول : ينبغي للعالم ان يورث جلساءه قول لا ادري حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزحون اليه ، فاذا سئل أحدهم عما لا يدري قال لا ادري لان كلمة لا ادري تدل على الامانة في العلم ولذلك كان رضي الله عنه لا يترفع في الشيء الذي لا يعلمه ان يقول لا ادري ، بل حدث عنه تلميذه ابن وهب فقال كان مالك يقول في أكثر ما يسأل عنه لا ادري . وقال خالد بن خدّاش

قدمت على مالك من العراق بأربعين مسألة فقال فى اثنين وثلاثين منها لا أدري ، قال مالك كان ابن عجلان يقول : اذا أخطأ العالم قول لا أدري أصيبت مقاتله ، وروى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال لا أدري فصف العلم ، وكان مالك يكثر من قول ما شاء الله ، فقال رجل ما أكثر ما يقول مالك ما شاء الله ، قال فأتى فى منامه ف قيل له أنت القائل ما أكثر ما يقول مالك ما شاء الله ، لو شاء مالك ان يثقب الخردلة بقوله ما شاء الله لفعل . وكان مالك أشقر ، شديد البياض ، ربة من الرجال ، كبير الرأس ، أصلع ، وكان لا يخضب شيبه ويكره حلق الشارب ويعيبه ويراه مثلة ، وكان يترك له سبيلتين طويلتين ويحتج بقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه لشاربه اذا همه امر ، وكان حسن البزة ، وقورا مهيبا ، ومن هيبتة ان الرجل لا يدخل عليه وبملا عينه منه ومن سمته ويقع تحت تأثير نظراته النافذة حتى يأخذ ذلك من فوائده ويهابه فيجلس كأنما على رأسه الطير .

وقد كان الخلفاء واولادهم يهابونه حتى أن أبا جعفر المنصور كان مالك فى مجلسه واذا بصبي يخرج ثم يعود فقال المنصور : أتدري من هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا ابني وانما يفزع من شيبتك ، وكان له نفوذ اكبر من نفوذ الولاة حتى أنشد فيه بعض شعراء عصره :

ياتي الجواب فما يراجع هيبة والسائلون نواكس الادقــان
أدب الوقار وعز سلطان التقى فهو المطاع وليس ذا سلطان

وسر هذه الهيبة ناشىء من تقوى الله وطاعته ، وله رضى الله عنه علاوة على ذلك بسطة فى الجسم يعتني بملبسه فجعل له ذلك مظهرا جسيما معتازا فى الجمال .

وقد بلغت هيبتة هذه حدا أعلى من هيبة الملوك كما حدث بذلك بعض أهل الاندلس اذ قال عندما رآه : ما هبت أحدا هيبتى من عبد الرحمن ابن معاوية (أى عبد الرحمن الداخل) فلما دخلت على مالك هبتة - هيبة شديدة صفرت منها هيبة ابن معاوية ، وكان شديد التعظيم لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم لا يحدث الا على وضوء ، ولا يركب دابته فى دار الهجرة النبوية على ضعفه وكبر سنه ، وكان يقول لا أركب فى مدينة فيها جثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان اذا أراد ان يلقي على المسامع

أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم يغتسل ويتبخر ويتطيب فإذا رأى أحدا رفع صوته عنده يقول له : أغضض من صوتك فإن الله يقول لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . وبلغ من اجلاله لحديث الرسول انه يحدث فلدغته عقرب ست عشرة مرة ولونه يتغير ومع ذلك لم يقطع الحديث .

وهو من تابع التابعين على الصحيح خلافا لمن قال انه من التابعين محتجا بادراكه لعائشة بنت سعد بن ابي وقاص ، وقد قيل فيها انها صحابية والصحيح انها ليست بصحابية بل هي من التابعيات .

اما الفتوى فقد ألقت اليه مقاليدها حتى قيل : لا يفتى ومالك في المدينة ، وقال مصعب سمعت مالكا يقول : ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك ، وفي رواية أخرى حتى قال لي ثلاثون معمما : أفت ، فأفتيت وأنا ابن أربع عشرة سنة ، وكان في ذلك الوقت لا يتعمم تحت حلقة الأفتية . وكان من المتصدرين للفتوى في زمانه يحيى ابن سعيد الانصاري ، وربيعة بن ابي عبد الرحمن ، ونافع مولى ابن عمر وأمثالهم ، وقال ابن مهدي : أئمة الناس في زمانهم أربعة : سفيان الثوري بالكوفة ، ومالك بالحجاز ، والأوزعي بالشام ، وحمام بن زيد بالبصرة . وقال أبو حاتم الرازي : الحجة على المسلمين الذين ليس فيهم : سفيان الثوري وشعبة ومالك وسفيان ابن عيينة وحمام بن زيد .

وكان مالك لا تأخذه في الله لومة لائم ، له من شجاعة الادب ورسوخ العقيدة وقوة الايمان ما جعله لا يهاب في ابداء رأيه أحدا ، ولا يخشى في مذهبه وعدا ولا وعيدا بل كان يستعصم بالصبر الجميل امام التصريح بما يعتقد حق ، حتى أفتى بخلع المنصور ، ومبايعة محمد بن عبد الله من آل علي مما دعى أمير المؤمنين جعفر بن سليمان الى ضربه سبعين سوطا من أجل ما نسب اليه أن البيعة لا تحل بالاكراه على أن ذلك الضرب لم يزد في سماء مجده الا علوا وارتقاء .

والمنصور لما أحس بمرارة ما فعل جاء الى الحجاز حاجا فبعث يستدعيه ليعتذر اليه فجاء على لسانه في ذلك ما يدل على مقدار عظمتة في سماحته ، كما كان عظيما في علمه وحميد خصاله ، حيث قال : « لما دخلت على أبي جعفر وقد عهد الي ان آتيه في الموسم ، قال لي : والله

الذي لا إله إلا هو ما أمرت بالذي كان ولا علمته ، انه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، واني أخالك أمانا لهم من عذاب ، ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة فانهم أسرع الناس إلى الفتن ، أمرت بعد والله ان يوتي به أى بالوالي على قتب ، وأمرت بضيق محبسه والاستبلاغ من امتهانه ولا بد ان أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه ، فقال : عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه فقد عفوت عنه لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقربته منك ، قال : فعفا الله عنك ووصلك ، ثم قال له بعد ذلك لم يبق فى الناس أفقه مني ومنك وقد شغلتنى الخلافة فضع للناس كتابا ينتفعون به .

وتجنب رخص ابن عباس وشذائد ابن عمر وشواذ ابن مسعود ووطئه للناس توطئة ، فصنف الموطأ ، وبوبه تبويبا فقهيا مما جعله كتاب حديث وفقه فى آن واحد ، واختلف مقدار أحاديثه باختلاف رواته ، وسمعه عليه المهدي ثم الرشيد سنة 174 ، وأغدقا عليه أنواع النعم ، وله مع الخلفاء والولاة نصائح غالية ومواعظ قيمة سجلها التاريخ بمداد الفخر على صفحات الخلود ، وروى عتيق بن يعقوب الزبيري ان هارون الرشيد قدم المدينة المنورة وكان قد بلغه ان مالك بن أنس عنده الموطأ يقرأه على الناس فوجه اليه البرمكي ، فقال له اقرا له السلام وقل له يحصل الى الكتاب فيقرؤه علي ، فقال له : اقرئه السلام وقل له ان العلم يزار ولا يزور وان العلم يوتي ولا يأتي فاتاه البرمكي فأخبره ، وكان عنده أبو يوسف القاضي فقال يا أمير المؤمنين يبلغ الى أهل العراق انك وجهت الى مالك بن أنس فى أمر فخالفك واعزم عليه فبينما هو كذلك اذ دخل مالك بن أنس فسلم وجلس فقال يا ابن أبي عامر ابعث اليك فتخالفني فقال مالك : يا أمير المؤمنين أخبرني الزهري وذكره بسنده عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه رضي الله عنه قال : كنت اكتب الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستوي القاعدون من المؤمنين وابن أم كلثوم عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني رجل ضرير وقد أنزل الله فى فضل الجهاد ما قد علمت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا أدري وقلمي رطب فما جف حتى ثقل فخذ النبي صلى الله عليه وسلم على فخذي ثم اغمي على النبي عليه السلام ثم جلس ، فقال صلى الله عليه وسلم يا زيد اكتب غير أولي الضرر ، فيا أمير المؤمنين حرف واحد بعث فيه جبريل والملائكة من مسيرة خمسين عاما الا ينبغي لي ان أعزه واجلسه وان الله

تعالى رفعك وجعلك فى هذا الموضع بعلمك فلا تكن انت اول من يضع عز العلم فيضع الله عزك ، قال فقام الرشيد فمشى مى مع مالك الى منزله فسمع منه الموطأ واجلسه معه على المنصة فلما اراد ان يقرأه على مالك قال تقرأه علي قال مالك ما قرأته على أحد منذ أزمان ، قال فتخرج الناس عني حتى أقرأه عليك فقال مالك : ان العلم اذا منع من العامة لاجل الخاصة لم ينفع به الخاصة فأمر له معنى بن عيسى الفزاز ليقراه عليه فلما بدا ليقراه عليه قال مالك بن أنس لهارون الرشيد يا أمير المؤمنين أدركت اهل العلم ببلدنا وانهم ليحبون التواضع للعلم فنزل هارون على المنصة فجلس بين يديه ، قال ابن ناصر الدين وقد رويت هذه القصة اطول من هذا عن عبد الله بن وهب وهذا امثل .

وكان مالك ذا فطنة وعقل واجح حتى ان ربيعة كان اذا جاءه مالك قال جاء العاقل ومن ذكائه ما وقع فى زمنه وهو ابن ثلاثة عشرة سنة كان يقرأ الفقه على أشياخه ان امرأة غسلت ميتة فلما وصلت الى فرج الميتة ضربت بيدها على فرجها وقالت يا فرج ما كان اذنك فأمسكت يدها على الفرج والتحمت فما استطاع احد ازالة يدها فقبل للفقهاء ما الحكم فى ذلك ، فمن قائل تقطع يدها ومن قائل يقطع بدن الميتة قدر ما أمسكت عليه اليد ، وطال فى ذلك النزاع اى حرمة أوجب علينا ، هل حرمة الحي فلا يقطع منه شيء أم حرمة الميت فلا يقطع منه شيء .

فبينما هم كذلك اذ دخل مالك فى جملة الصبيان الطلبة فقال : ارى الحكم فى ذلك ان تجلد الفاسلة ثمانين جلدة حد القرية ، فان كانت افترت فان يدها تطلق فجلدت الفاسلة حد القرية فاطلقت يدها فتعجب الفقهاء من ذلك ، ونظروا اليه بعين التعظيم والاحترام والحقوه بالشيوخ العظام كما الحق عمر ابن الخطاب عبد الله بن عباس بأهل بدر لعظم قدره فى العلم .

وكان مالك ذا فراسة قوية نافذة لبواطن الامور ولخفايا النفوس ومن ذلك ما ذكره الشافعي حيث قال : لما سرت الى المدينة ولقيت مالكا وسمع كلامي ، نظر الي ساعة وكانت له فراسة ثم قال ما أسمك قلت محمد ، قال يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فانه سيكون لك شأن من الشؤون ، وقد اتاه الله حافظه واعية وحرصا شديدا على الحفظ وصيانة ما يحفظ من النسيان ، وقد سمع من ابن شهاب الزهري واحدا وثلاثين

حديثاً لم يكتبها ثم أعادها فلم ينس منها حديثاً واحداً . ومما لا ريب فيه أن قوة المحافظة أساس للنبوغ في أى علم ولذلك قال فيه ابن شهاب المذكور : انه وعاء علم ، وكان يواجه مشاكل الحياة بإرادة قوية وعزيمة صارمة مما جعله يستولى على أهوائه وشهواته ، وكان الاخلاص في العمل شعاره الوحيد ، وقد رفعه الاخلاص ان يقرر فيقول : ان نور العلم لا يؤنس الا من امتلأ قلبه بتقوى الله فهو يقول : العلم نور لا يأنس الا بقلب تقى خاشع كما دفعه الاخلاص ايضا في الاحكام الى الابتعاد من قوله هذا حرام وهذا حلال ، فيما لم يكن فيه نص صريح بل كان في ذلك اكره واستحسن ، وكثيراً ما يعقب ذلك مقتبساً من القرآن ، ان نظن الا ظناً وما نحن بمستيقنين .

اما الادلة التي بنى عليها مذهبه فهي تبلغ سبعة عشر ، خمسة من كتاب الله وهو يجعله فوق كل الادلة لانه المصدر الاساسي للشرائع والينبوع الاول لها ، وسجل أحكامها الخالدة .

1 (يأخذ بنصه الصريح وهو لا يقبل تأويلاً نحو فصيام ثلاثة أيام في الحج ... ،

2 (يأخذ بالظاهر منه وهو لا يقبل التأويل ولكن لا يوجد دليل على وجوب تأويله .

3 (يأخذ بمفهوم الموافقة وهو فحوى الكلام وتنبيه الخطاب نحو قوله تعالى : « فلا تقل لهما أف ... » الخ .

4 (يأخذ بمفهوم المخالفة وهو ان يجيء النص على الحكم مقيداً بوصف او نحوه مما يفيد تقيض الحكم عند تخلف النص نحو قوله تعالى : « والزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله » .

5 (يأخذ بالتنبيه على علة الحكم مثل قوله تعالى « فانه رجس او فسقاً - أهل لغير الله به » .

وهكذا يأخذ بكتاب الله العزيز نصاً صريحاً او بإشارة او تنبيه او مفهوم ويأخذ من السنة أيضاً مثل هذه الخمسة لان السنة هي الينبوع

الثاني بعد كتاب الله فى الشرائع ، فكان يأخذ بالمتواتر ، والمشهور منها
أى المشتهر فى عصر التابعين وتابعهم اماما أشتهر بعده فلا عبرة به ،
ويأخذ ايضا بخبر الاحاد ما لم يعارض أصلا معلوما أو لم يكن هناك ما
يعاضده من اصل قطعي آخر ، أو يخالف عمل أهل المدينة كما سيأتي

الدليل 11 الاجماع ، وهو المصدر الثالث للشرائع بعد الكتاب
والسنة ، وهو اتفاق المجتهدين المسلمين فى عصر من الاعصار على حكم
شرعي .

الدليل 12 القياس وهو الحاق امر غير منصوص على حكمه بأمر
آخر منصوص على حكمه لاشتراكهما فى علة الحكم ، لان علة الاحكام هي
السبب فى وجودها .

الدليل 13 عمل أهل المدينة يعتبره الامام مالك حجة ويقدمه على
الاحاد ، ويقول مقالة شيخه ربيعة : (ألف عن ألف خير من واحد عن
واحد) وكان يوجه اللوم الى كل فقيه لا يأخذ بعمل أهل المدينة ، على أن
عمل أهل المدينة كان رائجا قبل مالك حتى عند القضاة ويعتبرونه منقولاً
عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، روى فى ذلك أن القاضي محمد ابن ابي
بكر قيل له فى حكم قضى به : ألم يات فى هذا حديث كذا ، فقال بلى ،
ف قيل له : فما بالك لا تقضى به ، فقال : فأين الناس عنه ، يعنى ما اجمع
عليه الصلحاء بالمدينة .

الدليل 14 قول الصحابي فكان رضي الله عنه يأخذ بفتوى الصحابي
على انها حديث واجب العمل به اذا كان ذلك لا يمكن أن يعرف الا بالنقل
من الرسول صلى الله عليه وسلم .

الدليل 15 الاستحسان كان يأخذ به ويقول الاستحسان تسعة اعشار
العلم لانه الخضوع لحكم المصلحة حيث لم يكن نص قرآني أو حديث نبوي
لان الشرع العزيز ما جاء فى الواقع الا لمصالح الناس .

الدليل 16 سد الذرائع ، كانت الذرائع من الاصول التي اخذ بها
مالك اذ يرى أن ما يؤدي الى الحرام حرام وما يؤدي الى الحلال حلال ،

وفى ذلك من الحق ما لا يخفى ، اذ فيه ربط الاصول الشرعية بمصالح البشر .

الدليل 17 الاستصحاب ، اى الاستدلال باستصحاب الحال ، ببقاء ما كان على ما كان لعدم ثبوت تغيره ، وعند دليل الاستصحاب نمسك عنان القول فى هذا الباب منبهين على ان مناهج مذهب الامام مالك مناهج خصيصة متعددة يتسع فيها آفاق التفكير ، وتجد فيها ألوانا من المنازع الفقهية الملائمة للافطار المتباينة فى العادات والاعراف فيها مجال واسع للاستنباطات .

وقد كان من فقهاء هذا المذهب المالكي من جمع بين الفقه العميق وبين الفلسفة والحكمة كابن رشد الحفيد الذي تلقى عنه الاروبيون كثيرا من مباحث الفلسفة .

وكان لكتابه الموطأ روايات متعددة لم تصلنا منها الا اثنان : رواية محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة ، ورواية يحيى الليثي الذي انتهت له الرئاسة فى الاندلس وقد اخترمته العنية سنة 234 ، وكان من تلامذته الامام محمد بن الحسن الشيباني الحنفي والامام الشافعي واسد بن الفرات التونسي وعبد السلام التنوخي المعروف بسحنون ، واشتهر منهم فى عصره عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز القيسي وغيرهم ، وقد نشأ مذهب بالمدينة وانتشر فى الحجاز ثم اختص به اهل المغرب والاندلس ، اما من الناحية الشعرية فقد نقل انه لم يقل الا بيتين :

درج الايام تنـدرج * ويوت الهم لا تلـج

رب امر عز مطلبه * قربته ساعة الفرج

هكذا بقي طيلة حياته الكريمة مشرقا لنور العلم وقبلة لرواة الحديث وعمدة لارباب الفتوى حتى اتاه الاجل المحتوم سنة 179 يوم الاحد لتمام اثني عشر يوما من ربيع الاول ودفن بالبقيع وقد أشار الى وفاته العلامة احمد المغربي بقوله :

قد رمز الشيخ الامام الماهر
وفاة مالك بقول ظاهر

وذلك قطع غير أن لا توريطه
فيه ولا اشارة لتعمية

فقلت لما ان رأيت ذلك
تاريخه قولك فاز مالك

فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز .

والذي تولى الصلاة عليه عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن
علي بن عبد الله بن عبوس وله من العمر تسعون سنة ، أسكنه الله فسيح
جناته وغمسه في دائرة رحمته وجعل له أحسن جوار وأطيب قرار .

مالك امام من أئمة المسلمين ، مجمع على فضله وثبته
في الحديث ، ومالك نجم أهل الحديث المتوقف على
الضعفاء ، الناقل عن أولاد المهاجرين والانصار .

- يحيى بن معين -

الاستاذ عباس الجرادي

محصل على ليسانس وماجستير فى الادب العربى ،
وعلى دكتوراة الدولة فى الآداب .

(الملكة المغربية)

اسباب انتشار المذهب المالكي واستمراره في المغرب

للدكتور عباس الجراري

لا يخفى ان اجتهاد المسلمين الاوائل فى ممارسة الحياة السياسية والفكرية لدولة الاسلام التي اتسعت رقعتها بفتوح البلدان وانضواء شعوب هذه البلدان تحت لواء الدين الجديد ، اتاح لهم ان يواجهوا قضايا عدة فرضتها الظروف الطارئة التي كانت تواكب عملية الاتساع والانتشار ، وما كانت تولد من احتكاك وصراع اغنيا الفكر الاسلامي وامداه بتجارب تنسم فى غالبيتها بالاجابية ، على الرغم مما افضت اليه فى بعض الاحيان من سلبيات ، وهي تجارب متعددة الجوانب ، ترتبط ابعادها بكل مقتضيات الحياة ، ويمكننا ان نذكر منها :

اولا : بعدا سياسيا تمثل فى مشكل الخلافة ، وقد واجهه المسلمون منذ وفاة الرسول عليه السلام ، ثم تطور بعد مقتل عمر بن الخطاب ليفضي فى عهد عثمان بن عفان وعلي الى أزمة أدت فى أيام ابن أبي طالب الى انقسام الخلافة شطرين : احدهما فى العراق والجزيرة يدين لعلي ، والثاني فى الشام ومصر خاضع لمعاوية ، كما أدت الى ظهور الخوارج .

واتسع نطاق هذه الازمة بعد انفراد معاوية بالامر ، وما ترتب عن تحرك ابني علي ، والحسين خاصة ، من معاناة كان طبيعيا ان تفرز تنظيما شيعيا لم يلبث ان شكل مع حركة الخوارج حزبي معارضة للدولتين الاموية والعباسية على السواء .

ثانياً : بعداً عقدياً متمحوراً حول ما سمي بعلم الكلام ، وهو علم يدور حول أصول العقائد الإسلامية لاثباتها والدفاع عنها ضد الآراء المخالفة لها بالحجج العقلية .

والحقيقة أن المسلمين لم يكونوا محتاجين الى هذا العلم أول الامر، لعمق إيمانهم واقتدائهم بالرسول واعتمادهم على العمل أكثر من اعتمادهم على الجدل والمناقشات النظرية ، ولكنهم شغلوا به بعد أن انقسموا الى فرق وأحزاب ، وبعد أن أخذ النزاع صبغة عقدية ربطت الموقف من الخلافة عند تلك الفرق والأحزاب بقضية الإيمان والكفر .

وينطلق علم الكلام من جانبين : أحدهما نقلي قائم على ثبوت شرعي يقيني للمبادئ العقدية ، والثاني عقلي يهدف الى البحث عن الأدلة التي تكشفها هذه المبادئ وتدافع عنها ، ومن ثم نشأ الخلاف حول الكلام بين فريقين :

1 - الذين يرون ضرورته ، معتمدين على أن القرآن نفسه يدعو الى الجدل العقلي ويحث عليه للاثبات والاقناع ، وهو الخط الذي سار فيه المعتزلة ، مثيرين بذلك مباحث تتعلق بصفات الله وبالقضاء والقدر ومصير الإنسان وحرية وبقضاي العدل والوعد والوعيد .

2 - الذين يقفون ضده ، لأنهم يرون أنه لا داعي لدلة عقلية ، في إثبات شيء قرره العقيدة ، لا يحتاج لغير الإيمان به ، ومعظم هؤلاء من أهل السنة ، وأن اتجه بعضهم فيما بعد الى استحسان الخوض فيه ، لا سيما مع اتجاه الأشعري الذي صاغ العقيدة صياغة عقلية وافقت من كان من أهل السنة ميالاً للجدل والنقاش .

ثالثاً : بعداً فقهياً بدا باجتهاد الصحابة والتابعين في القضايا والنوازل التي طرأت عليهم وليس فيها نص صريح من الكتاب والسنة ، واتضحت من هذا الاجتهاد المبكر أو بدأت تتضح ملامح مدرستين فقهيتين :

أحدهما : في المدينة يميزها فقه الأثر ، من حيث أن فقهاءها لا يخلون بالرأى الا اضطراراً وعند الضرورة ، مع اتباع لجانب المصلحة .

والثانية : فى العراق يطبعها فقه الراى ، ويعمد فقهاؤها الى الاجتهاد كلما اعوزهم النص ، سالكين فيه جانب القياس مع تماد عندهم فى بعض الاحيان يعتمد على الافتراض والتقدير .

ثم اتسع نطاق الاجتهاد بعد التابعين على يد الفقهاء الائمة ، وكان فيهم من ادركهم واخذ عنهم سواء فى هذه المدرسة او تلك ، فقد اخذ ابو حنيفة عن اساتذة من فقهاء الراى كابراهيم النخعي والشعبي وعطاء بن ابي رباح .

واخذ مالك عن تلاميذ ابن عمر كابنه سالم ، وكنافع ، فضلا عن كبار التابعين الذين كانوا بالمدينة ، وفى طليعتهم سعيد بن المسيب الذي اخذ عن ابن شهاب تلميذ عمر بن الخطاب ، وقاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق الذي روى عن عمته عائشة ام المومنين .

والحق ان ظروفنا كثيرة جدت ، هي التي حثت هؤلاء الائمة على التفكير فى حماية الفقه مما قد يداخله من شوائب ، وبدراسته وتقعيده والاجتهاد فيه ، منها :

- 1 - ظهور قضايا ومشاكل ونوازل لم تكن مطروحة من قبل .
- 2 - انتشار ظاهرة الوضع والكذب فى مجال الحديث .
- 3 - ابتداعات الفرق والاحزاب ، وخاصة ما يتصل منها بفقه الشيعة

والخوارج الذي كان يقابل فقه الجماعة او فقه السنة .
وتجدر الاشارة الى ان اختلاف الائمة المجتهدين لم يكن يمس جوهر الشريعة ، ولكنه كان يمس فهم بعض النصوص وتطبيق كلياتها على الفروع .

* * *

كان طبيعيا - بعد ان تم فتح المغرب على يد عقبة بن نافع ابتداء من سنة 61 هـ ، ثم على يد موسى بن نصير ابتداء من سنة 79 هـ - ان تقوى اواصر اتصاله بالمشرق الذي اخذت اصدااء احداثه تتردد فيه بكل ابعادها السياسية والعقدية والفقهية .

ففي المجال السياسي كان الاضطهاد الذي مارسه الامويون على الخوارج ولا سيما في عهد عبد الملك وابنه هشام يحثهم على الفرار من قبضة الدولة ومحاولة نشر مبادئهم في الامصار ، وكذلك كان الامر في عهد العباسيين .

وهكذا وفدت على المغرب والشمال الافريقي عامة فئات هؤلاء الخوارج ، وخاصة منها الاباضية والصفرية ، من امثال سلمة بن سعد الاباضي الذي يعتبر من المع القادمين ، فضلا عن اتصال بعض البربر بزعماء المذهب الخارجي في المشرق ، ومن اولهم ابو داود وعبد الرحمن ابن رستم اللذان اخذا عن ابي عبيدة مسلم بن ابي كريمة امام الاباضية في العراق .

ويبدو ان مبادئ الخوارج وافقت مزاج البربر وناسبت وضعهم السياسي والاجتماعي ، اذ كانوا يعارضون به كل من يحاول ان يفرض عليهم سيادة تقوم على التمييز ، فقد كانوا موزعين بين امرين :

اولهما : رغبتهم في الدين الجديد لاقتناعهم به واختيارهم له .

ثانيهما : تضايقهم من المسؤولين العرب الوافدين وما كان يطبع سلوكهم - والدولة الاموية عامة - من سمات العنصرية والقبلية .

وليس يخفى ان الهدف عند قادة جيوش الفتح وعند الولاة كان - بعد نشر الاسلام - يتمثل في الجانب العسكري والاداري فضلا عن جمع الاموال والفنائم والاسلاب ، وربما بالغ بعضهم في ذلك ، على حد ما فعل عمر بن عبد الله المرادي عامل طنجة ، فقد « تعدى في الصدقات والاعشار واراد تخميس البربر وزعم انهم فيء المسلمين ، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله » (1) .

ولا شك ان مثل هذه السياسة اثارت اضطرابا في العلاقات بين العرب والبربر ادى الى ظهور زعماء خوارج وطنيين كميسرة المدغري

(1) البيان المغرب لابن عذاري ج 1 ص 52 (كولان وبروفنسال - دار الثقافة - بيروت) .

الذي قاد ثورة طنجة سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وكان على رأى الصفرية .

وتسنى للمذهب بذلك أن يكون له نفوذ حتى فى الجنوب ، اذ تأسست امارة خارجية فى سجلماسة بزعامة بني مدرار الذين كان يغلب على امرائهم المذهب الصفرى الى أن تحولوا لمذهب السنة فى عهد محمد ابن الفتخ بن ميمون الملقب بالشاكر لله فى أوائل القرن الرابع .

وعلى الرغم من ميل المغاربة الى مبادئ الخوارج ، فانه لم يتح لهؤلاء أن يقوموا بدور فى المغرب كالذي قاموا به فى بقية بلاد الشمال الافريقي (2) ، حيث ظهرت زعامات من الفقهاء الذين تمكنوا من الوقوف فى وجه الدولة المركزية ومن اقرار حكم محلي فى طرابلس والقيروان ثم المغرب الاوسط ، وكان فى طليعتهم ابو الخطاب عبد الاعلى بن السمع المعافري الذي كانت له الرياسة فى طرابلس الى أن قتله العباسيون ، وكان قد خرج فى سجلماسة سنة 141 (3) ومنها توجه الى القيروان ثم طرابلس ، وهو الذي ساند عبد الرحمن بن رستم الى أن ثبته فى القيروان، لولا أن العباسيين طاردوه واضطروه الى الانتقال للمغرب الاوسط ، مما اتاح له أن يقيم دولة فى تاهرت التي ستصبح مركز الخوارج الإباضية فى الشمال الافريقي ، لا سيما بعد أن انتهت زعامتهم فى طرابلس .

وكما وفد الخوارج على المغرب ، فكذلك وفد الشيعة فارين من الاضطهاد الذي كانوا يعانون منه سواء فى عهد الامويين او العباسيين ، وكان لهم دور كبير فيه بالقياس الى ما قام به الخوارج ، ونرجح (4) أن يكون فشل هؤلاء فى النهوض بدور كبير فى المغرب ناتجا عن اقبال المغاربة على آل البيت ، فى حب لهم واشفاق عليهم مما أنزل بهم من نكبات .

وقد تجلّى هذا الاقبال فى الترحيب الذي لقيه المولى ادريس حين وفد الى المغرب فارا من وقعة فخ سنة تسع وستين ومائة فى عهد الهادي

(2) انظر وحدة المغرب المذهبية ص 12 - 13 (لصاحب البحث ط. الدار البيضاء 1976)

(3) البيان المغرب ج 1 ص 71 .

(4) انظر وحدة المغرب المذهبية ص 13 .

العباسي ، او مبعوثا قبل تاريخ هذه الواقعة بنحو عشر سنوات من لدن اخيه محمد بن عبد الله الذي كانت له مواجهات مع المنصور العباسي (5) .

وفى نطاق الترحيب الذي لقيه ، تنازل له اسحاق بن عبد الحميد الاوربي عن امارته فى ولىي وبايعه ودعا القبائل ان تباعه .

واذا كان المولى ادريس لم يحاول نشر المبادئ الشيعية فى المغرب كما سنرى بعد ، فان زعماء شيعة آخرين قد حاولوا ذلك على حد ما فعل عبد الله المهدي الفاطمي الذي تسنى له أن يؤسس بمساندة داعيته أبي عبد الله الصنعاني المعروف بالشيعي دولة مذهبية حاولت ان تفرض نفوذها على جميع الشمال الافريقي بدءاً من القيروان الى سجلماسة ، دون ان ننسى دولة الموحدين التي أسسها المهدي بن تومرت والتي اقامها على مذهب يستند فى بعض جوانبه الى مبادئ الشيعة الامامية ، وهو موضوع سنعود اليه بعد .

ولم تكن مبادئ الخوارج والشيعة وحدها التي انتقلت الى المغرب والشمال الافريقي ، ولكن انتقلت كذلك أفكار المعتزلة ، اذ يبدو أن وأصل ابن عطاء بعث أصحابه للامصار ينشرون مذهبهم ، وكان من بينهم عبد الله بن الحارث الذي أرسله الى افريقية ، وقد « كان مجمع الواصلة قريبا من تاهرت وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا فى بيوت كبيوت الاعراب يحملونها » (6) . ثم أنه لا شك أن وفود العلماء الذين كانوا يفلون من العراق كانوا يحملون معهم مبادئ الاعتزال .

ولقد ظهر من بين العلماء الافارقة بعض المعتزلة ، ربما كان فى طليعتهم سليمان الفراء ، بل ان بعض المؤرخين تحدثوا عن اعتزالية بعض زعماء القبائل كاسحاق بن عبد الحميد الاوربي الذي وصفوه بالمعتزلي (7) .

وغير خاف بعد هذا ان دولة الاغالبية كانت تنتصر لآراء الاعتزال ، وأن دولة الموحدين كانت كذلك ، بدفاع المهدي عن العقيدة بالحجج العقلية ، وتحليله فكرة تنزيه الله ، ودعوته الى تأويل المتشابه .

(5) حسب ما اورد الاشعري فى مقالات الاسلاميين ج 1 ص 145 (الطبعة الاولى 1369 هـ 1950 م) .

(6) معجم البلدان ج 2 ص 8 (مادة تاهرت) - ط دار صادر - بيروت .

(7) انظر المسالك والممالك للبكري ص 118 (نشر دوسلان - الجزائر 1857) .

اما في الميدان الفقهي ، فيبلى أن « افريقية كان الغالب على أهلها . لسنن الى ان قدم اليها عبد الله بن فروخ أبو محمد الفارس فنقل اليها مذهب أبي حنيفة » (8) وبالفعل ، فقد « كان مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه بافريقية اظهر المذاهب فحمل المعز ... جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الامام مالك بن انس رضي الله عنه وحسم مادة الخلاف في المذهب واستمر الحال في ذلك الى الآن » (9) وعند عياض متحدثا عن المذهب الحنفي انه « دخل منه شيء قديما بجزيرة الاندلس وبمدينة فاس » (10) ، ربما لانه من أول المذاهب الفقهية التي ظهرت ، ولوجود تلاميذ مباشرين لابي حنيفة كعبد الله بن المغيرة ، ووجود علماء متحمسين له كابن أبي الجواد الذي « كان يذهب الى رأي الكوفيين ويقول بالمخلوق » (11) دون أن ننسى دور اسد بن الفرات ، ودون أن ننسى كذلك انتشار المذهب في عهد الاغلبة لعلاقتهم مع العباسيين .

ويذكر عياض كذلك ان « افريقية وما وراءها من المغرب ... كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين الى أن دخل علي بن زياد وابن اشرس والبهلول بن راشد وبعدهم اسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ، ولم يزل يفتشو الى أن جاء سحنون فغلب في أيامه وفض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه فشاع في تلك الاقطار » (12) .

ثم انه « كان بالقيروان قوم قلة في القديم اخلوا بمذهب الشافعي » (13) ، « ودخل شيء منه بلاد افريقية والاندلس بأخرة بعد الثلاثمائة » (14) ، ومن فقهاء أبو العباس الفضل بن نصر الباهي المعروف بالرئيس (15) ، وأبو عثمان سعيد بن الحداد الذي « صحب أول حاله سحنون وسمع منه ونزع آخره الى مذهب الشافعي من غير تقليد له بل

(8) الفقه على المذاهب الاربعة ص 27 (المقدمة) ط الثانية .

(9) وفيات الاميان ج 5 ص 233 - 234 (احسان عباس - بيروت) .

(10) المدارك ج 1 ص 65 وانظر كذلك الديباج ص 12 - 13 (ط الاولى) .

(11) المدارك ج 4 ص 69 - 70 (نشر وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية - المغرب) .

(12) المدارك ج 1 ص 25 - 26

(13) نفس المصدر ص 26

(14) نفس المصدر ص 66

(15) معالم الايمان للديباج ج 3 ص 68 - 69 (تونس 1320)

كثيرا ما يخالفه ويعتمد على النظر والحجة « (16) ، وقد ذهب بعض الدارسين (17) الى أن المنصور الموحي تحول الى المذهب الشافعي ، وهو رأى لا أساس له ، وقد ناقشناه فى دراسات سابقة (18) .

ويعتبر مذهب داود الظاهري من المذاهب التي كان لها صدى ولو أنه خافت ، اذ « قال به قوم قليل بافريقية والاندلس » (19) ، قبل أن يغنيه ابن حزم فى القرن الخامس بالدراسة والتأليف ، وتجدر الإشارة الى أن المنصور الموحي كان معجبا بابن حزم ، والى أن المهدي قبله تأثر ببعض مبادئ الظاهرية .

ولا يخفى بعد هذا أن أهل الاندلس كانوا « منذ فتحت على رأي الازاعي الى أن رحل الى مالك زياد بن عبد الرحمن وقرعوس بن العباس والغاز بن قيس ومن بعدهم فجاءوا بعلمه وأبانوا للناس فضله واقتداء الامة به فعرف حقه ودرس مذهبه » (20) ، وكان قد « أدخل بها قوم من الرحالين والفرباء شيئا من مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد وداود فلم يمكنوا من نشره فمات بموتهم على اختلاف أزمانهم الا من تدين به فى نفسه ممن لا يؤبه لقوله » (21) .

ولعل مذهب الازاعي كان معروفا كذلك فى المغرب وبقية بلاد الشمال الافريقي بسبب الاتصال الذي كان مع الاندلس الاموية ، ولمجيء بعض العلماء الشاميين ، وخاصة أيام عمر بن عبد العزيز حين ولي اسماعيل بن أبي المهاجر « وبعث معه ... عشرة من التابعين أهل علم وفضل منهم عبد الرحمن بن نافع وسعد بن مسعود التجيبي » (22) وأبو عبد الرحمن الحيلي واسماعيل بن عبيد الانصاري المعروف بتاجر الله وموهب بن حي المعافري وحيان ابن أبي جبلة القرشي وأبو تمامة بكر بن سوادة الجذامي وأبو سعيد جعثل بن عاهان بن عمير (23) .

(16) المدارك ج 5 ص 79

(17) هو HENRI LAOUST فى كتابه : Les schismes dans L'islam

ص 235 (PAYOT - PARIS 1965)

(18) انظر : أبو الربيع الموحي ابتداء من ص 45 ووحدة المغرب المذهبية ص 22

(19) المدارك ج 1 ص 66

(20) نفس المصدر ص 26 - 27

(21) نفسه

(22) البيان المفهرج ج 1 ص 48

(23) انظر رياض النفوس للملكي من ص 64 الى 75 (ط . النهضة المصرية 1951)

واذن ، فانه واضح ان المغرب تعرف فى عهوده الاسلامية الاولى الى جميع التيارات السياسية والفكرية التي وفدت على الشمال الافريقي وتصارعت فوق أرضه بحدّة وعنف فى أحيان غير قليلة ، ومع ذلك فأنه اختار الاتجاه السني ، واختار داخل هذا الاتجاه مذهب الامام مالك الذي هائش كل تلك التيارات ، واحتك بها واصطدم معها قبل ان يحرز انتصاره عليها ويصبح المذهب الذي اجمع المغاربة عليه ، اذ جمعهم فى وحدة ساعدت على حفظ كيانهم الديني والوطني ، بعيدا عن النزاعات الطائفية التي كثيرا ما تكون سببا فى تفكك اوصال الشعب الواحد .

فما هي يا ترى اسباب هذه الظاهرة ؟ اى ما هي اسباب انتشار المذهب ؟ وما هي اسباب استمراره ؟ وقبل ذلك : ما هي اسباب اخذه بالفكر السني ؟

اولا : اسباب اخذ المغرب بالفكر السني :

1 - نعتقد فى البدء (24) ان المغاربة كانوا فى هذه المرحلة يميزون بين جانبين : الجانب العاطفي او العاطفي السياسي ، والجانب الفكري الديني العقدي التطبيقي ، فهم فى الاول يميلون الى الخوارج والشيعة ، يتعاطفون معهم ويرحبون بهم ويوسعون لهم ويساندونهم ، ولكنهم فى الثاني يجدون انفسهم سنيين ، اى مع (اهل السنة) ، وهو مصطلح غامض على الرغم من شيوعه ، فقد « سأل رجل مالكا فقال : من اهل السنة يا ابا عبد الله ؟ قال : الذين ليس لهم لقب يعرفون به ، لا جهمي ولا رافضي ولا قدرى » (25) .

والحقيقة أننا حين نقول عن المغاربة أنهم سنيون ، نعتبر أنهم من (اهل السنة والجماعة) ، سواء فى معناها العام الواسع الذي يطلق مقابل الشيعة ، او فى معناها الخاص الضيق الذي يقصد به الذين اهتموا بسنة الرسول عليه السلام ، وسلوكوا طريق الصحابة والتابعين فى التسليم والتفويض والبعد عن التأويل ، ملتزمين كتاب الله وسنة رسوله واجماع الامّة .

(24) انظر : وحدة المغرب المذهبية ص 14
(25) المصدره ج 2 ص 41

وتكاد تكون قضية الاستواء خير مثال يبلور هذا الاتجاه ، وهي تدخل فى مجال الصفات التي اولها المعتزلة انطلاقا من موقف التنزيه ، فقد « سأل رجل مالكا فقال : الرحمن على العرش استوى ، كيف استوى يا ابا عبد الله ؟ فسكت مالك مليا حتى علاه الرخصاء ، وما راينا مالكا وجد من شيء وجده من مقالته ، وجعل الناس ينظرون ما يامر به ، ثم سرى عنه فقال : الاستواء عنه معلوم ، والكيف منه غير معقول ، والسؤال عن هذا بدعة ، والايمان به واجب ، وانى لظنك ضالا ، أخرجوه ، فناداه الرجل : يا ابا عبد الله ، والله الذي لا اله الا هو لقد سألت عن هذه المسألة أهل البصرة والكوفة والعراق فلم أجد احدا وفق لما وفقت اليه » (26) .

ومصطلح (اهل السنة والجماعة) يشمل بهذا المعنى أصحاب المذاهب الاربعة ، وان ضاق فيما بعد ليختص أو يكاد يختص به الاشاعرة . ولعلنا فى غنى عن التذكير بما سبق أن قلنا فى أول هذا البحث من أن الاشعري صاغ العقيدة صياغة عقلية وافقت من كان من اهل السنة ميالا للجدل العقلي ، وكان فى ذلك قد اتخذ موقفا وسطا يكشف عنه مثلا رايه المعتدل بين القائلين بالجبر والقائلين بالحرية والاختيار ، اذ رفض أن تكون الافعال من خلق الانسان كما يقول المعتزلة ، ولكنه أقر بقدرة الانسان على كسب هذه الافعال . ومعروف أن المغاربة يربطون بين سنيتهم ومذهب الاشعري فى مجال العقيدة والتوحيد ، بل ان تلك السنية طبعت عندهم حتى ميدان التصوف ، فوسمته بخصائص تعبدية تأثر فيها بالصوفي البغدادي أبي القاسم الجنيد القائمة طريقته على الكتاب والسنة .

وانطلاقا من الحقيقة التي بدأنا بها هذه النقطة ، والمتمثلة فى تمييز المغاربة بين الجانب العاطفي السياسي والجانب الفكري التطبيقي ، سوف لا نستغرب اذا وجدنا المولى ادريس فى خضم صراعه وأسرته مع العباسيين يسلك السبيل السني فى المغرب ولا يحاول نشر المبادئ الشيعية ، ربما لانه اكتفى بايجاد كيان له ينطلق منه ، ولعله أحس عدم استعداد المغاربة الذهني لتقبل تلك المبادئ ، دون أن ننسى زبديّة

(26) نفس المصدر ص 39 .

الإدارة في الأصل . وغير خاف أن الزيدية أكثر فرق الشيعة اعتدالا وأقربها إلى أهل السنة (27) .

ويتضح اتجاه الإدارة السني من خلال الرسالة التي وجهها المولى إدريس للبربر لدا قدومه ، والتي دعاهم فيها إلى التمسك بالكتاب والسنة ، مستغفرا غيرتهم الإسلامية لمواجهة الظلم النازل بالبيت ، في تحميل للمسؤولية واثارة للمحبة والاشفاق عن طريق اخبارهم بما حل به وبأسرته وفيها قال :

« ... أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإلى العدل في الرعية ، والقسم بالسوية ، ورفع المظالم ، والاخذ بيد المظلوم ، واحياء السنة ، وإماتة البدعة ، وإنفاذ حكم الكتاب على القريب والبعيد ، وأذكروا الله في ملوك غيروا ، وللامان خفروا ، وعهد الله وميثاقه نقضوا ، ولبنى بيته قتلوا . وأذكركم الله في أرامل احتقرت ، وحدود عطلت ، وفي دماء بغير حق سفكت ، فقد نبذوا الكتاب والاسلام ، فلم يبق من الاسلام الا اسمه ، ولا من القرءان الا رسمه ، واعلموا عباد الله أن مما أوجب الله على أهل طاعته المجاهدة لأهل عداوته ومعصيته باليد واللسان ... وقد خانت جبابرة في الآفاق شرقا وغربا ، وأظهروا الفساد وامتلات الأرض ظلما وجورا ، فليس للناس ملجأ ولا لهم عند أعدائهم حسن رجاء ، فغسى أن تكونوا معاشر اخواننا من البربر أيد الحاصدة للظلم والجور ، وأنصار الكتاب والسنة القائمين بحق المظلومين من ذرية النبيئين ، فكونوا عند الله بمنزلة من جاهد مع المرسلين ونصر الله مع النبيئين . واعلموا معاشر البربر أنني أتيتكم وأنا المظلوم المظهور الطريد الشريد الخائف الموتور الذي كثر واتره وقل ناصره وقتل اخوته وأبوه وجده وأهلوه ، فأجيبوا داعي الله فقد دعاكم إلى الله ، فإن الله عز وجل يقول : « ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء » . أعاذنا الله وإياكم من الضلال وهدأنا وإياكم إلى سبيل الرشاد » (28) .

وقبل أن يختم دعوته عرف بنفسه وبنسبه إلى أن أوصله إلى الرسول عليه السلام .

(27) انظر : وحدة المغرب المنهجية ص 15 .
(28) الوثائق : المجلد 1 ص 40 - 41 - 43 (المطبعة الملكية - الرباط) .

على أن سنية الادارسة لم تقف عند هذا الحد ، بل تعدته الى اعتناق المذهب المالكي الذي سينتشر في عهدهم . ولعلنا هنا أن نذكر بالتعاطف الذي كان بين المولى أدريس والامام مالك ، وهو تعاطف يرجع الى أمرين (29) :

الاول : أن مالكا يروي في موطاه عن عبد الله الكامل والدادريس .

الثاني : أن مالكا كان له موقف من العباسيين لصالح أخ أدريس المسمى محمدا والمعروف بالنفس الزكية ، حيث أفتى عند قيام هذا الاخير بأن بيعة أبي جعفر لا تلزم لانها كانت على الاكراه ، وضرب في ذلك كما هو معروف ، وكان قد أفتى ببطالان الطلاق المكره وسقوط يمين الاكراه على العموم ، اعتمادا على الحديث النبوي : « ليس على مستكره يمين » .

2 - ونعتقد كذلك أن المقاربة بميولهم السنية القوية رفضوا مبادئ المذاهب الاخرى وقاوموها بشدة وعنف .

فبالنسبة للاعتزال لم تجد آراؤه اقبالا في الاوساط المغربية لما هي عليه من تعقيد فكري ونظر فلسفي لا يدخل في صميم العقيدة ، فضلا عن أن المقاربة لم يكونوا مستعدين لذلك بعد أن وجدوا بغيتهم في اتبعاع الكتاب والسنة على اوضح وجه وأبسطه .

ثم أن فقهاء المالكية في جميع اقطار الشمال الافريقي وقفوا ضد تسرب مبادئ المعتزلة ، وضد الذين يحاولون نشرها ، وربما عادوهم وكفروهم ورموهم بأشنع التهم . ويكفي أن نذكر أن أسد ابن الفرات قال في حق بشر المريسي وكان يمتنق آراء الاعتزال وكتب في ذلك (كتاب التوحيد) : « أو جهل الناس التوحيد حتى يصنع لهم بشر فيه كتابا ؟ هذه نبوة ادعاها » (30) .

بل أن فقهاء المالكية ومعهم جماهير الامة اتخلوا موقف عداء من الدولة الاغلبية ، لانحيازها لفقه العراق ومبادئ المعتزلة ، وربما كان لهذا الموقف اثر في انهيار الدولة .

(29) انظر : وحدة المغرب الذهبية ص 15 - 16 .

(30) رياض النفوس ج 1 ص 182 .

أما بالنسبة للفكر الخارجي ، فعلى الرغم من انسجامه مع ميول المغاربة ، باعتباره يوافق طبيعتهم الاستقلالية ورفضهم كل سيادة تحاول أن تفرض هيمنتها العنصرية عليهم ، وباعتبار الدور الذي كان له في افهامهم حقيقة مبادئ الاسلام وحقيقة أسلوب الحكم فيه خاصة (31) ، فانهم لم يلبثوا أن تراجعوا عنه تحت تأثير حبهم القوي لآل البيت ، فضلا عن التصفية التي حدثت للخوارج على يد الفاطميين الذين طاردوا الإباضية وحاربوهم بعد أن كانوا في عهد الاغلبة يتمتعون بشبه استقلال ذاتي داخلي ، دون أن ننسى قول الخوارج ببعض المبادئ التي يرفضها المغاربة ، كالظمن في عثمان ابان المرحلة الثانية من خلافته ، والظمن في علي بعد قبوله التحكيم والمبالغة في ذلك الى حد تكفيره والحكمين وكل من قبل التحكيم ، وكذلك الظمن في أصحاب الجمل طلحة والزبير وعائشة وتكفيرهم ، وكذا تكفير الامويين والعباسيين ، علما بأن الإباضية وحتى الصفرية يعتبرون أقل الفرق الخارجية غلوا .

وأما بالنسبة للشيعة ، فما كان المغاربة ليرتاحوا لهم أو ينسجموا معهم ، لاعتمادهم على مبدأ التأويل وعلم الباطن ، ولأن سلوكهم المثير كان دافعا للفقهاء والجمهور الى اتخاذ موقف خصومة وعداء .

ويكفي للدلالة على هذا السلوك أن نشير الى ما كان يصدر عن عبيد الله (32) في خطبه ، فقد خطب بعد أن تمكن من القضاء على بني مدرار في سجلماسة سنة 296 و « اظهر ... التشيع القبيح وسب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه ... وزعم أن أصحاب النبي عليه السلام ارتدوا بعده » (33) ولم يستثن منهم الا ابن أبي طالب والمقداد بن الاسود وعمار ابن ياسر وسلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري .

كذلك « منع عبيد الله الفقهاء الا يفتوا الا بمذهبهم الذي ينسبونه الى جعفر بن محمد ويسمونه مذهب أهل البيت ... وغلظ الامر على المالكية

(31) انظر : الادب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها ج 1 ص 45 - 46 (لصاحب البحث دار المعارف - الرباط 1979) .

(32) يبدو أن اصرار المغاربة على أن يدعوا عبد الله المهدي بصيغة التصغير (عبيد الله) داخل في نطاق موقفهم منه .

(33) البيان المفهرج ج 1 ص 159 .

من هذا الحين ومنعوا من المجلس والفتيا ، فكان من يأخذ عنهم ويتذاكر معهم انما يكون سرا وعلى خوف وريبة » (34) .

واذا كان بعض الفقهاء الافارقة قد مال للفاطميين حتى غدا من دعائهم ، ونعني القاضي ابا حنيفة النعمان الذي اخذه معه المعز الى مصر، وكان يعد حجتهم في المذهب ، فان جمهور الفقهاء كان يتخذ موقفا مضادا على غرار ما فعلوا مع ابي عبد الله الشيعي ، فقد « اظهر الفقهاء لعنه والبراة منه وحرصوا الناس على قتاله وافتوهم بمجاهدته » (35) .
وذهب بعضهم في هذا الموقف الى مدى بعيد كابن التبان الذي رفض الدخول في المذهب الشيعي وقال لداعيه : « لو نشرني في اثنين ما فارقت مذهب مالك » (36) .

ويذكر في الكشف عن موقف الفقهاء انه « لما وصل عبيد الله ... الى رقادة ارسل الى القيروان من اتاه بأبي اسحق ابراهيم بن محمد المعروف بابن البرذون وبابن هذيل ، وكانا من العلماء الخاشعين لله ، فلما وصلا اليه وجده على سرير ملكه جالسا ، وعن يمينه ابو عبيد الله الشيعي الذي ولاه الملك وسلم له فيه ، وعن يساره ابو العباس أخوه ، فقال لهما ابو عبد الله وأخوه : اشهدا أن هذا رسول الله ، فقالا جميعا بلفظ واحد : والله الذي لا اله الا هو لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره وينطقان فيقولان انه رسول الله ما قلنا انه هو . فامر عبيد الله ... عند ذلك بذبحهما وربطهما في اذنان الخيل وأن يشق بهما سمات القيروان ، ففعل ذلك بهما » (37) .

ومن انحرافهم ما يكشف عنه هذا الحديث الذي دار بين ابي عبد الله الشيعي والفقيه أبي عثمان سعيد بن الحداد ، حيث « قال ابو عبد الله ... القرآن يخبر أن محمداً ليس بخاتم النبيين في قوله : ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، فخاتم النبيين غير رسول الله . فقال أبو عثمان : هذه الواو ليست من واوات الابتداء وانما هي من ادوات العطف مثل قوله تعالى :

(34) تراجم اغلبية ص 393 (استخرجها محمد الطالب من مدارك عياض - تونس 1968).

(35) البيان المفروب ج 1 ص 137 .

(36) معالم الايمان ج 3 ص 14 .

(37) البيان المفروب ج 1 ص 282 - 283 .

« هو الاول والاخر والظاهر والباطن » . وقال له مرة أخرى : إن الله أخبر أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يرتدون ، لقوله : « أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم » . فقال أبو عثمان : هذا إنما هو على الاستفهام كقوله سبحانه : « أفان مت فهم الخالدون » (38) .

وبلغ الانحراف الديني مداه حين « ادعى الحاكم من بني عبيد الله الربوبية وجعل رجلا سماه بالهادي يدعو الناس الى ذلك ، وادعى معه منهم النبوة وجعل من نادى فوق صومعة جامع القيروان : أشهد أن معدا رسول الله » (39) .

وكتب حمزة داعي الحاكم كتابا « وقرئ بحضرة الحاكم ... على أهل مملكته ذكر فيه ... : الحمد لمولاي الحاكم وحده ، باسمك اللهم الحاكم بالحق . ثم تمادى فقال : توكلت على الاهي أمير المؤمنين جل ذكره وبه نستعين في جميع الامور » (40) .

لهذا كله ، لا نستغرب من تحالف العلماء والفقهاء السنيين مع ابي يزيد مخلد الزناتي الخارجي ضد الشيعة ، ابتداء من سنة 332 هـ (41) . بل لقد قارنوا بين هؤلاء والخوارج ، في اثبات لزيغهم وتبرير لمحاربتهم ، على حد ما روى ابن ناجي عن المالكي من أن أبا الفضل الممسي « رأى ان الخروج وقطع دولة بني عبيد فرض لأن الخوارج من أهل القبلة ، لا يزول عنهم الاسلام ويرثون ويورثون ، وبنو عبيد ليسوا كذلك لانهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين فلا يتوارثون معهم ولا ينتسبون اليهم » (42) . وعنده ان « قتالهم أفضل من قتال المشركين » (43) . وروى « ان أبا عبد الله الاجدابي سأل أبا الحسن بن الحلاف الذي روى مقالة أبي الفضل الممسي في شأن الفاطميين (قتالهم أفضل من قتال المشركين) سألته مراجعا : أنت سمعت هذا من أبي الفضل ؟ فقال : نعم . وقبله المالكي ، وهو بين ، لانهم كفار متصلون ببلاد الاسلام ويحكمون فيهم ما يريدون من

(38) نفس المصدر .

(39) نفسه وانظر كذلك ص 285 .

(40) نفسه ص 286 .

(41) انظر : نفس المصدر ص 216 فما بعد .

(42) معالم الايمان ج 3 ص 34 .

(43) نفس المصدر .

قتل او ضرب او سجن او غير ذلك بخلاف كفار منفصلين عن بلاد الاسلام » (44) .

وقد بقي النفوذ الفاطمي متمثلا في بربر صنهاجيين هم : بنو زيري الذين لم يتوقف المغاربة عن محاربتهم ، وخاصة في عهد يوسف بن زيري ، وهو موقف سيخف في عصر المنصور الذي كان ميالا لسياسة المهادنة والمسالمة ، فقد قال : « ان ابي وجدي كانا يأخذان الناس بالقهر ، وانا لا آخذ احدا الا بالاحسان » (45) .

وقد كان لسياسة المنصور اثر في تجميع الفقهاء المالكيين لقواهم ، مما سيجعلهم ينتصرون أيام المعز بن باديس .

وتجدر الإشارة بالنسبة للمغرب (46) انه في أعقاب انهيار دولة الادارسة وبداية الغزو الفاطمي للشمال الافريقي في مستهل القرن الرابع، ظهرت محاولات لاقامة مراكز شيعية هنا وهناك ، كما حدث في فاس نفسها حيث كان الفاطميون واعوانهم يقيمون حكم الائمة ولو في فترات متقطعة .

ويبدو ان المغرب في هذه الفترة كان موزعا بين قوتين او اتجاهين : الاموي الاندلسي وكان يواليه الزناتيون ، والفاطمي ويسانده الصنهاجيون . وكانت لهاتين المجموعتين من القبائل امارات حاجزة او عازلة DESETATS TAMPONS من شأنها ان تحول دون تسرب الخطر للطرف الآخر . وهذه ظاهرة نلاحظها حتى بعد عودة الادارسة فيما يسمى بدولتهم الثانية على يد القاسم كنون ، فقد كانوا يوالون الجهة المتغلبة ، فهم مرة مع شيعة افريقية ، وهم مرة اخرى مع اموي الاندلس .

وتجدر الإشارة كذلك الى انه حتى منتصف القرن الخامس كانت توجد في المغرب مراكز شيعية ، وبالذات في مدينة تارودانت حيث كان يوجد « قوم من الروافض يقال لهم البجلية منسوبين الى عبد الله البجلي الذي كان قدم الى السوس حين قدم عبيد الله الشيعي لافريقية ، فاشاع

(44) نفس نفسه ص 35 .

(45) اتحاف اهل الزمان لابن ابي الفياض ج 1 ص 133 (تونس 1963) .

(46) انظر : وحدة المغرب المذهبية ص 16 - 17 .

هناك مذهبه ، فورثوه بعده جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ، لا يرون الحق الا ما فى ايديهم ، فقاتلهم عبد الله بن ياسين حتى فتح مدينتهم عنوة وقتل بها من الروافض خلق كثير ، فرجع من بقي منهم الى السنة « (47) .

ثانيا : اسباب انتشار المذهب المالكي :

1 - لا شك ان انتماء (48) مالك للمدينة المنورة ، مركز الاسلام الاول وعاصمة الرسول عليه السلام ، جعل المغاربة ينظرون له من زاوية خاصة ، معجبين بعلمه وفضله ، ومقتنعين بأنه اقرب الى روح الشريعة من فقهاء العراق أو الشام أو أى من الامصار ، ومفضلينه بالتالي « لجمعه ادوات الامامة وتحصيله درجة الاجتهاد وكونه اعلم القوم بل اهل زمانه واصفاق اهل وقته على شهادتهم له بذلك وتقديمه . وهو القدوة والناس اذ ذاك ناس والزمن زمان ، ثم للآثر الوارد فى عالم المدينة التي هي داره ، وانطلاق هذا الوصف والاضافة على السنة الجماهير له وموافقة احواله الحال الذي أخبر فى الحديث عنه وتأويل السلف الصالح له انه المراد به » (49) .

والحديث المشار اليه هو قوله عليه السلام : « يوشك ان يضرب الناس اكباد الابل فى طلب العلم فلا يجدون عالما اعلم من عالم المدينة » (50) .

(47) القرطاس لابن ابي ذئد ص 88 ط. حجرية والروافض من شيعة الكوفة الغالين ، ونستطيع ان نضمهم مع الامامية ، وهم الذين رفضوا بيعه زيد بن علي بن الحسين ، ولم يرضوا ان يخرجوا معه سنة احدى وعشرين ومائة ، بعد ان تبين لهم انه ينهى عن الطعن فى الصحابة وانه لا يبرا من الشيخين ابي بكر وعمر .

(48) قد يثار من اسباب اخذ المغرب بالمذهب المالكي اشتراك مالك مع العرب الوافدين فى النسبة اليمنية اذ هو من ذي اصبح المنتسب لبني قحطان من اهل اليمن ، وكذلك معظم العرب الوافدين الى المغرب . واذا كان هذا الافتراض صحيحا الى حد بالنسبة للمغرب الأقصى ، فانه غير صحيح بالنسبة لاندلس او افريقية ، فضلا عن ان مثل هذه العصبية مستبعدة فى مجال العقيدة والفقه .

(49) المدارك ج 1 ص 67 . وانظر من ص 80 الى 104 ما ذكره عياض حول جوانب تقدم مالك فى باب الاجتهاد .

(50) انظر : الكلام حول هذا الحديث فى المدارك ج 1 ص 68 الى 74 . ولعل مما يدخل فى نطاق تفصيل مالك لانتسابه الى المدينة ما ذكره المقدسي فى احسن التقاسيم من ان فريقين من الحنفية والمالكية تناظرا يوما امام السلطان فقال لهم : من اين كان ابو حنيفة ؟ قالوا من الكوفة . قال : وما لك ؟ قالوا : من المدينة . قال : عالم اهل المدينة يكفينا وامر باخراج اصحاب ابي حنيفة وقال : لا احب ان يكون فى عملي ملهبان (نشر شارل بيل - الجزائر 1950) .

ومن مظاهر الإعجاب بمالك وتقديره أن عبد الله بن غانم كان مرة يقرأ الموطن مع جماعة فقال له أحدهم : « أيعجبك هذا من قول مالك ؟ فقام ابن غانم وألقى الكتاب من يده وقال : أو ليس وصمة علي في ديني وعقلي أن أرد على مالك قوله قالها ؟ والله لقد أدركت العباد الذين يتورعون ... فما رأيت بعيني أروع من مالك » (51) .

ويبدو لي أن في طبيعة الصفات التي حببت مالكا إلى المغرب أمانته العلمية التي اكتسبته ثقتهم ، وكانت هذه الأمانة تتمثل في اعترافه الصادق بعدم درايته حين لا يهتدي إلى جواب مهما كانت ظروف السؤال داعية إلى عدم الرد . فقد « سأل رجل مالكا عن مسألة وذكر أنه أرسل فيها من مسيرة ستة أشهر من المغرب ، فقال له : أخبر الذي أرسلك أنه لا علم لي بها . قال وما يعلمها ؟ قال : من علمه الله . وسأله رجل عن مسألة استودعه أياها أهل المغرب فقال : ما أدري ما ابتلينا بهذه المسألة في بلدنا ولا سمعنا أحدا من أشياخنا تكلم فيها ولكن تعود فلما كان من الغد جاءه وقد حمل ثقله على بقله يقودها فقال : مسألتي ؟ فقال ما أدري ما هي ، فقال الرجل : يا أبا عبد الله تركت خلفي من يقول : ليس على وجه الأرض أعلم منك . فقال مالك غير مستوحش : إذا رجعت فأخبرهم أنني لا أحسن » (52) .

2 - لذلك ، ولما نتج عن تداخل الآراء والمذاهب من اضطراب عقدي وفكري وسياسي ، اتجه الفقهاء المغاربة وطلاب العلم منهم إلى المشرق وإلى الحجاز خاصة ، للاخذ عن مالك وتلاميذه بحثا عن الإسلام الواضح الصافي ، ورغبة في تلقي السنة عن تابعي التابعين ومن أتيح له أن يتعلم منهم ، بعيدا عن الشوائب والخلافات التي داخلت الدين في الأمصار الإسلامية الأخرى نتيجة التطاحن السياسي وتفرق الآراء واختلاف المذاهب .

ونرجح أن يكون هذا هو السبب في كون « رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج

(51) المدارك ج 1 ص 158 وانظر كذلك رياض النفوس ج 1 ص 145 .

(52) المدارك ج 1 ص 180 - 181 .

الى العراق ، ولم يكن العراق فى طريقهم فاقترضوا على الاخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وامامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه فرجع اليه اهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل اليهم طريقته « (53) ، على انهم كانوا عارفين - كما رأينا - ببقية المذاهب ، بما فيها ما كان يفد من العراق .

ويذكر الرواة ان « رجلا من اهل المغرب جاء مالك بن انس فقال : ان الاهواء كثرت قبلنا فجعلت على نفسي ان انا رايتك ان آخذ بما تأمرني به . فوصف له مالك شرائع الاسلام : الصلاة والزكاة والصوم والحج ، ثم قال : خذ بها ولا تخاصم احدا » (54) .

ويحق لنا هنا ان نذكر بأنه « لما صار مذهب كل امام عالما مخصوصا عند اهل مذهبه ، ولم يكن لهم سبيل الى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا الى تنظير المسائل والالحاق وتفريعها عند الاشتباه بعد الاستناد الى الاصول المقررة من مذاهب امامهم ، وصار ذلك كله يحتاج الى ملكة راسخة يعتد بها على ذلك النوع من التنظير او التفرقة واتباع مذهب امامهم فيهما ما استطاعوا وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد ، واهل المغرب جميعا مقلدون لمالك » (55) .

وقد تعددت الرحلة من المغرب الى الحجاز للاخذ عن امام دار الهجرة ، بدءا من سجلماسة التي روى « ان احد الاعلام بها ... اخذ عن الامام مالك بالمدينة ورجع اليها ودرس العلوم بها » (56) .

أما على صعيد كل الشمال الافريقي والاندلس فقد رحل العديد من العلماء والفقهاء وأخذوا مباشرة عنه ، ويذكر من الذين روى عنه من الافارقة (57) : البهلول بن راشد وعطي بن زياد وأبو مسعود عبد الرحيم ابن أشرس وعبد الله بن فروخ وأبو محرز القاضي محمد بن عبد الله وعبد الله بن ابي حسان اليحصبي وعبد الله بن غانم القاضي . ويذكر من

(53) مقدمة ابن خلدون ص 440 (ط . الاميرية) .

(54) المسداه ج 2 ص 47 .

(55) مقدمة ابن خلدون ص 440 .

(56) الدرد البهية لادريس العلوي ج 1 ص 63 (طبعة حجرية) .

(57) المسداه ج 2 ص 178 - 179 .

الاندلسيين : محمد بن يحيى النيسابوري وحفص بن عبد السلام السرقسطي وزباد بن عبد الرحمان المعروف بشبطون وجعفر بن محمد وسعيد بن عبدوس وسعيد بن ابي هند . يضاف اليهم (58) من الطبقة الاولى كذلك : القازي بن قيس ويحيى بن مضر القيسي ، وكذلك يحيى بن يحيى (59) .

وعند ابن القوطية (60) ان اول من ادخل مذهب مالك الى الاندلس هو القازي ابن قيس ايام عبد الرحمن الداخل ، فى حين يرى المقري ان زياد بن عبد الرحمن هو : « اول من ادخل مذهبه الاندلس وكانوا قبله يتفقهون على مذهب الازاعي » (61) . وكان قد « سمع من مالك الموطأ ، ويعرف سماعه بسماع زياد » (62) .

اما بالنسبة للمغرب ، فيذكر عياض ان علي بن زياد « هو اول من ادخل الموطأ وجامع سفيان المغرب وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه ، وكان قد دخل الحجاز والعراق فى طلب العلم ، وهو معلم سحنون » (63) . وكذلك معلم البهلول بن راشد واسد بن الفرات ، وان كانا قد رحلا الى الحجاز ، وكذلك رحل سحنون ، ولكن « كانت افريقيا قبل رحلة سحنون قد غمرها مذهب مالك بن انس لانه رحل منها اكثر من ثلاثين رجلا كلهم لقي مالك بن انس وسمع منه » (64) .

واستمر المذهب يزدهر بعد ذلك على يد جماعة من الفقهاء ، ابرزهم اسد بن الفرات الذي كان يمزج بين مذهبي ابي حنيفة ومالك كما يتضح من (الاسدية) التي يبدو فيها ميله الى النظر والاستدلال ، الا انه مع ذلك كان اميل الى اتباع امام دار الهجرة . ثم جاء سحنون فالف (المدونة) التي جاءت فى الواقع لتدارك بعض ما جاء فى (الاسدية) وتكملها ، وهي فى الحقيقة اهم كتاب فى الفقه المالكي بعد الموطأ .

-
- (58) المصدر ج 3 ص 114 و 126 .
(59) النفع ج 2 ص 9 و 46 (ت احسان عباس - بيروت .
(60) افتتاح الاندلس ص 35 (طبعة مدريد 1926) .
(61) النفع ج 2 ص 45 .
(62) نفس المصدر .
(63) المصدر ج 3 ص 80 .
(64) المصدر ج 4 ص 51 .

ويمكن القول بأن المذهب استقر نهائيا على مستوى العلماء والجماهير في افريقية ، ومنها انتقل الى الاندلس والمغرب ، او لعله استقر في افريقية والاندلس ، وعبرهما عرف ازدهاره في المغرب ، وغدا لشدة اقترانه وارتباطه به مذهبا مغربيا او يكاد .

3 - فلکم ان تبادل الوفود والبعثات بين الاقطار الثلاثة كان يشكل عاملا من أهم عوامل ترسيخ المذهب على المستوى العلمي ، خاصة بعد ان تأسس جامع القرويين في فاس سنة 245 هـ وغدا مركز اشعاع في المنطقة .

وقد سار هذا التبادل في اتجاهين :

اولهما : من المغرب الى القيروان والاندلس وكذا المشرق . ومن بين الذين يمثلونه في هذه المرحلة المبكرة دراس بن اسماعيل ت سنة 357 هـ ، وأبو جيدة اليزناسني ت سنة 365 هـ وعبد الرحيم الكتامي المعروف بابن المجوز ت سنة 413 هـ .

ثانيهما : من الاندلس والقيروان الى المغرب . فبالإضافة الى الهجرات المتقطعة قصدت فاسا في هذه الفترة وفود منظمة كان فيها العديد من العلماء والفقهاء ، سواء من هذا الاقليم أو ذاك . أما القيروانيون « وكانوا ثلاثمائة أهل بيت » (65) ، فقد وفدوا حوالي سنة 189 هـ وأقاموا في العدة اليسرى وعمروها حتى عرفت بعدوة القرويين . وأما الاندلسيون « وكانوا جما غفيرا يقال أربعة آلاف أهل بيت » (66) ، فنزلوا بالعدة اليمنى وعمروها حتى أصبحت تسمى عدة الاندلس ، وكانوا قد هاجروا من بلادهم على اثر ثورة الربض التي قامت أيام الحكم بن هشام سنة اثنتين ومائتين « لانه في صدر ولايته كان قد انهمك في لدائه ، فاجتمع اهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه ، وطالوت الفقيه وغيرهما ، فثاروا به وخلعوه وباعبوا بعض قرابته ، وكانوا بالربض الغربي من قرطبة وكان حلة

(65) الاستقصاء ج 1 ص 73 (الطبعة الاولى) .

(66) نفس المصدر .

متصلة بقصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا ، وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من ارض العدو والاسكندرية من ارض المشرق » (67) .

4 - اذا كنا فى نقطة سالفة - هي الثانية فى أسباب انتشار المذهب المالكي - قد عقبنا على قول ابن خلدون الذي ذهب فيه الى أن المغاربة لم يتعرفوا الى غير فقه المدينة ، معتبرا ذلك فى طبيعة أسباب أخذهم به ، فلاننا نعرف - على حد ما كشفنا فى مقدمة هذا البحث - أنهم اطلعوا على أهم المذاهب الاخرى ، بما فيها غير السنية ، وقد ناقشناها فى القسم الخاص من هذا البحث بأسباب أخذ المغرب بالفكر السنني، ونود أن نضيف أن من عوامل اقتناعهم بمذهب مالك وانتشاره بالتالي ، ما عاشه مع بقية مذاهب السنة من احتكاك وصراع وما كان له تجاهها من مواقف انتهت بانتصاره .

فقد كان الفقهاء المالكيون يأخذون على الفقهاء الاحناف تواطؤهم مع أمراء الدولة الاغلبية التي كانت قد اتخذت الحنفية مذهباً رسمياً لها الى جانب الاعتزال ، وما نتج عن هذا التواطؤ من سلوك تبريري جعلهم يتساهلون فى إصدار الاحكام الشرعية ، مسايرة منهم لحياة الترف والرفاه التي كان يعيشها الاغلبية تقليداً لخلفاء بغداد . ثم ان الفقهاء المالكيين عانوا من تعسف الاحناف فى فرض بعض الآراء التي خالفوها فيها كتحويل النبيذ الذي اضطر محمد بن سحنون الى أن يؤلف كتاب (الاشرية) (68) .

وقضية تحليل النبيذ جعلت ابن اللباد يقول : « بلغني ... أن رجلاً عرفه كان ينتحل مذهب أبي حنيفة رأى فى نومه النبي عليه السلام ، فسلم عليه وصافحه ، فأردت معانقته فأعرض عني ، فقلت فى نفسي : ما أراه الا لاستحلال النبيذ . فقال قائل : ودنا لو سألناه ما ينتحل ، فقال عليه السلام : الا ان الحق فى قول مالك ما يتعداه ، فصار الرجل الى مذهب مالك وترك مذهبه » (69) .

(67) النفح ج 1 ص 339 .

(68) ذكره عياض فى المدارك ج 4 ص 207 .

(69) المساركة ج 2 ص 157 .

ومثل تحليل النبيد قضية القول بخلق القرآن ، وهو القول الذي مال اليه أمراء الاغالبية وفقهاؤهم ، تأثرا بالاعتزال . وقد أصابت سحنون من جراء ذلك محنة شديدة حين أراد احمد بن الاغلب أن يفرض القول بخلق القرآن واستدعى سحنون « وجمع له قواده وقاضيه ابن أبي الجواد وغيره ، وسأله عن القرآن فقال سحنون : أما شيء أبدئته من نفسي فلا ، ولكنني سمعت من تعلمت منه وأخذت عنه كلهم يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق . فقال ابن أبي الجواد : كفر فاقتله ودمه في عنقي . وقال مثله غيره ممن يرى رايه . وقال بعضهم : يقطع أربعا ويجعل كل ربع بموضع من المدينة ، ويقال هذا جزاء من لم يقل بكذا . فقال الامير لداود بن حمزة : ما تقول أنت ؟ قال : قتله بالسيف راحة . . . ولكن قتل الحياة ياخذ عليه الضمنا ، وينادي عليه بسماط القيروان لا يفتى ولا يسمع أحدا ويلزم داره » (70) .

أما مذهب الشافعي فمن أسباب الابتعاد عنه ما ذكر المقدسي إذ قال : « رأيت أصحاب مالك يبغيضون الشافعي ، قالوا : أخذ عن مالك ثم خالفه » (71) .

وزاد بأن « سائر بلاد المغرب الى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي رحمه الله ، إنما هو أبو حنيفة ومالك رحمهما الله . وكنت يوما إذاكر بعضهم في مسألة فذكرت قول الشافعي فقال : أسكت من هو الشافعي ؟ إنما كان بحران : أبو حنيفة لاهل المشرق ومالك لاهل المغرب ، افتتركما وتشتغل بالسافية » (72) .

وأما مذهب ابن حنبل فطعن فيه لآخذه بالحديث الضعيف . فقد ذكر عياض : « وقال احمد : الخبر الضعيف عندي خير من القياس . وبدية العقل تنكر هذا ، فلا خير في بناء على غير أساس » (73) .

(70) المسند ج 4 ص 71 .

(71) احسن التقاسيم ص 42 .

(72) نفسه .

(73) المسند ج 1 ص 92 .

ونصل الى مذهب داود لنجد أن ابن الحداد « تكلم يوما في مسألة ،
ف قيل له : أن داود قال فيها كذا وكذا ، فقال : لو كان نومي كيقظة داود
ما تكلمت في العلم » (74) .

ثالثا : اسباب استمرار المذهب (75) :

1 - لا شك أن ظاهرة مساندة السلطة للمذهب واعتمادها عليه
كانت في طبيعة الاسباب التي جعلته يستمر . فباستثناء الموحدين ، كانت
جميع الدول الحاكمة في المغرب تمززه وتتقوى به . وإذا كانت هذه
الظاهرة قد بدأت منذ الإدارة فأنها في عهد المرابطين ستتلور في ابعاد
سياسية محددة واضحة ، سوف تجعل من المالكية ليس مجرد مذهب ،
ولكن حركة تقود نضالهم وتكيف طبيعة هذا النضال وتحدد شروطه
وغاياته ، وتجعلهم يحققون الإصلاح الديني ويحققون في نفس الوقت
الاسلام المبسط الواضح في صيغة ثورية كانت رهنا بمرحلة نضالية
محددة الاهداف (76) .

وارتباط المذهب بالسلطة يتناقض مع ما اشتهر عن فقهاء من
القرب من الشعب ، والبعد عن أولي الامر الحكام ، ورفض المناصب التي
يسندونها اليهم الا بشروط ، على حد ما فعل سحنون الذي لم يقبل
تولي القضاء الا بعد أن وافق محمد بن الاغلب على الشروط التي تقدم
بها . هذا حين يتعلق الامر بحكام يسيئون السلوك ويعيثون بحقوق الناس
ويعيشون في مستوى عال من البدخ والترف غالبا ما يكون على حساب
الامة . أما حين يتعلق الامر بحكام مستقيمين ، فان الفقهاء يساندونهم ،
على غرار ما حدث في العهد المرابطي ، وخاصة أيام يوسف بن تاشفين
الذي شهد له حتى خصومه بالورع والتقوى والعدل والاستقامة .

ويدخل في نطاق مساندة السلطة للمذهب ما تم في عصر هشام بن
عبد الرحمن بن معاوية بالاندلس حين « اخذ ... الناس جميعا بالتزام
مذهب مالك وصير القضاء والفتيا عليه ، وذلك في عشرة السبعين ومائة

(74) المصادر ج 5 ص 80 .

(75) انظر : وحدة المغرب المذهبية ص 26 - 27 - 28 - 29 .

(76) انظر : الادب المغربي من خلال قواعده وقضايا ج 1 ص 88 .

من الهجرة فى حياة مالك رحمه الله تعالى ، وشيخ المفتين حينئذ صمصعة بن سلام امام الاوزاعية وراويتهم . وقد لحق به من اصحاب مالك عدة فالتزم الناس بها من يومئذ هذا المذهب وحموه بالسيف عن غيره جملة « (77) .

وفى نفس هذا النطاق يدخل قول ابن حزم : « مذهبان انتشرا فى مبدأ امرهما بالرياسة والسلطان : مذهب ابي حنيفة فانه لما ولي قضاء القضاة ابو يوسف يعقوب صاحب ابي حنيفة ... كانت القضاة من قبله ، فكان لا يولي قضاء البلدان من اقصى المشرق الى اقصى افريقية الا اصحابه والمنتسبين اليه والى مذهبه ، ومذهب مالك بن انس عندنا فى بلاد الاندلس ، فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول فى القضاة ، فكان لا يولي قاض فى اقطار بلاد الاندلس الا بمشورته واختياره ، ولا يشير الا باصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع الى الدنيا ، فاقبلوا على ما يرجون بلوغ اغراضهم به ، على أن يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط ولا اجاب اليه وكان ذلك زائدا فى حلالته عندهم وداعيا الى قبول رايه لديهم » (78) .

ومن مساندة الدولة للمذهب محاربتها المستمرة للاتجاهات المنحرفة التي من شأنها أن تشوش عليه وعلى عقيدة المغاربة ، على حد ما فعل يوسف بن تاشفين حين قضى على البورغواطيين ، والموالى اسماعيل حين حارب طائفة العكاكرة المنحرفة ، وجملة الحسن الثاني حين وضع حدا للبهائيين ، وهم زائفون باجماع اهل السنة والشيعة .

نعود الى الملاحظة التي ابدينا فى اول هذه النقطة حول الموحدين ، فقد وضع لهم المهدي بن تومرت مذهباً مزيجاً من الامامية والاشعرية والظاهرية والاعتزال وآراء الامام الغزالي . وهو مذهب انتهيما من دراسته (79) الى ان المهدي كان زعيماً سياسياً قبل ان يكون مصلحاً

(77) المسند ج 1 ص 26 - 27 . وربما كان من دوافع ميل هشام الى المذهب ما علمه من الحوار الذي دار بين زياد ومالك حول سلوك هشام ، ذلك انه « لما وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن انس قال : ليت الله تعالى زين موسماً بمثل هذا » (النفح ج 1 ص 337) .

(78) وفيات الاعيان ج 6 ص 144 - 145 ، وانظر كذلك النفح ج 2 ص 10 .

(79) انظر : الامير الشاعر ابو الربيع سليمان الموحدي (الفصل الاول من الباب الاول - ابتداء من ص 11 - دار الثقافة - الدار البيضاء 1974) . وانظر : كذلك وحدة المغرب المذهبية ص 19 - 20 - 21 - 22 .

دينيا ، وانه لتحقيق هدفه فى اقامة دولة بعد نصف حكم المرابطين القائم على المذهب المالكي ، توسل بالمذهبية الدينية ، ولكن فى اتجاه آخر . ونميز فى مذهبه جانبين :

اولهما : سياسي وكان يسمى منه الى الاقتناع بشرعيته والتثبيت لحكمه . وفيه اعتمد على المبادئ الشيعية الامامية ، ولا سيما العصمة والمهدوية ، واستغل فى ذلك حب المقاربة القوي لآل البيت وعدم جدة الافكار الشيعية عليهم .

ثانيهما : فكري ديني فقهي تطبيقي ، وكان المهدي فيه سنيا ، واكاد اقول مالكيًا يسير على خط النخبة والجماهير . ونعتقد أن اضطهاد الموحدين للفقهاء المالكيين لم يكن بسبب الخلاف المذهبي الفقهي بقدر ما كان بسبب الموقف السياسي الذي كان لهم من الدولة الموحدية ومن البدع التي توسلت بها . ولعلنا نذكر ثورة الفقهاء فى سبته بزعامة القاضي عياض سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . وقد تراجع الموحدون أنفسهم عن مبادئ مذهب المهدي ، بدءا من المنصور الذي حاول وضع كتاب مختار من كتب الصحاح يلقي به كتاب المهدي ، الى المأمون الذي نبذ العصمة والمهدوية وفكر ابن تومرت عامة .

وبانتهاء الدولة الموحدية عاد المذهب المالكي الى سالف عهده ، بل عاد اقوى مما كان ، بما اكتسب من خبرة ومرونة أتاحا له أن يطرح نفسه وقضاياها فى خط اجتهادي ، ومن خلال مقاييس جديدة ، فى محاولة للتوفيق بين الحكم الشرعي وواقع الحياة المتحرك .

2 - ومع ذلك ، اى مع مساندة الدول التي تعاقبت على حكم المغرب للمذهب ، فما كان له أن يستمر لو لم يكن يحمل فى طبيعته خصائص ومقومات تساعده على ذلك . ويمكننا ان نذكر فى هذا الصدد :

اولا : طبيعة المذهب نفسه ، فهو لا يقوم على الراى والقياس بقدر ما يقوم على النص والنقل وعلى الاثر والرواية ، فضلا عن واقعيته القائمة على اعتماد عمل اهل المدينة ، باعتباره نوعا من الاجماع .

وهو فى هذا يوافق مزاج المغاربة الذي ينفر من الغموض والابهام ومن التعقيد والتأويل ، ويميل الى البساطة والبسر ، والى السهولة والوضوح ، والى الواقعية والعمل الملموس .

وربما كان ابن خلدون يقصد الى هذه الطبيعة حين ذهب الى ان « البداوة كانت غالبية على اهل المغرب والاندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق ، فكانوا الى اهل الحجاز اميل لمناسبة البداوة . ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ولم يأخذ تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع فى غيره من المذاهب » (80) . والا فلسنا نتصوره يصف الحياة الاندلسية بالبداوة مع ما بلغته فى مضمار الحضارة وان فى هذه المرحلة المبكرة .

ثانيا : تجدد المذهب باستمرار ، انطلاقا من مبداءي المصالح المرسلية والدرائع ، وما تعطياته من مرونة وقابلية للتكيف مع أية بيئة وفى أى عصر ، وحل مختلف القضايا والنوازل الطارئة ، ويكفى أن نشير الى الخطوة التجديدية الكبيرة التي خطاها فى عهد المرينيين بعد خروجه من محنة العصر الموحدى ، والى الحركات الاصلاحية التي عرفها فى ظل الدولة العلوية والتي كانت تهدف الى انقاذ الفكر المغربي من الجمود الذي وقع فيه أيام السعديين بسبب كثرة الملخصات التي وضعت لاجمال المسائل الفقهية وتقريبها . وقد كانت هذه الحركات تسعى الى ارجاع الدين لبساطته ويسره ، خاليا من أى تعقيد .

فسيدي محمد بن عبد الله دعا الى نبذ المختصرات الفقهية والى الرجوع للكتاب والسنة وآراء السلف الصالح ، ووزع منشورا بذلك على القضاة ، ووضع لتوضيح اتجاهه كتاب (الفتوحات) . كذلك دعا المولى سليمان الى الاصلاح فى تأثر بالحركة الوهابية وتجاوب مع صديقه الامير ابن سعود الذي كانت له معه علاقات متينة ، واتجه فى دعوته الى الانتصار للسنة ومحاربة البدع الضالة وكتب فى ذلك خطبا توجيهية .

ثالثا : نضالية المذهب وجماهيريته والتحام فقهاء بالقضايا الوطنية ،
وتقدمهم فى ميدان الجهاد . ولا أدل على ذلك من قيام دولة المرابطين
القوية على أكتاف فقهاء المذهب ، كما لا أدل عليه من الدور الذى
نهض به المغرب فى أعماق القارة الافريقية قائما على نشر الاسلام
من خلال المذهب المالكي وما يواكبه من تصوف مستند الى الكتاب
والسنة .

ويمكننا ان نضيف للتمثيل على طليعية الفقهاء فى الذود عن حرية
الوطن ومحاربة العدوان الاجنبي ما كان لهم فى معركة وادي المخازن
من مواقف ، ولعلنا ان نشير كذلك الى الحركة السلفية التى تزعمها
المصلح الكبير الشيخ أبو شعيب الدكالي ومن سار على نهجه من
أمثال المرحوم محمد بن العربي العلوي وغيره من تلاميذ الشيخ ،
وهي الحركة التى كان لها الفضل الكبير فى توعية الجماهير ، ومنها
انبثقت الحركة الوطنية التى ناضلت فى سبيل تحرير البلاد من
الاستعمار .



وبعد ، فلعلنا من خلال هذا العرض الذى حاولنا فيه إبراز أهم
أسباب انتشار المذهب المالكي واستمراره فى بلادنا أن نكون وفقنا الى
استخراج هذه الأسباب وتحليلها والاستنتاج منها . ولا شك أن عنصر
الوحدة فى نطاق الصمود والتحدى يعتبر أهم ملمح يمكننا أن نستنتجه ،
وهو ملمح كشفت قضية الصحراء عن فعاليته وجدواه ، سواء بالنسبة
لاقناع العدالة الدولية بوجدتنا الترابية او بالنسبة لتعبئة الامة للذود
اللقائي عن هذه الوحدة .

ونحن مطالبون أكثر من أي وقت مضى لتمثل هذا الملمح ، لا سيما
والعالم الاسلامي - والمغرب فى طليعته - معرض باستمرار لالوان من
المحن والاختبارات . وهو واقع ينذر بكل توقع خطير اذا لم تكن مسلحين
لمواجهته ورده بعقيدة قوية ثابتة تشد فى رباطها الوثيق الموحد كل أفراد
الامة الاسلاميية .

ولن يتسنى لنا - نحن أفراد هذه الامة - أن نقيم هذا الرباط ، فى عصر كالذي نعيش فيه يتميز بصراع المعسكرات وحروب الفكر والتحديات، اذا نحن لم نسع الى وحدة نابغة من روح الاسلام (81) ومؤسسة على ارضية مشتركة نلتزم داخلها بحد أدنى من المبادئ والمفاهيم والمقولات، وننظر الى الحياة والى المجتمع والى مستقبل الدين من خلال رؤية شمولية تنطلق من الوعي بالامكانيات البشرية والمادية لامتنا والظروف النابعة منا والتي يفرضها الواقع علينا سواء فى الداخل او الخارج .

واذا كانت مثل هذه الوحدة لا يمكن أن تكون ايجابية الا اذا تجسدت على بساط يلتقي فيه كل رأى وكل ابداع وكل اجتهاد وكل نقد ، فانها فى نفس الوقت تقتضي الحاماً محكماً بين الخصوصيات الاقليمية وعناصر الوحدة ، كما تقتضي تقريباً بين المذاهب المختلفة ، بتنقيتها من الشوائب ومن المظاهر التي لم يعد لوجودها داع او مجال ، وبتصفيتها من الخلاف القائم فى بعض الجزئيات والقضايا التطبيقية ، وبالاتفاق على عدد مسن الاسس والمبادئ والغايات .

ونعتقد اننا نستطيع استخراج هذه الاسس بالنظر فى الاصول التي اعتمدتها المذاهب المختلفة ، ولا سيما تلك التي اتفق عليها جميع الائمة ، وبالنظر كذلك فيما تفردت به بعض المذاهب من مبادئ تنسم بالمرونة والقابلية للتكيف والامتصاص ، وتكون قادرة بالتالي على اعطاء الفقه الاسلامي طاقات وامكانات للتطوير والتجديد والتوحيد .

(81) انظر : الفكر الاسلامي والاختيار الصعب ، ابتداء من ص 75 (دار الرشاد - الدار البيضاء 1979) .

الاستاذ الحاج مالك سي

محصل على اجازة فى الشريعة والقانون من جامعة
الازهر بالقاهرة ، متخصص فى الفقه المقارن .

(السنيغال)

الإمام مالك فقيها ومحدثا

للاستاذ الحاج مالك سي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الانسان علمه البيان ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي المهداة للاكوان ، وعلى آله وصحابه ينابيع الحكم والعرفان .

حضرة صاحب المعالي سعادة وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية ،
أصحاب الفضيلة العلماء ،
أخواتي وأحبائي في الله ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد :

فانه ليبلغ بي الشرف والسعادة ، غايتهما اذ تحتاج الى هذه الفرصة الطيبة للمشاركة الفعلية في هذا الاسبوع الاسلامي الكبير ، اسبوع امام دار الهجرة النبوية الشريفة ، الامام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه ، هذا الاسبوع الذي يجد بحق من الايادي البيضاء التي ما فتىء حضرة صاحب الجلالة امير المؤمنين مولانا الحسن الثاني نصره الله ، منذ اعتلائه عرش اجداده العلويين الكرام ، يقدمها للامة الاسلامية ، توطيدا لمكانتها بين سائر الامم ، وحفاظا على تراثها الروحي والفكري ، هذا التراث الزاخر بجميع المقومات الاخلاقية والفكرية لهداية الانسانية الحائرة في متاهات المذاهب الفكرية والنظم السياسية المعاصرة لبعدها عن جوهر الرسالات السماوية في نقائها وروحانيتها وسموها .

وأنا اذ اتف امام جمعكم الكريم هذا نيابة عن العالم الجليل فضيلة الشيخ مولانا الحاج عبد العزيز سي التجاني ليسعدني غاية الاسعاد ، ان ارفع اليكم جميعا اطيب تحياته وصادق متمنياته لكم بالنجاح الباهر في اسبوعنا هذا ، حتى تتمكن من ازالة بعض الشبه والاوهام التي يحلو لبعض المتعصبين ان يلصقوها بالمذاهب الاسلامية بحجة الرجوع الى السلفية وتحكيم القرآن والسنة في مناحي حياتنا المختلفة وهي كلمة حق اريد بها باطل ، ذلك ، لان تلك المذاهب في حقيقتها وجوهرها ان هي الا روح الدين الاسلامي الحق ، فها هو ذا امام دار الهجرة النبوية الشريفة الامام مالك ابن انس رضي الله عنه يقول : اذا خالف كلامي كلام رسول الله فارموه وجهه الجدار .

وهذا ما تعلمون جميعا هو الشعار الذي رفعه جميع ائمتنا الاعلام الذين احموا تلك المذاهب لخدمة الاسلام ورسالته السامية فجازاهم الله عن الامة الاسلامية خيرا .

وهذه أيها العلماء الافاضل مقدمة ما كان لي بد من ان اتقدم بها بين هذا الموضوع الذي اشارك به على جهد المثل في اعمال اسبوعكم العظيم ، والمورد هو الامام مالك « فقيها ومحدثا » لا شك انكم جميعا تعلمون ان المصدر الاول للفقه الاسلامي على اختلاف مذاهبه وتعدد ائمته ، هو الكتاب والسنة ، ذلك لان القرآن الكريم هو سجل الشريعة الاسلامية المتضمن كل قواعدها وأصولها ، ما فرطنا في الكتاب من شيء ، وان كان مع ذلك لا يشتمل على اكثر فروعها ، فكانت السنة النبوية الشريفة بمثابة مذكرة ايضاحية لكتاب الله ، وهو القرآن الكريم ، يفصل مجمله ويطلق مقيده بدليل قوله تعالى « ونزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » فمن هنا فصلت السنة النبوية هذه الفروع وبينت الكثير منها ، واضعة الاعلام التي يستأنس بها لايجاد حكم ما يجد للناس من أحداث في حياتهم .

ولم يكن لاحد بالفا ما بلغ من العلم والمعرفة ان يحيد عن هذين الاصلين الجوهرين للشريعة الاسلامية ، لانهما عمودهما والمرجع الذي يرجع اليه ..

ذلك لان الشريعة دين نعبد الله بها ، وآمرنا بالاحتكام اليها دون الاعتماد على العقل المجرد او التجارب الانسانية .

ونحن لا نلغي بما ذهبنا اليه ، دور العقل العظيم وعمله الايجابي في استنباط الاحكام العقلية وتعرف المقاصد الشرعية من جملة النصوص والتماس العلة او الحكمة في كل نص شرعي جاء بحكم حتى يمكن تطبيق هذا الحكم في كل موضع يشبه لاشتراكهما في العلة المثبتة للحكم الاصلي، وذلك كما تعلمون هو دور القياس الذي يلتقي في ساحته الواسعة الشر بالعقل التقاء كريما ، وذلك لعدم تناهز الحوادث مع تناهز النصوص.

ومن هنا اختلفت المناهج الفقهية لاختلاف عقول مؤسسيها في الطريق التي يستنبطون بها الاحكام الشرعية مع تمسكهم جميعا بالنصوص ، ومن هنا نرى من بينهم من يقتصر على المقايسة بين احكام النصوص والحوادث المستجدة دون أن يكون هناك نص يشملها ويحدد حكمها .

ونرى من بينهم من يعتقد بالعقل ويحتكم اليه حيث لا نص .

ومن هنا كان من طبيعة الاشياء ان تتعدد الآراء وتختلف المذاهب اختلافا في ائتلاف لانها كلها تصب في مصب واحد وتتغير غاية واحدة .

ولقد كان الامام مالك رضي الله عنه يقول : « لا يؤخذ العلم من اربعة ، ويؤخذ من سواهم ، لا يؤخذ من سفيه ، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الى بدمته ، ولا من كذاب يكذب في احاديث الناس .

وان كان لا يهتم على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من شيخ له فضل صلاح وعبادة ، اذا كان لا يعرف ما يحمل ويحدث الناس ، فكان رضي الله عنه اذا اطمان الى راوي الحديث ، ولم يكن من هذه الاصناف الاربعة قبل النقل واعتمد عليه مولاه « مولده » .

ولقد ذهب ارجح الروايات الى أن امامنا ، رضي الله عنه ، ولد هام 93 هـ بالمدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، من أبوين عربيين،

وقبائل يمنية ، فابوه ينتهي نسبه الى قبيلة ذي اصبح ، واسمه انس بن مالك ابن ابي عامر الاصبحي ، اما امه فينتهي نسبها الى قبيلة الازد، واسمها العالية بنت شريك الازدية .

طلبه العلم :

اتجه الامام مالك رضي الله عنه اول نشأته الى حفظ القرآن فحفظه ثم الى طلب العلم حيث جلس في مجلس ربيعة وهو فقيه اشتهر في المدينة الراي حتى لقب بريبعة الراي بين اهل المدينة ، وهذا بتوجيه من امه حيث قالت له محرصة ، اذهب الى ربيعة فتعلم من علمه قبل أدبه ، وما ان تلقى منه والمبادئ الاولية وهو حدث صغير ، حتى شرع متنقلا في مجالس العلماء بالمدينة يتفرس في وجوههم الصلاح والورع والتقوى قبل العلم ، ملتما من بينهم شيئا يخصه بفضل من الملازمة حتى يكون عالما مرشدا وهاديا ، حتى قبض الله له من بين هؤلاء العلماء ، ذلك الشيخ الجليل ، وهو ابن هرمز فظفر بنشدته ولازمه ومقدما له ولأهله واخلاصه ومحبته، وفي شيخه هذا قال رضي الله عنه ، جلست ابن هرمز ثلاث عشرة سنة في علم لم ابته لاحد من الناس ، ولقد تلقى عنه الادب والحكمة .

ولعل ذلك هو ما جعله يتهيب الفتوى ، ويؤثر قول لا ادري اذا ازدحم عليه المستفتون .

ولقد قال في ذلك سمعت ابن هرمز يقول : ينبغي للعالم ان يورث جلساءه قول لا ادري . . ولكأني به وهو يظن الى الوسائل الملتوية التي يستعملها المتعصبين الذين تنطوي قلوبهم على الخبث وسوء النية وهم الذين يتخذون العلماء وسيلة يتخاصمون بها ويجادلون بالحق وبالباطل ، واولئك شر الناس ، وما زال العلماء مبتلين بأمثالهم ، عصمنا الله وأياكم من فتنهم ، ولقد قال ابن وهب ، وهو من تلامذ الامام مالك ، كان الامام مالك يقول في اكثر ما يسأل عنه لا ادري .

ومن العلماء الكبار الذين تلقى عنهم في أول أمره سيدنا نافع وهو مولى عبد الله بن عمر ، وفيه وفي ملازمته يقول : كنت آتي نافعا نصف النهار وما تظلني شجرة من الثمر ، اتحين خروجه ، فإذا أخرج أدعه ساعة كاني لم أره ، ثم أتعرض له فأسلم عليه وأدعه حتى إذا دخل أقول له كيف قال ابن عمر في كذا وكذا ، فيجيب ، وكان فيه حدة ، ونرى من هنا أدبه وصبره على العلم وجده في طلبه ، وبئله المال والنفس والنفيس، وخير دليل على تركيز هذا الخصال الحميدة في نفسه ، صبره على الهجير ، ثم توقيه حدة الشيخ متحليا بالصبر حتى يأخذ عنه علم عبد الله بن عمر .

ومن العلماء الأفاضل الذين تأثر بهم الامام رضي الله عنه ابن شهاب الزهري ، فلقد أخذ عنه علم سعيد بن المسيب ، وكثيرين من التابعين حيث كان ابن شهاب رضي الله عنه راويا وناقلا عنهم جميعا ، مما جعله مرجعا يرجع اليه في علم الرواية .

ومما يروى عن الامام مالك رضي الله عنه انه قال شهدت العيد فقلت هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب ، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه فسمعتة يقول لجاريته ، انظري من الباب فنظرت ، فسمعتها تقول ، مولاك الاشقر مالك ، فقال ادخله فدخلت ، فقال : ما اراك انصرفت بعد الى منزلك ، فقلت لا ، فقال : هل اكلت ؟ ، قلت : لا ، قال : اطعم ، قلت لا حاجة لي فيه . قال : فماذا تريد ؟ قلت تحدثني . قال : هات الالواح ، فأخرج الواحي ، فحدثني بأربعين حديثا . قلت : زدني . قال : حسبك ان كنت رويت هذه الاحاديث فانت من الحفاظ .

ومن هنا نفهم ان امام المدينة ابتدا أول أمره يعلم الرواية معتنيا برواية احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى تفوق فيه ثم يعلم فتاوي الصحابة ، وبذلك أقام أساسه الذي بنى عليه فقهه .

ولقد بلغ به أدبه واحترامه لاحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حدا لم نر احدا يضارعه فيه ، ذلك مما جافى كتاب المدارك انه سئل، اسمع عن عمر بن دينار ؟ فقال رأيت يحدث والناس قيام يكتبون، فكرهت

ان اكتب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانا قائم ، ولقد كان رضي الله عنه حريصا على ان يتلقى علم الرواية ، خصوصا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ممن يوثق بهم ، فكان يتتبع الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه وينتقي الثقة المتفقيين ، وكانت له فراسة قوية يدرك بها دقة فهم الرجال وقوة عقولهم ، ومدى رسوخهم في علم الفقه ، وكان يقول ان هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذونه منه ، لقد أدركت سبعين ممن يقولون : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند هذه الاساطين فما أخذت عنهم شيئا على بيت مال لكان أمينا الا أنهم لم يكونوا من اهل هذا الشأن ، وهنا أن دل على شيء فانما يدل على تورعه وتشبثه فيما يأخذ من أفواه الرجال منسوبة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ذلك لان من بين هؤلاء من أخذ عنه الامام مالك رضي الله عنه الفقه والرأي ، وأخذ عن الآخر الحديث وآثار الصحابة .

ولم يكن تلقيه عن هؤلاء الاعلام يخلو من الفحص والتمحيص ، ثم المناقشة العلمية لتمييز الزيف من الصحيح ، ولعل ذلك هو ما جعل ابن هرمز يوليه اهتماما كبيرا ورعاية يخصصه بها دون غيره من الذين يتلقون عنه في مجلسه بل كان يخصصه بكثرة المحادثات العلمية ، ولقد سئل ابن هرمز ذات يوم فقل نسالك فلا تجيبنا ، ويسالك مالك وصاحبه عبد العزيز بن سلمة فنجبهما .

فما كان رواه ، كان يقول حل في بدني ضعف ، ولا آمن ان يكون قد دخل على عقلي مثل ذلك ، وأنتم اذا سلمتوني عن الشيء فأجبتم قبلتموه ، ومالك وعبد العزيز ينظران فيه ، فان كان صوا قبلاه ، وان كان غيره تركاه .

جلوسه لالقاء الدروس :

كانت المدينة المنورة على ساكنها افضل الصلاة والسلام موئل الشريعة الاسلامية، ومرجع العلماء ، ولقد قال فيها عبد الله بن عمر قوله المشهورة : ان كنتم تريدون المشورين « أى في الدين » فعليكم بدار الهجرة

النبوية ، ولقد اختلت المدينة المنورة هذه المكانة لكونها موطن الشرع ومبعث النور ومعدن الحكم الاسلامي الاول ، ففيها كانت تستنبط من هدى القرآن والسنة النبوية الشريفة أحكاما تصلح للحضارات والمدنيات ، لكل ما لهاتين الكلمتين من معاني .

فى هذه المدينة وفى المسجد النبوي الشريف اختار امامنا حلقته وكان مجلسه هو الذي كان يجلس فيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فكان الدأخل الى مسجد رسول الله فى النصف الثاني من القرن الثاني لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، يجد شيخا مسنونا اللحية أشقر الوجه طويلا فيه سمة ومهابة ، لا يستطيع أحد التحديق فيه لما خلق الله عليه من سمة الهيبة والوقار .

وذلك هو امام دار الهجرة المحتفل به اليوم مالك بن أنس رضي الله عنه .

« الإمام مالك فقيها ومحدثا » :

ولقد كان رضي الله عنه فقيها ومحدثا ، نال شرف الامامة فيهما بشهادة معاصريه حتى كان يقال فيه ، لا يفتى ومالك فى المدينة ، وهل هناك شرف أسمى وأعلى من هذه التزكية ؟ كلا ..

ومع ذلك كله فلقد كان حريصا على اتباع السنة ، ومنهاج السلف الصالح ، مستدلا بقول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاية الأمور من بعده سننا ليس لاحد بعده تبديلها ولا النظر فى شيء خالفها من اهتدى بها فهو مهدي ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين ، قوله ما تولى فصله جهنم وساءت مصيرا ..

ومع انتشار ظاهرة الاخذ بالرأي والاعتداد به دون استعمال العقل المجرد ، فكان رضي الله عنه يقول : « ان الايمان قول واعتقاد وعمل » ،

ويكفي دليلا على شرف امامته في الحديث ان رواياته عن النبي صلى الله عليه وسلم تعد السلسلة الذهبية حتى قال في ذلك الامام البخاري رضي الله عنه ان اوثق الرواية مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر .

ولقد كان يأخذ بهذا المنهج في استنباط الاحكام الشرعية ، ان يأخذ أولا بالقرآن وهو كتاب الله ، فان لم يجد فيه نصا للحكم ، اتجه الى السنة وتشمل السنة عنده احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفتاوي الصحابة واقضيتهم وعمل اهل المدينة ثم القياس ، وهو اثبات مثل حكم معلوم في معلوم آخر لاشتراكهما في العلة عند المثبت . كما كان رضي الله عنه يعد الذرائع أصلا من الاصول التي يجب الاخذ بها ، ومؤداه ان ما يؤدي الى حرام يكون حراما ، وما يؤدي الى حلال يكون حلالا ، بمقدار طلب هذا الحلال ، وكذلك ما يؤدي الى مصلحة يكون مطلوبا ، وما يؤدي الى مفسدة يكون حراما ، الى آخر ما قصده من مبادئ للاستنباط الاحكام الشرعية ، فجراه الله خيرا ما جرى به العاملين المحسنين .

وفي الختام اشرف بتقديم وافر الشكر ، وعميق التقدير والاحترام، على ما ابداه لنا من حسن الرعاية وجميل العناية ، حتى نتمكن جميعا من ايجاز الاعمال العظيمة ، التي تنتظرنا والمتمثلة في تقديم الرسائل والمباحث المعدة لهذا الاسبوع ، تخليدا للذكرى امام دار الهجرة النبوية الشريفة ، على ساكنها افضل الصلاة والسلام ، ربنا آتينا من لدنك رحمة وهىء لنا من امرنا رشدا .

هذا وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

« انما يخشى الله من عباده العلماء » .

- قرآن كريم -

الاستاذ احمد شاعري الزيتوني

محصل على الاهلية ، التحصيل ، العالمية ،
متخصص في الفقه والحديث .

(الملكة المفريية)

ذكرى الامام مالك بن انس امام الائمة

للاستاذ الشاعر الزيتوني

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

ان الامم التي تعني باقامة الذكريات لمن مضى من عظمائها لدليل على حيويتها وانسلاخها من الجمود والركود ، وانها لجادة ، ولماحة الى المعالي ، وجديرة بتسليم ذروة الكمال ، وان وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية مستوجبة للشكر العاطر ، على ما تبذل من جهود مشكورة ، ومساعد محمودة في سبيل استشارة همم المفكرين وارباب الاقلام ، فانهم عروق الامة النابضة ، وشرايين حياتها المحركة .

على ان الفضل كل الفضل في ذلك يرجع أولا الى امير المؤمنين الحسن الثاني المحرك الاول الذي يجد وشعبه على السير في المنهج القويم ، والصراط المستقيم ، ليبذل - عن قريب ان شاء الله - مرتبته اللائقة به بين عظام الامم ، وان ذكرى الامام مالك لمن احسن المواضيع الحساسة في تشجيع الهمم وتلقيح نشاط الامم ، فان مالكا رحمه الله لمن الشخصيات العالمية في عالم الفقه والقانون ، كفرنسا وايطاليا وغيرها ، وذلك معلوم عند كل من اشتغل بعلم القانون ، واطلع على استمداد علماء الحقوق من اجتهادات مالك ، تلكم الاجتهادات المستنبطة من اصول الشريعة الاسلامية ، مسلمين كانوا ام غير مسلمين .

من هو الامام مالك ترجمته

هو ابو عبد الله مالك بن انس بن مالك بن ابي عامر الصحابي الجليل . ومالك هو امام دار الهجرة النبوية الحميري اليمني الصبحي نسبة الى ذي اصبح وكلمة ذو كذا تدل على لقب الملك عند حمير ، وهو امام الائمة ، وعالم مدينة الرسول على ساكنها افضل الصلاة والسلام ، وسنرى كيف

أدرك مالك الملك المؤيد بفضل الاسلام ، لا كملك حمير بل كل ملك دنيوي يتلاشى أمام ملك مالك .

ولد الامام مالك سنة ثلاث وتسعين ، - على الصحيح - وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة ، فكانت مدة عمره المبارك ستا وثمانين سنة .

ومن أوصافه الجسيمة ، أنه كان مديد القامة ، أبيض اللون ، أشقر ، عظيم الهامة ، أصلع الرأس جميل الثياب .

والاشهر أن مالكا عربى الاصل ، وهو من ذى أصبح ، ولم يكن من الموالى كما زعم ذلك ابن اسحاق ، ذلك الزعم الذى كان سببا في تكذيب مالك لمحمد بن اسحاق - والطعن فيه .

منزلة الامام مالك العلمية

والامام مالك أحد الائمة الاربعة ، بل استاذهم الذين اتفقت كلمة الامة الاسلامية على أمانتهم وفضلهم وحراستهم لسنن رسول صلى الله عليه وسلم وتأسيسهم للفقه الاسلامى .

وهم : مالك بن أنس ، وأبو حنيفة النعمان ، ومحمد بن ادریس الشافعى ، واحمد بن حنبل ، وقد وقع اتفاق الامة الاسلامية على وجوب الاقتداء بأحدهم على كل مسلم ليست له مؤهلات ترشحه للاجتهد وأخذ الاحكام من كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه مباشرة .

وقد قال كثير من العلماء كسفيان بن عيينة ، وعبد الرزاق ، قالوا في حديث أبى هريرة يوشك أن يضرب الناس أكباد الأبل يطلبون العلم ولا يجدون أعلم من عالم المدينة ، قالوا أنه مالك بن أنس فهو إمام الفقهاء والمحدثين ، وكفى الامام مالك فخرا أن يتخرج عليه الائمة مثل الامام الشافعى الذى أقر بفضل مالك عليه إذ قال أسنأذى ، عنه أخذت العلم ، وهو الحجة بيني وبين الله تعالى ، وما أحد أمن علي من مالك ، إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب ومعلوم أن الامام احمد بن حنبل تخرج بدوره عن الامام الشافعى ، فهو تلميذ تلميذ مالك ، رحم الله جميعهم ، وإما الامام أبو حنيفة النعمان فقد حكى غير واحد أنه لقي مالكا وأخذ عنه أبو حنيفة رغم تقدم سنه عن مالك ولا يستغرب ذلك ، فقد أخذ عن مالك من هو أكبر سنا من أبى حنيفة كابن شهاب الزهرى ، وربيعه الراى ، وغيرهما ، وقد ألف العلماء في الاحاديث التى رواها أبو حنيفة عن مالك رضى الله عنه منهم الدارقطنى والخطيب البغدادى والزرکشى والسيوطى وغيرهم ، وإما امامة مالك في الحديث وتوفقه في ذلك الميدان ، فأشهر من أن يتحدث عنه فقد قال سفيان بن عيينة : انا كنا نقتع

أثار مالك في الحديث ونظير الى الشيخ ، ان كتب عنه والتركه وما مثلى
ومثل مالك الا كما قال الشاعر :

وابن اللبون اذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس
ناهيك بشهادة ابن عيينة هذه وهو على جلاله قدره وامامته ، لم يستغن عن لقتفاء
آثار مالك ، وقد صرح الامام النسائي بأن مالكا أنبل المحدثين بعد التابعين
وأجلهم وأوثقهم وآمن على الحديث ، وأقلهم رواية عن الضعفاء ، وقال عبد
الرحمان بن مهدي - في المقارنة بين مالك وسفيان الثوري والاوزاعي - :
سفيان الثوري امام في الحديث ، وليس بامام في السنة ، والاوزاعي امام
في السنة وليس بامام في الحديث ، ومالك فيهما جميعا ، كيف وقد أخذ عن
تسعمائة شيخ فأفتى ، ما أفتى حتى شهد له سبعون اماما أنه أهل لذلك ،
وكتب بيده مائة ألف حديث وجلس للدروس وهو ابن تسعة عشر عاما ،
وصارت حلقة أكبر من حلقة مشايخه في حياتهم ، وكان الناس يزدحمون
على بابيه لأخذ الحديث والفقه كازدحامهم على باب السلطان ، وله حاجب يأذن
أولا للخاصة ، فإذا فرغوا أذن للعامة .

• تأيب وتثبيت مالك في نقل العلم ونشره •

كان مالك رحمه الله اذا جلس للفقهِ جلس كيفما اتفق ، واذا أراد الجلوس
للحديث الشريف اغتسل وتطيب ولبس ثيابا جودا ، فتعمم وقعد على منصته
بخشوع وخضوع ووقار ، ويبخر المجلس بالعود من اوله الى آخره ،
تعظيما لحديث رسول الله صلوات الله عليه قراءة وإلقاء ، نرى فيه شخصا
قد هيأته العناية الربانية ، وطهرته حسا ومعنى ، ورشحته لتحمل الشريعة
الاسلامية والفقه الاسلامي في جو من الطهارة والتعظيم ، رواية ودراية
لتبليغ الشريعة المحمدية الطاهرة الى أوطان المسلمين المختلفة كما جاء
بها سيدنا محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، تصديقا لقوله تعالى : (انا
نحن فنزلنا الذكر وانا له لحافظون)

ووردت حكايات عديدة وروايات مختلفة كلها تدل على شدة تعظيم مالك
رحمه الله للحديث النبوي الشريف من أئمة التابعين وتابعيهم ، فلا
وتثبته فيمن يأخذ عنهم الحديث الشريف من أئمة التابعين وتابعيهم ، فلا
يأخذ الا عن اختارهم وارتضاهم لديانتهم ، ورسوخهم في العلم ، والغوص
في الفهم والصلاحية للرواية وتوفير شروطها المعتبرة ، وقد ثبت عن مالك
أنه ترك الرواية عن أناس صالحين متدينين ، وذلك لعدم معرفتهم ببعض
الشروط المعتبرة في الرواية ، فان مالكا لا يروي الا عن أمثال نافع بن أبي
رؤيم ونافع مولى ابن عمر ، وأبي الزناد عبد الله بن ذكوان القرطبي ، وزيد

ابن اسلم والزهرى ، وعبد الرحمان بن القاسم بن محمد بن ابي بكر ، وايوب السخيتاني ، وعائشة بنت سعد بن ابي وقاص ومن على شاكلتهم .

وهذا ما جعل ابا الحسن الدارقطني يقول : لا نعلم احدا تقدم او تاخر اجتمع له ما اجتمع لمالك ، ومما ذكر نعلم سر نجاح مالك واتصال الناس على علمه ، وامثال اوامره ، واتقاء غضبه وتوخي رضاه ، ويريد مالك رحمه الله ان يؤدب - بسلوكه - طلبة ورواة الحديث النبوي ، وفأقلى شريعة الاسلام من الاقطار الاسلامية المختلفة ، تاديبا علميا وعمليا وسلوكيا ، حتى انه قد بلغ به ذلك السلوك اللائق مع الحضرة المصطفوية انه لا يركب فى الحينة القنورة رغم ضعفه وكبر سنه ، تهيبا للركوب فى ارض ضمت الجسد الشريف .

ومن تعظيم مالك للحديث النبوي الشريف ما حكاه فى ترتيب المدارك عن عبد الرزاق قال : بينما نحن فى المسجد الحرام فقيل لنا هذا مالك ، فالتقيناه دخلا من باب بني هاشم وعليه رداء وقميص صنعاني ، فطاف بالبيت ، وخرج لفاحية الصفا ، فصلى ركعتين ثم اتحبى ، فلما فرغ احتوشناه - احطنا به - كما يصنع اصحاب الحديث ، فلما جلسنا قام من بيننا كالمغضب ، فجننا مشايخنا فقالوا اي شيء كتمتم عن مالك ، فأخبرناهم بالقي فعل ، فقالوا : الذي فعلتم لا يتحمله مالك ، فلما كان من الغد جننا واحدا واحدا وعلينا السكينة فحدثنا وقال : ، الذي فعلتم امس فعل السفهاء .

هذا ولو كان ذلك الموقف من مالك مع اولئك الطلبة وحدهم لكان امره ، اما وموقف مالك فى فرض احترامه ، لوهو متحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يختلف باختلاف الطبقات ، فموقفه ذلك مع الطلبة وغيرهم ، هو عين موقفه مع الخلفاء والملوك والامراء ، فقضيته مع المهدي الخليفة العباسي وابنه من بعده هارون الرشيد أشهر من أن تذكّر ، فقد جاء فى ترتيب المدارك برواية ابن نافع انه لما دخل مالك على هارون رفع مجلسه ، وقال لابنيه ، قوما فاجلسا بين يمي عمكما فقاما فجلسا بين يمي مالك ، ثم التفت الى هارون فقال : ان الله رفعك وجعلك فى موضعك الذي أنت فيه ، فلا تكن اول من يضع عز العلم ، فيضع الله عزه ، وللتفت هارون الى ابنيه وقال لهما قوما ، فاذا مضى عمكما آتيا منزله فاسمعا منه ، فلما انصرف مالك ركبا اليه ونزلا ودقا الباب فلم يفتح لهما ، فجلسا على الباب والريح تضرب وجوههما بتواب العقيق ، فلما أيسا انصرفا .

ولهذه الواقعة سوابق ولواحق ، منها ما وقع للخليفة المهدي العباسي - كما فى ترتيب المدارك ، حينما دخل المدينة وزلزه مالك وأمر ابنه موسى . هارون ان يسمعا منه كتبه فبعثوا اليه ولم يصلهم ، ثم سأل المهدي عن

سبب الامتناع ، فقال يا أمير المؤمنين العلم أهل أن يوتى ويوقر ، وعندما استخلف هارون الرشيد ورغب في السماع من مالك ولكنه علم أنه لن يأتية إذا ما استدعاه ، فتوجه الخليفة هارون بنفسه الى منزل مالك ، لكنه لم يأذن له في الدخول من حينه ، فوقف في بابه مليا ، وبعد دخول الخليفة الرشيد ، عاقب مالكا على سلوكه ذلك ، فقد اعتبره الرشيد غير مناسب لمقام أمير المؤمنين ، فأجابه مالك بأنني استوقفتك ريثما أتوضأ ، وذلك لعلمي بأنك تريد سماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قيل في هذه الحادثة أو في أخرى شبهها ، ان الخليفة رغب من مالك أن يخصه بالمجلس ، وأن يخرج من عنده من طلاب الحديث ، فاعمله مالك بأن بركة العلم لا تبقى مع ذلك التصرف .

تسوية مالك بين طلبة العلم واخذه تدريجيا

ويؤخذ مما تقدم وما يأتي ذكره أن من مباهي مالك في نشر العلم التسوية بين طلبته في المجلس بدون فرق في الطبقات ، وأن العلم انما يؤخذ تدريجيا ولا يؤخذ دفعة واحدة ، وذلك لعمره ، لما يشير الى منعه القرآن الكريم ، قال تعالى : (قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون) وقال سبحانه : (عيسى وتولى أن جاءه الاعمى) الآيات ، وقال عز من قائل : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) والآية ، وقد غاب القرآن الكريم على من رأى أخذ العلم جملة واحدة بقوله : (وقال الذين كفروا لولا نزل علينا القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا) وهكذا كان سلوك مالك رحمه الله في رفع قيمة العلم والاعتزاز به ، وحمل الناس وتربيتهم على اختلاف طبقاتهم - من أمير ومأمور - على احترامه واجلاله ولم يشذ عن ذلك حتى من كان في مثل درجته في العلم ، وفي كل ذلك لم يخرج مالك - كما رأينا - عن توجيه القرآن الكريم وهديه .

فقد جاء في ترتيب المدارك أنه دخل بقرية بن الوليد على مالك فقال الفاس : اليوم ننتفع بأبي محمد ، نسأل مالكا مسائل نكتبها عنه ، فسأله عن ست مسائل فأجابه عنها كلها ، وسأله بعد ذلك عن مسألة ، فقال مالك : أكثرت خذوا بيد الشيخ ، فجاء نفسان (شخصان) فأخذاه بضبعه فأخرجاه ، ولا يستغرب ذلك من مالك رحمه الله فقد قال بعض العلماء - أظنه مالكا نفسه - ليس العلم بكثرة الرواية ، ولكنه نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده وأن مالكا لم يكن مجرد راوٍ من رواة الحديث ، ثم يشحن أدمغة آخرين بأزيد ما يمكن من الاحاديث والمسائل الفقهية وكفى ، ولكن مالك علاوة على ذلك وفي نفس الوقت مرب ومدرّب على العمل بالعلم ، وكان يقول في جوابه عن بعض المسائل : (دعها حتى تقع) .

فليت شعري هل من قيمة لمجرد حشو الادمغة وأرهاقها بمعلومات غير معمول بها ، او ليس في ذلك فتح باب لبعض المفسد يجب على العالم التقزّه عنها ، وذلك كمظنة التباهي ، والتفاخر بالمعلومات غير المفيدة الا لغضب الله ليس مجرد الاكثار منها وقلة العمل بها مظنه لاهمالها ؟ أو الاستخفاف بها ؟ أو قلة اتقان روايتها ؟ وإن مالكا نفسه لم يكن ليحدث بكل ما سمع ، فقد جاءت عنه - روايات أنه وجد بمنزله بعد وفاته كتابا لم يسمع عنه انه حدث بها ، فمنها ، ما ذكر عتيق بن يعقوب أنه دخل منزل مالك بعد وفاته مع ابنه ففتح صناديق مملوءة كتباً ، فقرأها فذكر نحوه ، يعني لم يحدث بها طول حياته - ثم فتح صندوقاً آخر فأخرج منه اثني عشر ألف حديث للزهري ، وفتح آخر فأخرج منه ما فيه من حديث أهل المدينة ، فما رأيت فيها شيئاً مما ذكر به أصحابه في حياته ، وقد جاء عن مالك نفسه أنه قال : إذا حدثت الناس بكل ما سمعت ، اني اذا أحق .

وبملاحظة ما سبق من شدة التحري من مالك في الرواية ، وأنه لا يروي الا على من توفرت فيهم الشروط المعتبرة ، وبملاحظة ذلك تعرف قيمة تلك الكتب من الصحة والاعتبار .

هذه لمحة خاطفة في ذكر مرتبة مالك رحمه الله بين المحدثين من حلة السنة النبوية ، فانه قل من يداني فيها مالكا أو يشق له غبار ، باعتراف أئمة الحديث انفسهم وشهادتهم بتفوقه في ذلك الميدان .

مرتبة مالك الفقيهية

اما في ميدان الفقه والفتوى ، فان مالكا فيهما امام الائمة بلا منازع ، وقد تقدم ذكر مرتبته بين الائمة الاربعة المتفق على وجوب الاقتداء بأحدهم في الدين على كل مسلم مخلص لله ، وارادة اتباع شرايع الاسلام الذي هو الدين الوحيد المقبول عند الله تعالى ، فان العمل في مهد الاسلام المستقيم ، وفي ضوء تعليلهم المثلى ، لا يتأتى على الوجه الصحيح الا للمجتهد أو المقلد لمن بلغ درجة الاجتهاد ، لان أخذ الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة يحتاج الى شيء غير قليل من الاستعداد ، الشيء الذي لا يتأتى لكل واحد ، والتمكن من ذلك مع استفراغ الوسع ليس في متناول الجميع ، ولهذا قال صاحب جوهره التوحيد

ومالك وسائر الائمة
كذا أبو القاسم مداة الاممة

فواجب تقليد حبر منهم
كذا حكى القوم بلفظ يفهم

وهذا على خلاف ما نسمع اليوم مع الاسف من أن كل من يعرف القراءة والكتابة في امكانه أن يقتني كتب الحديث الوفيرة في المتاجر ، ويأخذ منها الاحكام الشرعية مباشرة ، ومعنى هذا أنه يجوز لكل من هب ودب أن يكون مجتهدا كبقية الائمة الاربعة ويرفقهم ، وفي الرد على هذه الفوضى كتب الدكتور سعيد رمضان البوطي استاذ بجامعة دمشق ، كتب مؤلفا عنوانه بما يلي ،
اللامذهبية اعظم بدعة تهدد الشريعة الاسلامية .

ولذا أردنا أن نلقي بعض الاضواء لنتبين مرتبة مالك في ميدان الفقه والفتوى فلننأمل أولا في مناظرة وقعت بين الامامين : محمد بن ادريس الشافعي ، ومحمد بن الحسن الشيباني الحنفي ، مناظرة في أي الامامين أعلم ؟
ابي حنيفة أم مالك ؟ كما جاء في ترتيب المدارك ، قال الشافعي لمحمد ابن الحسن : الانصاف تريد أم المكابرة ؟ قال الانصاف ، قال الشافعي : ناشدتك الله من أعلم بكتاب الله وناسخه ومنسوخه ، قال محمد بن الحسن : اللهم صاحبكم ، قال الشافعي : ناشدتك الله فمن أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال له : اللهم صاحبكم ، قال الشافعي : فمن أعلم بأقوال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم صاحبكم ، قال الشافعي ، فلم يبق الا القياس ، قال محمد : صاحبنا أقيس ، قال الشافعي : القياس لا يكون الا بهذه الأشياء ، فعلى أي شيء نقيس ؟ وزاد الشافعي قائلا : وصاحبنا لم يذهب عليه القياس ، ولكن كان يتوقى ويتحرى ، ويريد التاسي بمن تقدم .

فهذه المناظرة البريئة الواقعة بين هذين الامامين العظميين الشافعي والشيباني صاحب ابي حنيفة النعمان رحم الله الجميع ، قد سجلها التاريخ ، وقد أسفرت نتيجة تلك المناظرة عن شغوف مرتبة امام دار الهجرة مالك على سائر الائمة الاربعة المعروفة في العالم الاسلامي رضي الله عن جميعهم ،

أما توفي مالك وتحريه في الرواية والفتيا ، واردة التاسي بأمثل المتقدمين عليه فمسيء قد تواترت به الاخبار عن مالك ، فمنه ما ذكر أنفا من أنه لم يحدث الناس بكل ما سمع من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرغم من كونه لا يروي الحديث الا عن توفرت فيه شروط أخذ الحديث عنه في نظر مالك نفسه ، عملا بالحكمة القائلة : (لا ينبغي أن تقول كل ما تعرف ، ولكن ينبغي أن تعرف كل ما تقول) ولما يروي عن مالك نفسه : (ليس العلم بكثرة الرواية ، وانما العلم نور يقتضفه الله في قلوب من شاء من عباده) وهذا علاوة على أن مالكا لم يفت حتى علم أن الناس قد رشحوه ، وروا فيه الاهلية للفتيا ونشر العلم ، ويقول مالك عن نفسه : ما أفقيت حتى شهد لي سبعون محنكا : اني أهل لذلك ، والمحكون يعنون بهم : - حسب تعبير ذلك العصر - ائمة العلم ، وكبار العلماء ، وذلك ما يعبر عنه بالاجازات ، أو

الشهادات الرسمية على حد تعبيرنا في العصر الحاضر ، وقد ذكر صاحب ترتيب المدارك قضايا تدل على ورع مالك وشدة تحريه في أجوبته على المسائل المهمة ، وأنه في كثير من الأحيان لا يستنكف أن يجيب أسس بقوله : لا أدري وذكر أيضا فيمن ذكر أنه سأل رجل عن مسألة استودعه إياها أهل المغرب ، فقال ، ما أدري ما ابتلينا بهذه المسألة في بلدنا ، ولا سمعنا أحدا من أشياخنا تكلم فيها ، لكن تعود ، فلما كان في الغد جاء وقد احتمل ثقله على بغلته يقودها فقال : مسألتي ؟ فقال ما أدري ما هي فقال يا أبا عبد الله ، تركت خلفي من يقول : ليس على وجه الأرض أعلم منك ، فقال مالك - غير مستوحش - إذا رجعت فأخبرهم أنني لا أحسن ، وقد وقع لمالك كثير وكثير من أمثال هذه القضية ، حسب ما جاء في ترتيب المدارك للقاضي عياض رحمه الله .

ولعل ما اشتهر به الامام مالك رحمه الله من شدة التحري والتثبت في دين الله لافرق في ذلك بين ما يتعلق برواية الحديث النبوي ، وبين الفتيا في المسائل الفقهية ، قلت : لعل كل ذلك كان سببا في اغراء الناس من كل أصقاع العالم الاسلامي شرقا وغربا ، أغراهم بالتوجه الى أخذ الحديث والفقه وآداب الاسلام عن عالم المدينة دار الهجرة النبوية ، وأن في ذلك لاحتى المعجزات النبوية وأعلام الرسالة النبوية ، فقد وردت أحاديث ، منها حديث أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج ناس من المشرق الى المغرب في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة أو عالم أهل المدينة ، وقد مضى بالمدينة علماء كثيرون من أمثال سعيد بن المسيب ونافع وربيعه ، ولكن لم يكن أحد منهم مقصودا من المشرق والمغرب مثل ما قصد مالك رحمه الله الجميع .

سبب اشتهار الأئمة :

هذا ولا أريد أن يفهم مني السامع الكريم أنني أريد حصر علم الشريعة الاسلامية في شخص مالك ولا في بقية الأئمة الاربعة ، فان الكتاب الكريم والسنة النبوية الطاهرة ، بحر لا تدركه الدلاء ، فضلا عن دلو مالك رحمه الله ، قال تعالى : (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) ولا ينبغي لمالك ولا لغيره من سائر المخلوقات العلوية والسفلية ادعاء الاحاطة بالعلم الا الله تعالى وحده ، فقد كانت القرون الثلاثة الفاضلة تزخر بالأئمة المجتهدين من الصحابة (والتابعين وتابعيهم كمالهم وغيره من أئمة الاسلام ، فقد رتب أولئك الاعلام الشريعة المحمدية ويسروا للمسلمين التفقه في الدين ، ومهدوا لهم العمل بشرائع الاسلام ، وقد لا يسهل على غالب الناس ممارسة أدلة الكتاب والسنة ، وأخذ

الاحكام منهما مباشرة ، فانه لا يتيسر للكل معرفة ما عم منها وما دخله التخصيص ، والناسخ والمنسوخ ، والاجماع ، ومعرفة الصحيح من الاثار من سقيمها وادرك مقاصد الشريعة ، الى غير ذلك ، فقد كفى اولئك الائمة من علماء الشريعة ، ومصاييح الامة مشاق الخوض والسير في تلك المهمة وقد وضعوا القواعد ، ودونوا الفقه ، وسهلوا الصعاب وعبدوا الطريق الى معرفة احكام الله تعالى ، غير ان اجتهادات ومذاهب اولئك الائمة من اهل القرون الثلاثة الفاصلة لم يبلغنا منها بطريق صحيح متواتر الا نتائج الائمة الاربعة ، مالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل ، وذلك لتوافر طلبتهم شرقا وغربا بين الذين بلغوا درجتهم في الاجتهاد ، وقاربوها ، وكانوا ذوي عدد كادوا لا يحصون جيلا بعد جيل بحيث لا يزيد تلك المذاهب مرور القرون ، وتعاون العلماء على فحصها وتدقيقها ، وفحص أدلتها من الكتاب والسنة ، والقياس الصحيح واجماع الامة ، لا يزيدها كل ذلك الا المتانة والصحة والاطمئنان اليها حتى أصبح كل مذهب عبارة عن مورد من موارد الشريعة المطهرة قد تضافرت عليه جهود علماء كثيرين ، وفي كل جيل منهم عدد غير قليل يمهدون مسالك المذهب ويوضحونه ويسهلون العمل على مقتضاه ، حتى أصبحت الامة الاسلامية وقد اتفقت على وجوب اتباع اجتهادات واحد من اولئك الائمة العظام ، وفي نفس الوقت لم يدعوا سد باب الاجتهاد في وجه من توافرت لديه مؤهلات ممن جاء بعدهم ، لكنهم سهلوه بما وضعوا من علم اصول الفقه ، ووضعوا فيه قواعد لاستنباط الاحكام الفقهية من أدلة الكتاب والسنة .

غير أن الشيء الذي يحز في القلوب والنفوس ، ولا تتسع له صدور المسلمين هو ما يحاوله البعض من نبذ تلك المذاهب كلها واغراء كل من هب ودب الى أخذ الاحكام مباشرة من الكتاب والسنة ، تشويشا وفقنة للمسلمين فيما تقرّر لديهم من الاحكام ، وفي ذلك - كما ترى - أحداث فوضى في الدين ، وفي الشريعة الاسلامية ومن ثم ايضا يظهر صواب كتاب : (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، على من زعم حيلولة علمي الفقه والكلام بين المسلمين ، وصلتهم بالكتاب والسنة حيث قال في رد ذلك الزعم : والجواب ان السلف من علماء الاسلام الذين دونوا الفقه والكلام ، لم يرفعوا الكتاب والسنة من متناول المسلمين المحاولين ان يستنبطوا اصول دينهم وفروعه منهما ، ان استطاعوا الاستنباط ، واستجمعوا ما يجعلهم اهلا له ، فان كانوا يراجعون الفقه والكلام دون الكتاب والسنة يراجعونها لسهولة الاخذ منهما ، وعدم سهولة الاخذ من الكتاب والسنة التي هو شأن العلماء الراسخين ، وماذا كان يعمل هؤلاء الذين لا يسهل عليهم الاخذ والاستنباط من الكتاب والسنة لو لم يجحدوا الفقه والكلام في متناولهم ،

لا جرم أنهم كانوا يحاولون الاخذ من الكتاب والسنة غير مستاهلين لذلك
فيضلون ويضلون -

تأثر المذاهب الاربعة بعضها ببعض :

ومن حكمة الله تعالى أنه سبحانه لما علم أن أولئك الائمة الاربعة هم
الذين سيقتدي بهم المسلمون في أمور دينهم ، الى أن يرث الله الارض ومن
عليها ، فإنه تعالت حكمته وزع فيهم الاختصاصات المختارة اليها في السير
المستمر على نهج الحياة الاسلامية ، بحيث يتيسر - بمراعاتها - استخراج
حكم لكل قضية تتجدد كيف ما كانت طبيعتها ، الى أن يرث الله الارض ومن
عليها فبعضهم له مزيد اختصاص في رواية السنن النبوية ونقدها وتمحيصها ،
كمالك وأحمد بن حنبل ، وبعضهم له دراية بأصول الفقه وتعقيد القواعد
كالشافعي ، وبعضهم له مزيد قوة الملكة في الرأي والقياس كأبي حنيفة
وعلماء العراق ، وذلك ليعلم أن الشريعة الاسلامية باقية ما بقي الدهر ،
وأن القضايا التي تحدث باستمرار إما أن يوجد لها نص صريح من الكتاب
أو السنة أم لا ، فان وجد والا فالقواعد المستنبطة من نفس الكتاب أو من
نفس السنة تستخدم لايجاد الحكم الشرعي ، وقد حدثنا التاريخ - كما
أشار الى ذلك الاستاذ أحمد أمين في كتابه : ضحي الاسلام - حدثنا التاريخ
بثبوت تلاقي كثير من أولئك الائمة وأخذ بعضهم من بعض ، فمن ذلك أن
كتاب المدونة وهي من أمهات كتب المذهب المالكي ، والتي جمعها أسد بن
الفرات تلميذ مالك - قد طعمها وأثرها - أثناء وجوده بالعراق - بأراء علماء
العراق ، ثم رجع بها الى القيروان ، ومن ثم أخذها منه الامام سحنون
وعاد بها الى مصر لعرضها على ابن القاسم ، وأصلح منها مسائل وبوبها ،
ثم رجع بها الى القيروان ، ومنه انتشرت في اقطار المغرب ، كالاندلس وغيره ،
وأن محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة له رواية شهيرة لموطأ
مالك ، وله تأثير أيضا على مذهب أبي حنيفة النعمان ، ومعلوم أن علم أصول
الفقه الذي يقرأه الجميع من وضع الامام الشافعي .

انظروا أيها السادة كيف تأثرت المذاهب الاربعة بعضها ببعض ، وتعاونت
على تنظيم وتسهيل الاحكام الشرعية على عموم الامة الاسلامية ، وحقق
اولئك السلف الصالح بفضل اخلاصهم لله تعالى من توحيد الامة الاسلامية
والعروية ، وجمع شملها ، والتعاون على ابلاغ الدعوة الاسلامية الى البشرية
رغم بعد المسافة شرقا وغربا ، وحققوا ما لا يحلم به أهل عصرنا هذا ،
عصر الطائفة والاقمار الصناعية والصواريخ العابرة للقارات - والتلفزة والبرق ،
وغير ذلك من وسائل التقارب المادية وكثرة المؤلفات والمحاضرات والمجامع
العلمية ، والمؤتمرات ، الى غير ذلك مما لم يخطر ببال اولئك الائمة الذين

ليس لديهم من الوسائل المادية غير الايمان بالله تعالى والاخلاص لوجهه الكريم ، والرغبة الملحة في نشر تعاليم الملة المحمدية ، واعلاء منار الاسلام ، وقد كانوا صرحاء مع الخلفاء وولاة الامور ، فلا مؤاربة ولا نفاق ، ولا مهاودة في تنفيذ احكام الله ، فسعد الولاة بالعلماء ، وسعد العلماء بالولاة ، وتضافرت جهود الجميع في سبيل اعلاء كلمة الله ، فاعلى الله امرهم واستظلمهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، ويمكن لهم دينهم الذي اوتضيت لهم ، وبذل لهم من بعد خوفهم امنا ، وحققوا للمجتمع الاسلامي العربي من الخير ما تعذر تحقيقه على من بعدهم .

سبب اختيار المغاربة لمذهب مالك :

بقي علينا ان نتعرف الى الاسباب التي من أجلها تمذهب المغرب بمذهب امام دار الهجرة مالك رحمه الله ، دون سواه من المذاهب ، فأتقول ذاكرًا لبعضها ، ان من تلك الاسباب مرونة مذهب مالك وسهولته وتوخيه لرفع الحرج والمشقة ، وعنايته بتحصيل المصلحة ، ومنها ان الشباب المغربي الذين يسافرون في ذلك العصر لاداء فريضة الحج وزيارة دار الهجرة ، والمسجد النبوي ، والقبر الشريف يجدون الامام في الحرم المدني وهو في حالة التفرغ لا بلاغ دين الله للناس بواسطة من قصده من الطلبة أبناء الاسلام ، وهم من أولئك الذين يتوفرون على رصيد كبير من الاخلاص ، والتدين والفتنة والذكاء والامانة ، ومن الاسباب ما اشرت اليه في مقال قد نشرته مجلة الكلمة التي كانت تصدر بأكادير وذلك في عددها الاول ، وهو ان المغاربة من طبهم التحري التام ، وشدة التروي قبل اعتناق مذهب أو ديانة ، فلا يندفعون من أول وهلة حتى تنقشع عنهم كل الشبهات ، ووسائل الاحتمالات ، والمذاهب الاربعة وان كانت كلها على صواب وهي جميعها تغترف من بحر الشريعة المحمدية ، الا ان مذهب مالك في نظر المغاربة - هو من صميم الحق الذي لا يتوهم ان تحوم حوله أية شبهة ، وذلك لأمور منها أن مالكا رحمه الله استقر في دار الهجرة ومهد الاسلام ، ونقطة انطلاقه ، ومعايشة أهل المدينة - وعملهم صار من قواعد مذهب مالك - معايشتهم لصاحب الشريعة صلوات الله وسلامه عليه ، ومنها : ما عرف عن مالك من شدة التحري والتروي في نقل رواية السنة النبوية ، وما عرف عنه من بالغ التثبت في الفتاوي الفقهية ، مع كثرة اسناده الى الكتاب والسنة ، وقلة اعتماده على الرأي ، قال الشيخ الطالب بن الحاج : عقد عياض في المدارك بابا لترجيح مذهبه ، يعني مالكا ، وبيان الحجة لوجوب تقليده ، ورجح ذلك من طريق النقل ، والاعتبار .

قواعد مذهب مالك سبعة عشر :

ونذكر - في الختام - الأدلة وقواعد مذهب مالك التي بنى عليها مذهبه ، وهي سبعة عشر قاعدة ، أولها : نص الكتاب - القرآن الكريم - الثانية عموم دليله المعبر عنه بظاهر الكتاب .

الثالث : دليل الخطاب المعبر عنه بمفهوم المخالفة ، وهو يجري في الشرط والغاية والحصر والعدد والملة والوصف والظرف واللقب والاستثناء ، ودليل الخطاب حجة شرعية ما لم يكن له مانع شرعي .

الرابع : تنبيه الخطاب المعبر عنه بفحوى الخطاب ومفهوم الموافقة .

الخامس : مفهوم الكتاب ، والمراد بالمفهوم عنده دلالة الاقتضاء ، وهذه الخمسة من القرآن الكريم ، يزداد لها مثلها من السنة الصحيحة ، فتلك عشرة كاملة ، الحادية عشر : الإجماع . الثانية عشرة : القياس . الثالثة عشرة : عمل أهل المدينة . الرابع عشرة : قول الصحابي . الخامس عشرة : الاستحسان . السادس عشرة سد الذرائع . السابع عشرة : الاستصحاب .

ومن أراد مزيد ايضاح لهذه القواعد وتفصيلاتها وامثلتها فعليه بمنظومة الشيخ أحمد بن محمد بن أبي كف بشرحها ، عنوان الكتاب : ايضاح المسالك في أصول الامام مالك للشيخ يحيى بن محمد المختار بن الطالب عبد الله الشنقيطين ، رحم الله الجميع .

الا ان فقد العلم في فقد مالك
فلا زال فينا صالح الحال مالك

فلولاه ما قامت حقوق كثيرة
ولولاه لاكتسدت علينا المسالك

- أبو المعافى -

الاستاذ محمد عبد الكبير العلوي

محصل على شهادة دبلوم الدراسات الإسلامية العليا في الحديث
متخصص في الحديث .

(الملكة المغربية)

علماء شنقيط والمذهب المالكي

للاستاذ محمد عبد الكبير العلوي

عرفت شنقيط المذهب المالكي وتمسكت به أول ما اعتنقت الاسلام الصحيح على يد زعيمها الروحي الفاتح عبد الله بن ياسين الجزولي أحد فقهاء المذهب الذين أبلوا بلاء حسنا في نشر الاسلام واستئصال جذور الوثنية واللاحاد .

وكان عبد الله بن ياسين تلميذا لفقيه مالكي معروف بالزهد والصلاح هو الشيخ وجاج من علماء سوس وهذا أخذ أيضا عن أبي عمران الفاسي أحد شيوخ المذهب المبرزين .

وقد كانت الصحراء وبلاد السودان الغربي تعتنق الاسلام ولا تعرف عن فروع الشريعة الاسلامية ولا عن قضايا العبادات والمعاملات الا شيئا قليلا ، فلما قدم عبد الله بن ياسين اليها في القرن الخامس الهجري اراد ان يصحح عقائدها ويفقه ذوبها ويطبق فيها الشريعة الاسلامية ، فما كان منها الا ان ارتدت وخرجت على دعوته فانقطع رضي الله عنه للتوعية والتدريس واقام رباطا أمه المئات من الطلبة الذين أخذوا عنه المذهب المالكي وتكونت منهم النواة الاولى للدولة المرابطية .

ولما توفي عبد الله بن ياسين خلفه في الزعامة الروحية ونشر العلم والثقافة وفي منصب القضاء والافتاء الامام محمد بن الحسن الحضرمي الاغماتي دفن في أزوكي قرب مدينة آطار الحالية .

ولما توفي هذا الاخير خلفه قاضي مالكي آخر هو ابراهيم الاموي أحد علماء المذهب كذلك .

فمن هؤلاء الشيوخ الثلاثة من أقطاب المذهب أخذت قبائل شنقيط علمها وثقافتها .

وقد اشتهرت هذه القبائل بالدراسة والحفظ فكان الغلام فى قبيلة المجلسين يحفظ المدونة قبل بلوغه ، وكانت توجد فى قبيلة الجكنيين ثلاثمائة فتاة تحفظ الموطأ فضلا عن غيره من المتون .

وفى القرن السادس الهجري وصل الى شنقيط الشريف عبد المومن مؤسس قرية تيشيت وجد شرفائها ومعه الحاج عثمان جد بعض الاسر فى مدينة وادان وكانا قد قرءا على القاضي عياض وخرجا من أغمات .

فعلى هذين العالمين ايضا قامت حركة علمية واسعة .

ورغم انفتاحهم على العالم الاسلامي ورحلتهم السنوية الى الحج واتصالهم بمختلف الشخصيات العلمية التي تعتنق شتى المذاهب فانهم ظلوا يتمسكون بالمذهب المالكي ولا يقبلون به بديلا وكان لسان حالهم ينشد :

اتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكننا

اما هذا المذهب فقد استوعبوه ودرسوا اصوله وفروعه واستظهروا متونه المطولة والمختصرة ووضعوا على مختصراته مختلف الشروح والحواشي والتعليق ونظموا كثيرا منها .

ولا يمكنني أن استعرض فى مثل هذا العرض الموجز فهرس الشروح القيمة التي وضعها الشناقطة على مختصر الشيخ خليل وغيره من كتب المذهب ، الا أنني أشير الى بعض قليل منها :

1 - فمن ذلك مثلا شرح الحاج عثمان الواداني فى القرن التاسع الهجري المعروف بموهوب الجليل على مختصر خليل وهو شرح مهم .

2 - شرح والد الديمالي للمختصر ويعرف بمعين والد .

3 - شرح محنض بابا بن عبيد الديمانى ويعرف بالميسر الكبير ،
وله الميسر الصغير كذلك ، وكلاهما فى غاية الاهمية .

4 - شرح حبيب الله بن القاضي الايجيبي ويعرف بمعين
حبيب الله .

5 - الشرحان المهمان لوامع الدرر وثمان الدرر أحدهما للعلامة
محمد بن محمد سالم المجلسي وثانيهما لابنه العلامة عبد القادر بن محمد
سالم .

الى غير ذلك من شروح المختصر والرسالة وغيرهما من كتب
فروع المالكية .

ورغم ما كان بين القوم من تباين فى الآراء داخل المذهب ورغم
احتدام الصراع فى كثير من القضايا فان جمهور العلماء ومحققيهـم فى
شنقيط لم يجيزوا لانفسهم ان يحتجوا لرأي او يفتوا فى مسألة الا
بالمذهب المالكي .

واقدم كمثال على ذلك نازلة راجع الحبس التي وقع الخلاف فيها
بين نخبة من اكابر علماء شنقيط فى اوائل القرن الثالث عشر الهجري
حيث يقول شيخ الاسلام حرمة بن عبد الجليل العلوي (1) .

مراجعنا فى راجع الحبس قد غفل وساق نصوصا لا تساعد فـزل
رمى ما حكى المواق من قول مالك فاشوى مصاب القول فاستنوق الجمل

ويقول ايديج (2) من علماء شنقيط ايضا :

يا صاحبي قفا بالمنهل الصافي وسلما الحكم للقاضي بانصاف

الى ان يقول :

فحجة الشيخ فى بهرام ناهضة لو كان يكفيكما ما كان فى الكافي

- (1) توفي بعد الثلاثين من القرن الثالث عشر الهجري
(2) توفي حوالي الأربعين من القرن الثالث عشر الهجري

ويرد عليه العلامة بابا بن أحمد ييب العلوي (3) بقصيدة يقول فيها :

فحجتي وصحابي غير داحضة من نص بهرام والتوضيح والكافي
فمالك ان تصف عما يقول فا ني لست عن قوله يوما بصياف

ويرد العلامة محنض بابا بن عبيد الديماني (4) على اييج بقصيدة
يقول فيها :

رووه عن مالك نصا ووافقه نص الامام بن عبد البر في الكافي
والانقراض الذي يحجوه حجته اتى فى الام (5) لام نسلها ضاف

وهكذا يتشبت كل واحد من هؤلاء بالمذهب المالكي معتمداً على
مرجع من مراجعه فيحتج هذا بما رواه المواق من قول مالك ويحتج هذا
بما فى بهرام وما فى الكافي ويرد عليه هذا بما فى الكافي وما فى التوضيح
ويحتج هذا بما فى المدونة وما فى الكافي .

وتلك صورة واضحة عن تعلق القوم بالمذهب المالكي .

ومما يعطينا صورة عن تمسكهم بالمذهب المالكي ودفاعهم عنه ما
لقيه بن حبيب الله اليعقوبي من نقد وتجريح وردود قاسية من لدن كافة
العلماء فى بلادهم .

وقد كان لابن حبيب الله اليعقوبي (6) هذا نفوذ روحي كبير ومكانة
مرموقة بين علماء شنقيط حتى عدوه أحد أربعة علماء لم يبلغ أحد مبلغهم
فى شنقيط . فلما ظهر منه الميل الى الاجتهاد والاعتماد على غير فروع
المذهب اقيمت عليه الدنيا واقعلت ، ورمى بالضلال والابتداع حتى قال
مدافعاً عن نفسه :

لو كنت بدعيًا لما كان الصواب عندي الاحاديث الصحاح والكتاب

-
- (3) توفي بعد الاربعين من القرن الثالث عشر الهجري
(4) كان حيا الى حوالي منتصف القرن الثالث عشر الهجري
(5) الام هنا هي المدونة .
(6) توفي اوائل القرن الثالث عشر الهجري .

ومما انتقدوا عليه تساؤله الذي يقول فيه :

1 - ما وجه نسبة ما اخترعه الاربعة المشار الى اختراعهم بصفة الفعل وتردد المتأخرين لعدم نص المتقدمين واختلاف شراح المدونة فى فهم الفاظها ما وجه نسبة هذه الاقوال الى مالك وجعلها مذهباً له وبينه وبين قائلها مائتا سنة وزيادة الى ان يقول :

ومذهب الانسان ما صرح به ولم يرجع عنه الى ان مات لا ما قاله من ولد بعده بمائتي سنة .

2 - ما الفرق بين ابن القاسم والشافعي حتى جعلتم الاول من حملة مذهب مالك والثاني مذهباً مستقلاً وكلاهما شيخه مالك وكلاهما تابع مالكا فى مسائل وخالفه فى حياته فى مسائل .

3 - ما وجه تحريم الانتقال من مذهب الى مذهب بل ما وجه تحريم تقليد الاربعة دفعة واحدة .

4 - ما وجه مدحكم للخلاف وقولكم كل مجتهد فى الفروع مصيب ومن قلد عالماً لقي الله سالماً ، الاختلاف بين العلماء رحمة ، وقد ورد ذمه فى القرآن والحديث . قال الله تعالى : « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه » . الآية . وقال : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » وحبل الله كتابه كما جاء فى الحديث الى ان يقول فى تحريم الخلاف . قال الله تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا » . الآية . الى ان يقول وقال صلى الله عليه وسلم : (انه ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قيل فما النجاة منها يا رسول الله : قال كتاب الله) . الحديث . الى آخر كلامه فى هذا الصدد . ويبدو ان بعض علماء شنقيط قد قال بمنع الخروج من مذهب الى مذهب وهو ما لم اطلع عليه الا ان ذلك ما يفهم من كلام اليعقوبي هنا ، ولا غرابة فى ذلك فان تشبث القوم بالمذهب المالكي وتمسكهم بفروعه لا مزيد عليهما .

وقد انتدب للرد على ابن حبيب الله اليعقوبي سيدي عبد الله بن الفاضل المتوفى فى اواخر القرن الثاني عشر الهجري والى رسالتين فى

تفليله خصص احدهما للرد على آرائه فى علم الكلام والاخرى للرد على خروجه عن الفروع المالكية واستشكالاته المتقدمة على خليل ، ولم أقف منها الا على قوله : وأصحاب مالك الذين قد حث فيهم أكثرهم أهل القرن الثالث وآخر القرن الثاني كما انتدب للرد عليه أيضا علامة شنقيط محنص بابا بن عبيد الديمانى الذي ألف رسالة فى تفليله .

ولما مات رحمه الله انتقده شيخه المختار بن بونا الجكنى (7) . وقد خصص ألكنتى جزءا من رسالته جذوة الانوار للرد عليه حينما بلغه عنه انه قال :

ان مالكا انما ياتي بالاقوال الظنية .

وهكذا تعاملوا عليه رحمه الله مع علمه وورعه واتهموه بالابتداع والضلال مع صحة عقيدته وتمسكه بالكتاب والسنة .

وهكذا جلب عليه خروجه عن المذهب المالكي ودعوته الى الاستغناء عن كتب الفروع المجردة من الدليل محنة قاسية مما جعله يعيش وحيدا فى آرائه ونظرياته غريبا بين أهله وعشيرته .

ولا يمكننى فى مثل هذا العرض الموجز أن أتحدث عن كل الذين خدموا المذهب المالكي أو دافعوا عنه .

ولكنى أريد فقط أن أتعرض لذكر شخصيات قليلة امتازت فى خدمتها للمذهب المالكي برأى أو دعوة لم يشاركها فيها غيرها من علماء شنقيط .

سيدي عبد الله العلوي :

ومن هؤلاء سيدي عبد الله العلوي (8) الذي بذل النفس والنفيس فى تحصيل الكتب وجمعها والى ذلك يرجع الولاتى السبب فى رحلته (9) .

(7) هو شيخ المشايخ فى شنقيط وقد توفي اوائل القرن الثالث عشر الهجري .

(8) توفي سنة 1233 هـ .

(9) فتح الشكور فى اعيان علماء التكرور .

ويتحدث سيدي محمد بن سيدي عبد الله عن اكرام السلطان سيدي محمد بن عبد الله قدس الله روحه لوالده فيعد من ذلك خزانة الكتب النادرة التي لم تكن توجد قبله في البلاد (10) .

وتعطينا قصته مع امير مصر صورة عن ولعه وشغفه بالكتب المالكية حيث بالغ الامير في اكرامه واهدى اليه جوادا من عتاق مصر فاشترى به شرح الحطاب على مختصر الشيخ خليل (11) .

ومن أبرز خدماته للمذهب نظم الفيته في الاصول المالكية المسماة بمراقي السعود وشرحها القيم المعروف بنشر البنود وقد اجاد فيه وافاد ، واحيي به علم الاصول في شنقيط وفي ذلك يقول :

فمرادي فيه ان شاء الله ان اسهل ما استصعب واجلب كل منتخب من بحث معقول وعلم منقول حتى لا يعد له كتاب في الايضاح وتحرير الصواب فان هذا العلم مما الوت به الصبا والدبور وصار يبلى على مر الدهور ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

وقد أسدى بهذى الكتاب خدمة جليلة للمذهب المالكي لما جمع فيه من الأصول المالكية فتلقته المدارس بالقبول وعكفت على دراسته وجعلته الكتاب المعتمد عندها وفضلته على سائر الكتب المتداولة فى هذا الفن .

ويتحدث سيدى عبد الله عن أسباب تأليفه لهذا الكتاب فيقول :

هذا وحين قد رايت المذهبـا
وما سواه مثل عنقا مفـرب
أردت أن أجمع من أصوله
رجحانه له الكثير ذهبـا
في كل قطر من نواحي المفـرب
ما فيه نغمة لذي فصوله

سائر المذاهب للحديث الصحيح يوشك ان يضرب الناس اكباد الابل في طلب العلم ولا يجدون عالما اعلم من عالم المدينة وترجيح السلف الصالح له على مذهب غيره مع حسن تصرفه في كل فن من القراء والحديث والعربية والاصول وغير ذلك ، وايضا فان ما سواه من المذاهب مفقود في انحاء المغرب . اهـ .

وقد كاد ان يجعل فصل التقليد في الفروع مقدمة تمهيدية لترجيح مذهب مالك ، وحتمية تقليده حيث يقول : ان المفتي يحرم على غيره العمل بفتواه اذا لم تجتمع فيه ثلاثة امور : الدين والعلم والورع لعدم الثقة بمن عدت فيه خصلة من الثلاث ويعرف حصول تلك الامور بالاخبار المفيدة للعلم او الظن وكذلك اذا حصل العلم او الظن باشتهاره بها كانتصابه والناس يستفتونه .

الى آخر المبحث الذي يقول فيه :

اذا وقع التفاوت في العلم مع الاستواء في الدين والورع فان بعض العلماء يوجب الاخذ بقول الاعلم وان كان التفلوت في الورع والدين مع الاستواء في العلم تعين الادين لان لزيادة الدين والورع تأثيرا في التثبت في الاجتهاد وغيره .

وبعد ان ياتي بقول من اجاز تقليد المفضول مع وجود الفاضل ، ويقرر ان كل مذهب من مذاهب المجتهدين قد جعله الله وسيلة يتوصل بها الى دخول الجنة لان كلا منهم على هدى من ربه وان تفاوتوا في العلم والورع يقول :

وموجب تقليد الارجح وجب لديه بحث عن امام منتخب

ويشرح هذا البيت قائلا : يعني ان ابن القصار من المالكية وابن سريج والغزالي من الشافعية والامام احمد منعوا تقليد المفضول مع وجود الفاضل .

ويأبى الا ان يجعل مما تقدم من شروط المفتي وخلاف العلماء في جواز تقليد المفضول مقدمات يتبعها بنتائج ترجح تقليد مالك وترجيحه على غيره فيقول :

إذا سمعت فالامام مالـك صح له الشأو الذي لا يدرك

ويشرح هذا البيت قائلا : أى اذا سمعت أيها الطالب لعلم هذه المسألة وجوب تقليد الأراج من المجتهدين فاعلم أن الامام مالكا رحمه الله تعالى ثبت أن له الشأو أي السبق فى العلوم والفاية التي لا يدركها مجتهد غيره من عصر التابعين فمن بعدهم .

ويأتى بعد هذا البيت بيت آخر يرجح به مذهب مالك فيقول :

للأثر الصحيح مع حسن النظر فى كل فن كالكتاب والأثر

ويشرحه قائلا : يعني أن مالكا ثبت له الفضل على غيره ممن ذكر لأجل الحديث الصحيح ، يوشك أن يضرب الناس أكباد الأبل فى طلب العلم ولا يجنون عالما أعلم من عالم المدينة ، ثم ما ثبت له من حسن النظر فى كل فن من الفنون ككتاب الله العزيز وآثاره صلى الله عليه وسلم وكالعريية والاصول وغير ذلك مع جمعه لمسائل الاتفاق والاختلاف وهذا لا ينكره مؤلف ولا مخالف إلا من طبع الله على قلبه فى التعصب .

ويقول : وهو القدوة فى الحديث وأول من ألف فأجاد ورتب الكتب والابواب وضم الأشكال وأول من تكلم فى غريب الحديث وشرح فى الموطأ كثيرا منه وله فى تفسير القرآن كلام كثير مع تجويده له ووطب حروفه وروايته له عن نافع القارىء ، قال بعضهم :

ما رأيت أنزع بآية من مالك بن أنس مع معرفته بالمعمول به من الحديث والمتروك وسيرة الرجال .

هذا فى كتابه نشر البنود على مراقي السعود ، أما فى كتابه نيل النجاح على غرة الصباح فإنه وإن مال الى ترجيح الصحيحين على الموطأ أبى إلا أن يحكم بصحة مراسيله حيث نقل قول أبى زرعة : لو حلف أحد بالطلاق على أن ما فى الموطأ من حديث كان صحيحا لم يحنث ، ونقل كلام ابن حجر والسيوطي اللذين صححا ما قاله أبو زرعة ثم قال :

فاذا علمت ما تقرر علمت أن أقول شيخنا البناني بالحنث بما فيه من المراسيل غير صحيح .

وليس كتابه طرد الضوال والهمل عن الكروع فى حياض مسائل العمل الا دفاعا عن المذهب ودعوة الى التمسك به حيث رأى المنتسبين للعلم يفتون بغير المشهور اعتمادا على عادات وأعراف لا يقرها الشرع الحنيف وفى ذلك يقول : والعرف اذا لم يكن عن دليل فهو جهل لا يجوز العمل به .

ويدعو فى هذا البحث الى ما قاله الحطاب من ضرورة اجتهاد المفتي فى المفتق عليه من المذهب فان لم يجد فالأقوى من الخلاف فان لم يجد فالشاذ من المذهب فان لم يجد فليُنظر الخلاف خارج المذهب .

وهكذا يمنع عليه الافتاء خارج المذهب الا حينما لا يجد مندوحة عن ذلك فيتحتّم عليه الاخذ بأقوال العلماء خارج المذهب .

ويرد سبب العمل بغير المشهور الى أن شيوخ المذهب المتأخرين كأبي عبد الله بن عبيد وأبي الوليد بن رشد والقاضي أبي بكر بن العربي وأبي الحسن اللخمي وأقرانهم لهم اعتبارات وتصحيحات لبعض الروايات والأقوال عللوا فيها عن المشهور وجرى باختيارهم العمل بما اقتضته المصلحة .

وينقل سيدي عبد الله فى هذا الصدد أقوال علماء المذهب المتلخصة فى ضرورة العمل بغير المشهور مراعاة للمصلحة فاذا انتفت المصلحة وجب العمل بالمشهور والرجوع إليه .

ويرد على الفقهاء الذين تصدروا للتدريس والافتاء فافتوا بغير المعتمد من المذهب فيقول : فان معولهم مختصر الشيخ خليل وكم من مطلق فيه مقيد فى غيره وعام مخصص فى غيره وقد يمشی على غير المعتمد وأن كان قليلا فيقتصر الحافظ له بقوله مبينا لما به الفتوى وقد يخالف ما مشى عليه من المشهور ما به العمل وما به العمل مقدم على المشهور وكذا تراهم لا يعرفون المنطوق من المفهوم ولا النص من الظاهر ولا الصريح من المحتمل ولا صيغ العموم والإطلاق الى غير ذلك من الأبحاث الأصولية التي لا بد منها لكل فقيه .

وكما دعا سيدي عبد الله الى ضرورة معرفة أصول المذهب وقواعده فانه أيضا دعا الى ضرورة الحفاظ على فروع المذهب حيث يقول بعد

كلام فى نوازله : لكن العمل بالقواعد انما يكون بعد امعان النظر فى الفروع وعدم دليل على النازلة والا قدم العمل بما فى الفروع .

الشيخ المختار الكنتي :

ومن الذين خدموا المذهب المالكي خدمة خاصة ودافعوا عنه الشيخ سيد) المختار الكنتي المتوفى أوائل القرن الثالث عشر الهجري .

وقد عرف عنه كما يقول ابنه : انه كان يرد الفروع الى أصولها وما عرى منها عن أصل أظهر ضعفه وشذوذه وقد قامت على يده دعوة الى العمل بالكتاب والسنة وعرض أقوال الفقهاء عليهما كما اشتهر بالتعصب للمذهب المالكي وقد لخص مذهبه فى بائيته المشهورة التي يتحدث فيها عن تحصيل العلوم والاعتكاف عليها فيقول :

واياك ترضى باقتناص فروعها	بغير ارتشاف من مشاربها العذب
فان الاصول كالقواعد تقتضي	طمأنينة للقلب والنجاح بالارب
فمن لم يقيد بالكتاب علومه	بغى وطفى واستبدل البسر بالرطب
ولا تقتصر ان الحديث بيانـه	وتفسيره فقه الائمة لا الشعب

الى أن يقول :

ومن يترك الفقه المهلب رغبة	فقد رام تجهيلا وعن رشده يذب
ولكن تفقه وانتق الحق مذهبا	وميزه بالذكر الحكيم ولا تؤب
الى غير تحقيق من القول واضح	تداوله التحقيق والسلف النجب

فهو فى هذه القصيدة يدعو الى العمل بالكتاب والسنة وعرض اقوال الفقهاء عليهما ويحث على الاعتناء بالمتون الفقهية التي تعرض لها الائمة بالدرس والتمحيص فهذبوها وعلقوا عليها وبهذا يقف الكنتي موقفا وسطا بين تلك الطائفة من علماء شنقيط التي دعت الى الاعتماد على الاصلين الاساسيين كتاب الله وسنة رسوله ورفض كل قول من اقوال الائمة ومتقدمي الفقهاء لا يعتمد على دليل .

وبين تلك الطائفة التي منعت النظر فى الكتاب والسنة وقالت ان العمل بما فى المتون الفقهية المتداولة وحده السبيل المستقيم .

ويظهر تعصب الكنتي للمذهب المالكي فى نظمه الذي يقول فيه :

فاحكم بأن مذهب الامام	مرجح من لدن الاعلام
والافضل اتباع هذا المذهب	كما هي الحال بأرض المغرب
وما أتى قولا لاهل المذهب	ولم يكن قول امام المذهب
يفتى به ان وافق الاصولا	وان يخالف لم يكن مقبولا

الى آخر نظمه الذي يبرز مدى تعصبه للمذهب ودفاعه عنه ودعوته اليه .

وقد قال احد منافسيه هذين البيتين لما ألف الكنتي هداية الطلاب :

قبضت على ديني بنص خليل	وان لامني فى ذلك كل خليل
وان سألوني عن دليلي وحجتي	أقول خليل حجتي ودليلي

فأجابه الكنتي :

قبضت على ديني بهدي رسولي	وتلك لعمري حجتي ودليلي
تمسكت بالاصلين آيا وسنة	فلم اك أصفى فيهما لعذول
على انني والحمد لله لم اكـن	لاترك بين الناس نص خليل
فما هو الا جامع المذهب الذي	نماه الى الاصلين كل نبيل

ونجده كذلك يدافع عن أرجحية الموطأ فى الصحة على غيره من كتب الحديث فيقول فى أحد أنظامه المفيدة :

وأحكم بأن كتب الأئمة	جميعها نافعة مهمة
أما الصحيحان فذان فضلا	عند الهداة الاكرمين الفضلا
وكان بعض السادة الكرام	مفضلا موطأ الامام
وذاك ما أراه وهو الاصول	وهو السبيل الاقوم المحبوب
وقد أتى مصنف التمهيد	بوصله فى جامع فريد

صنفه فى وصله وجمعه فأسند الكتاب غير أربعة

ويدافع عن المرسل مشيراً الى أنه قد يكون أصح من المتصل فيقول:

وربما يكون ما قد أرسلنا أصح مما قد أتى متصلاً
لان من أرسل قد تكفلاً مؤكداً صحة ما قد أرسلنا
ومن أتى بسند متصل فقد أحالك عليه فاعقل

وهو رأي قال به بعض رجال علوم الحديث إلا أن الأكثر على خلافه
ولم يحمل الكنتي على القول به إلا دفاعه عن مراسيل الموطأ ، ولم يكن فى
حاجة الى ذلك لان مراسليه قد أسندها ابن عبد البر سوى الاحاديث
الأربعة التي أسندها غيره كما سيأتي بيانه فى محله أن شاء الله .

ويأبى الكنتي إلا أن يخصص جزءاً من رسالته جذوة الانوار للرد على
ابن حبيب لله اليعقوبي حيث يقول : وقد بلغني أن ابن حبل (12) طعن فى
مالك بن أنس امام الأئمة وعالم دار الهجرة وحامل لواء السنة وزعم أنه
انما يأتي بالاقوال الظنية كسائر المجتهدين وجميع الأئمة وليس كذلك
ولكنه الذي نص رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه بجوامع كلمه بقوله :
يوشك الناس أن يضربوا أكباد الأبل فلا يجدوا عالماً مثل عالم المدينة .
وبعد هذا الحديث يسوق الكنتي أقوال العلماء الذين ارتأوا أن
المعنى به مالك بن أنس رضي الله عنه ويقول :

فلما ثبتت من ولاية مالك رضي الله عنه بنص النبي صلى الله عليه
وسلم ولما ظهر على يديه من الخوارق وباجماع صالح المؤمنين على صدقه
وفضله وجب تصديقه والمصير الى قوله وتكذيب ابن حبل فيما قاله من
تكذيبه والطعن عليه صريحاً . ١ هـ

والحقيقة أن ابن حبل رحمه الله لم يكذب مالكا رضي الله عنه
وحاشاه بل أن غاية ما قال أن مالكا يأتي بالاقوال الظنية ، ومن المعروف

(12) ابن حبل هو الاسم الشائع الذي يطلق على ابن حبيب الله اليعقوبي .

أن الأحاديث التي لم تتواتر لا تفيد إلا الظن ولم يكن ابن حبل يقصده
بأقوال مالك ما رواه في الموطأ من الأحاديث المرسلة أو المنقطعة وإنما
يقصد كلامه في الموطأ وغيره من الأقوال المنسوبة إليه . ولكن الكنتي
لا يقبل أن ينزل كلام مالك إلى باقي الأئمة المجتهدين وهو قول متناه في
التقدير والاحترام والتلقي لكل ما يقوله مالك بالقبول والقطع .

ونجده حريصا على أن لا يعمل أو يفتي إلا بما له أصل في المذهب
حيث يقول في أجوبته المهمة : وأما قولك : وأما أصل بيعنا لهذا الملح
بالطعام نسيئة ، فالجواب أن المشهور في ذلك المنع إلا أن يكون يدا بيد
للحديث الوارد في الطعام وبعد اتيانه بهذا الحديث المشتمل على قوله
صلى الله عليه وسلم : والطعام بالطعام ربي إلا مثلا بمثل يدا بيد يقول
الكنتي معلقا على ذلك :

وفى مذهب مالك أن الملح سبيله سبيل الطعام لآتيان الشارع به في
نسق الرويات من الحبوب والثمار ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قد نص
في حديث آخر أنه مصلح للطعام وأن الطعام لا يصلح بدونه فكان بذلك
سبيله سبيل الطعام إلى أن يقول :

وذهب أبو حنيفة وبعض المالكية وبعض الشافعية إلى أن سبيله
سبيل النقدين الذهب والفضة فيمنع بيع بعضه ببعض نسيئة وفضلا
وليس ذلك فيما بينه وبين الطعام . إذ حقيقة الطعام ما تقوم به البنية
ويختل نظامها بعدمه وليس هذا الوصف موجودا في الملح بل هو سم
قاتل إذا أكثر الإنسان منه ولأنه جاء في نسق النقيدين لاتفاقه معهما في
المعدنية وكونه حجرا مثلهما وكونه لا يقتات ولا تقوم به البنية كما أنها لا
تقوم بهما مع أن قوام العالم بهما كما أن إصلاح الطعام ربما كان بالملح
وربما كان بدونه إلا أنه إذا كان المصلح من جنس الطعام غلب جانب
الربوية فيكون حكمه حكم الطعام كالفلل والتوابل وغير ذلك من مصلحات
الطعام فصار بيع الملح بالطعام باعتبار هذين المذهبين من باب الشبهات
فالورع تركه ومن اضطر إلى استعماله قلد هذا المذهب الأخير من غير
اتباع للرخص فيلحق الله بحجة ولا يكون مقتحما للنهي ولا خارقا لمذهب
مالك . فمن نظر إلى هذه الفتوى عرف شدة تورعه وحرصه على أن لا
يفتي إلا بمشهور المذهب ولولا القول المروي عن بعض المالكية لما قبل أن

يعتمد على ما ذهب اليه أبو حنيفة وبعض الشافعية ولما قبل الاعتماد على المصلحة المحققة فى هذه القضية بالنسبة لاهل الصحراء والسودان .

وقد تميز كتابه هداية الطلاب بتتبع خليل فى كل ما خالف فيه المشهور أو الراجح فى المذهب وزاد عليه بمسائل كثيرة .

الشيخ محمد محمود :

وممن عرف عنه الدفاع عن مالك الشيخ محمد محمود التركيـزي الشنقيطي (13) صاحب الصيت الذائع فى الشرق والغرب محدث شنقيط وأديبها ولغويها الكبير .

فقد حمل قلمه فى مسألة اعراب : ان لم يجد الا هي الواردة فى الموطأ فرد على القائلين بعدم جريانها على قوانين اللغة العربية رداً عنيفا تارة بالسبب والشتم شعرا ونثرا وتارة بالرد العلمي المدعم بالحجج والشواهد النحوية واللغوية .

وأصل هذا الخلاف ان اللكنوي من علماء الهند قد استشكل قول الامام مالك فى باب الايمان والندور من موطنه : وعليه هدي بدنة او بقرة أو شاة ان لم يجد الا هي فظنها خارجة عن قواعد اللغة العربية وتبعه فى ذلك تلميذه أحمد البرزنجي فألف فيها رسالة تسمى اصابة الداهي فى اعراب ان لم يجد الا هي يقول فيها :

قد وقع فى كلام الفرزدق ما هو وكلام الامام فى وجه الاعراب سيلن ومن حيث الاشكال متلوحان وذلك انه قال :

اليك أمير المؤمنين رمت بنا صروف النوى والهوجل المتعسف
وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال الا مسحت أو مجلف

وياتي البرزنجي فى رسالته هذه بوجه لاعراب ان لم يجد الا هي تتلخص فيما يلي

(13) توفي فى أوائل هذا القرن .

i - أن نقيسها على بيت الفرزدق الذي رفعوه بفعل محذوف دل على معناه الفعل المذكور وتقديره لم يبق وعلى هذا يكون الضمير الواقع بعد الا مرفوعا بفعل محذوف دل على معناه الفعل المذكور وتقديره لم يتيسر أو لم يحصل مثلاً لان معناه ومعنى لم يجد واحد كما أن معنى لم يدع أي يترك ومعنى لم يبق واحد عندهم لما بين الفعلين المذكور والمقدر في كل من الموضعين من اللزوم في التحقيق والثبوت فدلالة أحد الفعلين على معنى الآخر التزامية لا وضعية .

2 - أن نشغل العامل وهو يجد بفعل محذوف ونرفع هي بعد الا على انه مبتدأ حذف خبره ويكون التقدير ان لم يجد شيئاً أو هدياً الا هي موجودة اي لكن الشاة موجودة .

3 - أن نجعل يجد في العبارة المذكورة مسنداً الى ضمير الشاة ومفعول الفعل يكون ضميراً محذوفاً يعود على الشخص المعبر عنه بمن في أول الكلام ولا ينافي ذلك عدم تانيث الفعل .

وبعد ما كتب البرزنجي هذه الرسالة أرسل الى الشيخ سالم بوحاجب من علماء تونس فاستشكل هو أيضاً اعراب أن لم يجد الا هي وكتب فيها رسالة طويلة يقول فيها :

ان مالكا رضي الله عنه ليس من ارباب السليقة العربية الذين يلتزم في كلامهم عدم الحياة عن قوانينها بل هو من الائمة الذين يحتج بأقوالهم دون استعمالهم لكن حمل كلام مثله على موافقة قواعد اللسان واجب ما أمكن الى أن يقول :

وغاية ما يلزم انه لحن مالوف لا يتغير به المعنى وقد نصوا على ان الصلاة لا تبطل باللحن الذي لا يغير المعنى فأحرى في كلام البشر .

وقد حاول الشيخ سالم بوحاجب في هذه الرسالة ان يجد وجهاً تحمل عليه الكلمة وتتلخص رسالته الطويلة فيما يلي :

1 - أن تحمل على انابة ضمير الرفع عن ضمير النصب كما وقع عكسه في المقالة الزنبورية برواية الكسائي .

2 - أن يسلك بالعبارة طريقة التخريج على التوهم فيكون رفع الضمير في عبارة الموطأ مبنياً على توهم أن يجد نطق بصورة المبني للمفعول أي يوجد فارتفع الضمير بملاحظة ذلك التوهم .

وقد أورد مثالين للتوهم هما :

1 - قراءة من قرأ ومن وراء اسحاق يعقوب بنصب يعقوب قال : وذلك أنه لا يصح عطفه على اسحاق المجرور بالباء في قوله : وبشرناه باسحاق اذ يلزم عليه الفصل بين العاطف والمعطوف على مجرور وهو ممتنع فلا تقول مررت بزيد واليوم عمرو فلذلك قالوا بالتوهم واعتبروا كأنه قال بدل بشرناه وهبنا له لتقارب المعنى باعتبار القصد .

2 - قول الشاعر : لبيك يزيد ضارع لخصومة .

قال فان يبك بعد أن اخذ مرفوعه وهو يزيد نائب فاعل يجوز أن يلحظ بصيغته الأصلية فيرفع به ضارع على الفاعلية وبذلك يستغنى عن التقدير الذيذكرونه وان كان أوفق بالقواعد .

هذا ملخص الرسالة الطويلة التي كتبها الشيخ سالم بوحاجب في هذا الصدد وهي رسالة قائمة في معظمها على التوهم .

وقد كتب الشيخ محمد محمود التركي الشنقيطي عدة رسائل في هذا الصدد ، الاولى في الرد على البرزنجي يقول فيها :

قلت لم يصب احمر برزنج في قوله ان كلام الفرزدق في بيته وكلام الامام مالك في موطنه سيان ومن حيث الاشكال متناوحيان والله يعلم واولوا العلم يعلمون ان بيتي الفرزدق هذين هما وكلام الامام مالك الذي هو ان لم يجد الا هي ليسا في وجه الاعراب بمتساويين ولا نـم حيث الاشكال متناوحيان لان كلام الامام مالك ليس فيه اشكال أصلا وانما الاشكال في بيت الفرزدق وكيف يكون المشكل مساويا لغير المشكل الى ان يقول : هذا كلام سكران لم يصح من نشوة سكره وكيف يتصور رفع هي التي هي ضمير الشاة المنفصل بتقدير لم يتيسر او يحصل . وكيف

يقاس أو يناظر بين لم يدع في بيت الفرزدق المسند الى مسحت وهو اسم ظاهر بعده وبين ان لم يجد الا هي في كلام مالك المسند الى ضمير مستتر راجع الى ما قبله وكيف يتصور أن يرفع لم يتيسر أو لم يحصل على زعمه الدال عليه الفعل الذي قبله وهو يجد رافع الضمير المستتر معاذ الله أن يرفع المدلول عليه ضميرا مؤنثا بارزا ويرفع الدال عليه ضميرا مستترا مذكرا راجعا الى ما قبله ، هذا ما لا يقوله عاقل صاح ولا يصدر الا من حشاش مدمن المسكر ، ولا يسطره في الكتب مدعيا أنه كلام من العلم يعارض به كلام امام الأئمة مالك الا مجنون قد رفع عنه الشرع التكليف .

ويرد على قوله بجواز جعل يجد في العبارة المذكورة مسندا الى ضمير الشاة ومفعول الفعل يكون ضميرا محذوفا يعود على الشخص المعبر عنه بمن في أول الكلام .

فيقول : هذا كلام لم يتصوره قائله ولا يصح أن يتصوره سامعه لاختلاله ولعدم عقل قائله وكمال جهله وقلة فهمه .

وكتب رسالة ثانية يرد فيها على الشيخ سالم بوحاجب وغيره ممن لحن مالكا يقول فيها :

والصواب وهو الحق المتفق عليه أن ابا عبد الله مالك من الأئمة الذين يحتج بأقوالهم واستعمالهم فكلامه موافق لقواعد اللسان العربي لم يخرج عنها حتى يحتاج الى حمل حامل يحمله على وفاقها .

ويخصص جزاء من هذه الرسالة للحديث عن امامة مالك في اللفظة العربية واقتداء النحويين به حيث اخذوا عنه جمع دجال على دجاجة سماعا لا قياسا كما نقله عبد الله ابن ادريس الاودي وأبو حيان وغيرهما من أئمة النحو واللفظة .

ويتساءل الشيخ محمد محمود الشنقيطي كيف يمكن الاحتجاج بقول مالك دون استعماله اذ من الاحتجاج بالاقتوال الاحتجاج بالاستعمال .

وتثور ثائرته وهو يستعرض كلام خصومه فيصفهم بالجهل المركب وعدم المعرفة بصفات مالك الى ان يقول : كأنهم لم يسمعوا جوابه لمن

سار اليه من مسافة شهر ليساله عن مسألة فلم يجبه فطال عليه المقام فقال للامام مالك رضي الله عنه : ما أقول للناس سرت اليك من نحو مسافة شهر لاسالك عن مسألة واحدة فلم تجبني ، فقال له قل لهم مالك لا يحسن هذه المسألة وهو لا يتكلم بما لا يحسن .

وبعد حديث طويل في سيرة مالك ومناقبه وثناء السلف الصالح عليه يأبى الشيخ محمد محمود الشنقيطي الا أن يستثير العجب من أولئك الذين جراوا على تلحين مالك فيصفهم بالجهل والتخبط والهذيان ويجزم بأنهم اصحاب بدعة وهوى فيقول :

اذ من سيرته الدائعة بين اهل العلم والحق سلفهم وخلفهم انه ما عارضه ولا خاض في مخالفته الا ذو هوى وبدعة وزندقة .

وقد الف رسالة أخرى في اعراب ان لم يجد الا هي اشار في مستهلها الى انه لم يسبق لفطاحل العلم والادب وشيوخ الائمة وائمها الذين شرحوا الموطأ وتدارسوه وتعاطوه فيما بينهم ان تعرض واحد منهم الى اعراب هذه الكلمات ولا الى القول بأنها خارجة عن مقتضى الظاهر غير اللكنوي والبرزنجي والشيخ سالم بوحاجب ، وتتلخص رسالته الطويلة فيما يلي :

1 - ان هذه الكلمات الخمس قد اشتملت على جملتين : جملة فعلية شرطية وجملة اسمية لا محل لواحدة منهما من الاعراب لكونهما استئنافيتين ، فالكلمات الثلاث الاولى ان الشرطية ولم الجازمة ويجد الفعل المضارع اللازم المجزوم بلم هي الجملة الاولى الفعلية الشرطية وجواب الشرط محذوف استغناء عنه بالشرط لعلم السامع به لدلالة ما قبله عليه (14) .

وتفسير معنى فعل الشرط وتقدير الجواب ان لم يجد اي ان لم يستغن الناذر فعليه شاة فهذه الجملة الاسمية هي الجواب المقدر

(14) واستشهد على ذلك بقول ابن مالك :
والشرط يفني عن جواب قد علم والعكس قد ياتي ان المعنى فهم

المحذوف لدلالة ما قبله عليه وهو قوله : وعليه هدي بدنة أو بقرة أو شاة ان لم يجد الا هي ونظيره من كتاب الله تعالى قوله عز وجل : « ان ذكرتكم » هذه جملة شرطية حذف جوابها لفظا للعلم به استغناء عنه بالشرط لدلالة ما قبله عليه وهو قوله تعالى : « قالوا طائركم معكم ان ذكرتكم » وجملة الجواب المحذوف تقديرها تطيرتم .

2 - ان الا زائدة للتوكيد وقد احتج لذلك بقول ابن مالك :

والغ الا ذات توكيد كـ لا تمرر به الا الفتى الا الملا

واستشهد لفشو مجيئها هكذا في كلام العرب نظمه ونشره بعدة امثلة منها :

مالك من شيخك الا عمله الا رسيمه والا رمله

الشاهد في الا الثانية والثالثة زيدت الثانية قبل البدل والثالثة قبل المعطوف .

وما الدهر الا ليلة ونهارها والا طلوع الشمس ثم غيارها

وفول علقمة :

فلم ينج الا شطبة بلجامها والا طمر كالقناة نجيب
والا كمي ذو حفاظ كانه بما ابتل من حد الظباء خضيب

فالا الثانية والثالثة زائدتان .

ومن ذلك قول الشاعر :

حراجيج ما تنفك الا مناخة على الخسف او نرميها بلدا قفرا

فقد زيدت الا هنا على قول ابن جني قبل مناخة وهي منصوبة بتنمك .

ومن ذلك قول الفرزدق :

هم القوم الا حيث سلوا سيوفهم وضحوا بلحم من محل ومحرم
وقول الشاعر :

ارى الدهر الا منجنونا بأهله
وقول الشاعر :

الا هي الا هي فدعها فانها اناك وعيد دونها ونذور
الا هي الا هي فدعها فانما تمنيك ما لا تستطيع غرور

فالا زيدت هنا مرتين فى هذين البيتين قبل الخبر وهو هي ضمير
رفع منفصل مؤنث مثل زيادتها قبل هي فى عبارة الامام مالك المذكورة .

وبعد هذه الشواهد الشعرية يحتج لزيادتها بالآية الكريمة : « ومثل
الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي
فهم لا يعقلون » ، مدعما ذلك بتفسير ينسبه الى الشريف المرتضى فى
اماليه ملخصه ان المراد : ومثل الذين كفروا فى دعائهم الاصنام التي يعبدونها
من دون الله كمثل الذي ينعق دعاء ونداء بما لا يسمع صوته والدعاء والنداء
على هذا ينتصبان بينق والا توكيد للكلام ومعناها الالفاء .

ويحتج لزيادتها ايضا بالآية الكريمة الاخرى : « وجعلنا فى قلوب
الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء
رضوان الله » لقول ابن العربي فى الاحكام قوله تعالى : « ورهبانية
ابتدعوها ما كتبناها عليهم » من وصف الرهبانية وان قوله ابتغاء رضوان
الله متعلق بقوله ابتدعوها وقد زاغ قوم عن منهج الصواب فظنوها رهبانية
كتبت عليهم بعد ان التزموها .

ويختم الرسالة الطويلة فى هذا الصدد بان هي ضمير فصل مؤنث
راجع الى شاة فهي مبتدا حذف خبره جوازا للعلم به لدلالة ما قبله عليه
وتقديره عليه ، كدلالته على جملة جراب الشرط السابق ذكره وتقدير
جوابه وهو ان لم يجد فعليه شاة وجملة هي عليه هذه هي الجملة الثانية

من الجملتين اللتين اشتملت عليهما الكلمات الخمس اللواتي هن ان لم يجد
الا هي (15) .

هذا ملخص رسالته الطويلة في هذا الصدد .

ولم يكتف الشيخ محمد محمود بالرسائل التي كتبها ردا على خصومه
دفاعا عن مرتبة امام الائمة وانما اضاف الى ذلك قصائد كثيرة مستجادة
هاجمهم فيها واقدح في انتقادهم ونقدتهم وتجريحهم معا لا يتسع المجال
لعرضه الان .

ومن ذلك قوله في احدى هذه القصائد وقد بلغ منه الغضب مبلغه :

لقد احدثتم في العلم زيفا	تجاوزتم بع السبع الطباقا
قدفتهم مالكا اثما وقدمنا	ابد العالمين هدى وفاقنا
رميتهم مالكا بالالحن زورا	فسوقا كان منكم او نفاقنا
تخذتم علمه لعبا ولهوا	وتفترقون في اللعب افتراقنا
فحرفتمم والفتمم هراء	على اوراقكم حبرا مراقنا

الى ان يقول :

نشرتكم افككم ثم اضجعتكم وعاقبتكم جهالتكم عناقنا

ويقول في قصيدة خاصة بالبرزنجي وقد ثارت ثائره لتلحين مالك
رضي الله عنه :

بل انت احمر برزنج الذي ظهرت	للناس سوءته مكشوفة الحجب
اذ صلت صول عم كذابة اشبر	ملحننا مالكا سكران ذا طرب
وعنك اعرضت حينما كي تنيب الى	صدق وترجع عن افك فلم تنيب

(15) وقد استشهد على جواز حذف الخبر بقول ابن مالك :
وحذف مالم يعلم جائز كما تقول زيد بعد من عند كما

وقد لقي الشيخ محمد محمود هذا من خصومه وجزاء دفاعه عن مالك
محنة قاسية واخرج من المدينة المنورة فاستقر بمصر وهو يحسن الى
الحجاز وإلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول في إحدى
قصائده :

أحن الى الرسول فيعتريني	إذا ليلي دجاما يعتريني
فيتقد اشتياقي في فؤدي	فيطربني اليه ويزدهيني
أن على المهاد بعيد وهن	فيزعج من يضاجعني أينني
إذا ما الليل جن علي وحدي	أوه آهة الوصب الخزين

حبيب الله الشنقيطي :

ومن هؤلاء حبيب الله بن ما يابى الجكني الشنقيطي (16) فقد ألف
في الدفاع عن الموطأ وترجيحت وأثبت صحته على سائر كتب الصحاح
حيث نظم نظمه دليل السالك الى موطأ الامام مالك ووضع عليه حاشية
مختصرة سماها اضاءة الحالك على دليل السالك .

وقد افتتح نظمه هذا بأبيات يلخص فيها ما سار عليه كثير من
المنتسبين للعلم من تأخير الموطأ عن رتبة الصحيحين في الصحة حتى أن
بعضهم أخره عن كتب الحديث الستة وحتى غدا البعض بعده من جملة
الكتب الضعيفة .

ويرد حبيب الله الجكني الشنقيطي هذا المذهب الشائع الى موقف
ابن الصلاح الذي جعل أول من ألف في الصحيح محمد بن اسماعيل
البخاري وقيد قول الشافعي في الموطأ بأن ذلك قبل وجود الصحيحين
ففسأ هذا القول بفشو مقدمة ابن الصلاح واقبال الناس عليها وتلقاه بعد
ذلك الحافظ العراقي ونشره في الفيته التي لقيت هي أيضا اقبالا منقطع
النظير وجاء بعد ذلك ابن حجر الذي قلده صاحب المقدمة وتبعهم في ذلك
سيدي عبد الله العلوي في غرة الصباح .

(16) كان حيا الى منتصف هذا القرن .

وبعد استعراض هذه الأقوال يبدأ حبيب الله في تقديمها والرد عليها
ليثبت صحة الموطأ وأرجحيته على غيره من كتب الصحيح بما فيها
الصحيحان ، ويأتي في هذا النظم بمقدمة يثبت فيها أن أول من ألف في
الصحيح الإمام مالك فيقول :

أول من ألف في الصحيح مالك الإمام في الصحيح

ويعلق على هذا البيت في اضاءة الحالك بأن قول العراقي :

أول من ألف في الصحيح محمد وخص بالترجيح

قول مردود عليه وقد رجع عنه ابن حجر في نكته على الفية العراقي.

ويأتي بفصل خاص بصحة الموطأ وبيان أن المتصل فيه أخرجه
الشيخان غالباً أو أحدهما أو جميع الكتب الستة إلا ندورا كحديث
الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله .

وبعد أن ذكر أخراج الكتب الصحيحة لمراسيله واسناد ابن عبد
البر لما فيه من البلاغات وشبهها الا أربعة أحاديث يأبى الا أن يؤكد صحة
هذه الأحاديث فيعزو الى شيخ الجماعة بغاس العلامة محمد كنون صاحب
التعليق على الموطأ أن قصور المتأخرين عن وجود هذه الأحاديث موصولة
غير قاذح في صحتها لاحتمال عثور الأقدمين على سند متصل لها ويعزو
الى الشيخ صالح الفلاني اتصال أسانيد هذه الأحاديث حيث يقول صالح
الفلاني في حواشيه على الشيخ زكريا الانصاري في شرحه لالفية العراقي:

وما ذكره العراقي من أن من بلاغاته ما لا يعرف مردود بأن ابن عبد
البر ذكر أن جميع بلاغاته ومراسيله ومنقطعاته كلها موصولة بطرق صحاح
الا أربعة أحاديث وقد وصل ابن الصلاح هذه الأربعة في تأليف مستقل
وهو عندي وعليه خطه فظهر بهذا بأنه لا فرق بين الموطأ والبخاري ،
وضح أن مالكا أول من ألف في الصحيح كما ذكره ابن عبد البر وابن
العربي القاضي والسيوطي ومغلطاي وابن ليون وغيرهم . ه . .

ويلق حبيب الله الشنقيطي على هذا الكلام قائلا : والمعجب من ابن الصلاح رحمه الله كيف يطلع على اتصال جميع أحاديث الموطأ حتى أنه وصل الأربعة التي اعترف أن عبد البر بعدم الوقوف على طرق اتصالها ومع هذا لم يزل مقدما للصحيحين عليه في الصحة مع أن الموطأ هو أصلهما ، وقد انتهجا منهجه في سائر صنيعه وأخرج أحاديثه من طريقه وغاية أمرهما أن ما فيهما من الأحاديث أزيد مما فيه .

ويقول : وقد صرح ابن مرزوق الأكبر المعروف بالجد في كتابه جني الجنيتين بعد أن تكلم على أحاديث مالك الأربعة التي لم يسندها ابن عبد البر وهي في الموطأ بما نصه :

توهم بعض العلماء أن قول الحافظ أبي عمر ابن عبد البر يدل على عدم صحتها وليس كذلك إذ الانفراد لا يقتضي عدم الصحة لا سيما من مثل مالك وقد افردت قديما جزءا في أسناد هذه الأربعة الأحاديث هـ .

ثم بين أن الحافظ ابن أبي الدنيا قد أسند اثنين منها في إقليد التقييد ولم يعينهما هنا .

ويأتي حبيب الله الشنقيطي بأبيات يقول فيها :

فبان من ذا أنه ليس أصح منه البخاري ولا عنه رجع
كمسلم لكن الدين أشتهرا بجمع ما فيه وريد كثر

فيرد شهرة البخاري ومسلم إلى جمعهما ما في الموطأ وزبادتهما
عليه لا إلى الصحة والترجيح .

ويأتي بأبيات محصلها أنه إذا كان كل ما اتصل استاده في الموطأ قد أخرجه الشيخان أو أحدهما يكون القائل بصحتها عليه متعصبا إذ لا يمكن أن يكون الشيء أصح من نفسه .

ويعقد فصلا في رد دليل ابن حجر ومن وافقه على أصحية صحيح البخاري على موطأ الإمام فبأي في بابها محصلها أنه إذا كان الإمام مالك لم يجرد الصحيح .

حيث أدخل في كتابه المراسيل والمنقطعات وكذلك البخاري لما فيه من التراجم والمعلقات المذكورة في متن الصحيح .

ويدعم هذا القول بما نقل عن علاء الدين مغلطاي من أنه لا فرق بين الموطأ في مراسيله ومنقطعاته وبين البخاري في تراجمه ومعلقاته .

ويدعمه أيضا براي ابن مرزوق أن الصواب إطلاق قول الشافعي في الموطأ وإبقاؤه دون تقييد بما قبل وجود الصحيحين حيث يقول - أي ابن مرزوق في نظمه - في علوم الحديث :

وقول شافعيما أصح ما	بعد كتاب الله من تحت السما
موطأ لمالك قد أولا	لأنه قبلهما قد جعللا
قلت بل الصواب إطلاق الامام	أذ مالك نجمهم على التمام

ويعزو الشنقيطي إلى كل من ابن عبد البر وابن العربي والسيوطي اختيار أصح الموطأ على ما سواه ويعزز ذلك بقول ابن ليون التجيبي في الفيته :

وعلم الصحة للبخاري	ومسلم تاليه لاتمـ
ثم الموطأ وهذه الصحاح	جزما وذا ترتيبها لابن الصلاح
ومسلم بالغرب قد يقدم	كذا الموطأ بعضهم يقدم

فأفاد حكاية بأن الموطأ أصح من الصحيحين .

وينهي الشنقيطي هذا الفصل بأبيات يشرحها في إضاءة الحالكم ويذكر فيها أقرار ابن حجر بالعجز عن تصحيح بعض ما في البخاري ورجوعه عن أصح البخاري على الفوطا وموافقته لمغلطاي بأن ما في الموطأ من المراسيل والمنقطعات يشبهه ما في البخاري من التراجم والمعلقات .

ويأتي بفصل يذكر فيه الاحتجاج بالمرسل ليشير إلى أن مالكا لم يكن وحده الذي يحتج بالمرسل ، فأبو حنيفة يحتج به وأحمد في إحدى

الروايتين عنه ، وأما الشافعي فيحتج به إذا اعتضد بعاضد وذلك ما يتوفر في الموطأ الذي لم يبق فيه مرسل الا وقد اتصل اسناده .

وقد قال الشافعي قوله فيه وهي قولة دالة على قوة ما راسل من الموطأ لان الشافعي لا يقبل من المراسيل الا ما كان له عاضد ولانه قد قرأه على الامام مالك فلا يمكن أن يجهل ما فيه من المراسيل فاطلاق الشافعي الصحة في الموطأ دليل قوي على اتصال مراسيله عنده .

وبعد بحث طويل في هذا الصدد يورد حجة القائلين بأن البخاري لا يذكر المعلقات للاحتجاج بها بخلاف مالك المحتج بالمرسل فيرد عليهم بأنه لا يعقل أن يورد ذلك غير محتج به بل الحق والصواب أن كل واحد ذكر ذلك محتجا به .

ثم يشير الى أنه لم يصرح واحد من هؤلاء بشرط في كتابه وان ما حصل من ذلك ما حصل بالاستقراء وبجزم أنه لا فرق بين ايراد مالك للمرسل وللمتقطع محتجا بهما وبين ايراد البخاري للترجمة والمعلق محتجا بهما .

وفي معرض صحة الموطأ يقول :

ومن بأيمان الطلاق قد حلف أن صح ما فيه بحث ما اتصف

ويعلق على هذا في اضاءة الحالك فينقل عن الزرقاني ما نصه :
ورجح ابن يونس قول ابن القاسم ولا حنت على من حلف على صحة جميع ما في الموطأ ويبحث في غيره . هـ .

وينقل عن سيدي عبد لاله بن الحاج ابراهيم العلوي عدم حنت من حلف على صحة ما في الموطأ .

ويعقد فصلا في زيادة الادلة التي اوجبت له الترجيح والتقديم مشيرا الى أن سلف الامة قبل ابن الصلاح قد جعله أصح كتب الحديث وأرجحها وحتى بعد ابن الصلاح لقول مغلطاي السابق وابن حجر والسيوطي وغيرهم فيقول :

حازت أصول العلم والبراهـ
وبعضهم قال له الترجيح
مما ابتداء للبخاري نسبه
من أهل الاجتهاد عصر انقضى
والرأي الاختصار في العبارة
وشيخه ومن رأيه انتصر
رجوعه عما عليه عـولا

واطلقت صحتـه جماعـه
قالت موطأ مالك صحيح
واعترضوا ما ابن الصلاح انتخبه
وهو الصواب وعليه قد مضى
وقد تقدمت لذا الاشـاره
لكننا كنا حجبنا ابن حجر
وقد تقدم الذي دل على

الى أن يقول :

منغلطاي سابق لابن حجر
ثم السيوطي بعد نجل حجر
والشافعي قبل كل رجحه
منتقدا ما ابن الصلاح قد ذكر
عاش ورده بتحقيق حـري
وأحمد ابن حنبل قد صححه

ويتعرض في هذا الفصل الى الذين تعصبوا للبخاري وجعلوا رفع
الموطأ الى رتبته خطأ للبخاري فيقول :

ورب ذي خلف لنا تعصبا
كان في تسوية الموطأ
وعن سوى نهج اللجاج قد أبى
مع البخاري للبخاري خطأ

الى غير ذلك من الفصول التي اوردها في هذا النظم مع التعليق
عليها بشرحه المختصر دفاعا عن المذهب المالكي وانتصارا للموطأ .

وقد لقي دليل السالك هذا وشرحه اضاءة الحالك اقبالا من لدن
رجال الحديث في الشرق والغرب وتلقته طائفة من متبصري العلماء
بالقبول اعترفوا بأصحية الموطأ على ما سواه من كتب الحديث وعادوا الى ما
كان عليه السلف قبل ابن الصلاح وتقاريط الكتاب خير شاهد على
ذلك .

تلك بعض الشخصيات الشنقيطية التي امتازت بالدفاع عن المذهب
وامامه ، فنالت بذلك شهرة واسعة واكتسبت نفوذا علميا في شنقيط .

وأود قبل اختتام هذا العرض أن أذكر بعض المسائل التي خالفوا فيها مشهور المذهب وهي :

1 - قراءة الحزب جماعة ، قال سيدي عبد الله حينما سئل عن ذلك : انما يعمل بالضعيف لمصلحة اقتضت في نظر مجتهد المذهب ترجيحه على المشهور ، والمصلحة سماع العام والخاص كلام الله فيلين القلب القاسي ويتذكر الغافل والناسي مع ما فيه من وفور الاجر وانحطاط الوزر الى ان يقول : وقد عمرت بقراءة الحزب المساجد في المشارق والمغارب ووقفت عليه الاوقاف واجريت عليه الخراجات والامة لا تجتمع على ضلالة .

2 - قراءة البسمة في الصلاة : فان منهم من نظر الى قول مالك بكراهتها وقول الشافعي بوجوبها فقرأها سرا ومن علمائهم من قراها جها ، وقد تركها كثير منهم سرا وجهرا اقتداء بقول مالك رضي الله عنه :

3 - القبض والرفع : وقد عرفت شنقيط الارسال منذ عرفت المذهب المالكي ومنذ انتشر فيها مختصر الشيخ خليل وظل القبض والرفع فيها مهجورين لا يكاد يعمل بهما الا اشخاص قليلون حتى كان عهد باب ابن الشيخ سيديا في أوائل هذا القرن فدعا اليهما قائلا :

القبض والرفع مما صح من سنن عن النبي بلا نسخ ولا وهن فلا تكن يا صحيح العقل متبعا آثار أشياء لم تخلق ولم تكن

وفي منتصف هذا القرن الف شيخ الاسلام الشيخ ابراهيم انباس كتابه في القبض والرفع المسمى (رفع الملام عن قبض أو رفع اقتداء بسيد الانام) فكان له تأثير قوي وتلقته نخبة من اجلاء العلماء واقبلت على العمل به جماهير غفيرة .

والف بعد ذلك الشيخ محمد بن أبي مدين رحمه الله كتابه المسمى (الصوارم والاسنة في اللب عن السنة) .

وهو كتاب دعا في مقدمته الى العمل بالكتاب والسنة وعرض اقوال العلماء عليهما وخصص الجزء الاكبر منه الى قضية البسمة والقبض والرفع .

وقد انقسم علماء شنقيط حول مسألة القبض والرفع الى الطوائف التالية :

الاولى : طائفة اعترفت بسنيتهما ودافعت عن ذلك وطبقته وعملت به ولم ترض ان توصف بالخروج عن المذهب المالكي في هذه المسألة فقالت : ان القبض هو الراجح في المذهب المالكي اعتمادا على ما في الموطأ وما في الكافي لابن عبد البر وما في غيرهما من كتب المذهب .

واذكر على سبيل المثال في هذا الصدد قول العلامة احمد محمود بن العباس العلوي مقرظا رفع الملام :

يا امة المصطفى هل بعده رسل	جاءوا لتتبع ما قصوا وما اثروا
ان لم يكن بحديث المصطفى عمل	لم تلف فائدة في الكتب تعتبر
ولو فرضنا بأن الفرع طاقتنا	بل ما لنا غيره والاصل مفتقر
ليس قال بدا في كل طائفة	احبارها وأولوا احكامها الاخر

ونجد الشاعر محمد عبد الله بن السيد يقول عن رواية ابن القاسم المذكورة في المدونة والتي جعلوها حجة تقابل ما جاء في الموطأ من احاديث القبض :

ورواية بن القاسم المدلى بها	ابدى الدليل سقوط مدلولاتها
اذ مالك يرويها اي رواية	بأبغ سبل الطعن بعد ابانتها

ونجد علامة شنقيط وأستاذها ومؤرخها المختار ابن حامد الديماني يقول :

القبض والرفع عن خير الوري ثبنا
الى ان يقول :
وضحه قبضوا قطعاً كما رفعوا

ومالك جاء عنه القبض مثلهم والرفع فهو لهم في دينكم تبع
اذ مالك نهجه قفو النبي فلا تراه عن قفوه ينهى ولا يسزع
فلم يخالف رسول الله مالكننا حاشاه بل لرسول الله يتبع

فهؤلاء ممن تأكدت عنده سنية القبض والرفع فعمل بهما .

ثانيا : طائفة اعترفت بسنية القبض الا ان تشبثها بالمشهور من
المذهب جعلها تلتزم الارسال وتترك القبض ، واذكر على سبيل المثال من
هذه الطائفة علامة العصر ونادرة الدهر الداعي المجدد الشيخ محمد عبد
الرحمن بن السالك العلوي الذي يقول مقرظا رفع الملام :

القبض عنه من الملا رفع الملا م فلا ملام عليه من بعد الملا

الى ان يقول :

واقبض او ارفع كل ذلك سنة عن خير من بالدين ارسل مكملا

ورغم هذا الافتناع والاعتراف بسنية القبض والرفع فانه مع ذلك
ظل رحمه الله متشبثا بالارسال لا يكاد يقبض ولا يرفع ، تمسكا بالمشهور
من المذهب المالكي والتزاما بما عليه السواد الاعظم من المنتمين للمذهب .

وخلاصة هذا العرض ان علماء شنقيط قد التزموا المذهب المالكي
وتشبثوا به ولم يقبلوا به بديلا ، فان خرجوا عن مسألة فرعية منه اعتمدوا
على اصل من اصوله ، وان عملوا بغير المشهور لجأوا الى مقابل ترجمه
مصلحة اقتضت ذلك وان ظهر من بين علمائهم من يميل الى التحرر من
التقليد ورفض الفروع المجردة من الدليل انهالوا عليه بالنقد والترجيح
وبدعوه وضللوه .

الاستاذ ابراهيم ابن الصديق

محصل على اجازة فى الشريعة ودبلوم الدراسات
الاسلامية العليا ، متخصص فى الحديث وعلومه .
(الملكة المغربية)

مالك الحديث

بقلم : الاستاذ ابراهيم ابن الصديق

تقديم

أضفى رسول الله صلى الله عليه وسلم على المحدث الثقة ، حلة من الجمال والرونق والوجاهة في الحديث الذي رواه الائمة : أحمد في المسند ، ولترمذى ، وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه والرمهرمى والخطيب في شرف أصحاب الحديث ، وابن عبد البر في ، جامع بيان العلم ، وغيرهم ، عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم أن النبی صلى الله عليه وسلم قال : ، ، نضر الله امرأ سمع مقالتي ، أو سمع منا حديثا ، فحفظه ووعاه وأداه كما سمعه))

ومعنى النصارة التي خص بها صلى الله عليه وسلم حامل حديثه ، هى الحسن والبجعة ورفعة القدر والمنزلة بين الناس حتى يبرى عليه رونق الرخاء والنعمة . قال سفيان بن عيينة : ، ، ما من أحد يطلب الحديث الا وفي وجهه بهجة صورية أو معنوية لقول النبی صلى الله عليه وسلم : نضر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه .

ولا خلاف - فيما أعلم - بين من فسر هذا الحديث من العلماء أن المراد بدعاء النبی صلى الله عليه وسلم بالفضلة التي بينوا معناها بحسب ما تقدم ، هو المحدث . وإذا كانت معانى النصارة تكتمل في محدث باجماع الاراء ، ففي الامام مالك بن أنس المحدث الحافظ الثقة ، الذي لم تتفق الامة على توثيق رجل في الحديث سواء ، اذ من المعلوم أن مدراك النقاد في تقديم للرجال متفاوتة ، والاسباب الحاملة على التليين متعددة ، وان كان المحدثون قد وضعوا مقاييس دقيقة ، وقواعد ثابتة ، لا يسمع بمقتضاها كلام من تكلم

في مثل الزهري وعلي بن المديني والشافعي وعبد الرزاق ، والبخاري وغيرهم من الائمة الكبار ، الذين لم يسلم واحد منهم من ناقد ولو أن كلامه غير مقبول فيهم بحسب أصول أهل الحديث ، فإن مالك بن أنس هو المحدث الوحيد الذي يستثنى من الاختلاف بين النقاد حوله ، وقول ابن اسحاق : « اعرضوا على علم مالك فأنا ببيطاره » لم يعتبره أهل الصنعة بمقاتيلهم كلها طعنا ولا تجريحا ، ولذلك قال الحافظ الذهبي - وهو من أهل الاستقراء التام في ، تذكرة الحفاظ ، : « وقد اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لغيره ، وذكر منها : اتفاق الامة على أنه حجة صحيح الرواية ، وتجمعهم على دينه وعادته ، . وقبله قال الامام النوري في « تهذيب الاسماء واللغات » : واجتمعت طوائف العلماء على امامته وجلالته وعظم سيادته وتبجيله وتوقيره ، والاذعان له في الحفظ والتثبيت وتعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، .

فباجتماع الراء يمكن اعتبار الامام مالك هو المحدث الاكمل ، والحافظ الاكمل ، الذي استحق عن جدارة لقب « أمير المؤمنين » في الحديث ، كما أطلق عليه أقرانه من الحفاظ . فكان تجسيما للنضارة التي تجمع أوصاف البهاء والكمال الجسماني والخلقى طبقا لما نعت به المشرع الاعظم صلوات الله وسلامه عليه .

وهكذا اوصف الامام مالك بالوسامة والجمال التكويني الذي يلزم في الغلب راحة العقل وجودة التفكير ، وحاز من الجلالة والهيبة والوقار ما لم يحزه غيره من العلماء حتى كان كالسلطان له حاجب يأذن عليه ، وقال الاخزون عنه : انه أشد من الملوك وقد تربع على كرسي المجد بالمدينة نحو ستين سنة ، أسند ابن أبي حاتم في « تقدمه الجرح والتعديل » عن أبي مصعب تلميذ الامام قال : « كانوا يزدحمون على باب مالك فيقتتلون على الباب من الزحام ، وكنا نكون عند مالك فلا يكلم ذا ، ذا ، ولا يلتفت ذا الى ذا ، والناس قائلون برؤوسهم هكذا ، وكانت السلاطين تهابه وهم قائلون مستمعون ، وكان يقول في مسألة : لا ، أو نعم ، ولا يقال له من أين قلت ذا ، .

وخلق بهذا الذي اقترن اسمه بالحديث النبوي ، ونال بخدمته غاية الشرف والمجد ، أن يكون سيد من يكرمه ويجله ، إذ لم يبلغ أحد من الاعزاز للحديث والاعتزاز به مبلغ الامام مالك ، كان في مرحلة طلبه للعلم اذا وجد حلقة احد شيوخه غاصة ولم يجد مكانا للجلوس انصرف اجلالا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمعه أو يكتبه وهو واقف ، وبعد تصدده للحديث لم يكن يسمع في شارع ولا في مكان عام ، وإذا استشعر من تلميذ سوء أدب مع الحديث النبوي أخرجه من مجلسه ، وهو الذي أبى الانتقال الى الخلفاء ليسمعوا عليه الحديث ، وأصر على حضرهم اليه ، أكراما للفظ النبوي أن يمتن أو يحط من قيمته ، ولم يكن يبرز ليقرا عليه الحديث الا وهو على اكمل هياة وأحسن سميت ، ويجلس هو ومن يحضر مجلسه على الضجاع

والنماز الفاخرة ، يقول تلميذه مطرف بن عبد الله : ،،كان مالك اذا أتاه الناس خرجت اليهم الجارية فتقول لهم : تريدون الحديث أو المسائل ؟ فان قالوا المسائل خرج اليهم فاتاهم ، وان قالوا الحديث قال لهم اجلسوا ، ودخل مغتسله فاعتسل وتطيب ولبس ثيابا جندا ، ولبس ساجه ، وتعمم ووضع على راس طويلة ، وتلقى له المنصة ، فيخرج اليهم وقد لبس وتطيب وعليه الخسوع ، ويوضع عود فلا يزال حتى يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال خالد بن نزار : ،، سألت مالكا عن شيء وكان متكئا فقال حدثني يحيى بن سعيد بن المسيب ، ثم استوى جالسا وتجل بكسائه فقال : استغفر الله ، فقلت له في ذلك ، فقال ، ان العلم أجل من ذلك ، ما حدثت عن رسول الله وانما متكى ،، ويذكر القاضي عياض في ،،المدارك ،، عن عبد الله بن المبارك قال : ،،كنت عند مالك وهو يحدثنا فلدغته عقرب ست عشرة مرة ، ومالك يتغير لونه ويصبر ولا يقطع حديثه ، فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس ، قلت يا أبا عبد الله : لقد رأيت اليوم منك عجبا ، قال : انما صبرت اجلا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا كان مالك قد أحاط الحديث الشريف من الناحية المظهرية بالاعزاز والتكريم اللذين رثينا جزءا صغيرا منهما ، والا فترجمته حافلة بالكثير من النماذج ، فهو من ناحية المخبر ، وهي الراجعة الى حفظه وتوثيقه وانتقاء روايته واختبارهم ، أشد تكريما ، واكثر تضحية من لدع المقرّب .

ومن هذا المنطلق يمكن صوغ هذا العرض الموجز عن ،، الامام مالك الحديث ،، في أربع نقاط هي : أولا : مالك الحافظ ، ثانيا : مالك الناقد ، ثالثا : مالك الحجة ، رابعا : آثار مالك للحديثية .

وقد كان التعرض - ولو باختصار - لآراء مالك الحديثية وتاصيلاته الاصطلاحية من لوزام هذا البحث لولا أن ذلك يحتاج الى بسط لقواعد وجلب لمقارنات لعل المناسبة وازدحام المهرجان بالعروض والبحوث لا يسمحان بالاسهاب المطلوب لتناول القواعد والاصول مهما كانت مختصرة ومركزة ، الا انه قبل تناول النقاط الأربع يجب التعرف على رأي المحدثين في مالك الحافظ الناقد الحجة ، بعد أن تيقنا اتفاقهم على توثيقه ، إذ التوثيق وحده لا يوحى بفهمهم الامامة وبلوغ الذروة في المعرفة ، وذلك ما تتضمنه الشهادات التالية من اهل الحديث في مالك وكل من يرجع فيه الى اربابه ، وكل صانع يقوم داخل اطار صنعه . وفي هذا المجال نجد المحدثين بعد أن ترددوا فترة بين رجلين أي منها يحمل مواصفات « عالم المدينة » في الحديث الاتي قريبا هو مالك بن أنس أم العمري الزاهد عادوا فاتفقوا على أن المواصفات تنطبق على مالك وأنه المقصود بالحديث فقد روى سفيان بن عيينة عن ابن جريح عن ابي الزبير عن ابي صالح عن ابي هريرة رواية أي يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم : ،،يوشك أن يضرب الناس أكباد الابل يطلبون العلم فلا يجدون أحد أو عالما أعلم من عالم المدينة ،، . قال الحاكم في المستدرک وأقره الذهبي .

« هذا الإسناد على شرط مسلم ، وقد أخرج الحديث عدد من الأئمة منهم أحمد في المسند » 99/2 » والحميدي شيخ البخاري في مسنده 485/2 » والترمذي وفل حسن صحيح وعزاه عياض للنسائي وقد طعن الحافظ المغربي الكبير أبو الحسن بن القطاني الفاسي في كتابه « بيان الوهم والإيهام » من تصحيح الترمذي للحديث بأنه من رواية مدلسين ، ويقصد ابن جريج وأبا الزبير المكي وكذلك أحد المعاصرين وهو الأستاذ ناصر الدين الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح وقال لن الحديث ضعيف للعلة نفسها .

والواقع ان الحديث اشتهر بين نقاد الحفاظ كسفيان بن عيينة وعبد الرحمن ابن مهدي وأحمد بن حنبل وعبد الرزاق وابن أبي حاتم وغيرهم وصححوه جميعا كما صححه الترمذي ووافقوا سفيان بن عيينة وعبد الرزاق على ان المراد بعالم المدينة هو مالك قال الامام أحمد في المسند : « وقال قوم هو العمري قال فقدما مالكا وأورد القاضي عياض شواهد للحديث عن أبي موسى الأشعري وجابر ، ومتابعات لأبي صالح عن أبي هريرة من غير طريق أبي الزبير مما يمزج معه صحة الحديث سنداً مع ما يؤيده من واقع مالك الذي ينطبق عليه الحديث انطباقاً تاماً كما قال بعض العلماء . » إذا اعتبرت كثرة من روى عن مالك من العلماء ممن تقدمه أو عاصره أو تأخر عنه على اختلاف طبقاتهم واقطارهم وكثرة الرحلة اليه والاعتماد في وقته عليه دل بغير مرية على أنه المراد بالحديث ، إذ لم نجد لغيره من علماء الديانة ممن تقدمه أو جاء بعده من الرواة والآخرين إلا بعض من جئناه له ، وقد جمع الرواة عنه غير واحد وبلغ بهم بعضهم في تسمية من علم بالرواية عنه سوى من لم يعلم ألف راو ، واجتمع ممن مجموعهم زائد على الألف وثلاثمائة . ويدل كثرة قصدهم له على كونه أعلم أهل وقته ، وهو الحال والصفة التي أئذربها عليه السلام ، لم يسترب السلف أنه هو المراد بالحديث ، وعد هذا الخبر من معجزاته وآياته عليه السلام مما أخبر به من الكائنات فوقعتم كما أخبر به عليه السلام .

وقد نقل الخطيب البغدادي في « شرف أصحاب الحديث » عن محمد بن حاتم ابن المظفر قال له : « وهذه الأمة إنما تنص الحديث من الثغر المعروف في زمانه المشهور بالصدق والأمانة عن مثله حتى تتناهي أخبارهم ، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الاحتفظ فالا حفظ والاضبط فالاضبط ، والأطول مجالس لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة ، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجها وأكثر حتى يهذبوه من الغلط والزلل ويضبطوا حروفه يعوده عدا ، » ومعلوم أن عدالة الامام مالك قد استفاضت بين الناس حتى دخلت في حيز المقطوع به ، كما قال الحافظ العراقي في ألفيته في المصطلح .

وصححو استغناء ذي الشهرة عن تزكية كمالك نجم السفن والضبط يعرف عندهم بمقارنة روايات الراوي وفحصها على حسب ماتقدم في قول ابن المظفر وهم سواء في البحث عن عدالة الراوي أو ضبطه ، وهما رأس مال الحدث قد

اتوا بما أبهر وحير من حيث الانصاف والبعد عن المجاملة والمحابيات كما قال الخطيب الحافظ ،، فليس أحد من أهل الحديث يحابي في الحديث أباه ولا أخاه ولا ولده ، وهذا على من المديني وهو امام الحديث في عصره ، لا يروى عنه حرف في تقوية أبيه ، بل يروى عنه ضد ذلك ، .

وعلى هذا الاساس فحص المحدثون حديث مالك واختبروه وقارضوا رواياته ، وعدوا الفاظه وحروفه ، فكان حكمهم عليه هو تلك الشهادات المشرقة التي تتبعها وجمعها أحد ائمتهم الكبار وهو عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في تقدمة كتابه «الجرح والتعديل» الذي يعتبر أصلا يرجع اليه كل من ترجم للإمام مالك المحدثين فلنقتطف منه نبذا صحيحة أسندها على أصولهم ، وهي تبين لنا كيف قوم المجتمع الحديثي مالك بن أنس وحديثه .

« قال الامام الشافعي : اذا جاء الحديث عن مالك فشد به بعك ، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل قلت لابي : أيما أثبت أصحاب الزهري قال : مالك أثبت في كل شيء ، وقيل لاحمد بن حنبل : رجل يريد أن يحفظ حديث رجل بعينه ، فقال : يحفظ حديث مالك ، وقال يحيى بن معين : مالك أثبت اصحاب الزهري وهو أثبت في نافع من أيوب وعبيد الله بن عمر وليث بن سعد وغيرهم قال عمرو بن علي الفلاس (وهو أحد الفقهاء الكبار) : أثبت من روى عن الزهري ممن لا يختلف فيه : مالك بن أنس ، وقال وهيب بن خالد : أتينا الحجاز ، فما سمعنا حديثا الا تعرف وتنكر ، الا حديث مالك بن أنس ، وقال ابو حاتم الرازي : مالك بن أنس ثقة امام الحجاز وهو أثبت اصحاب الزهري ، واذا خالفوا مالكا من أهل الحجاز حكم لمالك ، وهكذا تهادى ابن أبي حاتم في ترصيع جبين هذا الامام بشهادات ائمة الحديث وحفاظه فحاز عن جدارة لقب أمير المؤمنين في الحديث وبلغ رتبة الامامة العظمى فيه فهذا قرينه سفيان بن عيينة يقول مالك امام ويقول علي بن المديني مالك امام ، ويقول يحيى بن سعيد القطان : كان مالك اماما في الحديث وكيف لا يكون امام من كان سفيان الثوري يزاحم تلامذته على بابيه .

ولا نكون منساقين مع «المنقبية» كما حاول بعض المعاصرين أن يهون بهذه العبارة من شأن تقديس المحدثين لمالك ، اذا قلنا أنهم اتخذوه شعارا لهم ، ورما لا تباع «السنة واجتناب البدعة» فقد عقد ابن أبي حاتم «باب ما ذكر من استحقاق محبي مالك بن أنس السنة» . وأسند فيه عن عبد الرحمن بن مهدي قوله : اذا رأيت حجازيا يحب مالك بن أنس فهو صاحب سنة . ونقل القاضي عياض في «المأدك» ، عن أحمد ابن حنبل : «اذا رأيت الرجل يبغض مالكا فاعلم أنه مبتدع ، وعن أبي داود : أخشى عليه البدع» . ولم يرفعوا مالكا شعارا للحديث عبثا أو مصادفة ، فهم يعتبرونه أمين الله على وحيه وسنة نبيه كما أسند ابن عبد البر في مقدمة «التمهيد» ،

عن الامام النسائي قوله : ،، امناء الله عز وجل على علم رسول الله صلى الله عليه وسلم : شعبة بن الحاج ، ومالك بن انس ، ويحيى بن سعيد القطان ، وما أحد عندي بعد التابعين أنبل من مالك بن انس ، ولا آمن على الحديث منه ، ، ويقول وهيب بن خالد : « ما بين شرقها وغربها أحد آمن على ذلك (يعني الحديث) من مالك » .

مالك الحافظ :

نبغ الامام مالك في الحديث في مقتبل عمره اذ يحدثنا شعبة بن الحجاج ، انه دخل المدينة ونافع حي،ولمالك حلقة،فقد بدأ يحدث في حياة شيخه نافع مولى ابن عمر المتوفى سنة120 ومعلوم أن مالكا ولد في سنة 93 أو 94 ، فيكون قد حدث بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وذلك مجلس لا يسمح به في ذلك العصر الا لمن اكتمل علمه واستفاض فضجه كما اشتهر مالك آنذاك بمعرفة الحديث واتقان روايته وجمع أطرافه ، يقول عبد الله بن لهيعة المصري : قدم علينا بكر بن سوادة فقلت له : من خلفت لعلم أهل الحجاز ؟ قال : غلام من ذى أصبح ، يعنى مالك ابن انس . والموضوعية تقتضي أن يكون مالك حافظ حديث الحجاز وحده، فهو لم يرحل خارجه ، ولم يحصل أحاديث الصحابة الذين غادروا مكة والمدينة واستقروا بالبصرة والكوفة ومصر والشام واليمن وغيرها من الاقطار الاسلامية وينقل الزرقاني في شرح «الموطأ» عن الخطيب أن الرشيد سأل مالكا فقال و لم نر في كتابك يعنى (الموطأ) ذكرا لعلي وابن عباس فقال : لم يكونا ببليدي ولم ألق رجالهما ، وعلق الزرقاني بابن الرشيد أراد ذكرا كثيرا والا ففى «الموطأ» أحاديث عنهما ، وكا نأبو جعفر المنصور أراد أن يحمل الناس على العمل بما في «الموطأ» فقط ، ويوحدهم عليه فامتنع الامام متعللا بتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الامصار ، وبث ما سمعوا من أحاديث في تلامذتهم بها ، وهو لم يقع له من ذلك الا رواية من كان بالحجاز من الصحابة .

واذا كانت مفاهيم « الحافظ » عند المحدثين تتغير بحسب الزمان والعرف المتفق عليه أن الاعتبار الاول هو للمعرفة والاتقان لا للسرد والاستظهار ، لان الذي يستظهر المتون والاسانيد دون معرفة بالرجال ولا تمييز لصحيح من سقيم ولا دراية بالعلل والشذوذ والنكارة ، لا يطلق عليه اسم المحدث فضلا عن الحافظ ، قال الحافظ السيوطي معرفا للحافظ والمحدث والسند :

« أعلم أن أدنى درجات الثلاثة المسند بكسر النون وهو من يروي الحديث باسناداه سواء كان عنده علم به أو ليس له الا مجرد رواية ، ثم نقل عن الرافي وغيره : اذا أوصى للعلماء لم يدخل الذين يسمعون الحديث ولا علم لهم بطرقه ولا باسماء الرواة والمتون ، لان السماع المجرد ليس بعلم ، وقد منع الامام مالك نفسه من الأخذ بمن لا يعرف هذا الشأن ومراده كما بينه القاضي عبد

الوهاب : اذا لم يكن يعرف الرجال من الرواة ولا يعرف هل زيد في الحديث شيء او نقص ، وقال قولته المشهورة : ليس العلم عن كثرة الرواية ، وانما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء . وقال عبد الرحمن بن مهدي : الحفظ الامان ، ويقول أبو زرعة الرازي : الاتقان أكثر من حفظ السرد .

ومع ذلك فلا بد من اعتبار الاستيعاب واستظهار الحون والاسانيد الى جانب الاتقان حتى يصدق المحدث اسم الحافظ . فاذا نظرنا الى هذين العنصرين المعنويين في جميع الاعصار وجدنا انهما موافقان في مالك بأجل مظاهرهما ، رغم اقتصار بضاعته على حديث الحجاز . فهو قد استوعب حديث الحجاز استيعابا تاما ، ثم اتقنه ووجده وتمقق علله وخفاياه ودقائقه ، وشرح رجاله حتى قال كثير من النقاد : لولا مالك لذهب علم الحجاز وان اسناد الحديث في الحجاز انتهى الى مالك وبهذا الاعتبار قال له شيخه الزهري : انت من أوعية العلم وأنت لنعم المستودع ، وقال سفيان الثوري : مالك أحفظ أهل زمانه ، وابن حنبل : مالك حافظ متثبت من أثبت الناس في الحديث ، وابن معين : كان مالك حافظا ، أما الحفظ بمعنى الاستظهار فقد كان في المقام الثاني كما تقدم لانه بعد انتشار الكتابة والتقيد كان الاعتماد على ضبط الكتاب في المقام الاول ومع ذلك فقد كان مالك ذا حافظة قوية شأنه شأن أقرانه من أئمة الحديث كالسفيانيين والليث والاوزاعي وغيرهم ، وهو أمر بديهي في المحدثين بحيث يعتبر المؤهل الاول لولوج مدرستهم ويذكر ابن عبد البر وابن حجر عن مالك قوله : «قدم علينا الزهري فأتيناه ومعنا ربعة فحدثنا بنيف وأربعين حديثا ، قال : ثم أتينا من الغد فقال : أنظروا كتابا حتى أحدثكم منه ، رأيتم ما حدثكم أمس ، أي شيء في أيديكم منه ، فقال له ربعة : ها هنا من يرد عليك ما حدثت به أمس ، قال : من هو ؟ قال ابن أبي عامر ، قال : مات ، فحدثته بأربعين حديثا منها ، فقال الزهري : ما كنت أظن أنه بقى أحد يحفظ هذا غيري .

مالك النقاد :

ويعتبر هذا العنوان محور امامة مالك وقمة مجده وسيادته في علم الحديث الشريف ، وخلافا لما قاله أبو الحسن بن القطان الفاسي الحافظ : انا أقبل رواية مالك لا رايه في الاحاديث والرجال ، فان من عداه من الحفاظ حتى المعاصرين منهم لمالك قبلوا رايه وقلدوا حكمه النقدي على الاسانيد والحنون ، وربما كان هو المحدث الوحيد الذي أتبع رايه فيما يخص حديث أهل الحجاز ورواته في ذلك العصر ، ولا نزاع في أنه أول من التزم الصحة في الحديث المسند المتصل قبل البخاري ، بقطع النظر عن المفاضلة بين صحيح البخاري و «الموطأ» بما أشتمل عليه من سند وغيره ، وللخروج من النزاع الذي لا يتسع له المجال الآن ، يقال : ان مسند حديث الموطأ صحيح

كله وقد اختار البخاري نفسه أغلبه فضمنه صحيحه ، إنما ما عدا المسند فللكلام عليه موضع آخر ، وربما كانت شروط مالك في الرواة أشد من شروط البخاري زيادة على أنه يمتاز بضيق دائرة مرويه ، حيث اقتصر على رواية أهل مكة والمدينة ، وهو أعرف بهم من غيره وأطول ملازمة وصحبة لهم بالإضافة إلى قرب المسافة بينه وبين الصحابة ، وقد قال الخطيب : أصبح طرق السفن ما يرويه أهل الحرمين معه والمدينة فإن التضييس عندهم قليل والكذب ووضع الحديث فيهم عزيز ، وقد كان يستخدم ما منحه من جاه ونفوذ وسلطة للتوثيق من الحديث حتى لا يستطيع أحد أن يحدث في دائرة نفوذه بحديث موضوع ، قال ابن أبي أويس وابو مصعب : ما كان يتهاى لأحد بالمدينة أن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حبسه مالك ، فإذا سئل فيه قال : يصحح ما قال ، ثم يخرج .

وإذا كان شعبة بن الحجاج هو أول من جاهر بنقد الرجال بتركيز والحاج باعتباره وجوده في العراق موطن المذاهب والنحل فإن معاصره مالكا هو أول من وضع أسس ذلك النقد التي طبقها شعبة فمن بعده ، فقد أصنف ابن عبد البر عن مالك قوله : لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ من سوى ذلك ، ولا يؤخذ من سفيه ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس وإن كان لا يتهم على لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة ، إذا كان لا يعرف ما يحدث ، وبناء على ذلك كان يتخير الرواة الذين يأخذ عنهم ، أو ينصح بالأخذ عنهم ، قال بشر بن عمر : نهاني مالك عن إبراهيم بن أبي يحيى ، قلت : من أجل القدر تنهاني عنه ؟ قال : ليس في دينه بذاك ، وقال للقطان عن نفس الزلوي : ليس ثقة في دينه .

وقد اشتهر عنه قوله : « إن العلم دين فانظروا عمن تأخذوا دينكم ، لقد أدركت سبعين ممن يحدث قال فلان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند هذه الأساطين وأشار إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أخذت منهم شيئا ، وإن أحدهم لو أئتمن على بيت المال لكان أمينا ، لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن ، وقدم علينا ابن شهاب ، فكنا نزدحم على بابه » .

على أن اشتهار شعبة بأنه أول من تكلم في الرجال ، إنما كان بسبب كثرة المتكلم فيهم بالعراق ، والا فقد قال ابن حبان في « الثقات » : « كان مالك أول من انتقى الرجال بالمدينة ، وأعرض عمن ليس بثقة في الحديث ، ولم يكن يروي إلا ما صح ولا يحدث إلا عن ثقة » ، فلا عجب بعد هذا أن يعتبر مالك فيلسوف النقد الذي ينتقد حتى شعبة في نقده ، فقد روى ابن حاتم عن

يحيى بن معين قوله : « بلغنا عن مالك أنه قال : عجبنا من شعبة هذا الذي ينتفي الرجال ، وهو يحدث عن عاصم بن عبيد الله » .

وقد أسلموا مقاليد نقد الرجال الى مالك فلم يجترؤا على تجريح من أخذ عنه أوثقه، وهكذا قلده أحد بن حنبل ويحيى بن معين والبخاري وغيرهم في ذلك، سئل أحمد عن جعفر بن محمد فقال ما أقول فيه وقد روى عنه مالك ، وسئل ابن معين عن طلحة الأيلي وجماعه فقال : حدث عنهم مالك وقتل الأثرم : سألت أحمد عن عمر بن أبي عمر مولى المطلب فقال : يؤيد أمره مالك ابن أنس فقد أخذ عنه وهكذا اكتفى البخاري من تعديله برواية مالك عنه . وهذا سفيان بن عيينة يعلنها صراحة : « انما كنا نتبع آثار مالك وننظر الى الشيخ ان كتب عنه والا تركناه » . وقد اعترفوا جميعهم بان مالكا لم يكن يروى الا عن ثقة . ودون أي مجاملة . يقول امام أهل الجرح والتعديل يحيى بن معين : « كل من روى عنه مالك فهو ثقة الا عبد الكريم » ، وعبد الكريم هذا هو ابن المخارق البصري نزيل مكة شذ عن نقد الامام اذ لم يكن حجازيا ، وهذا يؤيد احاطه برواة الحجاز ، ومع ذلك احتاط للامر ولم يضيع الحزم بالنسبة الى هذا الراوي فيحدثنا ابن عبد البر انه لم يخرج عنه حكما انما ذكر عنه ترغيبا ، وقد وثق الامام من نفسه في ناحية النقد هذه وعد ذلك مصدر فخره ، وان كان في غير ذلك أكثر تواضعا ، فقد سأله بشر بن عمر عن رجل فقال : هل رأيته في كتبي ؟ قال : لا قال : لو كان ثقة رأيته في كتبي ، وقد أيد ابن المديني ادعاء الامام هذا حيث قال : لا أعلم مالكا ترك انسانا الا انسانا في حديثه شيء .

يقول الشعبي عن نقاد الحديث : لو أصبت تسعا وتسعين مرة وأخطأت مرة لعدوا علي تلك الولدة .

فتسليمهم مقاليد النقد الى مالك لم يصدر عن مجاملة أو مساهل أو اغضاء عن حقوة ، فقد نقدوه عندما اغتر بعبد الكريم بن أبي المخارق ولم يسالموه أو يسكتوا عنه ، فهم أهل لخصاء وتدقيق وعد للحروف والكلمات وضعوا لذلك مناهج بلغت من الدقة والصرامة والموضوعية ما يجعل ادعاء منقوذ شيء مهما صغر عن استقراءهم ضربا من المحال ، والعجب من الاستاذ المرحوم محمد أمين الخولي كيف استسأغ أن يقول : « وعلى هذا يكون ما ضخم من عبارات القائلين عن نقد مالك منذ الحديث ورجال المتن قد تأثر بالنزعة المنقبية قليلا أو كثيرا » ، وأول ما يصحنا من هذه العبارة كلمة « رجال المتن » ، فهي تعبير جديد في مصطلح أهل الحديث لم يعرفه المحققون من قبل هذا الاستاذ ، فان كان لم يتحقق بعد من المبادئ الأولى لاصطلاحهم فكيف يتأهل لخرق إجماعهم ، ومع ذلك يقال : اذا كان الأئمة الكبار من شيوخ مالك يعرضون عليه مسموعهم ليصححه ثقة منهم بمهارته في النقد كابن هرمز الذي كان في آخر عمره لا يسمع الا مالكا وحده متملا بأنه ان كان مايلقيه اليه

صواباً قبله وان كان غير صواب تركه ، بينما غيره يقبل منه كل شيء ،
فهي دخل للمتنقية في ذلك ؟

وهنا يجب الوقوف عند عبارة أخرى للاستاذ الخولي ، فهو بعد ان جرد
أهل ذلك العصر جميعاً من امكان تقديمهم للمتن ، مع أن المعروف أن نقد المتن
من أهم أسس مذهب أبي حنيفة ، قال : « ولذلك لا نطمع في ان نجد أثراً
يذكر لنقد مالك المتن » .

ولعله غاب عن الاستاذ ان مبدأ الخلاف بين مالك والشافعي هو هذه
المسألة بخصوصها فالشافعي يقول اذا صح الحديث فهو مذهبي ، أي دون
اعتبار لأي شيء آخر غير ثبوت الحديث ، بينما راعى مع الصحة أشياء
أخرى بنى عليها مذهبه منها موافقته للأصول ولعمل أهل المدينة . وبناء
على ذلك لم يأخذ بعشرات الأحاديث الصحيحة كحديث كل ذي باب من
السباع حرام أخرجه في الموطأ ولم يحرم أكل ذي ناب من السباع أو مخلب
من الطير بل كرمه لأنه يخالف قول الله تعالى ، ، قل لا اجد في ما أوحى لي
محرمات إلا ما ، وكذلك حديث خيار المجلس لأنه لم يكن عليه عمل أهل
المدينة ومثلهما كثير من الأحاديث الصحيحة الذي يطول الحال لو وقع
تتبعها . وإذا لم يكن نقد المتن هو هذا فماذا يعني الاستاذ بنقد المتن ، وقد
قال مالك نفسه : سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط
ولا أحدث بها لأنه ليس عليها العمل ، وصح أنه وجد عنده بعد موته نحو
اثنى عشر ألف حديث من أحاديث أهل المدينة لم يحدث إلا بثلاثها ،
وقال : اذا أحدث الناس بكل ما سمعت أني اذا أحق ، ونختم الحديث عن
مالك الناقد بعبارة علي بن المديني المشهورة : لولا أن الله يبعث في الاسلام
في كل زمان مثل مالك وشعبة والوزاعي لكانوا قد أدخلوا في حديث رسول
الله صلى الله عليه وسلم ما ليس منه .

مالك الحجة : تقدم أن المحدثين القدامى لم يقلدوا في تصحيح الحديث
أحداً غير مالك وفي ذلك يقول الشافعي : من أراد الحديث الصحيح فعليه
بمالك ، والثوري : ما أقدم على مالك في صحة الحديث أحداً ، والقطان :
ما في القوم أصح حديثاً من مالك يعني الوزاعي والسفياني ، وابن معين ،
أخذ المتقدمون عن مالك وثقوه وكان صحيح الحديث ، وكان يقدمه أصحاب
الزهرى ، وروى الخطيب في « الكفاية » عن يحيى بن بكر أنه قال لأبي
زرعة الرازي : « ليس ذا زعزعة عن زوبة » ، إنما ترفع الست فتنظر الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحاب ، حدثنا مالك عن نافع عن ابن
عمر ، ولذلك جعل البخاري أصح الاسانيد : مالك عن نافع عن ابن عمر ،

وقال أبو داود ، حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك عن نافع عن ابن عمر ، ثم مالك عن الزهري عن سالم عن أبيه ، ثم مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ، ولم يذكر شيئا غير ذلك ، ونقل الحافظ السيوطي عن الحافظ العلاني أن أصح حديث في الدنيا أخذ عن الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر .

آثار مالك الحديثية :

كان عند الامام من حديث أهل المدينة نحو اثني عشر ألف حديث حدث بثلاثها أي نحو أربعة آلاف حديث ، احتوى الموطأ منها بأوسع رواياته على ستمائة حديث وكسر كما سيأتي .

والاحاديث التي حدث بها وليست في ،، الموطأ ،، تعرف بغرائب مالك ، وهذه تسمية اصطلاحية في مقابل احاديث الموطأ التي تواترت عنه باعتبار ما سمعها منه من الجمع الجم .

وقد جمع عدد من العلماء غرائب مالك وقوموها صحة وحسنا وقصفا ، بالنسبة الى الرواة عنه ، لانه اذا كان الراوي عنه ثقة فحديث مالك صحيح بلا شك ولا خلاف .

فللدارقطني « غرائب مالك » وصف بأنه كتاب ضخم ، والف الحافظ الاندلسي قاسم بن أصبغ البيهقي القرطبي « غرائب مالك » وجمع الطبراني الاحاديث التي حدث بها مالك خارج « الموطأ » وكذلك حافظ ابن عساكر وكتابه في عشرة أجزاء ، وله أيضا « عوالي مالك » في خمسين جزءا والف الحافظان أبو بكر بن القمري ودعلج السجزي « غرائب مالك » أيضا ، ولأبي القاسم الجوهري ، وابن الجارود « سند مالك خارج الموطأ » ولمحمد ابن المطهر السمعاني الحافظ كتاب « فيما وصله مالك مما ليس في الموطأ » وللقاضي أبي بكر بن السليم « كتاب التوصيل مما ليس في الموطأ » ولأبن عبد البر كتاب في حديث مالك خارج « الموطأ » ولا شك ان هذه الآثار التي يوجد القليل منها تحقري على ذخيرة ثمينة من الاحاديث الصحيحة والحسنة او الضعيفة المنجبرة باعتبار حال الرواة عن الامام ، اذ لم يجتمع لعالم من الرواة والتلاميذ ما اجتمع له ، كما قال الحافظ السيوطي « الرواة عن مالك فيهم كثرة بحيث لا يعرف لاحد من الائمة رواة كرواته » وقد أفردهم عدد من الناس بالتصنيف وفي « طبقات المفسرين » للحافظ الدودي : « حدث عنه ائمة المذاهب المتبوعين : أبو حنيفة والشافعي ، والاوزاعي وسفيان الثوري ، ومن الخلفاء أمراء المؤمنين : المنصور ، والمهدي ، والهادي ، والرشيد ، والامين ،

والمأمون ، ، ويقول الدارقطني : « لا أعلم أحدا ممن تقدم أو تأخر اجتمع له ما اجتمع لمالك ، روى عنه رجلان حديثا واحدا بين وفاتيهما نحو مائة وثلاثين سنة ، الزهري شيخه توفي سنة أربع وعشرين ومائة ، وأبو حذافة السهمي توفي بعد الخمسين ومائتين ، روى عنه حديث الفريفة بنت مالك في سكنى المعتدة ، قال الحافظ الداودي : « وهو أول من صنف تفسير القرآن بالاسناد على طريقة « الموطأ » ، تبعه الأئمة ، فقل حافظ الا وله تفسير مسند ، وله غير « الموطأ » كتاب « المناسك » و « التفسير المسند » لطيف ، فيحتمل أن يكون من تأليفه وأن يكون علق عنه . »

أما آثاره غير الحديثية ، فقد استوعبها القاضي عياض في « المدارك » . « **الموطأ** » وأخذ أثر حديثي للإمام مالك رضي الله عنه ، هو « الموطأ » يقول العلامة المحقق الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله : « أن أصل العلم ورجال السنة ، اتفقت كلمتهم على أن « الموطأ » ألفه الإمام مالك رحمه الله وكتبه بيده ، وأنه أول كتاب ألف في الاسلام من الكتب التي ظهرت بين أيدي الناس ، وإن التوفيق الذي بعث مالكا رحمه الله على تدوين « الموطأ » للطف رباني جعله مثالا لحملة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يحق لهم حملها وإبلاغها الى الأمة ، مما استخلصه من طرائق شيوخه ، فقد رسم مالك بهذا الكتاب طريقته التي تبعها وفوه بها في مجالس حديثه ودروس علمه ، هي طريقة التمهيص والتصحيح في الرواية ، وتمييز من يستحق أن تحمل عنه السنة ، وتبين محامل الآثار المروية ، ولم يكن هم الإمام حشد الروايات وجمعها بقدر ما كان يريد اثبات النافع . »

وقد أخبر تلامذة مالك بأن أصل « الموطأ » كان نحو عشرة آلاف حديث ، ولم يزل يختب منها الموافق لأصول مذهبه ، حتى وصل الحديث المسند فيه الى ما هو موجود .

فاوسع رواياته ، وهي رواية مطرف بن عبد الله تشتمل على 607 حديث مسند ، أما الرواية المشهورة الآن ، وهي رواية يحيى بن يحيى الاندلسي فنعد الحديث المسند فيها 519 .

وعن نسخ « الموطأ » ورواياته يقول القاضي عياض : « الذي اشتهر من نسخ « الموطأ » ، مما رويته أو وقفت عليه ، أو كان في روايات شيوخنا رحمهم الله ، أو نقل منه أصحاب اختلاف الموطآت نحو عشرين نسخة ، وذكر بعضهم أنها ثلاثون نسخة . » وقال ابن عبد البر : والروايات في مرفوعات « الموطأ » متقاربة في النقص والزيادة وإنما اختلاف رواياته في الاسناد والارسال والقطع والاتصال . » وعلى كثرة شروح « الموطأ » ، كما قال القاضي عياض : « لم يعتن

بكتاب من كتب الحديث والعلم اعتناء الناس بالموطأ ، يوجد شرح ظريف لعثمان بن يعقوب الاسلاميول الكماخي من علماء القرن الثاني عشر الهجري سماه المهيا في كشف أسرار الموطأ ، وضعه على روايات الموطأ المختلفة ، وهو موجود بدار الكتب المصرية .

لعل الجانب الحديثي من جوانب الامام مالك المتعددة ، وهو اخصبها وأكثرها مادة باعتبار ما كتب حوله وسطر من مؤلفات تعد بالعشرات ، في عدوتي المغرب والاندلس وحدثهما فكيف ببقاقي اقطار العالم الاسلامي .

وقد تناولنا من هذا الجانب باقتضاب بالغ رؤوس مسائل تستدعي انتفاضة وإسهابا ، وكان بوجدنا - كما تقدم - أن ننفذ من العمومات التي تم بها الحديث عن « مالك المحدث » كما يقتضي ذلك المقام الى خصوصيات أصول مالك الحديثية ، ومذهبه في الرواية ، وفي مساء الاصطلاح كالمفاضلة بين العرض والسمع ، ورايه في الاجازة والمناولة ، وصيغ الاداء المعبر بها عن أنواع تحمل الحديث ، وتفصيل مذهب في المرسل ، والرواية بالمعنى ، وكيفية تحريره في اداء الحديث بحيث يحافظ على التاء والياء ، حتى أن البخاري يأتي في ، ، صحيحه ، ، بأحاديث مالك بعد غيرها ، لان روايات مالك تبين ما أجمل في الروايات الاخرى ، الى غير ذلك .

ولكن ذلك يحتاج الى كتاب خاص ، أو بحث جامعي ، ولنختتم عرضنا المتواضع هذا بما قاله ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين الدولعي المتوفى سنة 598 في كتابه « الرسالة المصنفة في بيان سبل السنة المشرفة » :

« أخذ مالك على تسعمائة شيخ منهم ثلاثمائة من التابعين ، وستمائة من تابعيهم ، ممن اختاره وارتضى دينه وفقهه وقيامه بحق الرواية وشروطها . وخلصت الثقة به ، وترك الرواية عن أهل دين وصلاح لا يعرفون الرواية » . وعلو الرواية .

وبما ختم به الحافظ الذهبي ترجمته من « تذكرة الحفاظ » حيث قال : « وقد اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لغيره ، أحدها : طول العمر ،

وعلو الرواية وثانيها : الاهن الثاقب والفهم وسعة العلم ، وثالثها : اتفاق الإمة على أنه حجة صحيح الرواية ، ورابعها : تجمعهم على دينه ، وعدالته وأتباعه السفن ، وخامستها : تقدمه في الفقه والفتوى وصحة قواعده . . . عاش ستا وثمانين سنة . . .

توفي في ربيع الاول لسنة تسع وسبعين ومائة ، رحمة الله عليه ، .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين .

الاستاذ التهامي الراجي

محصل على دكتوراة الدولة فى القراءات
متخصص فى علوم الحديث .

(الملكة المغربية)

بسم الله الرحمن الرحيم

نافع استاذ مالك

بقلم : الدكتور التهامي الراجي الهاشمي

(1) توضيح لابد منه :

الذين شاركوا مشاركة فعالة في تكوين شخصية الطالب مالك بن انس أساتذة أجلاء يعرفهم كل من درس حياة هذا الامام الفذ ، منهم على الخصوص « نافعان » كان لكل منهما أثر حميد في نفس الطالب لم ينسه أبدا .

أما الأول ففقيه بارع ومحدث ثقة ، واسمه نافع بن سرجس أبو عبد الله الديلمي ، توفي سنة 120 هجرية على قول ، في السنة التي أتم فيها مالك السابعة بعد الأربعين من عمره . كان نافع بن سرجس هذا ، حسب ابن حزم القرطبي الظاهري من « أهل الفتيا » . ويقول المهتمون بالحديث الشريف : « أصبح الإسانيذ مالك عن نافع عن ابن عمر » . أما حين يتصل الامام الشافعي ، رضي الله عنه ، بهذه السلسلة ، فإنها تسمى عند المهتمين بهذا الفن ، بـ « سلسلة الذهب » .

لهذا الذي أشرت اليه بكل اختصار لازم مالك نافعا هذا ملازمة خاصة ، وما تظله الشجر من الشمس كما يحلو لترجمي مالك أن يقولوا . ولقد اتصل به مالك مبكرا ، يحكي لنا هو نفسه عن هذا فيقول : (كنت

آتي نافعاً مولى ابن عمر وأنا يومئذ غلام ، ومعى غلام لي ، فينزل الي من درجة له ، وهو الذي كان يقوده حين كف بصره من منزله بالقيس الى المسجد النبوي فيسأله ويحدثه) .

ورغم هذه المنزلة الرفيعة التي كانت لنافع بن سرجس هذا عند سائر مواطنيه ، ورغم التقدير الطيب الذي كان يحظى به من طرف مالك ابن انس ، تقدير يجسمه قوله : « كنت اذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر لا ابالي الا اسمه من احد غيره » . فان مالكا رضي الله عنه لم يورد له في موطنه الا حوالي ثمانين حديثا على خلاف في عدها .

وأرجو الا يرد علي راد محاولا الطعن في منزلته الرفيعة هذه بدعوى انه كان يجلس بعد الصبح في المسجد النبوي فلا يكاد يأتيه أحد . ذلك اننا نعلم أن كثيرا من العلماء الكبار الذين أثروا تأثيرا بليغا في جيلهم والذين كانت لهم منزلة عالية في فنهم لم ينجحوا في التدريس لاسباب لا علاقة لها بزادهم العلمي ولا بسلوكهم الاخلاقي . اما بالنسبة لصاحبنا فاننا نعرف سبب انقضااض الطلبة من حوله ، انها اللكنة ثم صغر النفس وان كانت هذه الصفة الاخيرة غير واضحة التحديد عندنا ، وما اعتقد انني ساقف بكم اكثر في هذه النقطة، اذ انها لا تدخل في ميدان اهتمامنا، ذلك ان نافعاً الذي نقصده بحديثنا هو نافع الثاني ، نافع بن أبي نعيم القاريء الذي توفي قبيل مالك بن انس بعشر سنوات فقط . لقد كان من اقاربه هو واسماعيل بن جعفر وعيسى بن وردان وسليمان بن مسلم بن جماز وكلهم اخذوا القراءة عن الامام نافع عرضا وسماعا .

(2) اخذ مالك عن نافع القراءة والحديث كذلك :

اذا تحدث الناس عن نافع بن أبي نعيم تحدثوا عن القاريء لان شهرته بنيت أولا وقبل كل شيء على القراءة ، لقد كان فعلا أحد القراء السبعة . قرا حسب ما يخبرنا به أبو قرّة موسى بن طارق على سبعين من التابعين ، لكنه اهتم بالحديث أيضا . يخبرنا ابن عدي (1) أن نافعاً رضي الله عنه ترك لنا نسخة من مائة حديث لنافع عن الاعرج كما ترك لنا نسخة

(1) بفتح العين وكسر الدال وتشديد المثناة بعدها ، تقولها لمن لم يسمعها جيدا .

أخرى بها أكثر من مائة حديث عنه عن أبي الزناد عن الأعرج . كما أنه ترك لنا في « التفاريق » قدر خمسين حديثاً ، ولا يعرف له المهتمون على شديد حرصهم في هذا الفن حديثاً واحداً منكراً .

ولعل راداً يرد علي قائل : فإذا كان نافع محدثاً أيضاً كما تقول ، فلماذا لا نرى عند مالك أيضاً أثراً يذكر للأحاديث التي يمكن أن يكون رواها عنه . أبادر فأقول : لعل ذلك يرجع إلى ظاهرة عرفت عندهم في القرن الثاني ، وهي أن يكون الرجل من كبار الفقهاء وهو مع ذلك متروك الحديث ، ثم انني أسأل : ألم يكن ابن هرموز ، وأقصد أبا بكر بن يزيد الأصم ، المتوفى سنة 148 هجرية من كبار الفقهاء ومن الذين لزمهم مالك سنوات ومع ذلك فلا تكاد نجد في موطأ مالك حديثاً أخذه عن ابن هرموز مع أنه لا يترك مناسبة تمر دون أن يشني عليه . وكلما قال : على هذا أدركت أهل العلم ببلدنا : أو عندما يقول : « والأمر عندنا كذا » فإنه يقصد (ابن هرموز) و (ربيعة الرأي) ابن أبي عبد الرحمن فروخ الذي لم يزد ما أخذ عنه مالك ، هو الآخر ، من أحاديث عن اثني عشر مروياً ، ما بين مسند ومرسل وبلاغ رغم ملازمته الطويلة له .

3 (مالك محترم لأراء استاذة نافع :

ورغم أن مالكا كان ، كما لا يخفى على أحد ، صاحب الرأي السديد الذي لا يخطيء ، فقد كان رحمه الله لا يجراً على الاعلان عن رايه في نازلة يعلم أن استاذة نافعاً له فيها نظر . لقد سأله مثلاً أبو سعيد عبد المالك بن قريب الأصمعي عن البسملة فأجابه مالك رضي الله عنه : سلوا عن كل علم أهله ، ونافع امام الناس في القراءة . وما كان لمالك رحمه الله أن يكون رايًا مخالفًا لرأي من صلى في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ستين سنة دون انقطاع لم يعارضه طيلة هذه المدة المديدة أحد من التابعين في فـرأة .

4 (نافع مقرئ المدينة بدون منازع :

لقد أقرأ الإمام نافع رضي الله عنه الناس في المدينة دهراً طويلاً نيفاً عن السبعين سنة وانتهت إليه رئاسة القراءة في هذه المدينة المباركة ، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وصار الناس إليه . وبالقراءة التي

اشتهر بها الامام نافع رضي الله عنه والتي رواها عنه الامام مالك عرضا وسماعا تمسك الناس . وبهذه القراءة نقرأ نحن هنا بالمغرب ، نقرأها بأحد الروايتين عنه ، رواية ورش رضي الله عنه . وهكذا نكون نحن هنا في المغرب ، مطبقين كأحسن ما يكون التطبيق لعمل أهل المدينة في سائر نشاطنا الديني ، العبادات منه والمعاملات وأجل به من عمل أرتضاه المغاربة لأنفسهم من أمد بعيد .

قام الامام نافع بالقراءة بعد التابعين امام مئات من طلبته من ضمنهم الامام مالك بن أنس وكان أهل لان يقوم بهذه القراءة ، لانه كان عالما بوجود القراءات متبعا لاثار الائمة الماضين .

5 (قراءة نافع سنة ولا غرابة في ذلك :

اخبرنا سعيد بن منصور انه سمع مالكا ابن أنس يقول : قراءة أهل المدينة سنة . قيل له قراءة نافع . قال نعم . قال اليث بن سعيد حججت سنة ثلاث عشرة ومائة وامام الناس في القراءة بالمدينة نافع ، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل سألت أبي أي القراءة أحب اليك ؟ قال : قراءة أهل المدينة ، وهي طبعا وبالدرجة الاولى قراءة نافع ، ولا غرابة في أن تكون قراءة من رأى في منامه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقرأ في فيه سنة تتبع . يروي لنا أبو عمرو الداني فيقول : قال رجل ممن قرا على نافع ان نافعا كان اذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك . فقلت له يا أبا عبد الله تتطيب كلما قعدت تقرأ الناس ؟ قال : ما أمس طبيا ولكي رايت فيما يرى النائم النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في فمي . فمن ذلك الوقت أشم من في هذه الرائحة . ولا غرابة أيضا في أن تكون قراءة من صافحه رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءة متبعة يخبرنا المسيبي ، فيقول : قيل لنافع ما أصبح وجهك وأحسن خلقك ! قال : فكيف لا أكون وقد صافحني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قرأت القرآن (أي في المنام) .

6 (لم يحجم مالك عن الاخذ عن المعنيين بسبب قبح وجهه :

أريد هنا بهذه المناسبة أن أزيل ليساً من ترجمة الامام مالك رضي الله عنه ، تلميذ الامام نافع . لقد اعتاد المترجمون له أن يقولوا لنا ان

قبح وجهه هو الذي جعله ينصرف عن الفناء الى طلب الفقه . يروي بعض المترجمون أن مالكا قال فى كهولته : « نشأت وأنا غلام فأعجبني الأخذ عن المعنين ، فقالت أمي : يا بني ان المغني اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الى غنائه فدع الفناء ، واطلب الفقه .. فتركت المعنين ، وتبعت الفقهاء فبلغ الله بي ما ترى ... »

وكيف ما كان السبب الذي صرفه عن الفناء فان ميله الى تجميل الصوت وجهه الى سماع الجميل من الانغام لن ينعدم قطعاً بسبب أعراضه هذا .

وما اعتقد ان مغني القرن الثاني كانوا يتقنون تلكم القواعد البالغة الدقة فى تصوير الصوت واحكامه وتجميل بنائه .

(أقصد بالبناء كالفنة وترقيق الرأى واللام وتفخيمهما وغير ذلك من البنئ اللطيفة التي اتقنها نافع وتعلمها مالك) .
أقول ما اعتقد أن مغني القرن الثاني اتقنوا هذه القواعد مثل ما اتقنها نافع أولا ثم مالك من بعده عرضا وسماعا ..

لكن الحقيقة غير ذلك ، لقد كان الغلام حسن الوجه ، لا قبيحه وكان أشقر ، واسع العينين شديد البياض . فهل هناك جمال فى الرجال أفضل من هذا ؟ لا نعتقد ذلك . لقد كان الغلام أذن جميلا ذا مزاج فني ، ولكنه رغم ذلك ابتعد عن الفناء . وابن الحقيقة أخيرا ؟ أن مالكا أدرك ، على صغر سنه ، أن تعاطيه لهذا الفن يسقط من مروءته ، وأن فى هذا الفن الذي يجد ، ما فى ذلك من شك صدئ فى نفسه المطمئنة الطيبة الطاهرة ، القول فى الحل والحرام واستنتاج من ذلك كله أن المعازف حرام .

ولم يكن مالك الاول ولن يكون الأخير الذي استهواه فن ، مالت النفس اليه أولا ، ثم حادت عنه بعد ذلك خوفا من الوقوع فى الشبهة التي يجب الترفع عنها . ما مالك الى الفناء ثم اختار الفقه ، ومال الشافعي الى الشعر ثم اختار الاصول ، ومال أبو حنيفة الى فنون مختلفة ثم اختار أخيرا ما تعلمون .

7) أشبع نافع ميل مالك فى حلال وفوز عظيم :

المزاج الفني فطرة لا بد أن تثبت فى نفس المرء مدى الحياة ،

والعاقل من يستغلها فيوجهها الوجهة التي يرضى بها الحق سبحانه وتعالى . وهذا التوجيه السليم الذي مارسه على نفسه امامنا رضي الله عنه هو الذي نسميه التيارات الفلسفية الحديثة في تبجح مقيت وهو عندهم ، او على الاصح فى المصطلح الفرويدي تحويل وظيفة غريزية نازلة واولية الى اخرى رفيعة الخلق وسامية المغزى . محبة مالك اذن للصوت الجميل ثابتة فيه . فكيف السبيل الى تحويل هذا الميل الى عمل صالح مفيد فى الدنيا والاخرة ؟ لن يطول بحثه عن هذا كثيرا . فما عليه الا ان يستمع الى ما يقوله الناس عن الامام نافع وجمال ترتيله وصلاحه وروعه . ثم يقصده ويقرا معه من بين ما يقرأ : (ويقولون لولا انزل عليه آيات من ربه ، فقل انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين . او لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) ويرى له ويروي معه احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى احسن الصوت بالقراءة (ما اذن الله لنبي كاذنه لنبي يتفنى بالقرآن) و (ان هذا القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فابكوا ، فان لم تبكوا فتباكوا ، وتغنوا به فمن لم يتغن به ، فليس منا) . لا شك ان الترتيل سيزداد جمالا حين يكون على طريقة قراءة اهل المدينة ، قراءة نافع استاذ مالك رضي الله عنهما .

8) واخيرا فكرة عمل اهل المدينة :

واما الفكرة الدائعة التي امتاز بها مالك رضي الله عنه ، وهي فكرة « عمل اهل المدينة » التي سيتحدث لكم عنها علماءنا الاجلاء بتفصيل ، فقد كان فضل بلورتها فى ذهنه وجعلها منتجة خلاقة تجد الحل للملائم لما يستعصى على المسلمين من امور لاساتذته الذين كونوه وعلى رأسهم الامام نافع رضي الله عنه ، لانه هو الحقن لقراءة اهل المدينة ، تلك القراءة التي يصفها الامام مالك نفسه بانها سنة وجب اتباعها والمصير اليها ، ولا غرابة فى ان تكون فكرة اهل المدينة سنة ثم وليدها من بعدها وهو « عمل اهل المدينة » قويا متبعا وملزما ، ولاسباب كثيرة اهمها نصيب المدينة المنورة من توزيع المصاحف . لقد كان لها فعلا حظا مرموقا فى موضوع توزيع المصاحف الشريفة التي وقع الاجماع عليها . فاذا كان

حظ الامصار الاسلامية المفتوحة فى ذلك الوقت كالبصرة والكوفة والشام والبحرين وغيرها مصحفا واحدا فان نصيب المدينة المنورة كان مصحفين ؛ مصحفا ترك بها رسميا ، ومصحفا أمسكه عثمان لنفسه ؛ وهو الذي يسمى مصحف الامام ، فلا غرابة اذن أن تكون هذه القراءة نقصد قراءة نافع التي رواها عنه مالك بن أنس سنة ، ولا غرابة فى أن يتأثر بها أكثر من غيرها الامام مالك بن أنس رحمه الله .

« من العومنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه
فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا »
- قرآن كريم -

الاستاذ محمد حماد الورياغلي

محصل على دبلوم الدراسات العليا لدار الحديث
الحسنية ، متخصص في العلوم الاسلامية والعربية .
(الملكة المفريية)

اثر الشخصية المغربية فى فقه مالك :

للاستاذ محمد الوريثاڤلى

جاء الاسلام الى الشمال الافرىقى فى موجات متلاحقة ، بدأ من حملة عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه الى ان تم له الاستقرار فيه نهائيا على يد موسى بن نصير فى عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان فدخل المغاربة فى الاسلام ودانوا بعقائده وامثلوا لاحكامه .

ومع الزمان لم يكتف المغاربة باعتناقهم للاسلام فى حق انفسهم ، بل اخلوا راية الاسلام بايديهم فأخلوا يعملون على نشره فى اقطار أخرى شمالا وجنوبا ، فعبر طارق بن زياد وهو مغربى ، بجيش مغربى بحر الزقاق الى الاندلس وقضى فيها على « الدريق » سلطان البلاد ، ومكن فيها للاسلام ، وأخضع شعوبها لاحكامه ، فبقى الاسلام فيها ينتشر ويتمدد فى الانتشار الى ان جاوز شبه جزيرة ايبيريا الى جنوب فرنسا كما هو معروف ، كما اهتم المغاربة مع الزمان أن ينشروا الاسلام جنوبا

فى وقت مبكر ، فعندما قامت الدولة المرابطية كان لها فى بدايتها جناحان ، جناح امتد نحو الشمال ، تحت امرة يوسف بن تاشفين ، وجناح امتد نحو الجنوب تحت امرة ابن عمه ابي بكر بن عمر اللمتوني ، فدخل الصحراء القاحلة وتوغل فى بلاد السودان ، مبشرا بكلمات ربه واثقا بنصره حتى وصل الى حدود غينيا ، وهكذا امكن لراية الاسلام ان تخفق لأول مرة فوق السينغال ومالي والنيجر ، وتبع ذلك انتشار العلوم الاسلامية والعربية التي ما فتئت جامعة القرويين تغذي ابناء هذه الاقطار بلبانها حتى يومنا هذا .

وهكذا اصبح المغرب منطلق الاسلام شمالا وجنوبا ، ولا زال منطلقه عبر التاريخ الى الآن ، ولا يبعد ان يكون بعض الحاقدين عليه لمكانته فى الاسلام ، وكونه منطلقا للاسلام الى اقطار اخرى هم الذين عملوا على خلق موريطانيا سابقا ، وعلى ضم اجزاء اخرى منه للجزائر ، ويعملون الآن على خلق موريطانيا - اخرى تحت اسم « البوليزاريو » والهدف منها جميعا واحد ، وهو فصل المغرب عن افريقية ، واضعافه على متابعة رسالته ، وخلق عراقيل فى طريق نهضته .

الفقه والسياسة :

جاء الاسلام بعقيدة وشريعة ، والعقيدة تعني ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، والشريعة تعني تسييس المسلمين فى اطار الاسلام وعقيدة التوحيد بما يصلح شؤونهم ويرفع من وزنهم بين الامم ، ويمكن لهم فى الارض ، ويوفر لهم الامن والاستقرار ، فى كل بلد حسب ما يناسبه ، ومن ثم كانت العقيدة واحدة لا تتغير ولا تختلف باختلاف البلدان او الاجيال او الاعصار ، واما الشريعة فهي اعمال ، ومن الاعمال ما هو تابع لطبيعة السكان واعراف القوم واقتصاد البلاد وسياسة الناس ، فان الفقه والسياسة لفظان لمعنى واحد ، واسمان لمسمى واحد ، قال الفزالي فى احياء العلوم رقم 15 : (خلق الله الدنيا زادا للمعاد ، ليتناول منها الناس ما يصلح للتزود ، فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات ، وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت عنها الخصومات ، فمست الحاجة الى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان الى قانون يسوسهم به ، والفقيه هو العالم بقانون السياسة ، وطرق التوسط بين الخلق اذا

تنازعوا بحكم الشهوات ، فكان الفقيه معلم السلطان ، ومرشده الى طريق سياسة الخلق وضبطهم ، لينتظم باستقامتهم أمورهم فى الدنيا) .

وبما أن الفقه أعراف واقتصاد وسياسة ، كان فى فروعه يختلف بعضه عن بعض تبعا لاختلاف البيئات ، فبيئة العراق غيرها فى مصر ، وطبيعة مصر غيرها فى المغرب ، فهذه الاقطار كلها تدين بالاسلام متحدة فى العقيدة وفى أصول التشريع ، ولكن فى الفروع كان بينها بعض الاختلاف ، نظرا لاختلاف البيئة كما سبق ، وهذا امر طبيعى ، ومثاله مذهب الشافعي القديم فى بغداد والجديد فى مصر ، مع انه شخص واحد ، وعلم واحد ، وذوق واحد ، ومع ذلك كان الاختلاف ، ومن هنا نفهم ان الاحكام تابعة لاعراف البلاد لا لاجتهاد الشخص ، ولطبيعة المشاكل لا لعلم المرء ، ولذا قال الله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات » . (50 - المائدة) ، قال قتادة ، شرعة ومنهاجا ، اي سبيلا وسنة ، والسبل تختلف ، والسنن تتعدد ، وفى الصحيح : (نحن معاشر الانبياء ابناء علات ابونا واحد وامهاتنا شتى) ، وهذا كما يصدق على الاختلاف بين الانبياء يصدق على الاختلاف بين الاقطار كما سبق ، وبما ان الفقه تابع للسياسة ، كان المذهب الفقهي الذي كان يسود المغرب فى البداية هو مذهب ساسته او مذهب الولاة الذين ياتون من الشرق ، ومذهب التابعين الذين جاؤوا مع الولاة لتعليم الناس مبادئ الاسلام ، وتفاصيل الشريعة ، جاء فى تاريخ ابن الفرضي رقم 1/146 : (ان عمر بن عبد العزيز ارسل عشرة من التابعين يفقهون اهل افريقية ، منهم حبان ابن ابي جبلة ، وحبان ابن ابي جبلة هذا روى عن عمرو بن العاص ، وعن عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو ، توفى بافريقيا سنة 122 هـ) . وقال ايضا فى رقم 1/150 من المصدر نفسه : (اخبرنا الخطاب بن سلمة قال اخبرنا قاسم بن اصبغ قال : دخل الاندلس من التابعين حنش بن عبيد الله الصنعاني ، صنعاء الشام لا صنعاء اليمن ، وعلي بن رباح وابو عبيد الرحمن الحبلي وموسى بن نصير) ، ومعلوم أن مذهب التابعين هو مذهب الصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا يعملون بالكتاب والسنة والاجتهاد ، وهي اصول التشريع لجمهور المسلمين الى الآن .

وعند ما أخذت المذاهب تتكون أخذ ينتشر فيه بقطر الاندلس مذهب الاوزاعي ، وهو مذهب سني بحت ، يحاذي مذهب ابن عمر (ض) ،

ومعلوم ان مذهب الاوزاعي ظهر وانتشر فى الشام ارض الاوزاعي نفسه ، ومن الشام كان الولاة ياتون للمغرب وعاصمة الخلافة الاسلامية كانت دمشق ، فكان ملائما ان ينتشر فى المغرب مذهب الدولة او مذهب اهل العاصمة دمشق ، والمغاربة دائما يدينون بدين ملوكهم وهذه الحكمة هم الذين قالوها كما فى ابن خلدون اخذا من مذهبهم انفسهم .

وبعد ما انتقل الحكم من دمشق الى بغداد ومن الامويين الى العباسيين هرب اثناء الانقلاب عبد الرحمن الداخل الاموي الى المغرب فاستقل بالاندلس عن بغداد ، ثم هرب مولاي ادريس الاكبر فاستقل بالمغرب الاقصى ، ومن ثم اخذ المغاربة بما فيهم اهل الاندلس واهل المغرب الاقصى يستقلون بانفسهم عن الخلافة فى الشرق ، واخذوا يديرون شؤونهم بانفسهم ، وفى هذه الاثناء كانت الاندلس تطلب عليها الاوزاعية ، والمغرب كان نهبا لمذاهب شتى ، منها الاوزاعي والكوفي والخارجي والبرغواطي والشيعة الذي يقال طلع قرنه مع نشوء الدولة الادريسية . ولكن بما ان الاسلام جاء بفريضة الحج والتعلم معا ، وفريضة التعلم سابقة لفريضة الحج بدليل ان اول آية نزلت فى كتاب الله تعالى كانت « اقرا باسم ربك » - ظل المغاربة - يذهبون الى الشرق ليحجوا وليتعلموا معا ، فكانت منذ ان تمكن الاسلام فيه افواج من المغاربة تتجه الى الشرق تترى ، لاغراض مختلفة عبادة وتعلما وتجارة وسياحة فتعلموا فى مصر والحجاز ، وفى الشام وفى العراق ، مختلف المذاهب وسمعوا مختلف المصنفات ، ونقلوها معهم الى المغرب ، ولكن المغاربة اختاروا منها ان يعملوا فى شريعتهم على مذهب - مالك بن انس (ض) امام دار الهجرة ، لانه يمثل فقه السنة والمدرسة السلفية ، فهو عاش فى المدينة وتعلم علوم اهل المدينة ، والمدينة فى عصره عاصمة اهل السنة والجماعة ، اذ فيها عاش النبي (ص) حتى مات ، وفيها كان مجمع الصحابة كلهم ، ومنها تفرق بعضهم الى غيرها من البلدان ، وفيها كان الفقهاء السبعة ، والرسول (ص) عين الرحمة ، ومنبع العلم ، ومصباح المصاييح ، وبعد وفاته ظلت المصباحية تتمثل فى الكتاب والسنة حيث قال فيهما : (لن تضلوا ما تمسكتم بهما) ، والدين ورثوا مسؤولية حمل هذا المشعل لىضيء على الافاق الاخرى هم الصحابة رضوان الله عليهم ، ومن بعدهم التابعون ، وهكذا ، وهؤلاء مقرهم جميعا المدينة وان خرج منها بعضهم الى مختلف الافاق فهو قليل بالنسبة لمن بقي فيها ، وحتى الذين اضطرتهم

ظروفهم ان يخرجوا لم ينقطعوا عنها ، بل ظلوا حياتهم يذهبون ويجيئون ،
وحبلهم متصل بالمدينة باستمرار .

ومعلوم ان الناس فيهم عامة وعلماء ، والعلماء متفاوتون في العلم ،
ونخبتهم دائما قليلة باعتبار السكان ، وبما ان السكان في ذلك الوقت كانوا
قليلين كانت النخبة قليلة ، وهذه النخبة جلها عاشت في المدينة كل او
جل حياتها ، سواء في عصر الصحابة ، او التابعين او تابعي التابعين ، وفي
عهد ما قبل مالك تجمعت علوم اهل المدينة كلها في الفقهاء السبعة ، وهم
سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، وخارجة بن
زيد ، وابو بكر بن عبيد بن عبد الرحمان ، وسليمان بن يسار ، وعبيد الله
ابن عبد الله ، وقد نظمهم قائل فقال :

اذا قيل من في العلم سبعة ابهر روائتهم ليست عن العلم خارجة
فقل هم عبيد الله عروة قاسم سعيد أبو بكر سليمان خارجة

ثم تجمعت في مالك بن أنس رحمه الله وحده ، جاء في المدارك
رقم 1/159 (قال علي بن المديني أخذ عن زيد واحد وعشرون رجلا ، ممن
كان يتبع رأيه ويقوم به ، منهم قبيصة وخارجة بن زيد وعبيد الله بن عبد
الله بن عتبة وعروة بن الزبير وأبو سلمة والقاسم بن محمد وأبو بكر بن
عبد الرحمن وسالم وسعيد بن المسيب وإبان بن عثمان وسليمان بن يسار .

ثم صار علم هؤلاء كلهم الى ثلاثة ، ابن شهاب وبكير بن عبد الله بن
الاشج المخزومي وأبي الزناد ، وصار علم هؤلاء كلهم الى مالك بن أنس ،
وكان ابن مهدي يعجبه هذا الاسناد هـ . ومن ثم كان مالك وحده يمثل
علم الجيل الثالث كله ، او علم الحجاز كله ، او مدرسة اهل السنة كلها ،
ومن ثم جاء الحديث عن أبي هريرة (ض) أن رسول الله (ص) قال :
يوشك ان يضرب الناس اكباد الابل في طلب العلم فلا يجدون عالما
أعلم من عالم المدينة .

وبما ان الحجاز فيه محج المسلمين جميعا ، لقوله تعالى : « واذن
في الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق
ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات » (26) - سورة

(الحج) . وبما ان المدينة هي مجمع السنة ومدرسة علوم القراءان والحديث واجتهادات الصحابة (ض) ، وبما ان الاسلام فرض العلم طريقا للعبادة في الاسلام كان طلبة العلم ياتون الى الحجاز والى المدينة بالخصوص من مختلف الافاق ، التي تدين بالاسلام ، وياخلون عن علماء الحجاز وعلماء المدينة وخصوصا مالك بن انس (ض) ، ثم يصعدون عنها الى بلدانهم ، حاملين معهم علوم اهل المدينة ، لينشروها في بلدانهم هذه العلوم التي تتمثل في الاخذ بالسنة ، والمحافظة على الجماعة ، ولكن لم ينجح من طلبة مالك في فرض مدرسة مالك على اهل بلدهم ويستغنون به عن المذاهب الاخرى مثل ما استطاع ذلك طلبة المغرب ، فهم ذهبوا الى الشرق - وجاؤوا بفقهاء مالك وموطأ مالك ، ومسائل مالك ، فنشروها في بلدانهم وتجمعوا كلهم في اطاره ولم يسمحوا لمذهب آخر ان يزاحمه بينهم . وما المراد بالمذهب هنا؟ المذهب لغة الطريق ، ومكان الذهاب ، ثم صار عند الفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب اليه امام من الائمة في الاحكام الاجتهادية ، ويطلق عند المتأخرين عن ائمة المذاهب على ما به الفتوى من باب اطلاق الشيء على جزئه الاهم ، نحو قوله (ص) الحج عرفة ، لان ذلك هو الاهم عند الفقيه المقلد ، والمذهب بهذا المعنى لم يكن موجودا ولا معروفا بين المسلمين بهذا التحديد في عهد مالك ، وانما هو كان فقيها من الفقهاء ينشر علم السنة وفقه الصحابة والتابعين لله ، واداء لواجب العالم المسلم ، وما كان مالك يدعو احدا ان يتمسك بمنهجه هو في الاجتهاد ، ولا كان عنده هو منهاج معين في الاجتهاد وانما كان منهاجه في ذلك منهاج علماء المدينة بدون تخصيص واحد منهم . وانما ذلك حدث بعد ذلك عند ما كانت الظروف في حاجة لهذا النوع من الالتزام لمنهاج معين في الفقه والتشريع ، وهذا جاء متأخرا بعد الجيل الرابع .

وايا ما كان فالمغاربة التزموا بمذهب مالك في وقت مبكر لمصلحة في توحيد قانون البلاد ، ومن أوائل من أخذ عن مالك والتزم العمل بمذهبه من القيروان هم عبد الله بن فروخ الفارسي (115 - 175) ، وعلي بن زياد العبسي المتوفى سنة 183 ، وعبد الله بن غانم القاضي (128 - 190) ، ومن الأندلس زياد بن عبد الرحمن شبطون المتوفى سنة 199 ، ومحمد بن بشير القاضي المتوفى سنة 198 ، ويحيى بن يحيى الليثي المتوفى سنة 234 جاء في تاريخ الفكر الاندلسي رقم 418 ،

ومن الثابت على أى حال أن مذهب مالك ثبت فى الاندلس وعلا أمره فيه على أيام هشام الرضى (89 - 179) ، بسبب المكانة الرفيعة التي حظى بها يحيى بن يحيى الليثي عنده ، وكان يحيى من تلامذة مالك المباشرين ، وكان متعصبا له ولمذهبه وكان هشام يشاوره فى القضاة ، فلم يكن يولي الا المالكي هـ . . وجاء فى افتتاحية تاريخ ابن القوطية رقم 35 ، قال : (ومن بين من أسسوا المالكية بالاندلس يحيى بن يحيى الليثي وعيسى بن دينار وشبطو) هـ .

وجاء ايضا فى تاريخ الفكر الاندلسي رقم 194 : (من اقطاب المالكيين بالاندلس عبد الملك بن حبيب (179 - 138) رحل الى الشرق ودرس مذهب مالك وصار من انصاره وكان من اكبر العاملين على تحويل اهل الاندلس الى المالكية ، بعد ان كانوا أوزاعية) .

ومن أوائل من أسس مذهب مالك فى المغرب الاقصى هم دراس بن اسماعيل الفاسي ، المتوفى سنة 337 هـ ، قال فى النبوغ رقم 1/50 : (دراس بن اسماعيل الفاسي سمع من شيوخ فاس ورحل الى المشرق فحج وجال فى الاندلس وافريقية والاسكندرية ولقى فيها علي بن أبي مطر وسمع منه كتاب ابن المواز وحدث به بالقيروان ، سمعه منه ابو محمد بن ابي زيد ، وابو الحسن القابسي وغيرهما ، ودخل الاندلس ايضا مجاهدا وتردد بها فى الثغر ، فسمع منه ابو الفرج عبدوس بن خلف ، وخلف بن ابي جعفر ، وغير واحد ، وهو ممن ادخل مذهب مالك الى المغرب ، وكان الغالب على اهله مذهب الكوفيين) ، وقال ايضا فى نفس المصدر رقم 1/42 : (ولعل أهم ما نسجله فى الحياة الفكرية فى هذا العصر - عصر الفتوح - التي قلنا ان تأسيس جامع القرويين كان مبدا الارتكاز لها فى المغرب ، هو ظهور المذهب المالكي فى الفقه ، وسيطرته على المذهب الكوفي ، الذي كانت له الصولة فى المغرب ، وبالتالي قضاؤه على المذاهب الاخرى ، التي كانت منتشرة فى جهات مختلفة من هذا القطر ، كالمذهب الخارجي فى مارة بني مدرار بسجلماسة ، والبرغواطى فى تامسنا ، والشيعي الذي بدا ظهوره مع الدولة الادريسية ، وعلى كل حال فان مذهب مالك لم يتوطد أمره فى هذا العصر كمذهب فقهي فقط ، ولكن كمقيدة ايضا ، فان التلازم بين طريقته فى الفقه والاعتقاد ، وهى اتباع السنة ونبد الراى والتاويل مما يخفى . ثم قال وقد كان الفضل فى

اتجاه المغرب هذا الاتجاه ، رجال من أبنائه البررة ، تحملوا عن ديارهم ،
ومساقط نؤوسهم ، وضربوا في طول البلاد الإسلامية وعرضها ، طلبا
للمزيد من المعرفة ورغبة في سعة الرواية ، ثم عادوا الى وطنهم ،
يتفجرون علما ويلتهبون اخلاصا ، فأخذ عنهم من لم يستطع الرحلة من
مواطنيهم ، وقاموا جميعا بتأسيس قواعد العلم ، ومعاهد الدين في
مختلف انحاء البلاد ، وهؤلاء امثال ابي هرون البصري الذي كان اول من
ادخل كتاب ابن المواز الى الاندلس ، واحمد بن فتح المليلي ودراس بن
اسماعيل وابي جيدة بن احمد والاصيلي وغيرهم) .

لماذا اختار المغاربة مذهب مالك دون غيره ؟

اولا : مذهب مالك ليس مذهبا لمالك كما سبق وانما هو مذهب
المغاربة اختاروا أن يعملوا به في بلدهم كافة بالتدرج ، حتى تم لهم ذلك ،
فاستمر لهم مذهب الى الآن ، فنسبته الى مالك لا يخلو من تسامح .
ثانيا : اختاروه لكونه مذهب اهل السنة وفقه الصحابة والتابعين ،

وهذه الاعتبارات لها قداسة خاصة في نفوس المغاربة ، وايضا علوم
السنة واجتهادات الصحابة والتابعين هي اصل العلوم الاسلامية كلها ،
نشأت في المدينة ، ونضجت في المدينة ومنها تفرقت الى جميع الافاق .

ثالثا : ولكون علوم اهل المدينة علوما عملية اكثر منها نظرية ،
وتتمشى مع الفطرة في بساطة وجد ووضوح ، لا تكلف ولا تعمق ، والمغاربة
يحبون البساطة والوضوح والجد ، ويكرهون النظريات المتطرفة ،
والتاويلات المتكلفة دائما وهذه طبيعتهم باستمرار . جاء في جذوة
المقتبس للحميدي رقم 109 ، قال الحميدي : سمعت ابا عبد الله محمد
ابن الفرج بن عبد الله - الانصاري يقول : سمعنا ابا محمد عبد الله بن ابي
زيد يسأل ابا عمر احمد بن محمد بن سعدي المالكي عند وصوله الى
القيروان من ديار الشرق ، وكان ابو عمر دخل بغداد في حياة ابي بكر ،
محمد بن عبد الله بن صالح الابهرى ، فقال له يوما - هل حضرت مجالس
اهل الكلام ؟ فقال بلى ، حضرتهم مرتين ثم تركت مجالسهم ولم أعد اليها ،
فقال له ابو محمد ولم ؟ فقال اما اول المجلس حضرته فرايت مجلسا قد
جمع الفرق كلها ، المسلمين من اهل السنة والبدعة ، والكفار من

المجوس - والدهرية والزنادقة واليهود والنصارى وسائر اجناس الكفرة؛ ولكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه ويجادل عنه ، فاذا جاء رئيس من اى فرقة كان قامت الجماعة اليه قياما على اقدامهم حتى يجلس ، فيجلسون بجلوسه ، فاذا غص المجلس بأهله وراوا انه لم يبق لهم أحد ينتظرونه ، قال قائل من الكفار ، قد اجتمعتم للمناظرة ، فلا يحتج علينا المسلمون بكتابهم ولا بقول نبيهم ، فانا لا نصدق بذلك ولا تقريه ، وانما نتناظر بحجج العقل وما يحتمله النظر والقياس ، فيقولون نعم لك ذلك . قال ابو عمر فلما سمعت ذلك لم أعد الى ذلك المجلس ، ثم قيل لي ، ثم مجلس آخر للكلام ، فذهبت اليه فوجدتهم مثل سيرة اصحابهم سواء فقطعت مجالس اهل الكلام ، فلم أعد اليها ، فقال ابو محمد بن ابي زيد ، ورضى المسلمون بهذا من الفعل والقول ؟ قال ابو عمر : هو الذي شاهدت منهم . فجعل ابو محمد يتعجب من ذلك ، وقال ذهب العلماء وذهبت حرمة الاسلام وحقوقه ، وكيف يبيع المسلمون المناظرة بين المسلمين والكفار ؟ وهذا لا يجوز ان يفعل لاهل البدع الذين هم مسلمون ويقرون بالاسلام ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم وانما يدعي من كان على بدعة من منتحلي الاسلام ، الى الرجوع الى السنة والجماعة ، فان رجع قبل منه ، وان ابي ضريت عنقه ، واما الكفار فانما يدعون الى الاسلام ، فان قبلوا كف عنهم وان ابوا وبدلوا الجزية فى موضع يجوز قبولها كف عنهم وقبل منهم ، وامّا ان ينظروا على الا يحتج عليهم بكتابنا ولا بنبينا فهذا لا يجوز ، فانا لله وانا اليه راجعون) هـ .

وهذه قصة أخرى فيها شيء من هذا المعنى ، جاء فى تاريخ ابن الفرضي رقم 1/169 قال : (خليل بن عبد الملك بن كليب المعروف بخليل الفضلة من اهل قرطبة ، رحل الى الشرق ، وروى بها كتاب التفسير المنسوب الى الحسن بن ابي الحسن ، من طريق عمرو بن فائد ، رواه عنه يحيى بن السمينه وكان يجاهر بالقدر ، وكان فى بدء امره صديقا لابن وضاح ، ثم لما تبين امره لابن وضاح هجره ، وبعد موت خليل هذا عمد الفقهاء الى كتبه فأحرقوها الا ما كان فيها من كتب المسائل) هـ .

فهاتان القستان تعطيان لنا موقف المغاربة بجميع أقطاره من اهل البدعة من المسلمين ومن الجدل فى العقيدة وعلم الكلام ، وهم تابعون فى ذلك لمدرسة مالك واهل السنة ، وموقف هذه المدرسة من الممتزلة

معروف يتمثل فى الكراهة والشجابه والنفور ، كما أن موقفها ايضا فى التفويض معروف ، فقد قال مالك (ض) لما سئل عن قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ، الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، لذا كان المذهب الاشعري فى العقيدة هو مذهب المغاربة كلهم ولم يشذ عنها منهم شاذ . قال السبكي فى مفيد النعم ومبيد النقم : (وهؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية - وفضلاء الحنابلة يد واحدة ، كلهم على رأى أهل السنة والجماعة ، يدينون بطريقة شيخ السنة ابي الحسن الاشعري ، لا يحيد عنها الا رعاى من الحنفية والشافعية لحقوا بأهل الاعتزال ، ورعاى من الحنابلة لحقوا بأهل التجسيم ، وبرأ الله - المالكية فلم ير مالكي الا اشعري العقيدة) ه .

وهذه طبيعة المغاربة دائما عند ما يعتنقون مذهباً يجتمعون عليه ويتعصبون له ولا يسمحون لمذهب آخر يعيش بجانبه ، وهذه الميزة لا تجدها فى المشرق ، هناك تجد فى المذهب الحنفى مثلاً سنياً ومعتزلياً وجهمياً ورافضياً ، كما أنك تجد هناك فى البلد الواحد حنفياً وشافعياً وحنبلية ومالكية ، أما المغاربة فلا تجد فيهم هذا التشتت فى العقيدة او التفرق فى المذهب ، ويكفيك هليلاً على هذا أن المسجد الاموي بدمشق فيه أربعة محارب على ما يقال ، بينما المسجد الجامع فى القيروان وقرطبة وفاس محراب واحد ، وصدق رسول الله حيث قال الفتنة دائماً تأتي من الشرق ، وبالمفهوم اذا كانت الفتنة تأتي من الشرق فالوحدة والاتحاد يأتي من الغرب ، فقد جاء فى صحيح مسلم رقم 18/31 عن ابن عمر (ض) انه سمع رسول الله (ص) وهو مستقبل المشرق يقول (الا أن الفتنة هاهنا ، إلا أن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشمس) .

رابعاً : اختاروه لانه يجمع بين الراى والنصوص ، والراى فيه أكثر من النصوص ، فموطأ مالك رحمه الله فيه سبعمائة حديث ، وفيه من المسائل ثلاثة آلاف مسألة كما فى الرسالة المستطرفة رقم 13 ، والمغاربة يميلون الى الرواية تبركاً ، والى الدراية اقتناعاً ، ففقههم جامع بين الرواية والدراية ، جامع بين الرواية لانه فقه انقال ويعتمد الرجال ، وجامع للدراية لانه يميل الى المناقشة والكشف عن الحكمة وحصول الاقتناع .

مقارنة بين المغاربة والمشاركة في العلوم :

المغاربة يحبون العلوم ، ويحبون السنة أكثر ، لأنها مصدر العلوم ، ويحبونها أكثر لأنها مصدر الدين كله ، لذلك كانوا يقصدون الشرق لأجل الرواية ، والبحث عن العلوم في الرواية ، وهو لهم طبيعة استيعابية للعلوم ، ولا سيما الجديد منها ، ويحبون الاطلاع على كل شيء في مجال المعرفة ، ومن ثم كانوا يجوبون الاقطار الاسلامية كلها للاطلاع على ما فيها ، وتعلم ما فيها ، وتنقل ما فيها الى بلادهم ، وفي بلادهم يجلسون الى ما نقلوا ينقلون ويختارون منه ما يلائم ذوقهم وبلادهم ومشاكلهم . مثلاً جاء في تاريخ ابن الغرضي رقم 1/290 : (ان أبا محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد الاصيلي - من أهل أصيلة بالمغرب الأقصى - ذهب الى قرطبة سنة 342 فسمع بها من أحمد بن مطرف وأحمد بن سعيد في جماعة ، ثم رحل الى وادي الحجاز فسمع بها من وهب بن مسرة ، ثم رحل الى المشرق سنة 351 ودخل بغداد فسمع من أبي بكر الشافعي وأبي علي الصواف وغيرهما ، وتفقه هناك لمالك ، ثم رجع الى الأندلس فشور وقرأ عليه الناس كتاب البخاري رواية أبي زيد المروزي وغير ذلك ، وجمع كتاباً في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة ، سماه « كتاب الدلائل على أهميات المسائل » . وكذلك الأندلس لم يكن فيها عالم نبيه لم يجل في الشرق على مختلف مدارس العلوم ويطلع على ما فيها وينقل المؤلفات الجديدة التي لا زالت لم تعرف في بلاده ، ومن أراد أن يتحقق من ذلك فليطالع « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس » للحافظ أبي الوليد - عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي ، المعروف بابن الغرضي المتوفى سنة 403 هـ ، وكذلك علماء القيروان فتلك سنتهم ، كانوا يقصدون الى الشرق ويطوفون في مصر والحجاز والشام والعراق ، يجمعون العلوم ويتلقفون المسائل حتى يملؤوا الوطاب ، ثم يعودون الى بلادهم للتعليم والنشر والتأليف ، مثل ابن غانم وابن فروخ وغيرهما ، فأسد بن الفرات عند ما ذهب من المدينة الى العراق لم يكن ذلك منه بدعاً ، بل كان تابعاً لسنة من قبله من أهل بلده ، فكان قبله علي بن زياد ذهب الى المدينة وأخذ عن مالك موطأه ، ثم ذهب الى العراق وأخذ عن سفيان مسنده ، فكان أول من أدخل الى المغرب الموطأ وجامع سفيان ، وكذلك ابن غانم قبله ، رحل الى الحجاز والشام والعراق فسمع من مالك وعليه اعتماده ، ومن سفيان الثوري ومن أبي يوسف وغيرهم ، انظر المدارك رقم : (3/66/80) .

فالمقاربة من هنا يتفوقون على الشرقيين ، لانهم ياخذون عن علماء بلدهم وعن علماء الشرق فى جميع أقطاره ، وينقلون ما يروج فيه فى جميع أقطاره ، من علوم ومذاهب وتآليف الى بلادهم ، ثم يتخذون ما يليق بهم ، فهم لهم علومهم وعلوم أهل الشرق وكتبهم ، وكتب أهل الشرق ، اما أهل الشرق فليس لهم الا ما لهم ، ولا يأتون الى المغرب ياخذون عن علمائه الا نادرا ، وان كان علماء المغرب يغنونهم عن ذلك فهم يذهبون الى الشرق لا لياخذوا فقط ، بل وليعلموا ايضا ، جاء فى ابن الغرضي رقم : 1/374 : (كان محمد بن عمر بن لبابة يقول سمعت أبا زيد عبيد الرحمن بن ابراهيم يقول : خرجت الى المشرق ومعى كتاب البيوع من سماع عيسى بن دينار ، فأرثته ابن الماجشون وقرأته عليه فصلا فصلا ، فكان لا يمر بفصل الا قال أحسن والله عيساك) . وفى المدارك رقم : 4/168 : (قال أبو الفصن السوسي : كنت ربما أقول لمحمد بن عبد الحكم ، قال سحنون فى هذه المسألة كذا وأتكر كذا ، فيتلقى ذلك بالقبول ويعظم سحنون ويترجم عليه ، قال وكان ابن المواز لا يتلقى ذلك بالقبول ويقول لي : من هنا خرج العلم ، ومن عندنا أتاكم العلم ، ومثل هذا من القول) .

أثر الشخصية المغربية فى مذهب مالك :

تعريف الشخصية أولا : الشخصية باعتبار الفرد ، هي نظام متكامل من مجموع الخصائص الجسمية والوجدانية والنزوعية والفكرية التي تعين هوية الفرد وتميزه من غيره من الافراد تميزا بينا ، وما يقال عن الفرد يقال عن الاقليم والقطر وسكان القطر وغير ذلك مما يكون متميزا فى نفسه عن غيره بميزات ذاتية ظاهرة لا يشاركه فيها غيره ، وعليه فالشخصية المغربية اذا راعيناها فى الانسان المغربي باعتبار انه القاسم المشترك تعم جميع المقاربة او فى بيئته ، فلا نجدتها فى الأرض ولا فى الانسان ، لان البيئة الريفية غير الجبلية ، وبيئة الغرب غير بيئة الاطلس ، وبيئة المغرب الزراعي غير بيئة المغرب الصحراوي ، وقس عليها غيرها ، فلكل بيئة شخصيتها وطبيعتها وافكارها ومثلها العليا ، وكذلك الناس تابعون لبيئتهم ، فناس الريف غير ناس الجبال ، وناس جبالة غير ناس الخلوط وهكذا ، وكذلك يقال عن مناطق افريقية ومناطق الاندلس فهي اشتات ، فاني نجد الشخصية المغربية التي تعم سائر هذه

الاقطار ؟ ، واذا تركنا الأرض وسكان الأرض ، وراعينا اللغة كقاسم مشترك أو الدين ، فانا نجد حينئذ باعتبار اللغة أن هناك قاسما مشتركا واسعا يشمل المغرب والعرب كلهم ، واذا راعينا الدين فنجدته اوسع ، لانه يشمل المغرب والعرب والعجم ، فاني نجد القاسم المشترك الذي يشمل المغاربة كلهم ولا يدخل فيه معهم غيرهم ؟، نجدته في التشريع ، فالمغاربة أخذوا في الفقه بالمذهب الذي ينسب الى مالك ، وهو مذهب لهم خاصة ، والتزموا العمل بمقتضاه جميعا بما يشمل المغرب والاندلس والقيروان ، ولا يجاوزهم الى العرب في الاقطار الاخرى ولا الى العجم ، إذن فهذا الاطار هو الذي يجمعهم جميعا ويميزهم عن غيرهم .

طيب وهذا مذهب مالك مذهب أهل السنة فما أثر المغاربة فيه ؟ مذهب أهل السنة يمثلته مالك وغير مالك من أهل الحجاز ، والحجاز قطر فقير في مختلف الوجوه ، يعيش على الكفاف ونقل السلع من الشام الى اليمن أو بالعكس ، تجارة فيها أو اجارة عليها ، ومن هنا يكون الحجاز يشبه أرض الحجاز ، في البساطة والكفاف ، لان الفقه صورة للمجتمع ، والمجتمع صورة للأرض التي يعيش فيها والبيئة التي درج عليها ، وكان بجانبه مذهب العراقيين ، والعراق قطر غني فيه فلاحه وتجارة وصناعة ومال وخصوبة وطبعا تكون مشاكله موسعة جدا وكثيرة جدا ، فكان فقهه كذلك موسع جدا وكثير جدا ، وهذان هما المذهبان اللذان كانا يتقاسمان العالم الاسلامي في الفقه والتشريع آنذا ، وبما ان المغاربة دأبهم السياحة كما قلنا للعلم والتحصيل ، كانوا يزورون فيما يزورون الحجاز والعراق معا ، فراوا ما في العراق من فقه وفروع ومن توسع فيهما ، وراوا ما في الحجاز من بساطة وكفاف وقلة مما لا يتناسب مع أهل العراق وفكروا ان قطرهم وهو المغرب الواسع غني جدا أكثر من العراق وواسع جدا أكثر من العراق ، وراوا ان مشاكله ستكون شبيهة بالعراق ، لانه حيث يكون المجتمع واسعا تكون مشاكله واسعة ، حسب ما فيه من الفنى والخصوبة والازدحام ، ويكون بالتالي الفقه واسعا ، فرغبوا في أن يكون الفقه لديهم بقدر يغطي مشاكلهم في مجتمعهم الفنى الواسع ، ولا يكون ذلك الا في فقه العراق ، ولكن فقه العراق مؤسس أكثره على الراي ، والمغاربة اختاروا ان ياخذوا بمذهب أهل السنة ، وليس فيه كثرة الفروع مثل ما هي في فقه العراق ، فعملوا على ان يجمعوا بينهما ، فاخذوا مناهج فقه العراق في المسائل والفروع فسعوا في أن يحصلوا الاجوبة عليها من أهل

السنة ، وهذا ما حصل . رحل أسد بن الفرات الى العراق فتفقه على أصحاب ابي حنيفة ونقل كتبهم فقدم بها مصر ، فتلاقى مع طلبة مالك وخصوصا ابن القاسم (128 - 191) فلأزمهم وأخذ عنهم أجوبة مدرسة أهل السنة على فروع مدرسة أهل العراق ، وسجل ذلك كله في كتاب أو في كتب عدة فكانت هذه الكتب هي المدونة الأولى أو المختلطة أو الاسدية فرجع بها الى - القيروان فحصلت له بها رئاسة عظيمة ، فتلقاها فيمن تلقاها منه سحنون بن سعيد التنوخي من أهل القيروان (160 - 240 هـ) ، فعاد بها الى مصر ، وعرضها مرة أخرى على ابن زياد فأقر منها ما أقر وأصلح منها ما أصلح ، واتصل بغير ابن القاسم من أصحاب مالك مثل أشهب وابن وهب وعلي بن زياد وابن مهدي وغيرهم فأخذ عنهم أيضا ، ودون ما أخذه عنهم في مدونته تلك ، فكانت هذه المدونة تشتمل على أكثر من أربعين ألف مسألة ، وهي أم فقه المفاربة الى الآن قال الحطاب في مقدمة شرحه على خليل : (والمدونة أشرف ما ألف في الفقه من الدواوين وهي أصل المذهب وعمدته) . وهو كذلك ، فالتأليف التي جاءت بعدها لم تخرج عن مهيبتها ، بل جمعت مسائلها وأضافت إليها ما فاتها من الاسماع والنوادر والنقول ، عن شيوخ المدونة وعن غير شيوخها .

ابن يتجلى أثر الشخصية المفريية ؟ :

تجلى الشخصية المفريية هنا في كونهم فرضوا منهاجا ثالثا في الفقه والتشريع غير فقه أهل العراق وغير فقه أهل السنة في المدينة ، بل جامعا بينهما وأخذاً محاسنهما معا ، فعلوا ذلك بعد ان اطلعوا على المذهبين معا وتمثلوا محاسنهما معا ، فلم يقعد بهما التقليد للاقتداء بأحدهما ، بل عملوا على انشاء مدرسة ثالثة وهي مدرسة أهل السنة مطعمة برياض العقل العراقي .

ثانيا : تجلى في كونهم خالفوا منهاج التأليف المتبع في الموطأ الى المنهاج المتبع في المدونة ، فالموطأ يأتي بالحديث ثم بأقوال الصحابة أو غير الصحابة ، ثم بالاجتهاد ان كان هناك اجتهاد ، أما المدونة فشئ آخر تأتي بسؤال من سحنون موجه الى ابن القاسم وهذا هو الغالب ، وقد يوجه الى غيره من أصحاب مالك ، فيجيب عنه بما رواه عن مالك

مباشرة ، او بما بلغه عنه ، او بالاجتهاد عما قال مالك ، او بالاجتهاد من عنده ، ثم بعد ذلك ياتي سحنون ببعض الآثار لتأييد هذا الفقه وقد لا يأتي بشيء ، بحيث صار قطب الرchy فى المدونة هو الفقه الفرعي ، لا الآثار بخلاف الموطأ .

والسياق الذي يتبعه سحنون فى ذكر المسائل ان ياتي الى مسألة مثل بيع اللحم باللحم ، فيسأل عنها ، ثم يشتق منها فروعا أخرى ، يسأل عن حكم كل فرع ، بقطع النظر عن كونه يقع او لا يقع ، وانما هو يتبع الامكانات العقلية ، فكل فرع يمكن ان يقع عقلا يسأل عنه فيخبره بحكمه ، مما جعله يملأ بهذه القضية وحدها وما اشتق منها من فروع صفحتين ونصفا ، انظرها فى الرقم : 4/110 . وهذا المنهاج توبع بعد ذلك عندهم فى غير المدونة من التأليف ، فتوسعت الفروع جدا بحيث صار الانتاج اكثر من الاستهلاك ، وحتى نسب الى مالك من تلك الفروع اكثر من سبعين ألف مسألة ، وحتى اخذوا من الزمان ياتون فى الاستفتاء بمسائل شاذة غريبة لا تقبل الاحتمال وأخرى الوقوع ، مثال ذلك جاء فى فتاوى عlish رقم : 2/25 : (ما قولكم فى رجل مات وأحياه الله تعالى هل بانت زوجته ام لا ، واذا قلتم بانت فهل يجوز له العقد عليها ام لا ؟ واذا قلتم بالجواز فهل ولو فى العدة ؟ وهل تكون معه بعصمة جديدة ؟ وهل حكم المرأة اذا ماتت وأحياها الله تعالى حكم الرجل ام لا كيف الحال ؟ افيدوا الجواب) .

وجاء فيها فى رقم 2/36 : (ما قولكم فيمن قال لزوجته انت طالق ثلاثا ان لم أطاك هذا اليوم ، وحلف بالطلاق الثلاث لا يفتسل ذلك اليوم ، وحلف بالطلاق الثلاث ان يصلي جميع الصلوات فى أوقاتها فى ذلك اليوم ، فما الحكم) ؟ .

وهذا النوع من الاستشكالات ليست من وحي الواقع وإنما هي من حذقة الفقهاء ، واظهار المقلدة فى التمكن من الاستطاعة ان ينقد الناس من المحارج مهما كانت عاصية .

ثالثا : وفى كونهم ركزوا فروع الفقه كلها على مالك وأصحابه الأخذين عنه عملا على توحيد الاحكام ، ومن هنا أصبح منبع العلم ومنبع السنة ، فكل مسألة رويت عنه لو قيس على كلامه كانت من السنة ، فهو لم يبق عالما واحدا من اهل السنة ، بل صار رمزا للمدرسة كلها ،

فالسائل عند ما يسمع الجواب عن مالك لا يبقى يبحث للحكم عن أصل آخر من الكتاب والسنة ، بل يكتفي بقول مالك ، بذلك صار يصدق عليه قول صاحب الهزيمة فى الامداح النبوية :

انت مصباح كل فضل فما تصدر الا عن ضوءك الاضاء

والحقيقة انه كان يمثل مدرسة اهل السنة جميعا ، فعلم مالك فى موطنه هي علوم اهل المدينة ، وأصول مالك هي أصول اهل المدينة كلهم لا لمالك وحده أو لفردين أو ثلاثة بل هي المدينة ، ولأجيال اهل المدينة كلها من أتباع التابعين الى عصر النبي (ص) نفسه ، ومن هنا كان لهذه المدرسة قوتها ومن الاعتبار حظها الوافر ، فحينما تنسب المذهب الى مالك كماله مجتهد وكأنه عمل فردي ومجهود شخصي تخطيء ، وتحول القضية عن معناها الحقيقي - الكلي الى معنى فردي ضعيف ، وهذا لا ينبغي ، وهذا من دعاية اصحاب المذاهب المضادة لتفريغ مذهب مالك من محتواه الحقيقي ، وجعله مذهبا شخصيا أو مدرسة شخصية ، والشخص الواحد مهما أوتي من عبقرية وتحصيل وتوفيق ، فهو شخص واحد لا يعدو قدره ، لا يكون اعتبار الجماعة ولا قوة الجماعة من أمثاله ، وهذا ايضا مخالف للواقع كما رأينا سابقا ، فمالك ليس له فى موطنه من مجهود الا التسجيل والجمع والتنقيح لعلوم اهل المدينة العملية المتفق عليها ، او يعمل بها جل فقائها ، ومجهود العمل على نشر علم اهل المدينة وعمل اهل المدينة بين الافاق ، استرسالا فى أمثال أمر عمر بن عبد العزيز ، بنشر علوم السنة المعروفة بين اهل المدينة فى الافاق ، ليجتمع عليها الناس كافة ، وليقحم بها اهل الاهواء ، ويرجع بها على اجتهاد الآخرين ، من اهل الراى والقياس والاستحسان ، وليطلع المسلمون على علوم الصحابة والتابعين وعلوم الخلفاء الراشدين ، فعلم اهل المدينة لها صفة الشمول والجماعة ، ولها صفة العمل المستمر ، بحيث لم تكن نظريات يحتمل ان يصدقها الواقع او لا يصدقها ، بل هي اعمال معاشة ثابتة مستقرة مرت عليها التجربة واعطت لها صلاحيتها ، ومن ثم كان لها من الوثوق والنورانية والقبول مالم يكن لعلوم بغداد ولا دمشق ولا غيرها من الامصار ، لما للمدينة من الخصائص والمميزات والاعتبارات التي لا يمكن ان تكون لغيرها من العواصم ، وايضا فهي التي تمثل معالم الشخصية الاسلامية سواء فى المنهج التربوي والروحي او فى المعاملات والاهداف التي يعمل لها الاسلام ، والطرق التي يتبعها للوصول الى هذه الغاية ، لان

الإسلام فيها نشأ وترعرع واستقر ، ومنها خرج وانتشر في الأفاق ، ومن ثم أمر عمر بن عبد العزيز بجمع علوم أهل المدينة ونشرها في الأفاق تمهيدا لخلل الناس عليها وتوحيدهم على العمل بها حفاظاً على الوحدة وخدمة للنظام والاستقرار .

رابعاً : وفي كونهم امتنقوه والتزموا العمل بمقتضاه وتعصبوا لصالحه ، فلم يسمحوا لمذهب آخر يزاحمه ، فكان كذلك ، رغم أن جميع المذاهب التي ظهرت في المشرق دخلت إلى المغرب إلا أنها عاشت ضمن بعض الأفراد ، أما الجماعة فظلت تعمل - بمذهب مالك وحده . جاء في المدارك رقم 1/15 : (وأما إفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى أن دخل علي بن زياد وابن أشرس والبهلول بن راشد ، وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ولم يزل يفسو إلى أن جاء سحنون فغلب في أيامه ، وفض خلق المخالفين ، واستقر المذهب بعده في أصحابه ، فشاع عن تلك الاقطار إلى وقتنا هذا) . ثم قال : (وأما أهل الأندلس فكان رأيهم منذ فتحت على رأي الأوزاعي إلى أن رحل إلى مالك زياد بن عبد الرحمن وقرعوس بن العباس والغازي بن قيس ومن بعدهم ، فجاءوا بعلمه وأبانوا للناس فضله ، واقتداء الأمة به ، فعرف حقه ، ودرس مذهبه ، إلى أن أخذ أمير الأندلس إذ ذاك هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الناس جميعاً بالتزام مذهب مالك ، وصير القضاء والفتيا عليه ، وذلك في عشرة السبعين ومائة من الهجرة في حياة مالك رحمه الله تعالى ، وشيخ المفتين حينئذ صمصعة بن سلام أمام الأوزاعية وراويتهم ، وقد لحق به من أصحاب مالك عدة ، فالتزم الناس بها من يومئذ هذا المذهب ، وحموه بالسيف عن غيره جملة ، وأدخل بها قوم من الرحالين والغرباء شيئاً من مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد ودأود فلم يمكنوا من نشره فمات بموتهم على اختلاف أزمانهم ، إلا من تدين به في نفسه ممن لا يؤبه لقوله ، على ذلك مضى أمر الأندلس إلى وقتنا هذا) .

خامساً : وفي كونهم توسعوا في القياس حيث لم يقتصروا على أن جعلوا القياس يكون على أصل في الكتاب أو السنة أو الإجماع ، بل أجازوا القياس على القياس ، ومعنى ذلك أن الأصل عندهم لا ينحصر في الكتاب والسنة والإجماع فقط ، بحيث لا قياس إلا عليها ، بل جعلوا

الفرع المقيس عليه يصح ان يكون أصلا عند الضرورة أى عند ما يتعذر وجود أصل فيها يقاس عليه فيجوز القياس على الفرع لعله أخرى جامعة بينه وبين الفرع الجديد ، وهكذا يقال عن الفرع الثالث والرابع الى ما لا نهاية له ، واستدلوا لذلك بأمور معقولة جدا ، وفى هذا يقول ابن رشد فى مقدمته رقم 1/22 : (القياس هو حمل فرع على الاصل - ننبه الى تعميم هذا الاصل - فى اثبات الحكم او اسقاطه لعله يدل الدليل على ان الحكم انما ثبت فى الاصل - لتلك العلة ، وتكون تلك العلة موجودة فى الفرع ، فيقتضى ذلك الحاقه بالاصل فى اثبات ذلك الحكم فيه ، واذا علم الحكم فى الفرع صار أصلا ، وجاز القياس عليه بعله أخرى مستنبطة منه ، وانما سمى فرعاً ما دام متردداً بين الاصلين لم يثبت له الحكم بعد ، وكذلك اذا قيس على ذلك الفرع بعد ان ثبت أصلا بثبوت الحكم فيه فرع آخر بعله مستنبطة منه ايضا ، فثبوت الحكم فيه صار أصلا وجاز القياس عليه الى ما لا نهاية له ، وليس كما يقول بعض من يجهل أن المسائل فروع ، وهذا خطأ بين ، اذ الكتاب والسنة والاجماع هي أصول - أدلة الشرع ، فالقياس عليها أولا ، ولا يصح القياس على ما استنبط منها الا بعد تعذر القياس عليها ، فاذا نزلت نازلة ولم توجد لا فى الكتاب ولا فى السنة ولا فيما أجمعت عليه الأمة نصا ولا وجد فى شيء من ذلك كله علة تجمع بينه وبين النازلة ، ووجد ذلك فيما استنبط منها ، او فيما استنبط مما استنبط منها ، وجب القياس على ذلك) . ثم استدلل لذلك بقانون النظريات مع الضروريات وان النظريات بعضها مبني على بعض حتى ينتهي الامر بها الى الضروري على ترتيب نظام الاقرب فالاقرب ، فقال : (مثال ذلك فى اني أعلم نفسي ضرورة ، فاذا علمتها ضرورة نظرت هل انا محدث او قديم ، فعلمت بالنظر اني محدث ، وعلمي بانني محدث علم نظري مبني على العلم الضروري ، فاذا علمت اني محدث نظرت هل لي محدث أم لا ، فعلمت بالنظر ان لي محدثا ، فالعلم بأن لي محدثا علم نظري مبني على علم نظري ، فاذا علمت بأن لي محدثا نظرت هل محدثي قديم او محدث ، فعلمت بالنظر انه قديم ، وهو الله رب العالمين ، فعلمي بأنه قديم علم نظري مبني على علم نظري وهو ان لي محدثا ، والعلم بأن لي محدثا مبني على علم نظري وهو العلم بحدوثي ، والعلم بحدوثي مبني على الضرورة وهو العلم بوجود نفسي) .

سادسا : وفي كونهم اتخذوا مجلسا للشورى فى المحاكم ، مهمته مساعدة القضاة فى الكشف عن الحكم المناسب ، او الاجتهاد فى تشريع الحكم المناسب ، وهذا ما يضمن للتشريع ان يكون يسير بسير الزمان ، ويتطور بتطور الاحداث . فى الابحاث السامية رقم 1/179 : (كانت الدولة الاموية بالاندلس تنتقي لمجلس شورى الاحكام اكابر العلماء ، وتصدر لهم المراسيم بالتعيين ، بحيث لا يقدم لذلك الا من صار له التعيين من الخليفة) وهذا ما تشهد له القصة التالية : جاء فى تاريخ ابن الفرضي رقم 1/323 : (كان عبد الاعلى بن وهب بن عبد الاعلى مولى قريش من اهل قرطبة يكنى ابا وهب كان مشاورا فى الاحكام ، يستفتى مع يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وعبد الملك بن حبيب واصبغ بن خليل ، وكان سبب تقديمه للشورى ان عبد الملك كان كثيرا ما يخالف يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان فى الشورى فشهدوا عند القاضي مجلس الشورى فسلورهم فى قضية ، فافتى فيها يحيى بن يحيى وسعيد ، فخالفهما عبد الملك بن حبيب ، وادعى فى خلافهما رواية عن اصبغ بن الفرّج ، وكان عبد الاعلى قد لقي اصبغ بن الفرّج ، فاجتمع به سعيد بن حسان ، فسأله عن المسألة هل تذكر فيها عن اصبغ شيئا ؟ فأخبره فيها عن اصبغ بما وافق قوله وقول يحيى ، وبخلاف قول عبد الملك عن اصبغ ، واستظهر فى ذلك بالقرطاس الذي سمع من اصبغ ، فاجتمع سعيد ويحيى على ان يسالا القاضي اعادة الشورى فى المسألة واحضار عبد الاعلى ، وبيتا مع عبد الاعلى على ان يكذب عبد الملك بن حبيب اذا خالفهما ، ويستظهر بكتابه ورواياته عن اصبغ ، فاحضرهم القاضي واعاد الشورى فى المسألة وحضر عبد الاعلى بما سألهم ، فافتى يحيى بن يحيى وسعيد بفتياهما الاولى ، وافتى عبد الملك بخلافهما وادعى رواية عن اصبغ ، فكذبه عبد الاعلى وأخرج كتابه وأراه القاضي ، فخرج القاضي على عبد الملك فعنفه وخشن له ، وقال له انما تخالف اصحابك بالهوى ، فرفع عبد الملك بن حبيب الى الامير عبد الرحمن بن الحكم كتابا يشكو فيه يحيى وسعيد بن حسان ، ويفرى بالقاضي وانه شاور عبد الاعلى بدون اذلك ، فانكر الامير ذلك واغلق للقاضي ، ولحقت عبد الاعلى غضاضة ، فرفع الى الامير كتابا يذكر فيه ولاءه ، ومكانه من العلم ويصف رحلته وطلبه ، واستشهد بالقاضي ويحيى بن يحيى وسعيد بن حسان ، فأمر القاضي باحضاره الشورى من ذلك الوقت) .

سابعاً : وفى كونهم وسعوا باب الاجتهاد فعملوا بالسياسة الشرعية التي تعني الحفاظ على مصالح الامة بابعاد ما يضر بها ، وجلب ما ينميها ، ويقوي جبهتها الداخلية بالقضاء على الظلم والامتيازات والاستغلالات وتوفير العدل للجميع ، ومن اسباب الاخاء والتعاون بين المواطنين وجميع ما من شأنه يبعث فيهم الثقة والنشاط والامل ، وهذا باب واسع وفى هذا يقول فى التبصر رقم 2/132 : (القسم الثالث القضاء بالسياسة الشرعية) ، قال والسياسة نوعان : سياسة - ظالمة فالشرع يحرمها ، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظلم وتردع اهل الفساد ويتوصل بها الى المقاصد الشرعية ، فالشرع يوجب المصير اليها ، والاعتماد فى اظهار الحق عليها ، وهي باب واسع تضل فيه الافهام ، وتزل فيها الاقدام ، واهماله يضيع الحقوق ويعطل الحدود ويجريء اهل الفساد ، والتوسع فيه يفتح ابواب المظالم الشنيعة ، ويوجب سفك الدماء واخذ الاموال بغير الشريعة ، وبهذا سلكت طائفة فيه مسلك التفريط المذموم فقطعوا النظر عن هذا الباب ، الا فيما قل ، ظنا منهم ان تعاطي ذلك مناف للقواعد الشرعية ، وطائفة سلكت هذا الباب مسلك الافراط ، فتعدوا حدود الله وخرجوا عن قانون الشرع الى انواع الظلم والبدع والسياسة ، وتوهموا ان السياسة الشرعية قاصرة عن سياسة الخلق ومصالحة الامة ، وهو جهل وغلط فاحش ، فقد قال الله عز وجل : « اليوم اكملت لكم دينكم » فدخل فى هذا جميع مصالح العباد الدينية والدنيوية على وجه الكمال ، وطائفة توسطت وسلكت مسلك الحق ، وجمعوا بين السياسة - والشرع ، فقمعوا الباطل ونصبوا الشرع والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

وفى هذا النص ان السياسة الشرعية تعني الحفاظ على المصالح على وجه الكمال ، والمصالح تختلف حسب الزمان والمكان ، وكذلك الاحكام الشرعية تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وهذا امر مسلم لا يجادل فيه الا من جهل طبيعة التطور والثبات ، وشاهد ذلك سياسة النسخ وتخصيص العمومات سواء فى الشريعة الواحدة او فيما بين الشرائع المتعددة ، كشريعتنا مع شريعة موسى عليه السلام . ومن السياسة الشرعية التزام العمل بمذهب واحد ، والزام القضاء الحكم بالراجح او المشهور او ما به العمل ، لان ذلك يخدم الوحدة الوطنية والوحدة التشريعية والوحدة الاجتماعية ، واشعار الناس المساواة امام القانون بين السيد والمسود والشريف والوضيع ، فلو كان الحكم

موكولا الى اجتهاد القضاة على اختلاف المذاهب لكانت الفوضى ، والبلبلة وعدم الاستقرار ، ولا سيما فى العصور المتأخرة التي ضعف فيها الوازع الديني واستولى حب المادة على النفوس ، ففي مثل هذه الظروف يجب ان يحمل القضاة على الحكم بفقہ واحد وقانون واحد ومسطرة واحدة،حتى لا يبقى لهم المجال للخوض فيما لا ينبغي .

والتزام العمل بهذا النظام سواء فى القضاء ام فى الفتوى استتبع اشياء أخرى مثل تسجيل الفروع الفقهية التي تكون بها الفتوى على شكل اداري يسجلونها ويحفظونها ويعلمونها لاولادهم كما هي بدون بيان مصادرها التي اشتقت منها فى الكتاب والسنة والاجتهاد بل يقتصرون عليها وعلى تداولها ونشرها مختصرة عن اصولها ، وهنا يتجلى انهم عمليون اكثر منهم نظريين ، واستتبع كذلك العناية بالعقود والوثائق والشروط التي تحفظ الحقوق لاهلها ، وسد الباب فى وجه الإنكار والتحايل والتلاعب ، ومن هنا نشأ فقه الوثائق وهو فن مهم ، واشتهر فيه المغاربة أكثر من الشرقيين كما هو معروف .

واستتبع كذلك تنظيم المسطرة القضائية التي يجب ان يخضع لها الترافع أمام المحكمة ، وبيان من هو المدعي ومن هو المدعى عليه ، ومن يطالب بالاثبات أولا فأولا ، وبما ذا يكون الاثبات ، والاجل للاثبات ، ومم يكون قدره فى مختلف القضايا ، ومتى يكون الحكم والاعذار قبل الحكم ، وهل يعقب أو لا يعقب ؟ وكون الحكم يرفع الخلاف ولا يحل الحرام الخ .

هذه كلها قوانين ومناهج قضائية استنبطت للعمل بها أخذا بالسياسة الشرعية ، ورعاية للمصالح العامة ، توفيراً للعدل وتوحيداً للقضاء ، ومساواة بين الناس أمام القانون ، وبثاً للامن والاستقرار فى البلاد .

وأخيراً اذا تتبعنا المراحل التي قطعها الفقه والتشريع لدى المغاربة نجدها كما يلي :

- التزام المذهب بمذهب مالك .
- تطعيم مذهب مالك بمذهب أهل العراق كما هو موجود بالمدونة .

— جمع روايات أخرى لم تسجل في المدونة عن مالك وأصحابه ، فكانت الامهات الاخرى ، مثل الواضحة والعتبية ، وهذه هي الامهات الثلاث التي انشأها المغاربة في فقه مالك كما هو معروف .

— ترجيح بين الروايات المختلفة ، وتوحيد ما بينها من وفاق وخلاف ، وبيان أسس الخلاف فيما فيه خلاف ، وعقد المقارنة بين الروايات المختلفة فنشأ عنه قانون المشهور والراجح وما به العمل ، وهذه المرحلة اشتهر فيها ابن رشد والرخمي والمازري وابن يونس وغيرهم .

— مرحلة اخيرة الزام القضاة بالعمل بالراجح او المشهور او ما به العمل .

وعن التزام مذهب مالك وازهار اثر الشخصية المغربية في فقه مالك في مؤلفات لهم كانت بمثابة الامهات لما بعدها . قال ابن خلدون في مقدمته رقم 377 : (واهل المغرب جميعا مقلدون لمالك رحمه الله ، وقد كان تلاميذه افترقوا بمصر والعراق ، فكان بالعراق منهم القاضي اسماعيل وطبقته . . وكان بمصر ابن القاسم واشهب ، وابن عبد الحكيم والحرث بن مسكين وطبقتهم ، ورحل من الاندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته ، وبث مذهب مالك في الاندلس ودون فيه كتاب الواضحة ، ثم دون العتبي من تلامذته كتاب العتبية ، ورحل من أفريقية أسد بن الفرات فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولا ثم انتقل الى مذهب مالك وكتب على ابن القاسم في سائر أبواب الفقه ، وجاء الى القيروان بكتابه ، وسمى الاسدية نسبة الى أسد بن الفرات فقرأ بها سحنون على أسد ، ثم ارتحل الى المشرق ولقي ابن القاسم وأخذ عنه ، وعارضه بمسائل - الاسدية فرجع عن كثير منها ، وكتب سحنون مسائلها ودونها ، وأثبت ما رجح عنه ، وكتب لاسد ان يأخذ بكتاب سحنون ، فأنف من ذلك فترك الناس كتابه ، واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الابواب ، فكانت تسمى المدونة والمختلطة ، وعكف أهل القيروان على هذه المدونة ، وأهل الاندلس على الواضحة والعتبية ، ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة في كتابه المسمى بالمختصر ، ولخصه أيضا أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب ، واعتمده المشيخة من أهل أفريقية وأخلوا به وتركوا ما سواه ، وكذلك أعتمد أهل الاندلس كتب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها ولم تزل علماء المذهب

يتعاهدون هذه الامهات بالشرح والايضاح والجمع ، فكتب اهل افريقية على المدونة ما شاء الله ان يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز التونسي وابن بشير وامثالهم ، وكتب اهل الاندلس على العتيبة ما شاء الله ان يكتبوا مثل ابن رشد وامثاله ، وجمع ابن ابي زيد جميع ما في الامهات من المسائل والخلاف والاقوال في كتاب النوادر ، فاشتمل على جميع اقوال المذهب وفروع الامهات كلها ، ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة ، وزخرت بحار المذهب المالكي في الافقين الى انقراض دولة قرطبة والقيروان ، ثم تمسك بهما اهل المغرب بعد ذلك الى ان جاء كتاب ابي عمرو بن الحاجب لخص فيه طرق اهل المذهب في كل باب اقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج للمذهب هـ. ومختصر ابن الحاجب هذا هو الذي شرحه الشيخ خليل في توضيحه ثم جمعه في مختصره المعروف، فصار هو قطب المالكية شرقا وغربا الى الآن والسلام .

... يجب ان نعمل بالايمان الحقيقي الذي جاء به النبي
صلى الله عليه وسلم والقائل : « لن يدخل الجنة احدكم
بعمله ، قيل ولا انت يا رسول الله ، قال ، ولا انا الا ان
يتضمنني الله برحمته ... »

- جلاله الحسن الثاني -

الاستاذ عبد السلام الانغييري

محصل على دكتوراة في الدراسات الاسلامية العليا
 واجازة في الحقوق ، متخصص في الفقه المالكي
 والقانون الدولي العام .

(المملكة المغربية)

سيرة الامام مالك مع الخلفاء

للدكتور عبد السلام الادغيري

ان سيرة الامام مالك السياسية مع الملوك والولاة والامراء لا تقل اهمية عن افكاره الفقهية والحديثية ، لذا فكرت ان اكتب ورقات في هذا الموضوع بالذات .

وتظهر قيمة هذا الموضوع اذا عرفنا العصر الذي عاش فيه الامام مالك ، والخلفاء الذين تدلواوا رئاسة المسلمين طيلة حياته الطويلة ، فالامام مالك ازداد سنة 93 هـ على الراجح من الاقوال - وتوفي سنة 179 هـ بالمدينة المنورة وعدد الخلفاء في تلك الفترة من حياته ، ثلاثة عشر خليفة اشهرهم عمر بن عبد العزيز وابو جعفر المنصور وولده المهدي وحفيده هارون الرشيد ، هؤلاء كانوا يحكمون من الصين شرقا الى فرنسا غربا ، وفي عصرهم ايضا ازدهرت الحضارة العربية الاسلامية ووصلت الى درجة كانت تعتبر في القمة بالنسبة لحضارة العالم في ذلك الوقت ، فقها وفلسفة واقتصادا وطبا وكلاما وادبا الخ . . وفي هاته الفترة التي عاش فيها الامام مالك قضي على اعظم دولة اسلامية كان لها الفضل في فتح العالم القديم ورفع لواء الاسلام الذي كان يرفرف مع ذوى لا اله الا الله محمد رسول الله ، واعني بها دولة الامويين . وفي زمانه قامت اعظم دولة علمية لا زلنا نفتخر بحضارتها الى يومنا هذا ، وهي دولة العباسيين ، وفي زمانه انقسمت الدولة الاسلامية الى شرقية وغربية ، حيث تكونت خلافة عباسية في بغداد ، واخرى اموية بالاندلس ، على يد عبد الرحمن الداخل

المضطهد من العباسيين . ثم تكونت أخرى ثالثة بالمغرب على يد المولى ادريس المضطهد هو الآخر من أبناء عمه العباسيين ، ولا شك ان الامام شاهد هؤلاء الخارجين على النظام والمعاملة القاسية التي عوملوا بها ، والضربات التي وجهت اليهم بقسوة ، ودون رحمة ورافة ، ودون تمييز في بعض الاحيان بين صاحب الوزر واهله ، فقد قتل العباسيون الامويين بعد الانتصار عليهم قتالا استئصاليا شمل الصغير والكبير ، انتقاما لما فعله اسلافهم من قبل من الجرائم . بل انهم نبشوا القبور واخرجوا الجثث من مرقدها واجلدوها ثم احرقوها ، وكان أبو جعفر المنصور لا يحترم العهد الذي يعطيه حتى مع اقرب الناس اليه ، كما فعل مع عمه عبد الله بن علي لما خرج عليه الى غير ذلك من الفواجع التي كانت في الفترة التي عايش فيها الامام مالك (ض) ، وشاهد بعضها او سمع عنه . فكيف استطاع ان يعيش بين هاته الامواج العاتية التي تعصف بكل من وقف في طريقها ؟ بل كيف استطاع ان يكون مذهبا مطابقا للشرعية الاسلامية السمحة دون ان يغضب السلطة او يقع تنافر منها تجاه آرائه واجتهاداته ، وأخيرا كيف وقف في رد الخلفاء الى جادة الصواب والى التفكير في الخير لاهل المدينة خاصة والمسلمين عامة . بدل التفكير في الانتقام ممن يظن انهم سيشقون عصا الطاعة ؟؟؟ .

هذه الاسئلة قميئة بالجواب عنها ، لانها ستبين لنا شخصية الامام وقدرته العقلية وايمانه القوي بالله وشجاعته النادرة في وقوفه امام كل التيارات التي يمكن ان تعصف بالابرياء ان هي تركت الى هوى الناس .

عندما نرجع الى سيرته مع الخلفاء الذين كان له اتصال بهم ، نجده اتبع معهم الطرق التالية :

1 - طاعة الخلفاء وتجنب العنف مع ارشادهم الى الخير والتشبيث بالحياد عندما تقع الاضطرابات .

2 - احترام اهل البيت حبا في الرسول وخوفا من الله مع الصبر على اذيتهم له .

3 - عدم استفلاله الخلفاء في نشر مذهبه وآرائه . هذه اهم النقاط التي سأعالجها في هذا العرض باختصار .

1 طاعته للخلفاء .. والحياد ... الخ .

المقصود هنا بالطاعة هو انه كان لا يفكر فى الخروج على الخلفاء الذين استتب لهم الامر وبايعهم الناس جميعا - ما داموا لا يأمرون بمعصية الله تعالى ، اذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق عند ذاك . ومن هنا فهو يحاول جرهم الى فعل الخير والى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كلما وجد لذلك سبيلا ، ويعتبر طاعتهم تبعا لطاعة الله ورسوله اقتداء بالآية الكريمة : « يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » فالآية الكريمة تشمل الامراء ولكنها تشمل العلماء ايضا حسب بعض التفسيرات، فطاعة الجميع من طاعة الله - ولكن العلماء يطيعون امر الرسول الى الامراء السياسيين ، وهؤلاء ينفذون ما امر به الرسول ، فالعلماء لا حق لهم فى تطبيق قول الرسول بالقوة ، بل هم يعظون ويرشدون ويعطون الامثلة من انفسهم ويطبقون ما امر الله به ، فتكون سيرتهم قدوة لغيرهم ، ولا وسيلة اخرى هناك غير هذه ، بينما الخلفاء والامراء او الولاة لهم القوة المادية يلجأون اليها عندما تكون هي الدواء الوحيد للداء الفتاك بالمجتمع . وبذلك فهم يطبقون آراءهم او آراء الفقهاء المطابقة للشريعة الاسلامية . الا ان هاته القوة الموجودة تحت يد السلطة قد تستعمل فى غير موضعها، اما لطفيان من صاحبها واما لوشاية كاذبة قصد بها مختلقها البطش بالبريء وحده ، او به وبالمتهم معا ، ولهذا نجد الامام مالكا يركز اهتمامه الكامل بوعد المسؤولين وارشادهم الى ما فيه الخير للمسلمين ، ويحث العلماء على ان يفعلوا مثله حتى يتغلب ويقوى الخير على الشر . فكان يقول : (حق على كل مسلم او رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه ان يدخل الى ذي سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر حتى يتبين دخول العالم من غيره) وكان يعتبر هذا فضلا عظيما للعلماء ، لذا يجب عليهم ان يزوروا الامراء من اجل ان يكونوا فى صف العلماء ، فيسهل تطبيق ما جاء به محمد (ص) ويضرب الامثلة على ذلك من نفسه فيقول بالحرف :

« لولا اني آتيهم ما رايت للنبي (ص) ، فى هذه المدينة سنة معمولا بها » وهكذا كان (ض) يربط الصلة بينه وبين الامراء للمصلحة العامة لا للمصلحة الخاصة . ولهذا كان له تأثير عليهم وكان كلامه لا يرد عند جميع الخلفاء الذين اتصل بهم ، فها هو يجتمع بالخليفة هارون الرشيد ويحدثه قائلا : « .. ولقد بلغني ان عمر بن الخطاب كان فى فضله وقدمه ينفع لهم

على الرمادة النار تحت القدر حتى يخرج الدخان من لحيته وقد رضي
الناس منكم بدون هذا » وقال لابييه قبله : لما قال له اوصني ، قال اوصيك
بتقوى الله وحده والعطف على اهل بلد رسول الله (ص) ، وجيرانه ، فانه
بلغنا أن رسول الله (ص) ، قال : « المدينة بها مهاجري وبها قبيري
ومبعثي ، وأهلها جيرانني ، وحقيق على امتي حفظي في جيرانني ، فمن
حفظهم كنت له شهيدا وشفيعا يوم القيامة » وقد أثر هذا الكلام في
الخطبة المهدي فقام وطاف بنفسه على دور المدينة واعطاهم العطاء الكثير
وقال للامام : اني محتفظ بوصيتك التي حدثتني بها ، ولئن سلمت ما
غبت عنهم ، وهذه الحادثة تبين لنا مدى تأثير الخليفة بكلام الامام (ص)
وهذا ما شجعه على المضي في طريقه السوي الذي هو طاعة الخلفاء
وارشادهم الى الخير ، ولم يكتف بهاته الارشادات والنصائح على المخاطبة
وجها لوجه عندما يتصل بهم في مناسبات ، وفي مواسم الحج خاصة ، بل
اننا نجده ينصحهم بالمكاتبة ايضا فيرسل اليهم الرسائل تلو الاخرى وهم
في أماكنهم الرسمية ، وفيها يوجههم الى ما يقربهم الى الله وينجيهم من
عذابه يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، ولكن عمل صالح يشهد لصاحبه ،
كما كان يذكرهم الى ما كان عليه السلف الصالح من الاهتمام بأمور
المسالمين ، وبتقوى الله في السر والعلن ، جاء في احدي هاته الرسائل
ما يلي :

« ... فعليك بما يقربك الى الله وينجيك منه غدا ، واحذر يوما لا
ينجيك فيه الا عملك . وليكن لك أسوة بمن قد مضى من سفك ، وعليك
بتقوى الله فقدمه حيث هممت ، وتطلع فيما كتبت به اليك في اوقاتك
كلها ، وخذ نفسك بتعاهدا ، والاخذ به والتعاهد عليه ، واسأل الله
التوفيق والرشاد ان شاء الله تعالى » .

هاته النصائح يقدمها الامام مالك الى الخلفاء مثنيا على خصالهم
الحميدة ، ودون أن يطريهم بما ليس فيهم ، وكان يعد الاطراء المخالف
للواقع نفاقا وكذبا ويحذر اولي الامر من مغبتها ، فقد غضب مرة على البعض
اثنى على الوالي في دار مالك وهو حاضر ، فقال مالك : موجه الخطاب
للوالي : « اياك أن يفرك هؤلاء بشنائهم عليك ، فان من اثنى عليك وقال فيك
من الخير ما ليس فيك أو شك ان يقول فيك من الشر ما ليس فيك فاتق
الله في التزكية منك لنفسك ، ولا ترض بها من أحد يقولها لك في وجهك ،

فأنك أنت أعرف بنفسك منهم ، فانه بلغني ان رجلا مدح عند النبي (ص) فقال : « قطعتم ظهره او عنقه لو سمعها ما أفلح » وقال : (ص) « احتوا التواب في وجه المداحين » .

وقد اعتاد الخلفاء منه هذا النهج القويم او هذه السيرة الحميدة او هذه السياسة الرشيدة والحكيمة ، واقتنعوا في قرارة انفسهم انه لا يريد بذلك الا المصلحة لهم وللمسلمين ، ولعل هذا هو السبب في قبول ابي جعفر المنصور اعتذاره في عدم اعطاء رايه فيه ، وذلك لما قال له : اي الرجال انا ؟ امن ائمة العدل ام من ائمة الجور ؟ فقال مالك : يا امير المؤمنين اتوسل اليك بالله تعالى واتشفع اليك بمحمد (ص) ، وبقربانتك منه الا ما اعفيتني من الكلام في هذا ، فأعفاه « وما اعفاه الا لعلمه علم اليقين انه لن يمدحه بالباطل ولن يقول فيه ما ليس فيه ، ولو كان طبعه غير هذا لما قبل منه ابو جعفر وهو من هو ، ونجد هارون الرشيد يقبل منه اكثر من هذا ، اذ هو يذهب عند مالك الى داره فاذا به يتركه ينتظر ولا يأذن له بالدخول ، فاذا سألته عن سبب الابطاء اخبره بأنه توضع للحديث لعلمه ان الخليفة انما جاء يريد حديث رسول الله . ذكر القاضي عياض في المدارك بسنده : « ان هارون لما حج اتى مالكا فاستأذن عليه فحجبه ثم اذن له ، وفي رواية بعضهم : ثم خرج اليه ، فلما دخل عليه قال : يا ابا عبد الله : ما حملك على ان ابطأت وقد علمت مكاني ؟ وفي رواية : حبستنا ببابك ، قال : والله يا امير المؤمنين ما زلت على ان توضحات وعلمت أنك لا تأتي الا لحديث رسول الله (ص) فأجبت ان اتأهب له ، فقال : قد علمت ان الله ما رفعك باطلا واخذ بيده ومضى الى قبر النبي (ص) فقال : اخبرني عن مكان ابي بكر وعمر من النبي (ص) فقال : كان محلها منه في حياته كمحلها منه بعد وفاته » فهذه القصة ثابتة وهي تعطينا صورة واضحة عن سخية مالك القوية ، انه عندما يتعلق الامر بحديث رسول الله فانه يجعل طلابه سواء حتى ولو كانوا من الخلفاء ، والثابت ايضا ان الرشيد ما جاء بنفسه الى دار مالك حتى انقطع امله في ان يأتيه مالك الى المقر الموجود فيه ، فقد ارسل اليه ليحدثه بحديث رسول الله ، فامتنع لانه يحترم حديث رسول الله ويعتقد ان ذهابه بنفسه لاملأه على الخليفة وهو في مكانه فربما ينقص من قيمة الحديث ، وبلغ بأن يكون الخلفاء اولى الناس باعظام حديث رسول الله . قال هاشم بن عيسى : لما قدم هارون المدينة دعا مالكا ، فقال له مالك : منكم خرج هذا

العلم وأنتم أولى الناس بأعظامه ، ومن أعظامكم له الا تدمو حملته الى ابوابكم ، قال : قد فعلت يا أبا عبد الله .

وفى رواية أخرى قال له : يا أمير المؤمنين ، ان الله تعالى بعث إلينا محمدا (ص) وأمر بطاعته واتباع سنته وأن نرعاه حيا او ميتا وقد جعلك فى هذا الموضع لعلمك ، فلا تكن انت من وضع العلم فيضعك الله ، الله ، الله ، لقد رأيت من هو ليس فى حسبك ولا نسبك من الموالي وغيرهم يمز هذا العلم ويجله ويوفر حملته ، فانت أخرى أن تجل علم ابن مالك ، ولم يزل يعدد عليه حتى بكى .

فالامام هنا يعلم الخلفاء التواضع واحترام العلم وهذا لا ينقص من قدرهم وقيمتهم ، بل بالعكس يرفعهم ويجلهم فى أعين العامة . وقد أدرك هذا الرشيد من بعد واعترف بانه استفاد من مالك استفادة لم يستفدها من العلماء الذين كانوا يترددون عليه فى داره بالرغم مما هم عليه من العلم الغزير وهذا ما ذكره مالك نفسه قال : (لما كان بعد مدة قال لي الرشيد : تواضعا لعلمك فانتفعنا به ، وتواضع لنا علم سفيان بن عيينة ، فلم ننتفع به وكان ياتيهم فيحدثهم .)

وسفيان بن عيينة احد ائمة الاسلام وهو لا يقل علما وشأنا عن مالك، قال الامام الشافعي : « لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز » ولكن حسب ما يفهم من كلام الرشيد انه كان لا يعطي لعلمه القيمة التي كان يعطيها مالك لعلمه ، فارتفع هذا عن ذلك . قال مطرف : دخل مالك على هارون فى بعض حجاته فقال له هارون : أريد أن تأتيني تقرأ علي كتبك فقال مالك : العلم يؤتى ولا يأتى .

هذه هي سيرة الامام مالك مع الخلفاء وقد رأينا كيف كانوا يتقبلونها منه بصدر رحب وبكل اعجاب وتقدير . ولكن هل الامام مالك وصل هاته الرفعة وهاته الثقة الكبيرة بسهولة ، ام لم يرتق اليها الا بعد تعب ومحنة ومشقة ؟ .

2 - صبره على اذاية اهل البيت حبا في الرسول :

ان الرجال لا يصلون الى اهدافهم السامية الا بعد تعب ومحنة وعذاب ، وهذه سنة الله في الارض ، « أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » وهذا هو ما وقع بالفعل لمالك ، فهو بالرغم مما وصل اليه من العلم ، وما اتصف به من الاخلاق الرفيعة ، فانه لم ينبج من الكاذبين الذين كادوا له عيد السلطة في وقت لم تكن فيه الاحوال مستقرة ، لذا لم يشفع له علمه الغزير ولا حياده التام عن المجال السياسي ، فغرب بالسياسات أوجع ضرب ومدت يده حتى انخلعت كتفاه ، وكان هذا بأمر من والي المدينة زمن ابي جعفر المنصور ، بتهمة ملفقة وبوشاية كاذبة ، ولم يكتف بضربه ، بل أمر بحمله على بعير والطواف به والتشهير به ، الا ان مالكا كان صبورا وشجاعا في آن واحد ، واستمر على القول بما اعتقده حقا كان يقول اثناء الطواف به ، الا من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فانا مالك بن انس بن ابي عامر ، وانا اقول : « طلاق المكروه لا يلزم » طلاق المكروه ليس بشيء ، مما جعل والي يامر بانزاله ويوقف الطواف به ، وما اختلاق طلاق المكروه الا ذريعة للانتقام من اعلم رجل بالمدينة فقد ادعوا ان حديث مالك بحديث طلاق المكروه في وقت فيه ثورة يقصد به الطعن في خلافة العباسيين ، لان الناس بايعوا تحت الاكراه ولذا فهو يوحى اليهم بالخروج على الخليفة وبالتحلل من البيعة المطوقين بها ونصرة محمد بن عبد الله ، النفس الزكية الذي شق عصا الطاعة على ابي جعفر المنصور ، وجدوا هذه الثورة فرصة فكادوا بما شاعوا ، ونحن لا نريد ان نخوض في هذا ، وانما الذي يهمنا هو كيف شق طريقه وسيرته المثلى مع الحكام والخلفاء بالرغم مما حصل له من الظلم ومن الاهانة وهو بريء مما نسب اليه ، وبالرغم مما رآه من مناظر مؤسفة ، فهو الاهانة وهو بريء مما نسب اليه ، وبالرغم مما رآه من مناظر مؤسفة ، فهو رأى رأس محمد النفس الزكية يطاف بها على طبق وسط المدينة قصد ادخال العرب في قلوب سكانها - ثم هو يقول : « لا ينبغي الإقامة بأرض يكون العمل فيها بغير الحق والسلب للسلف » .

ان وجود كل هاته الاحداث لم تحول الامام عن سيرته الرشيدة وسياسته الحكيمة مع اولي الامر ، وهي سياسة الامر بالمعروف والنهي

عن المنكر ، وعدم مقابلة العنف بمثله ، عملا بقول الله تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » الآية . وهاته السياسة جلبت المنفعة لسكان المدينة قبل كل شيء ، اننا نجده بمجرد ان افاق من غشيته التي اصابته اثناء الضرب ، قال : اني جعلت ضاربي في حل مما فعل بي ، ذكر القاضي عياض في الشفا : ان مالكا رحمه الله لما ضربه جعفر بن سليمان ونال منه ما نال وحمل مغشيا عليه ، دخل عليه الناس فافاق فقال : « اشهدكم اني جعلت ضاربي في حل » فسئل بعد ذلك فقال : « خفت ان أموت فالقى النبي (ص) فاستحيي منه ان يدخل بعض آله النار بسببي » ، وهذا دليل على انه كان يحب اهل البيت ويصبر لهفواتهم ولا يريد الانتقام منهم ، فهو متسامح معهم ، وسياسة التسامح هاته هي التي قضت على الامكاند التي هياها له حصومه ، فلم يجدوا بعد ذلك مبررا آخر يزحزح مالكا عن نهجه القويم الذي سار فيه ، ولذا نجد الذين تكلموا في محنة مالك يقولون : « فما زال مالك بعد هذا الضرب في رفعة من الناس وعلو من امره حتى كأنما كانت تلك السياط حليا حلي بها ، ولا شك ان الخليفة نفسه اقتنع ببراءة مالك وتأكد من ان سيرته مبنية على جلب الخير للناس جميعا ، وان الشر بعيد كل البعد عن نهجه القويم ، وهذا ما يفسر لنا الموقف الذي اختاره ابو جعفر المنصور عندما اتصل به ، حيث اعتذر له عما حصل من والي المدينة ، ونفى ان يكون له علم بذلك ، وعرض عليه القصاص منه ، ولكن مالكا نظرا لحبه لاهل بيت رسول الله امتنع امتناعا كلياً ، مما جعله يكبر في عين الخليفة وزاد ثيقنا وتأكيدا من ان ما قيل فيه هو مجرد وشاية كاذبة فقط ، لذا نجده اعتذر لمالك اعتذاراً قويا اعتذر بالايمان المغلظة وهاته ليست من عادة الخلفاء ، قال في اعتذاره :

« والله الذي لا اله الا هو ما امرت بالذي كان ولا علمته ، انه لا يزال اهل الحرمين ، بخير ما كنت بين اظهرهم واني أخالك امانا لهم من عذاب . . وانهم اسرع الناس الى الفتن ، وقد امرت بعد والله ان يؤتي به من المدينة الى العراق على قتب ، وامرت بضيق محبسه والاستبلاء في امتهانه ، فقال مالك : قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله (ص) وفي رواية اخرى ، ان المنصور اقاده من جعفر فقال له : اعوذ بالله ، والله ما ارفع منها سوط على جسми الا وقد جعلته في حل لقرابته من رسول الله (ص) فالعفو على الوالي جاء من كونه من قرابة رسول الله ، وقد سر الخليفة

بهذا الموقف مما جملة يعفو عن أهل المدينة مراعاة لمقام امامهم وقد كانت الكراهية اشتعلت بين أبي جعفر وسكان المدينة اثر خروج محمد بن عبد الله عليه ، ولما قتل ، عاملهم أبو جعفر معاملة سيئة اذ قطع عنهم الطعام واللؤن والبسهم لباس الجوع والخوف ، الخ . فالثقة كانت مفقودة بينهم وبين الخليفة ، والامام مالك اراد أن يعيد الثقة الى مجراها الطبيعي ، واهذا قال له أبو جعفر : اني اخالك امانا لهم من عذاب ، وانهم اسرع الناس الى الفتن ، ولعل الخليفة يثق من مالك بأنه لا يريد الفتن ويكرهها وينزه نفسه عن الاشتراك فيها او التحريض عليها بينما شيخه محمد بن هرمز تورط فيها رغم شيخوخته ، خرج مع محمد النفس الزكية ولما قيل له : والله ما فيك شيء قال : قد علمت ولكن يراني جاهل فيقتدى بي ، ولما وقع الانهزام وجيء به الى عيسى بن موسى القائد المنتصر وسأله من سبب خروجه على الخليفة بالرغم من كبر سنه وعلمه وفقهه ، فأجاب : كانت فتنة شملت الناس فشملتنا وعفا عنه .

فشيخ مالك ذهب مع الفتنة ولكن مالكا لم يخدع لماذا ؟ لانه يعتقد بأن الخير لا ياتي بالوقوف في وجوه الخلفاء بالسيف بمقدار ما يأمي بالمحبة والصبر مع اقناعهم بالرجوع الى الطريق المستقيم ، ولكن اصحاب السلطة لا يقتنعون بسهولة ولا يقبلون نصيحة كل احد ، الا اذا تيقنوا من نيته الصالحة مع حبه لهم ، وهذا هو ما تحقق في الامام مالك ولمسوه بعد محنته الا اننا لا نفهم من هذا ان مالكا كان يخضع للخلفاء خضوعا مطلقا حتى ولو كان الامر يتعلق بكتمان علم رسول الله ، كلا ابدا ، انه يسير في خط واضح في هذه الناحية وينفذ صبره ولا يقبل من أي كان ان يتدخل فيه ، ولهذا نجده وقف وقفة الاسد في وجه هارون الرشيد لما أرسل اليه يطلب منه الا يحدث بحديث معاوية المتعلق بالسفرجل ، فقد اعتبر مالك هذا تدخلا في الدين وكتمانا لحديث رسول الله فأسرع ينادي على الناس ويجهر بالحديث ويحتج على التدخل السافر من طرف هارون في هذه القضية وتلا قوله تعالى : « ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » .

ثم قال : حدثني نافع عن ابن عمر قال : كنت عند رسول الله (ص) فأهدى اليه سفرجل فأعطى أصحابه واحدة واحدة وأعطى معاوية ثلاثة

سفرجلات وقال له : القني بهن فى الجنة . فهنا خالف مالك رأى الخليفة صراحة ، ولم يصبر كعادته ، وإنما أعلن ذلك على الملأ ولم يقدر العواقب لان ذلك يتعلق بكتمان العلم والله حرم هذا ، ومالك لا يستطيع تحمل وزره امام الله فرفض رفضا باتا مما جعل هارون يتراجع عن رايه ويعدل عن مطله لتيقنه ان التعادي فى ذلك لا يجدي شيئا مع مالك الذي قال فيه يحيى بن معين ، كان مالك من حجج الله على خلقه .

3 - عدم استغلال مالك للخلفاء :

ثم اننا نجد مالكا يتجنب استغلال الخلفاء بالرغم مما وصلت درجته عندهم فلم يستغلهم من أجل ان ينصر آراءه او ينتقم من عالم يعارضه ، ولهذا لم يستغل طلب الخليفة ابي جعفر عندما اراد ان يجعل كتابه الموطأ مرجعا للحكم عند الناس جميعا بطريق الالزام ، بل رفض ولم يقبل نهائيا. جاء فى الانتقاء لابن عبد البر : قال مالك بن أنس : « لما حج ابو جعفر المنصور دعاني فدخلت عليه فحادثته ، وسألني فأجبته ، فقال : اني عزم ان أمر بكتبك هذه التي وضعت - يعني الموطأ - فتتسخ نسخا ثم ابعث الى كل مصر من امصار المسلمين منها نسخة وأمرهم ان يعملوا بما جاء فيها ولا يتعدوها الى غيرها ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث . فاني رايت اصل العلم رواية ، رواية أهل المدينة وعلتهم . فقلت : يا امير المؤمنين : لا تفعل هذا ، فان الناس قد سبقت اليهم اقاويل وسمعوا احاديث ورووا روايات واخذ كل قوم بما سبق اليهم وعملوا به ودأبوا به من اختلاف أصحاب رسول الله (ص) وغيرهم ، وأن ردهم عما اعتقدوه شديد ، فدع الناس وما هم عليه ، وما اختار أهل كل بلد لانفسهم ، فقال : لعمري لو طاوعتني على ذلك لامرت به » وهذا الموقف الذي وقفه الامام مهم جدا لانه ابان عن سريره النقية وسياسته الرشيدة وضميره الحي وعلو همته وترفعه عما يتسابق الناس اليه من حب استغلال نفوذ ذوي السلطة فى المصلحة الخاصة العلمية وغيرها .

واذا فكرنا فى الامر جليا فربما وجدنا انتشار مذهب الامام مالك وبقاءه يرجع الى ان صاحبه لم يحاول الزام الناس به عن طريق السلطة الحاكمة ، فلو انه طاوع ابا جعفر والزم الناس بكتابه الموطأ فربما جاء خليفة آخر بعده وقضى على الفكرة اذا رأى كثرة المعارضين تقربا اليهم

وتولفا ، كما وقع مثلاً للمعتزلة الذين كانوا يودون ان يكون الاعتزال
الذهب الرسمي للدولة ، ولما احتضنته الدولة بالفعل استغلوها ، وأباحوا
دماء المعارضين وملأوا السجون بهم ، وما ان مات المامون والعصم
اللدان كانا يناصرانهم حتى انقلبت الدائرة عليهم - حيث جاء المتوكل
وابطل مذهب الاعتزال واضطهد علماءه ، فأمر نائبه بمصر ان يحلق لحية
قاضى القضاة بمصر ابي بكر محمد بن ابي الليث ، وان يضربه ويطوف به
على حمار ، ثم عزله وولى مكانه الحارث بن مسكين من أصحاب مالك .

وهكذا كان استغلالهم للسلطة فى فرض آرائهم وبإلأ عليهم . والمتوكل
قضى عليهم تقرباً الى عامة الناس الذين يؤيدون مذهب المحدثين ولذا
قال فيه البحتري :

يا بانى المعجد الذى قد كان قسوس فانهم
أسلم لدين محمد فاذا سلمت فقد سلم
لننا الهدى بعد العمى بك والغنى بعد العدم

الى آخر ما جاء فى قصيدة مدحه بها بالمناسبة المذكورة .

اتيت بهذا المثال المتعلق بالمعتزلة - لقرب عهدهم من مالك ولكون
المامون من تلامذة مالك ، والا فالأمثلة كثيرة فى التاريخ من هذا النوع .

أذن فالامام مالك خيراً فعل عندما امتنع من تلبية رغبة ابي جعفر فى
فرض الموطأ على الناس ، وبذلك ترك الحرية للعلماء فى الاجتهاد
والاستنباط واختيار الفتوى ، وبقي الثناء على مالك من جميع العلماء
والمفكرين قديماً وحديثاً .

وهكذا نجد الامام يراقب سيرته مع الخلفاء ويهتم بسياسته معهم ،
وقد اكتسب تجربة فى هذا الشأن وكان يوصي بها أحباءه لا سيما ممن
يرى فيهم النجابة والنبوغ فى العلم والذين يتنبأ لهم بقيادة العلم بعده ،
واحسن مثقال على هذا نصيحته لتلميذه الشافعي لما أراد ان يودعه
ويرحل عنه ، فانه اعطاه زبدة تجاربه ومنها السيرة مع ذوي السلطان جاء
فى الوصية :

« لا تسكن الريف فيضيع علمك واكتسب الدرهم ، ولا تكن عالة على الناس ، واتخذ ذا جاه ظهرا لئلا تستخف بك العامة ، ولا تدخل على ذي السلطنة الا وعنده من يعرفك ، واذا جلست مع كبير فليكن بينك وبينه فسحة لئلا يأتي اليه من هو اقرب منك فيدنيه ويبعدك فيحصل في نفسك شيء .. » .

وهكذا نجد الامام مالكا يعطي الاهمية للسيرة مع ذوي السلطان ، ويعتبر الاتصال والاختلاط بهم ضرورين لما يترتب على ذلك من المصلحة العامة ، ولكن هذا الاتصال يحتاج الى حذر شديد حتى لا يكون هو السبب في النفور والانقطاع وجر المآسي وذاك ليس من مصلحة الامة في شيء .

وعلى كل حال ، فالامام مالك بعلمه وسياسته وسيرته النقية مع الخلفاء اكتسب التقدير من الجميع ، واحترمه العلماء واحبه العامة وهابه الناس احتراماً له لا رهبة منه ، وفي هذا يقول الامام الشافعي : ما هبت أحداً قط هيبتني من مالك بن أنس ، وقال أشهب بن عبد العزيز تلميذ مالك : « رأيت أبا حنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي أبيه » .

وبعد : فهذه هي سيرة امامنا مالك بن أنس مع الخلفاء وذوي السلطة والغرض منها هو الاستفادة قدر الامكان من اخلاقه واخلاقهم ، فالقاء الاضواء على السلف الصالح ضروري لنعرف الكيفية التي كانوا يعالجون بها الامور الصعبة وبذلك نطلع على حكمتهم وصبرهم ولباقتهم ، ولنحاول نحن ان نأخذ بعض اوصافهم مراعين في ذلك الاسلام والمسلمين كما كانوا هم يفعلون ، وفي ذلك خير وأى خير وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

الكتب التي رجعت اليها :

- 1 - التمهيد لابن عبد البر .
- 2 - ترتيب المدارك للقاضي عياض .

- 3 - الانتقاء لابن عبد البر .
- 4 - الشفا للقاضي عياض .
- 5 - اعلام الموقعين لابن قيم الجوزية .
- 6 - مالك بن انس لعبد الحليم الجندي .
- 7 - تنوير الحوالك للسيوطي .
- 8 - الطبقات لابن سعد .
- 9 - الكامل لابن الاثير .
- 10 - مالك لابي زهرة .
- 11 - مالك بن انس للخولي .
- 12 - ضحى الاسلام لاحمد امين .

ومن يبع الوصاة فان عندي
وصاة للكهول وللشباب
خذوا عن مالك وعن ابن عون
ولا تردوا احاديث ابن داب

- ابن منادر -

المناقشات

مناقشة الدكتور فاروق النبهان لبحوث الاساتذة :
الشيخ المكي الناصري، الدكتور عبد الهادي التازي ، عبد العزيز بنعبد الله

أجد من واجبي ان اشكر الاخوة الاساتذة الذين تفضلوا بتقديم
ابحاثهم . وقد كانت الابحاث فعلا في المستوى الجيد الممتاز الموضوعي ،
وأود ان أشير الى التكامل الذي لاحظته ، ربما عن طريق الصدفة ، بين
الابحاث الثلاثة الاولى ، التي تقدم بها كل من الاستاذ الناصري ، والاستاذ
الدكتور التازي ، والدكتور الاستاذ بنعبد الله .

في الحقيقة فان الموضوعات كانت جيدة وهامة ، ودراسة وثائقية
حول موضوعات تتعلق فعلا بالمذهب المالكي في المغرب . الدراسة التي
تفضل بها الاستاذ الجليل السيد المكي الناصري ، طرح فيها دراسة قيمة
عن الظروف التي رافقت انتشار المذهب في المغرب ، عن الاسباب
والاعتبارات التي دعت المغرب الى اختيار المذهب المالكي ، اعتبارات
ادبية وظرفية ومصلحية وعقائدية ، وكان موضوعيا في اختيار هذه
العوامل ، وكنت اتوسع ، وآمل في المستقبل ان يقدم لنا الاستاذ الجليل
دراسة أوسع حول هذه النقاط الجديدة ، وأعتقد انها لم تبحث من قبل ،
وبخاصة الاعتبارات الادبية والموضوعية ، قد تكون الاعتبارات الموضوعية
قد درست نظرا لانها ترتبط بصفات ذاتية في المذهب المالكي كارتباطه
او كاعتماده على الجانب العلمي او أسلوبه في الدراسة وهو املاء الاسماء
على تلاميذه ، اما النقاط الاخرى فهي نقاط جديدة لم تبحث ، ونتمنى ان

يقدم لنا الاستاذ الجليل فى المستقبل دراسات موسعة ، وبذلك سيستطيع ان يخدم الفكر الاسلامي ، والمذهب المالكي خدمة جليلة . النقطة التي تفضل بها أيضا عن المذهب المالكي يمثل اختيارا قوميا وتراثا قوميا بالنسبة للمغرب ، لم يفصل لنا هذا الجانب ، ثم جاء الدكتور التازي ، فوضح لنا من خلال الوثائق هذه الحقيقة ، وهنا أقول ، هذا هو التكامل فى الموضوع ، الدكتور التازي كان موسوعيا ووثائقيًا فى دراسته لانه قدم لنا اثر المذهب المالكي فى الحياة المغربية الرسمية والشعبية ، وقدم لنا الوثائق سواء من خلال التطبيقات العملية أو من خلال اللباس الذي يلبسه المغربي ، وكنت اتمنى ان يقدم لنا عن نشأة هذا اللباس المغربي ، هل هناك سببا معينًا لاختيار اللون الابيض ؟ هل هناك اثرا ورواية تتعلق بهذا الموضوع أيضا ؟ هذا اضمه الى ما ذكره الاستاذ الناصري من أن هناك تكاملا فى المبحث الاول والثاني . والنقطة الاخرى التي ذكرها الاستاذ الناصري وهي انشاء دار الفقه الحسنية ، وهذا شيء نشكره عليه ، أقول نحن انشأنا قسما للفقه الاسلامي بدار الحديث الحسنية بحيث أصبح الشخص يتخصص فيها فى علوم القرآن والحديث ، والقسم الآخر يتخصص فيه فى الفقه الاسلامي وأصوله ، نظرا للتكامل بين الدراستين ، لا اعتقد ان انشاء دار ودار ، ربما الدار تستطيع ان تستوعب العلوم الاسلامية المختلفة، سواء ما يتعلق بعلوم القرآن والحديث ، أو ما يتعلق بالفقه الاسلامي ، ولكن لو انشأت - طبعًا - دار للفقه الاسلامي فهذا مزيد من الخير ، ونتمنى ان يكون كما تفضل الاستاذ الناصري . الدكتور التازي قدم لنا دراسة عن شعبية المذهب المالكي فى المغرب ، من أين ابتدأت هذه الشعبية ؟

هنا نجد الاستاذ بنعبد الله يجيبنا عن هذا التساؤل ، فيطرح الصراع الذي قام بين المرابطين ، وقبل المرابطين الفاطميين الذين أرادوا ان ينشروا المذهب الشيعي فى المغرب ، ورفضه الشعب المغربي واعتبر ان المذهب المالكي يمثل الاصاله ، وأصاله الفكر الاسلامي ، وبالتالي فقد تطلعت الجماهير المغربية والشعب المغربي بالتراث أو بالمذهب المالكي على الصعيد الجماهيري ، لانه نتيجة الصراع الكبير الذي كان الفاطميون يحاولون به ان يفرضوا المذهب الشيعي ، ورفض المغرب المذهب الشيعي والتزم بالمذهب المالكي ، وتعرض علماء المغرب لاضطهاد فى

عصر الامويين ، وفى المرحلة الاولى من عصر المرابطين ، ولكن المذهب المالكي استطاع ان يصمد ، واستطاع ان ينتصر ، وظل المذهب المالكي هو المذهب المعتمد ، وقد اوضح لنا الاستاذ بنعبد الله فى بحث قيم اعتمد فيه على مراجع كثيرة ، وتحدث عن موضوعات كثيرة ، عن نشأة المذهب المالكي فى المغرب ، تحدث لنا عن المدونة ، وأصل المدونة الاسدية التي كتبها أسد بن الفرات ثم ، وبعد ذلك ، كيف ان هذه المدونة كانت نتاج تلاقي المدرسة العراقية مع الفقه المالكي ، لان الفروع كتبت على الطريقة العراقية وهي وفقا لمدرسة الرأي فى العراق ، فكان الفقه المالكي هو فقه النوازل ، والفقه العراقي هو فقه فرضي ، بمعنى يفترضون اشياء ، فجاء أسد بن الفرات ، وكتب هذه الفروع على الطريقة العراقية، ثم طلب من أبي القاسم ان يجيبه عن رأي المذهب المالكي فى هذه الفروع العراقية ، وبالتالي استطاع ان تكون المدونة فى الصورة المتقدمة من الاسدية التي كتبها أسد بن الفرات ، ثم جاء سحنون فطور هذه المدونة وادخل عليها تقسيما جديدا وتبويبا جديدا حتى اصبحت من اهم المراجع .

هنا اؤكد الشكر الجزيل للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله الذي قدم لنا هذه الدراسة المتكاملة ، واتمنى ان تكون هذه الجوانب الثلاثة المتكاملة سواء فى نشأة المذهب المغربي ، او فى الظروف التي دعت المغرب لكي يختار المذهب المالكي ، او فى جانب التطبيقات العملية التي اوردها الدكتور التازي، اتمنى ان تكون هذه الدراسة متكاملة، وقيمة، واعتقد اننا نستطيع ان نخدم الفكر الاسلامي والمذهب المالكي بصورة خاصة ، نخدمه خدمة جلية من خلال تقديم بحث قيم متكامل حول هذا الموضوع ، وشكرا لكم .

العلماء ورثة الانبياء

تدخل الدكتور محمد علوي المالكي

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد ، فقد استمعنا واستمتعنا بهذه البحوث الرائعة ، وخصوصا ما قدمه ساداتنا من الباحثين الافاضل من علماء المغرب ، عن دراساتهم حول مذهب الامام مالك وانتشاره في المغرب ، وقد استفدنا كثيرا من هذه البحوث الدقيقة الرائعة .

واحب ان اشير الى بعض المسائل التي ليست في الحقيقة انتقادات ، وانما هي ملاحظات خفيفة ، او قد تكون استفسارات مني .

فعن ما اشار اليه فضيلة استاذنا الشيخ المكي الناصري من انه ليس للدولة اي تأثير على انتشار مذهب الامام مالك بالمغرب ، فانا اقول لعل هذا يكون ابتداء ، يعني ان هذا يكون مسلما ابتداء ، لكن اظن انه لا معارض في ان للدولة تأثيرا كبيرا على استمرار المذهب ، اما في ابتداء تقبله فقد يكون هذا مسلما ، اما في استمراره وانتشاره وترسيخه ، فقد يكون للدولة تأثير كما هو الواقع في الشرق ، اذ انه لما كانت الدولة العثمانية، كان المذهب الحنفي مهيمن على المحاكم ، وعلى المدارس ، وعلى عامة الشعب ، حتى ان كثيرا من الشافعيين ، ومن بيوت اشتهرت بالمذهب

الشافعي أو بالمذهب المالكي ، انقلبت بتأثير الدراسة الى بيوت حنيفة ، فأخذوا المذهب الحنفي وانفصلوا عن مذهبهم الاصلي الذي هو الشافعي أو المذهب المالكي ، بتأثير الدولة ، وهذا لا شيء فيه ، بل هو قد يكون من نعم الله سبحانه وتعالى ، وايضا أحب ان أشير الى ما ذكره بعض اخواننا من ان تقبل مذهب ابي حنيفة بالمغرب ناتج عن كونه يعتمد على السنة ، واقول بأن هذا ليس خاصا بمذهب الامام ابي حنيفة ، وهذه العبارة قد تعطي اشارة بأن مذهباً آخر غير مذهب ابي حنيفة لا يعتمد على السنة ، والواقع ان مذهب الامام ابي حنيفة ومذهب الامام مالك ومذهب الامام ابي حنبل ، كل هذه المذاهب سنية كما هو واقع ، فالعبارة - هذه - قد تحدث اشارة او تحدث مفهوما عكسيا كما هو ظاهر عندنا في الانتقاد على مذهب الامام ابي حنيفة ، حتى ان بعضهم اسقطه من دائرة الائمة ، وهذه - بلا شك - فرية او انها كلمة حق باطله - والعباد بالله - فالامام ابو حنيفة ركن من اركان السنة ، وكما أشار الى ذلك أحد المتحدثين فان الامام مالك - بالعكس - روى احاديث كثيرة ، وجمعت له احاديث ، وروى مسانيد ابي حنيفة التي جمعها الخوارزمي وهي مشهورة ، والامام ابو حنيفة ، يعتمد كثيرا على الاحاديث ، بل ويقدم كثيرا من الاحاديث الضعيفة او المرسلة على آراء الرجال، كما هو معروف عنه ، كذلك اشار الاستاذ التازي الى شعبية المغرب في ارتباطه بالمذهب المالكي ، وذلك بظهور بعض العبارات الشائعة كقولهم : « لا سلام على طعام » وكاعتنائهم بلبس الثياب البيض ، وهذا في الحقيقة منصوص عليه في المذهب المالكي ، او اقول هو من عين السنة النبوية ، فقد اشارت السنة النبوية المروية عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بكراهة السلام على من يتناول الطعام ، او من يستمع الى الدرس ، او من يستمع الى خطبة ، وبتأكيد لبس الثياب البيض ، وبتأكيد دفن الموتى فيها ، ولبسها يوم الجمعة ، كل هذا وارد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو سنة نبوية اظهرها الامام مالك ، وهي من السنن المشهورة عن سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، كذلك ، ذكر بعض اخواننا عمل اهل المدينة ، وانه مقدم على الحديث او السنة ، فأقول ان

القول بأن أصول الامام مالك ، الكتاب والسنة وعمل أهل المدينة ، لعله يكون فيه أجحاف او جنابة على مذهب الامام مالك ، فتفصيلنا بين عمل أهل المدينة وبين السنة ، يوقعنا فى كثير من الإيهام ، فأنا أرى ان يقال بأن أصول مذهب الامام مالك فى الكتاب والسنة ، والسنة تنقسم الى قسمين : عمل أهل المدينة ، والاحاديث المروية ، فان جعل عمل أهل المدينة فى الدرجة الثالثة بعد السنة ، قد يعطى ايضا مفهوما عكسيا بأن عمل أهل المدينة غير السنة ، مع ان عمل أهل المدينة أحاديث مروية غير أنها مطبقة ، قد لا تكون لها نصوص قولية موجودة ، لكنها أفعال منتشرة بين الناس منقولة ، فهي سنة تطبيقية موجودة ، لا توجد لها أقوال تؤيدها ، وهذه كان الامام مالك يقدمها ، وحينئذ ، فان القول بأن تقديم عمل أهل المدينة على الحديث الصحيح ، أمر يحتاج الى مراجعة ، لان عمل أهل المدينة - فى نظرنا - هو الحديث الصحيح ، ما دام مرويا عن اتباع التابعين، والتابعين، والصحابة ، غير أنه سنة مجسدة مطبقة، كذلك قول من قال بأن المذهب المالكي سني، ليس فيه شيء من الانحرافات العقائدية، وكل مذاهب العلماء كذلك ، فالامام أحمد بن حنبل ، مذهبه من المذاهب السنية المعتمدة والمعتمدة ، وليس فيه شيء من الانحرافات ، حتى ما ينسب الى الامام أحمد بن حنبل - مع العلم بأنني مالكي المذهب - من القول فى الصفات أو فى غير ذلك ، كل هذا فالامام أحمد بن حنبل بريء منه ، بل ان الامام أحمد بن حنبل ، نصب قاعدة فى الصفات قد تكون من القواعد الفردية ، ويؤثر عنه قوله فى أحاديث الصفات « أمرها » وهذه قولة منسوبة اليه ، وتعتبر من الوثائق الكبرى ، او من الفرائض المعتمدة فى سلامة الصفات عن الامام مالك رحمه الله تعالى .

كذلك بعض اخواننا قال بأن البدعة تنقسم الى حسنة وسيئة ، والحسنة ما فعله بعض الصحابة وأقره النبي عليه ، كصلاة بلال ودعاء رفاعة ، وتقسيم البدعة الى حسنة وسيئة أمر وارد ، والتمثيل عليها بأن الحسنة ما فعله بعض الصحابة وأقره النبي عليه ، غير وارد ، فان ما أقره النبي عليه ، صار سنة مروية ، منقولة ، معتمدة .

وكذلك قول اخواننا بأن للموطأ روايات لم تصلنا منها الا روايتان ،
فاقول بأن الاولى ان يقال : لم يطبع منها الا روايتان ، والا فقد وصل منها
كثير كرواية سويد بن سعيد الحدثاني ، واخيرا طبعت رواية علي بن زياد
قطعة منها فى تونس ، ويجري تحقيق رواية ابن القاسم التي لخصها
الامام القابسي واقتصر فيها على الاحاديث المرفوعة الى النبي صلى الله
عليه وسلم ، وهذه ايضا جار تحقيقها ، وفى دار الحديث الحسنية - كما
اخبرنا الدكتور فاروق النبهان - يجري تحقيق كثير من أمثال هذه
الروايات .

هذ ما عندي ، واسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق ، والسلام
عليكم ورحمة الله .

ما بقي على وجه الارض أحد آمن على حديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم من مالك بن أنس .

- عبد الرحمن بن مهدي -

تدخل الأستاذ صلاح الدين ادلبي

باديء ذي بدء ، أقدم الشكر للاستاذة الاجلاء الفضلاء ، على كلماتهم التي اتحفونا بها ، والتي افادونا فيها بالمعلومات القيمة التي جمعوها وعرضوها ، ولكنني أود ان أشير الى فكرة حول بعض الاحاديث النبوية التي تروى في فضل مالك ، او في فضل المغرب ، فيما يتعلق عند علماء الحديث بأحاديث الفضائل ، اذا رويناه هذه الاحاديث ، وابرزنا اهتمام السلف رضوان الله عليهم بالامام مالك ، فهذا صحيح ، ولكن يجب ان ننتبه الى نقطة وهي اننا نخشى من ان تقع في دوامة من الاحاديث ، فالحنفية يقولون بأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « سيكون في امتي رجل اسمه النعمان يكنى ابا حنيفة » وهكذا فرغم ان المتحدثين اتفقوا على ان هذا الحديث موضوع ، فان بعض الحنفية قد دافع عنه وقال انه ضعيف فقط ، وليس بموضوع ، والضعيف يعمل به في فضائل الاعمال ، ثم بالنسبة للحديث الذي ورد « لا يزال أهل الغرب » أخشى ان تقع ايضا في الاحاديث التي اصبحت ترد في البلدان ، وتضاعف أسانيدھا ويقال بأن الضعيف يعمل به فضائل الاعمال ، كالتنصيب على فضل دمشق - مثلاً - وبساتينها المسماة بالغوطة وفضل عسقلان ، ومرو ، وقزوين ، وغير ذلك من الاحاديث ، فاطن - والله أعلم - بأن هذه الاحاديث تمثل نظرة الاكابر والاجلال التي تمتع الامام مالك بها لدى أقرانه وتلامذته من علماء السلف ، وأرجو من السادة الاجلاء العلماء الفضلاء ، ومعظمهم اساتذتي ، ان يتحفونا بزيادة توضيح عن مقدار صحة نسبة هذه الاحاديث

الى صاحب الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولهم مزيد الفضل
والشكر والسلام .

تعقيب لرئيس الجلسة الدكتور الحبيب بلخوجة

شكرا للاستاذ صلاح الدين على هذه الملاحظات القيمة التي تتصل
بنقد السنة النبوية ، ونقد الاحاديث ، لان ما يروى من السنة ليس كله
مسلماً ، وخصوصاً ما يتعلق بالفضائل والمناقب ، وما تجرأ الناس على
وضعه ، وبعضهم يريد من ذلك خيراً ، ويرى انه لم يوضع فى تشريع ولا
لضبط احكام ، ولذلك يتسامح فى هذا ، وهناك من يرى بان الوضع مهما
كان نوعه ، ومهما كان الداعي اليه فهو حرام ، وكذب على النبي صلى الله
عليه وسلم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من كذب علي متعمداً
فليتبوا مقعده من النار » على ان البحث العلمي يقتضي من الانسان دائماً
ان يركز على القضايا العلمية ، من غير ان يكون فى حاجة الى الاحتجاج
بمثل هذه الاحاديث ، او الضعيف منها على الاقل ، ويكون من الدقة بمكان
بحيث لا يعتمد الا على النصوص المسلم بها .

تركت فيكم شيئين : لن تضلوا بعدهما كتاب الله
وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض .

— حديث شريف —

تدخل الاستاذ نوح عبد الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على اشرف المرسلين

أما بعد ، فقد استمعنا الى الاساتذة العلماء فى البحوث القيمة واستفدنا منها استفادة كبيرة ، ولكن هنالك بعض النواحي نريد أن تكون واضحة ، وخاصة فى محاضرة الدكتور عبد الهادي التازي فى قوله بأن المذهب المالكي شعار من شعارات الدولة فى المغرب ، وشبهه بالرأية ثم الاناشيد الوطنية ، فى هذا الموضوع بالذات ، أنا أريد توضيحا من الدكتور عما ذا يقصد بكلمة شعار من شعارات الدولة ؟ وشكرا .

إذا جاءك الاثر عن مالك فشد به يدك

- الإمام الشافعي -

تدخل الدكتور محمود عبيدات

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الانبياء والمرسلين

انني أزجي شكري للاستاذة الافاضل على ما قدموه من كلمات طيبة،
فبارك الله فيهم ، ولكن الشكر والاعجاب لا يمنعان من التعليق أو التعقيب،
فان لي بعض الملاحظات لا بد من الاعتراف بالفضل لذويه ، والاعتراف
هذا - كما قلت - لا يمنع من ان يكون للانسان بعض المآخذ أو
التعليقات .

لقد ورد في كلمة الاستاذ الشيخ المكي الناصري بأنه ليس للامام
الشافعي مثل ما لمالك من المسائل أو الآثار ، وكان قدم في ذلك وقبل
كل شيء ، ان هؤلاء الائمة يعترف بفضلهم جميعا ، ولكنني اذكر في هذا بان
الشافعي رحمه الله ، تلميذ لمالك رحمه الله ايضا ، وقد عاش الشافعي
اربعا وخمسين سنة ، وهي نصف عمر مالك تقريبا ، وكان له من الآثار ،
فقد عاش مالك تسعين سنة تقريبا ، وكان للشافعي من الآثار بغير كتاب
الام ، كانت له الرسالة ، وهو كتاب مشهور ، وفيها فضل كبير يدل على
غزارة علم الشافعي وسبقه ايضا ، وكذلك له غريب الحديث ، وله
مختلف الحديث ، بالاضافة الى ما له من آثار غير هذه الكتب المطبوعة
والمتداولة بين الناس ، فلا شك ان هذا لا بد من الاعتراف به ايضا .
ونرجو من الاستاذ الكريم ان يكون على شيء من هذا ، ومعرفته وتعديله
بإذن الله ، لا انتصارا للامام الشافعي ، وانما انتصارا للحق واعترافا
بالفضل لذويه ان شاء الله .

أما فيما يتعلق بفتوى الاستاذ الدكتور عبد الهادي التازي، او الفتوى التي اشار اليها لبعضهم فيما يتعلق بالزوجة ، ومقاسمتها للزوج، وغير ذلك فهذه الفتوى وان وردت عن بعض القدماء والعلماء الاجلاء ، الا أنه ينبغي أن يوقف فيها عند حد الكتاب والسنة ، فقد قرر الكتاب والسنة ، كل منهما على حدة ، ما كان للنساء وما يكون للزوجات بشكل خاص، فيما يتعلق بالميراث ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها » ويقول عليه الصلاة والسلام في حديث آخر : « واذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله » ، النقطة الثانية في محاضرة الاستاذ التازي القيمة المفيدة ان شاء الله ، فأما ان يكون الاحتساب او الحسبة من اختراع المالكية او من عند المالكية ، فالمعروف بأن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من احاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، بل سبق الى ذلك الكتاب الكريم كذلك ، وكان على عهد سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حسبة ، وقيل أنه عين الشفاء ، امرأة ، كانت محتسبة الى غير ذلك .

في كلمة الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ، جزاه الله خيرا ، وأبدي اعجابي الكبير بحسن استعراضه لموضوعه وبحثه ، الا ان ما قاله عن الامام مالك ، من أن ابن اديس لم يرد ان يفرض المذهب المالكي في المغرب ، فكانت هنالك عدة مذاهب الى جانب المذهب المالكي، وعدد هذه المذاهب ، فطبعاً ، هذا يعود الى أن الامام مالك نفسه ، لا يريد مطلقاً ان يتبنى الناس مذهبه ، وان يعتبروه من دون الآخرين ، فهذه نقطة جديرة بالاشارة اليها ، وتسامح الامام مالك الذي اشار اليه الشيخ ابراهيم الحسيني ، وان مالكا كان يكره الخلاف ، فهذا وارد ومعروف عنه أيضاً .

فيما يتعلق بالانكار على الداعين الى الغاء المذاهب ، فهذا قول يجب أن يتبناه علماء المسلمين ، فكل هؤلاء لهم صلة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدروا عن سنته بعد كتاب الله عز وجل ، لهم شواهدهم وأدلتهم، وانوه في هذا المجال بقول أحدهم : « اللامذهبية قنطرة اللادينية » كان من لا يريد ان يتمذهب بأي مذهب سيخرج بالنتيجة من هذا الدين وستنقصم عراه عنه ، وهكذا .

واحاديث الفضائل - هذه - تقودني الى كلمة أوردتها الاستاذ عبد السلام جبران فيما يتعلق بقوله عن الامام مالك ، لدغته عقرب ست عشرة

مرة ولم يتحرك ، وكان لونه يتغير ، وبينى وبين الامام مالك - من فضل الله - صلة علم ، فقد كانت رسالتي للدكتوراة عن الامام مالك بن انس واثره فى الحديث ، وذلك من اعجابى بالامام مالك والمنهج الذي اختطه لنفسه ، اما أن تقال مثل هذه الاقوال ، وتكررها مع الذين يرددونها ويقولونها ، فلا بد ان نعمل عقولنا ، ولا بد من أن نخضعها للمنطق ، ليس هذا مما يرفع مكانة مالك فى نظر الناس ، نعم ، كان يعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ويوقره ويجله ، فقد ورد فى وصفه انه كان اذا جلس لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جلس على منصة ، وكان يفرق بين الجلوس للمسائل العادية ، وبين الجلوس لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يلبس طيلسانا اشبه شيئا بالملوك ، يعنى اجلالا وتوقيرا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليس بعد هذا القول قول ، اما أن يقال للفته عقرب ولم يتحرك ، فكلنا يعلم ما يكون من العقرب واذاها وسمها وغير ذلك ، وورد - وهذه بالطريقة فقط - ان امه حملت به ثلاث سنوات ، هذه ايضا ليست منقبة لمالك ولا يحتج بها ابدا ، مع اجلالى وتوقيري لمالك رضى الله عنه .

ولا يفوتني هنا ان اعقب على كلام اخي الدكتور علوي المالكي - جزاه الله خيرا - عن عمل اهل المدينة ، فعمل اهل المدينة كما هو معروف ، يقسم الى قسمين : ما كان من طريق النقل المتواتر ، وهذا هو الذي أخذ به مالك واحتج به ، فهو سنة متواترة يقدمها مالك على خبر الواحد ، اما ما يتعلق بقول اخي الاستاذ صلاح الدين ادلبي - وجزاه الله خيرا - بالاحتجاج بأحاديث الفضائل ، وقول العلماء بالاحتجاج بها ، فانا استغرب كل الاستغراب ، بأن يقول العلماء بالاحتجاج بالأحاديث الضعيفة فى فضائل الأعمال ، وعندنا من الأحاديث الصحيحة فى فضائل الأعمال ، ما يفنيها عن اللجوء الى الأحاديث الضعيفة ، ان فى ذلك خطرا كبيرا على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلماذا نقول ونحتج بالأحاديث الضعيفة ، حتى نشهرها بين الناس ، فيظن الناس عاجلا أو آجلا ، بأن هذه الأحاديث صحيحة ، فيقع فى اذهانهم ذلك ، لقد آن للعلماء ان يهبوا الى رد الاحتجاج بالعمل بالأحاديث الضعيفة ، لان عندنا غنى من الأحاديث الصحيحة التي وردت فى كتب السنة المشرفة ، وأما اذا كان الاحتجاج بالأحاديث الضعيفة ، فالحديث : « يوشك ان يضرب الناس أكباد الأبل » فالحديث ، قال عنه الترمذي حديث حسن ، وفى رواية قال عنه حسن

صحيح ، ورواه غير الترمذي ، وتاولة سفيان بن عيينة، وابن جريج، والامام عبد الرزاق ، تاولة كل منهم على مالك بن انس ، فلا مانع من أن يكون ، اما اذا كان ورد حديث في مالك وهو صحيح عنه ، وينطبق عليه ، فلا يجوز ان نرد هذا الحديث ، لحجة ان الناس الآخرين ، أتباع أئمة المذاهب سيحتجون بأحاديث أخرى .
وشكرا ، وبارك الله فيكم .

تعقيب لرئيس الجلسة الدكتور الحبيب بلخوجة

شكرا لفضيلة الشيخ محمود عبيدات على هذه الملاحظات القيمة الرصينة ، والتي تدعونا جميعا الى وجوب الاخذ بالمنهجية في كلامنا ، وفي بحوثنا ، وفي ما نتقدم به من دراسات ، خصوصا في هذا العصر الذي لم يبق فيه شيء من تلك القضايا الملفقة مقبولا من الدارسين ، ومن الشباب المتطلع الى الحقيقة ، وخصوصا في هذا الميدان ميدان الحقيقة الإسلامية .

ما في القوم أصبح حديثا من مالك ، ومالك امام
الناس في الحديث .

- يحيى بن سعيد القطاني -

تدخل الدكتور الحبيب بلخوجة

أريد بدوري أن أتقدم ببعض الملاحظات حول الكلمات التي تفضل اخواننا العلماء بالتقدم بها إلينا .

ولا أريد أن أطيل عليكم ، ولكنني أرجو من فضيلة الشيخ سيدي المكي الناصري ، وهو الذي أضطلع بالفقه الاسلامي والفقه المالكي ، وبالقانون والدراسات الحقوقية ، أن يتبع القول العمل ، وذلك فيما أشار إليه من جوانب لا بد من بحثها ، ولا بد من دراستها والعناية بها ، ولعله في إشرافه على بعض الدراسات ، وقيامه بالدور الحقيقي للعالم المسلم في هذا العصر ، بالتركيز والتوجيه والإحالة على المصادر ، يستطيع أن يحقق لنا بجهوده التوجيهية ، الخير الكثير ، في الطلاب الذين يشتغلون بالبحث العلمي في بلادنا المحبوبة المغرب الأقصى .

أما سعادة الدكتور عبد الهادي التازي ، فقد أمتحننا بكلامه ، وحررنا من مناقشته ، لأن الحديث معه يطول في كثير من القضايا ، وكنا نود أن يكون بين ظهرانينا ، لنتمكن من السؤال والاستفسار ، عن كثير من القضايا الجزئية التي وردت في كلمته الطيبة الشاملة .

والاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ، مؤرخنا وباحثنا ، الذي نشد إليه الرجال في مناسبات كثيرة ، ونرجع إليه فيما نشره وكتبه من دراسات عميقة وببليوغرافات دقيقة ، في حديثه هذا كان مختصرا ، والعيب للوقت ، لأنه أشار إلى الوحدة المذهبية بين المغرب وصحرائه ، وذكر أن ما يجمع بين المغرب وصحرائه من الناحية المذهبية ، يختلف مع ما يجمع

بين الصحراء وبقية البلدان المجاورة ، كان بودي ان استمع الى شيء اكثر تفصيلا فى هذه الناحية بالخصوص ، لكي تنكشف الحقيقة ، ونصبح على بينة من الامر فيما اراد ان يسوقه الينا ، ولعلنا - بعد حين - سنستمع الى زيادة بيان من سعادته ، لنخرج بشيء واضح فى هذه القضية .

اما الشيخ ابراهيم الحسيني ، فان دراسته دراسة مفيدة جدا ، تركز على الجانب الفقهي والاصولي ، وتبرز لنا الطريقة العملية لفقهاء المالكية ، فى استنباط الاحكام ، وما اعتمدوه من الاصول والاسس الثابتة ، ولكنني أجد شيئا كثيرا مما افاض فيه القول - وان باختصار ، كما اقتضاه الوقت - مشتركا بين الامام مالك ، او المالكية ، وبين بقية المذاهب ، بقية الاصوليين فى المذاهب الاخرى ، بقية الفقهاء فى المذاهب الاخرى ، فان الحنفية - مثلا - والشافعية ، لهم من هذه الاصول ، ومن هذه الطرق ، ما يتفقون فيه مع الامام مالك ، او مع المالكية ، وربما اعتبر ان القضايا التي تعود الى اصول الفقه هي سابقة عند هذين الشيخين ، او فى هذين المذهبين ، على ما ظهر فى المذهب المالكي ، ولعلنا بالرجوع الى دراسته القيمة ، نجد ما يشفي الصدر ، ويتم هذه الثغرة ، حتى نتمكن من الاستفادة من هذا البحث الذي تشرفنا بالاستماع اليه .

اما حديث شيخنا المسفيوي ، فانا اعتقد انه تنويج للاحاديث كلها ، لانه يتناول شخصية الامام مالك رضي الله عنه ، الذي هو موضوع هذه الندوة ، وهو وان تقدم الينا بنقول عديدة تتصل باحترام واجلال علماء الاسلام لهذا الشخص ، او لهذا العلم الفكري ، فان كل القول بعد ذلك يكون ترديدا ، لان كل متحدث فى هذا العصر ، يريد ان يتايد - عندما يذكر شخصية لامعة ، واماما كبيرا كالامام مالك - بما قاله اقرانه عنه ، وبما قاله المطلعون على هذه المناقب ، والعارفون بمدى هذه الشخصية العلمية ، ودورها الخطير فى نشر الاسلام ، وقرار التشريع الاسلامي ، بوجه يكون هو حكم الله بين الناس فيما يتعاملون فيه .

وارجو فى الختام من الاخوة الفضلاء والاساتذة الذين شرفونا باستماع الى محاضراتهم ، ان كانت لهم اجابات عن هذه الاستفسارات التي تقدم بها السادة المناقشون ، ان يتفضلوا بالاجابة عنها ، وباختصار .

تمخل الاستاذ خليفة محفوظي

لاحظت في العرضين القيمين للاستاذين الكبيرين ، الاستاذ السيد عبد الهادي التازي والاستاذ السيد عبد العزيز بنعبد الله ، الاشارة واحيانا التركيز ، على قضية الفتوى التي طلبت في قضية الصحراء المغربية من محكمة العدل الدولية بلاهاي ، فقد ذكر الاستاذ التازي من القاضي الذي نسبه الى السويد والذي نسبه الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله الى بلجيكا ، ان هذا القاضي - يقول الاستاذ التازي - كان ذكيا في سؤاله الذي وجهه او طرحه على الوفد المغربي فيما يخص العلاقة المذهبية بين المغرب والصحراء ولست أدري اين هو موضع الذكاء في توجيه هذا السؤال ؟

اللهم الا اذا كان هو الجانب الذي حاولت استنتاجه من ارادة القاضي وهو أحد أمرين ، اما ارادة تهميش الملف المغربي ، وذلك بصرفه عن التركيز على الملف المعروض في قضية تبعية الصحراء للمغرب، او وحدة الصحراء المغربية مع المغرب ، وذلك بالدخول الى جانب آخر في صحراء أخرى أي الصحراء الشرقية ، وليس الصحراء الغربية، لان الصحراء الغربية الجنوبية بعيدة كل البعد عن المد ، مد النفوذ التركي فيما يرجع الى المغرب ، قد يمكن ان نفهم ان علاقة ما قد تكون للصحراء الشرقية مثلا في توات مما يلي عين صالح ، مع البعد الساحق بينهما وبين اماكن امتداد النفوذ التركي ، والنفوذ التركي لا يصل هو نفسه الى هذه المنطقة التي اريد ذكرها ، وهي منطقة عين صالح ، ومنطقة المنيعة او الكلعية كما يسميها الفرنسيون والتي يبتدىء منها اختلاط المذهب المالكي بالمذهب الإباضي،

وهذه المنطقة كما يذكر لنا الرحالة الفقيه العياشي في رحلته منطقة لم تكن خاضعة لتركيا - الى دير الجزائر - بدليل ان من فوقها من واد ميزار توجهوا الى الفقيه العياشي واستفسروه في امر تبعتهم الى دير الجزائر لانه طلب منهم ان يكونوا اتباعا له وان يكونوا تحت طاعته ، فكان جواب العياشي انهم اذا كانوا على حال يحمدونه من امرهم فانه لا تلتزمهم هذه التبعية ، أما بالنسبة للصحراء الجنوبية ، فالامر لا ادري كيف تطرح فيها قضية المذهب المالكي وكونه قريب من تركيا او من محل نفوذها لانها كانت حنفية المذهب ، بل ان اعتناق الدولة لمذهب ما ، كما وقع لتركيا نفسها التي نتحدث عن وجودها في الجزائر ، لم يكن له تأثير في مدينة تلمسان - مثلا - التي سكنتها جالية تركية كثيرة ، ولكنها تحولت من المذهب الحنفي الى المذهب المالكي ، وتلمسان الآن لا وجود للمذهب الحنفي فيها ، مع ان عناصر السكان فيها يتكونون من قسمين ، من الحضريين والكرغليين ، والكرغليون هم الذين ينحدرون من أصل تركي ، وأرجع السبب الى امكانية ان يكون في تركيز المذهب المالكي في الصحراء ، ولعل ما كان يريده القاضي الذي طرح السؤال هو سرب تهميش الملف المغربي ، كما يريد ان يوقعنا في مأزق ، في مدخل آخر وهو اثاره الخلاف المغربي الجزائري على الحدود ولا اقول خلافا لانه بالنسبة اليانا لم يكن خلافا وانما هو حق مثبت بالتاريخ والوقائع والوثائق والاحداث بالنسبة الى توات ، وهكذا فلم يكن هنالك اي جوار للمذهب المالكي ولا لغيره مع الصحراء الشرقية ، وقد كانت فيها مراكز للمذهب المالكي - مثلا - كما كان في اتمنطيط ، التي يحدثنا عنها بن عبد الكريم المغيلي في خلافة مع عبد الله العصموني قاضي اتمنطيط في قضية اليهود ، هل هم من اهل الكتاب أم من غير اهل الكتاب ؟ هذا فيما يرجع الى التعقيب عما يشترك فيه الاستاذان عبد العزيز بن عبد الله وعبد الهادي التازي .

وأرجع الى نقطة أخرى فيما يخص الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ، فقد قال بأن هذه التبعية المذهبية في العلاقة الموجودة بين الصحراء والمغرب ، كانت هي الحجة التي اعتمدتها المحكمة في اصدار فتاها ، وهذا قول لا اوافق فيه الاستاذ سيدي عبد العزيز بن عبد الله ، لان الملف المغربي كان يحتوي على وثائق مهمة جدا ، اذكر من بينها وثيقة هامة تجسم في رسالة ملكية كتبها السلطان مولاي الحسن الاول الى ملكة

بريطانيا على اثر رسالة تلقاها منها ، استفسرت فيها المغرب عن وجهة نظره فى خريطة كانت الحكومة الفرنسية قد وزعتها ، تبين فيها مناطق نفوذها فى افريقيا الغربية ، واخرجت من ذلك بعض المناطق من الصحراء الجنوبية الحالية ، ورد المولى الحسن الاول برسالة موجودة بالملف ، عثرنا عليها فى وثائق الصدارة العظمى بالمنطقة الخليفة بتطوان ، فهذه الرسالة ، وهى كاملة واضحة وليس فيها بتر ولا تشطيب ، تبين الحدود الكاملة تاريخيا وطبيعيا للمملكة المغربية . على ان هذه الرسالة اتبعت فيما بعد بمراسلات كانت بين ملوك المغرب واوروبا فى هذا الموضوع .

وان من ارادوا تهميش الملف المغربي كانوا يرغبون فى ان ندخل فى صراع مع موريطانيا ، اما المذهب المالكي فقد كان محميا قبل هذا بالمدرسة المالكية فى شنقيط ، وفى بوتليويت ، وتيشيت فى موريطانيا حاليا ، كذلك بالنسبة للمذهب المالكي حتى فى المناطق التى هى بعيدة عن الصحراء مما يلي تلمسان - كما ذكرته - فقد كان معززا بمدرسة فقهية مشهورة وهى مدرسة مازونة المشهورة بفقهاءها ، هذا ما اريد ان اطرحه على الاستاذين ، ووددت ان لو كان الاستاذ التازي حاضرا معنا وشكرا .

لا نعلم احدا انتهى اليه علم اهل المدينة
الا مالك .

- القاضي التستري -

تدخل الأستاذ شبيها حمداتي ماء العينين حول عرض الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

كان بودي أن أتدخل فيما أثير حول موطأ الإمام مالك هل هو كتاب فقه وحديث ؟ ولكن من سبقني قد استوفى الموضوع حقّه ، وللك فسيقتصر تدخلي على ما ذكره الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله حين تعرض للعرف الحكمي ، قال بأن السلطات الاسبانية حاولت أن تكون قوانين عرفية بالصحراء المغربية .

وأريد هنا أن أؤكد أن الصحراء المغربية ، ظلت متمسكة بمشهور المذهب المالكي ، وما كان يطبق فيها من أعراف ، أو قواعد أشبه بالعرف ، كان يوخد من نظم العمل الفاسي ، أو من نظم العمل المطلق للرباطي ، أما أن السلطات الاسبانية حاولت أو حملت الناس على الحكم بالأعراف ، فهذا ما لم تعرفه المنطقة ، ولقد تفهم الناس النوايا الحقيقية الاسبانية في أول الامر ، فحملوا أنفسهم على أن لا يعملوا إلا بما يعمل به في داخل المغرب ، وخصوصا العادات التي كانت متبعة في مدينة فاس ، وشكراً .

مناقشة الأستاذ عمر الجيـدي لبحث الدكتور عبد الهادي التـازي

تدخلي يتعلق بفتوى ابن عرضون فى قضية المرأة ، وهى نقطة
أثارها الدكتور عبد الهادي التـازي ، وكررها أستاذي الجليل عبد الغفور
الناصر .

وبحكم صلتى بابن عرضون ، وباعتباري ابن بلده ، أرى من الواجب
أن ألفت نظر السادة العلماء ، الى أن فتوى ابن عرضون لا تتعلق بالارث ،
كما اعتقد بعض السادة الفضلاء ، وإنما تتعلق فقط ، بالعمل ، أي العمل
الذي تقدمه المرأة لزوجها ولا يلزمها ، وشكرا .

مناقشة فضيلة الشيخ محمد المكي الناصري

بحث الاستاذ عباس الجراري

أوجه شكري للسيد رئيس هذه الجلسة ، فشرف كبير لهذه الندوة ، ان يكون الدكتور الحبيب بلخوجة ، هو الذي ينوب في رئاسة هذه الجلسات ، لعلمه ، ولمكانته ، ولمقامه في العالم الاسلامي .

انني اؤيد كل التأييد ، الموضوع الذي عرضه الاستاذ الدكتور ، عباس الجراري ، وانا التقي معه في اكثر ما تقدم به من وجوه ، ومن تحليلات - حفظه الله - .

فقد اشار الى مسألة البداوة ، التي ذكر ابن خلدون ، بانها من اسباب التقارب بين المغاربة والاندلسيين ، ومذهب أهل المدينة ، وقد حاول - مشكورا - ان يخفف العبء عن ابن خلدون بقوله ، بأن المقصود من البداوة ، ربما هي البساطة ، ولكن - بالصدفة - وانا اتصفح البحث الذي سيتفضل بالقائه الدكتور محمد المختار ولد أباه ، وهو بحث سياسي قيم ، اكتشفت نصا لابن خلدون ، يفضح هذه القضية ، ويعتبر ان البداوة ليست بساطة في الرأي وفي الفكر ، بل ، بداوة بمعنى البداوة ، المقابلة للحضارة ، ففي النص الذي نقله الاستاذ محمد المختار ولد أباه ، يقول ابن خلدون - رحمه الله - : « فالأثر ، أكثر معتمد المالكية ، ليسوا بأهل نظر ، وأكثرهم أهل الغرب ، وهم بادية ، غفل من الصنائع »

فرحم الله ابن خلدون فى تجنيه على المغاربة ، وان كان هو بلسان حالهم وهم ، امام كثير من المحافل الدولية ، يفتخرون به ويعتزون بكتابه ، وليس هذا اول مظهر من مظاهر التجني ، فكلمة « عرب » ، وعروبة ، كم ثار حولها الجدل ، هل « عرب » بمعنى كذا او كذا ؟ وقد حاول اصداقاه واحباؤه ان يخففوا من وقعها ، « لان كثيرا من العرب ، غفل من الصنائع ، العرب ليسوا اهلا للسياسة الخ ... » على كل حال ، الموضوع مطروح للبحث ، ويحتاج الى بحث كبير ، وابن خلدون ، كثير من الرفاق والاصدقاء قلما يدرسون له المقدمة من اولها الى آخرها ، فما من باحث ، الا ويقصد الفصل الذي يهيم وينتهي ، ومن درس مقدمة ابن خلدون من اولها الى آخرها ، يجد كثيرا من التجني فى هذا الباب ، وهو - نفسه - افريقي ، مغربي ، ولكنه كثيرا ما يتجنى على قومه وبلده ، والسلام عليكم .

رحم الله امرا سمع مقالتي فوعاها
فاداهما كما سمعها .

- حديث شريف -

مناقشة الاستاذ الحاج مالك سي لبحت الاستاذ عباس الجراري

سيدي الرئيس ، اخوتي فى الله :

أريد فقط ، أن احبي بتقدير واكبار ، هذا البحث القيم ، الشامل ،
الذي قدمه لنا فى هذه الامسية المشرقة ، الدكتور عباس الجراري ،
فهو - فى الحقيقة - كان فى المستوى المنتظر منه ، ويعجبني من
بحثه ، هذا الحد الفاصل ، الذي وضعه لنا ، حيث قال : انتشار المذهب
المالكي واستمراره ، حيث وضع التخوم الفاصلة - ان صح هذا التعبير
الذي اضطر الى استعماله اضطراراً - بين التعاطف السياسي ، والتعاطف
الديني ، حيث قال : بأن المغاربة ، كانوا متعاطفين فعلاً ، مع الخوارج ،
ولكن هذا التعاطف ، كان تعاطفاً مبصراً ، لا أعمى ، لأن هذا التعاطف ، لم
يجرفهم الى التعصب الديني ، وانما بقي المغاربة ، أصلاً بملذهمهم
المالكي ، رغم أنهم ، كانوا متعاطفين مع الخوارج ، من الناحية السياسية.

ايضا ، اعجبتني الكيفية ، التي اختتم بها بحثه ، والتي دعا فيها ،
الى ضرورة العمل ، كما ذكر استاذي ، سيدي ابراهيم محمود جوب
منذ قليل ، معلقاً على التقريب بين المذاهب المختلفة ، بالاجوء الى
استعمال الوسائل المرنة ، والقواعد الميسرة ، التي تلتقي عليها المذاهب ،
باختلاف مؤسسيها ، وأرجو من هذه الندوة ، أن تبني هذه الدعوة ،
التي قدمها الينا ، الاستاذ عباس الجراري ، وأن تعمل هذه الندوة ، على

تحقيقها بالوسائل التي تراها كفيلة وعملية ، ويجب كذلك - من خلال هذه الندوة - ان نفكر بجدية ، فى تحقيق هذا الامر ، لاننا غرب افريقيا، وشمالها ، لا نكاد نحس بعنف الصراع ، او التعصب المذهبي - ان شئتم - بسبب الوحدة المذهبية التي ننعم بها فى ظل المذهب المالكي ، بخلاف بعض الدول فى الشرق الاسلامي ، او بقية دول العالم الاسلامي ، ونحن هنا ، لا ننكر الانجازات التي تحققت فى هذا المجال ، بسبب المؤتمرات والمجامع العلمية ، الا ان جعل ذلك شعارا يخزي به المشتركون فى هذه الندوة ، سيكون له اثره ومغزاه ، فى مواجهة التحديات التي تواجه الامة الاسلامية فى هذا الظرف العصيب ، وشكرا .

سقى جدنا ضم (البقيع) لمالك
من المزن مرعاد السحاب مبراق
امام موطاه الذي طبقت به
أقاليم فى الدنيا فساح وآفاق
اقام به شرع النبي محمد
له جذر ان يضياح واشفاق
له سند عال صحيح وهيب
فالكل منه حين يرويه اطراق
واصحاب صدق كلهم علم فسل
بهم أنهم ان انت ساءلت حذاق
ولو لم يكن الا ابن ادريس وحده
كفاه الا ان السعادة أرزاق

- ابو محمد جعفري احمد بن الحسين السراج -

مناقشة الدكتور عباس الجراري لبحث الاستاذ محمد عبد الكبير العلوي

بعد التنويه بالبحث القيم ، الذي قدمه الاستاذ محمد عبد الكبير العلوي ، أود أن أقف معه قليلا ، عند قضية أثارها ، وهي قضية ذات أهمية قصوى ، وتتعلق بالمرابطين ، قال بأن الصحراء المغربية ، التي خرج منها المرابطون ، كانت تعيش في الالحاد ، وفي الماجوسية ، وفي الجهل ، الخ ...

هذا كلام ليس الاستاذ عبد الكبير العلوي ، هو أول من قاله . ففي كتب التاريخ ، أن المغرب ، وأن الصحراء ، كانت في هذه المرحلة ، بعيدة عن الدين ، ويستدل على ذلك ، بما قاله يحيى بن ابراهيم الكدالي ، حين أراد أن يخرج من المغرب ، في رحلته المشهورة ، قال : « نحن قوم في الصحراء ، نبيع ونشتري ، ولكننا قوم جهال ، ولا يألينا العلماء » ، في الحقيقة ، فعلى الرغم من أن هذا الكلام ، وارد في كتب التاريخ ، وأكاد أقول في جميع كتب التاريخ ، فإن دراسة المرابطين ودراسة هذه المرحلة ، من الناحية الفكرية ، ومن الناحية السياسية ، تعطينا عكس ما تناقلته كتب التاريخ ، وأكتفي بالإشارة إلى بعض العناصر ، فعبد الله ابن ياسين ، كان تلميذا في مدرسة في هذه المنطقة ، وهي مدرسة وجاج بن زلو ، وأستاذ هذه المدرسة ، هو أيضا من أبناء المنطقة ، إذن فوجود هذه المدرسة العلمية ، التي خرج منها داعية المرابطين ، لا يمكن

ان تكون فى منطقة يشيع فيها الجهل ، او تشيع فيها قلة الدين ، ثم اننا حين نبحت ، ونعمق البحث ، فى رحلة يحيى بن ابراهيم الكدالي ، نجد انها لم تكن رحلة علمية ، وانما كانت رحلة سياسية ، حقيقة ان المؤرخين قالوا ، بانه خرج ينظر فى ما وصلت اليه بلدان المشرق فى مضمار الفكر ، وفى مضمار التقدم العلمى والحضارى ، ولكن لا ، يحيى بن ابراهيم الكدالي ، خرج يبحث فى الواقع السياسى للعالم الاسلامى يومئذ ، وعاد وقد اوجد لنفسه ، ولرفاقه من المرابطين ، خلفاء سيساندونه فى قيام الدولة ، وهذا الحلف ، الذى اقامه يحيى بن ابراهيم الكدالي ، هو الذى سيتأكد فى عهد يوسف بن تاشفين ، وهو الذى سيتبلور ، فى تلكم التبعية المعنوية ، التى كانت للمرابطين مع العباسيين ، اذن ، فالقضية ليست قضية جهل ، او قضية فراغ فكرى .

ثم قضية ثالثة واخيرة ، - يمكن الاشارة اليها - وهى ان الجنوب المغربى ، كان يعرج بالتيارات الفكرية والسياسية ، فمن الخوارج الى الرواصد ، الى مختلف المذاهب الاخرى ، بل اننا نجد ان يوسف بن تاشفين فى فترة من فتراته ، قضى على الرواصد فى الجنوب ، معنى هذا ، انه كانت هناك ، حركة فكرية مزدهرة ، ولم يكن الجهل مخيما على الصحراء ، وعلى الجنوب المغربى كما يظن ، وشكرا .

علم مالـك علم تقى ، ومالك
امان لمن اخـل عنه من الانام
- الـيـث -

مناقشة الدكتور محمد حجي لبحثة الدكتور عباس الجراري والأستاذ الوريغلي

أشكر زميلي الدكتور عباس الجراري على كلمته القيمة ، والاحظ انه فند رأي ابن خلدون ، في سبب دخول المذهب المالكي الى المغرب ، أو الى الغرب الاسلامي ، يمكن قبول تعليل البداوة بما فسرته ، بأنها البداوة الفكرية أي الفطرة ، ولكن في قضية ذهاب المغاربة الى المدينة بسبب الحج ، اظن انه ربما اذا تمعنا وجدناها صحيحة ، ولا يعني ذلك ، ان ذهاب المغاربة الى الشرق ، وإلى المدينة بالخصوص ، كان عفويا ، وانما هو بدافع قوي ، دافع ديني ، هو الحج الذي هو فريضة ، واطن ان الاخ ، لم يكمل كلام ابن خلدون ، لانه حينئذ ، يظهر اكثر ، لانه - أي ابن خلدون - يقول مامعناه : « ان المغاربة ، كانوا يذهبون الى المدينة ، لانها مقصد من مقاصد الحج ، ولم يكن العراق في طريقهم ، حتى يذهبوا اليه » ، اذن ، فهنا تعليل بأن قضية المدينة ، كان لها داع مهم ، وهو الحج ، فمن الممكن أن بعض الناس ، كانوا يذهبون الى الحج ، وإلى اخذ العلم عن مالك معا ، ولا يتصور - اظن - ان من يقطع هذه المراحل كلها ، من أقصى المغرب إلى المشرق ، انما يفعل ذلك ، من أجل الاخذ عن مالك فقط - وهو مسلم ، وهو مطالب بالحج - دون أن يؤدي الفريضة ، ويدخل في هذا أيضا ، ما ذكره الأستاذ الوريغلي ، من أن المغاربة ، كانوا يذهبون الى العراق ، وإلى خراسان ، واستدل على ذلك ، بأسد ابن الفرات ، الذي قال : بأنه ، ذهب الى العراق ، وجاء ببعض آراء العراقيين ،

وادخلها فى المدونة ، وأظن أن أسد بن الفرات ، نيسابوري الاصل ، فهو من ذلك البلد ، ولما جاء الى المدينة ، وأخذ العلم عن مالك ، جاء الى افريقيا ، بمدونة مالك ، ولكن ، على أي حال ، فنظروا لما فيها من شوائب ، ولأن بعض مسائلها لم تكن محررة ، فإن سحنون - كما هو معلوم - رجع بها مرة ثانية ، وصححها عن ابن القاسم ، وأخذ بمدونة سحنون ، وأهملت مدونة أسد بن الفرات .

يفهم كذلك ، من عرض الأستاذ الوريافلي ، أن المقاربة ، هم الذين كانوا يذهبون دائما ، ولكن ، لتتصور الأمر ، فى القرنين الاولين للهجرة ، فأظن بأن هجرة المشاركة الى المغرب ، كانت أقوى من زيارة المغاربة للمشرق ، فأفواج وقبائل وأفراد ، جاءوا من الشرق ، ومنهم أسد بن الفرات وغيره ، ولذلك ، أظن بأن المسألة ، يجب أن تؤخذ على أساس ، أن مذهب الامام مالك ، كان انتشاره هنا ، بسبب المقاربة - وإذا قلت ، المقاربة ، فأقصد الغرب الاسلامي كله ، الاندلس والمغرب الكبير - كان ذهابهم الى المشرق ، وأخذهم عن مالك ، ومجيء مشاركة كذلك ، راسا الى المغرب ، وشكرا .

يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فى
طلب العلم فلا يجدون أحلم من عالم المدينة .

- حديث شريف -

مناقشة الاستاذ محمد حماد الصقلي
لبحث الاستاذ عبد السلام الادغيري

الاخ عبد السلام الادغيري ، حقيقة موضوع المحاضرة ، حول صلة
الامام مالك بالحكام ، موضوع شيق ، ولكن ، قضية تأييده للمولى
ادريس ، واعتبار الحكم الذي أسسه في المغرب ، هو الحكم الشرعي ،
لانه موروث بصفة شرعية ، من محمد النفس الزكية ، وانه يعتبر ، ان
البيمة لمحمد النفس الزكية ، هي شرعية ، وإخيه ادريس شرعية ، ثبت
هذا عن مالك ، ومن ابي حنيفة كذلك ، والمحنة التي تحملها مالك ،
ليست من أجل فتوى الطلاق ، بل هناك ابعاد لها ، لان الطلاق بالاكراه ،
أخذه المؤسسون للدولة العباسية ، في تحقيق بيعتهم ، فأزال هذا
الظلم ، لتبقى المشروعية للدولة التي أسسها محمد النفس الزكية ،
ولذلك ، كان يقول المولى ادريس ، الأب ، والابن ، الذي تجدونه عندنا ،
لا تجدونه عند غيرنا ، فالدولة الشرعية ، في نظر الامام مالك ، هي الدولة
التي أسسها المولى ادريس بالمغرب ، وحتى ابو حنيفة ، تحمل المشاق ،
لانه كان يعتبر أبناء سيدنا علي ، هم الذين يستحقون الخلافة ، وأحيل
في هذا الموضوع ، على الكثير من الائمة ، الذين عذبوا في هذا المجال ،
ومن جملتهم ابو حنيفة ، والامام مالك ، وأحيل على « تفسير المنار » عند
قوله تعالى : « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن » ، والسلام عليكم .

التعقيبات

تعقيب الشيخ محمد المكي الناصري

سيدي الرئيس :

حضرات الاخوة الاعزاء :

كم انا سعيد بهذا المجلس الرائع ، فكلكم تعلمون ما قاله صاحب « جع الجوامع » : (وحصر الشيخ الامام اللذة في المعارف) . ان مجلسا كهذا المجلس تطمئن اليه النفس ، ويرتاح له الضمير ، والمناقشة بين علماء من هذا الطراز ، ومن هذا المستوى متعة .

جوابا عن ملاحظات الاخ النبهان من طلبه مزيد التوسع في هذا البحث ، انا موافق على هذا الطلب ، وافقت نظر جنابه الى الصفحة 17 والصفحة 19 من البحث الذي بين يديه ، فقد قلت في الصفحة 17 : « هناك اعتبارات اخرى نمسك عن تحصيلها لضيق الوقت » ، وقلت في الصفحة 19 : « وخير ما نختم به هذه المجالة » ، فالمجالة « كالشمالة » ، ومعنى ذلك انني عازم على مزيد التوسع في هذا البحث طبقا للتصميم الاصلي الذي وضعته له منذ البداية ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، تساءل ما معنى قلبي « ان المذهب المالكي تراث مغربي » ، والواقع انني اشرت الى ذلك اشارة سريعة في الختام ، وقلت : « ان المغاربة ما خدموا شيئا كما خدموا المذهب المالكي ، وان العبقرية المغربية برزت بالخصوص في هذا المذهب » ، اذ لا يوجد للمغاربة اي مجهود معادل في مذاهب ابي حنيفة والشافعي وابن حنبل فهذا

واقع تاريخي ، كما أنه لا يوجد للمغاربة نشاط عظيم ضخم مثل ما يوجد لهم في ميدان الفقه المالكي .

والاخ عبد العزيز بن عبد الله سيتحفنا ويتحفكم ببليوغرافيا تبين مقدار جهود المغاربة في خدمة المذهب المالكي ، فقد أثروه بفتاويهم ونوازلهم وتطبيقاتهم الخاصة . وقد أمسكت عن التوسع في هذا الموضوع أولا - لضيق الوقت ، وثانيا - لرغبتني في إبقاء هذا المجال مفتوحا امام بقية الباحثين ، فسيحدث الاستاذ محمد حمادي الوريابلي من اخواننا ، وهو من خريجي دار الحديث الحسنية ، عن « آثار الشخصية المغربية في فقه مالك » ، وبحثه موضوع بين يديكم ، وسيحدث كذلك الدكتور عبد الله العمراني ، وهو من اخواننا أيضا وموضوعه « البيئة (أي المغربية) وأثرها في صياغة مذهبنا المالكي » ، فهناك والحمد لله أخوة كثيرون لا بد أن يأخذوا حظهم من البحث وإبداء ما عندهم من مقدرة وكفاءة ، وأنا ضد الاحتكار في جميع المجالات .

أما (دار الفقه الحسنية) التي اقترحت انشاءها ، فانا لا أريد منها الاكتفاء بدراسة نبذ مخلوذة من الفقه كما يدرس الآن في كلية الشريعة ، وكلية الحقوق ، وكما أصبح يدرس أخيرا في دار الحديث الحسنية ، بالإضافة الى علوم القرآن وعلوم الحديث التي هي اختصاصها الاساسي ، فان حظ الفقه فيها سيظل دائما ضئيلا ، وانما الذي اقترحه نظرا لضخامة المذهب المالكي وسعته ، ولما نريد ان نواجهه بالنسبة للمستقبل ، من اقامة نهضة فقهية اجتهادية ، هو تكوين فقهاء عمالقة من طراز الشاطبي والقرافي وعياض ، يبرزون من جديد في هذا البلد السعيد . وأنا اعتقد ان اقامة (دار حسنية) للفقه متخصصة ، تعد الطلبة المتخصصين في هذا المجال للدبلوم والدكتوراه ستكون فتحا كبيرا ، وهي بالخصوص التي يمكن ان تكون من جديد شيوخ الفقه عموما ، وشيوخ المذهب المالكي خصوصا . ولا اخفي عن احد ما وصلت اليه الدراسات الفقهية المتخصصة عندنا في المغرب أخيرا من تدهور وتقهر .

وبصفتي عضواً في « اللجنة الملكية للتدوين » ومطلماً على دخائل الأمور يمكنني أن أقول أن الذين يستطيعون أن يتحدثوا في جلسات هذه اللجنة حديثاً مقنعاً في الفقه المالكي لا يتجاوز عددهم بضعة أفراد . ولذلك لا ينبغي أن يستمر الأمر على هذه الحال .

والآن انتقل إلى الإجابة عن ملاحظات فضيلة الشيخ الجليل السيد محمد علوي المالكي ، الذي تشرفنا بالاستماع إلى حديثه ، فحول رأيه في تدخل الدولة بالنسبة لاستمرار المذهب ، أريد أن أفت نظر فضيلته إلى أن الإمام مالكا - وهو لا يزال على قيد الحياة - أصبح تلامذته الذين عادوا إلى بلدتهم يمارسون منصب الفتوى ومنصب القضاء ويبحثون بأسئلتهم في الموضوع إلى استاذهم الإمام مالك ، والمذهب المالكي لم يرسم بعد . وبديهي أن الدولة لا تستطيع أن ترسم مذهباً إذا لم تكن لديها الأطر الكافية - سابقاً - لذلك المذهب . فالمذهب المالكي لا في الأندلس ولا في المغرب لم يصبح رسمياً إلا بعد أن اختارته النخبة المثقفة عن طواعية وبينه ، واقتنعت به وحملت رأيه . فوجدت الدولة الأطر الكافية للقضاء والفتوى من تلك النخبة الممتازة ، وبعد ذلك أخذت على عاتقها مساندته وتشجيعه . ولقد جاء الفاطميون وحاولوا أن يفرضوا مذهبهم الشيعي بدلاً من مذهب مالك ، وجاء الموحدون فحاولوا في مبدأ أمرهم أن يفرضوا مذهبهم المهدوي بدلاً من مذهب مالك ، ولكن باءت محاولاتهم أخيراً بالفشل . وأنا مقتنع كل الاقتناع بأن النخبة المثقفة هي العنصر الأساسي في انتشار أي مذهب ، وسيادة أية فكرة .

ثم يظهر أن فضيلة الشيخ شعر بأن في بعض ما قلته مساساً بمكانة الإمام أبي حنيفة : حاشا لله . لقد بينت في مطلع بحثي بصورة قاطعة مكانة الأئمة جميعاً ، وكونهم فوق كل طعن أو تنقيص . وللحقيقة والتاريخ أذكر أن الذين تصدوا للدفاع عن أبي حنيفة قبل أتباعه هم المالكية ، وعلى رأسهم الحافظ ابن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) ، فقد دافع عن أبي حنيفة دفاعاً مجيداً ضد مزاعم خصومه . ونحن المالكية نعتبر أنفسنا حراساً أمناء على جميع ما تركه الأئمة من تراث إسلامي ، وندين لهم بالتقدير والاحترام .

وإثارة فضيلة الشيخ نقطة أخرى ، وهي علاقة بعض المذاهب
الفقهية ببعض البدع الاعتقادية . والواقع أن ما نقلته من رسالة الحكم
المستنصر بالله إلى الفقيه أبي إبراهيم التجيبي لا يعني أن أئمة تلك
المذاهب أنفسهم خارجون عن السنة ، وإنما قال : « اننا لم نجد في
اتباع المذاهب أناسا أسلم من البدع مثل اتباع الإمام مالك ، إذ في اتباع
غيره يوجد جهمية ، ورافضة ، وخوارج ، وشيعية » ، وهذا شيء واقعي ،
لدرجة أن التاريخ يثبت وجود عدد من المرجئة بين الحنفية . كما يثبت
وجود عدد من المعتزلة بين الشافعية ، وهذا لا يمس في شيء مقام الإمام
أبي حنيفة ، ولا مقام الإمام الشافعي .

ومن هنا ننتقل إلى الإجابة على ما أثاره الأخ صلاح الدين الأدلبي ،
وهو من أعز ابنائنا كذلك ، فقد أعرب عن مخاوفه من الاعتماد على
الاحاديث الموضوعة والضعيفة في فضائل أئمة المذاهب ، ظنا منه أن
حديث (يوشك الناس أن يضربوا أكباد الأبل في طلب العلم ، فلا يجدون
عالما أعلم من عالم المدينة) ، وأن حديث (لا يزال أهل المغرب ظاهرين
على الحق ، لا يضر بهم من خالفهم حتى تقوم الساعة) من الاحاديث
الموضوعة أو الضعيفة . ويظهر أن الأخ الأدلبي لم يقرأ بحثي قبل حضوره
إلى هذه القاعة ، ولو لم يكن عنده شيء من الكسل أو الإهمال لما أورد
هذا الإشكال . ففي الصفحة الخامسة من بحثي الموجود بين يديه أكدت
أن الحديث الأول أخرجه مالك نفسه وأخرجه الترمذي وحسنه ، وأخرجه
النسائي والحاكم وصححه ، ورواه الحافظ ابن عبد البر في كتابه
« التمهيد » ، بسنده الخاص إلى أبي هريرة مرفوعا ، وروى ابن عبد البر
في نفس السياق بسنده عن سفيان بن عيينة أنه قال : (نرى هذا
الحديث الذي يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في « عالم المدينة »
أنه مالك بن أنس) ، واذن فهذا الحديث من صحاح الاحاديث وليس
بموضوع ولا ضعيف ، كما خيل للأخ الأدلبي .

وأما الحديث الثاني الخاص بأهل المغرب ، فقد أكدت أنه وارد في
صحيح مسلم بنفس الرواية التي أوردناها ، وذكره الحافظ ابن حجر في

كتابه (فتح الباري على صحيح البخاري) ، منبها الى انه مروي في الصحيحين ، كما رواه الترمذي وأبو داود في سننهما من عدة طرق وبالفاظ متنوعة .

واستدل به شهاب الدين القرافي في مقدمة كتابه « الذخيرة » ، وهو من رجال الفقه والحديث فقال : « ومنها ما ظهر من مذهبه في أهل المغرب واختصاصهم به ، وتصميمهم عليه ، مع شهادته عليه السلام لهم بأن الحق يكون فيهم ، ولا يضرهم من خذلهم الى ان تقوم الساعة فتكون هذه الشهادة - كما يقول القرافي - شهادة للامام مالك بأن مذهبه حق ، لانه شعارهم وديارهم ولا طريق لهم سواه » .

أما ان تهتم المذاهب الاخرى بالبحث عما يشير بظهور ائمتها في الاحاديث النبوية الشريفة ، فهذا شيء مشروع ومقبول ، وفضل الله لا يحجـر .

وقد استشهد الحنفية على فضل الامام أبي حنيفة ومكانته العلمية والدينية بقوله صلى الله عليه وسلم : « لو كان العلم عند الثريا ، لتناوله رجال من أبناء فارس » ، وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو نعيم والطبراني ، أما الشافعية فقد وجدوا كذلك للامام الشافعي سنداً ثابتاً في الحديث النبوي ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا قريشا فان عالمها يملأ الارض علما » ، وهو حديث حسن له عدة طرق حسبما نبه عليه الشيخ الكندهلاوي في كتابه : « مقدمة أوجز المسالك على موطأ مالك » ، وليس هذا بغريب ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتلقى الوحي ، ويشرح بكثير من الاحداث والبشائر بتعليم الله اياه ، فلا تتخلف ابدا . وبالإضافة الى هذا كله ، لو راجعت التعبير الذي عبرت به ، والعنوان الذي وضعته للحديثين المشار اليهما في فضل الامام مالك والمذهب المالكي لوجدته واردا هكذا : « اعتبارات أدبية » ، وقلت بعدها مباشرة : « وهذه الاعتبارات هي أشبه ما تكون بال مناقب والبشائر التي تنشرح لها الصدور ، وتطمئن بها القلوب » ، ورغم ان كون الاحاديث

الواردة فيها هي احاديث صحيحة لا جدل فيها ، لم ادرجها بصفتها
« اعتبارات اساسية وجوهرية » وهكذا اكون قد اجبت عن هذا الاشكال
الذي وقع فيه الاخ الادلبي الجواب الكافي .

واعود فأجيب نيابة عن زميلي ورفيقي الدكتور عبد الهادي التازي
الذي تغيب عن الجلسة ، فقد استشكل السيد نوح عبد الرحمن من
النيجر قول زميلنا التازي : « ان المذهب المالكي شعار مثل النشيد
الوطني » ، والواقع ان هذه العبارة ليس المقصود منها المعنى الحقيقي ،
وانما مراده ان كل مغربي مغربي ، متى برز امامك ، تصورت انه مالكي
المذهب ، وهذا امر صحيح ، وليس معنى ذلك ان المذهب المالكي
مذهب محتكر للمغاربة او فكرة قومية خاصة بهم ، هذا غير صحيح ،
فالمدب المالكي تراث مشترك لنا جميعا ولكل من ارتضى هذا المذهب
الطيب .

اما الدكتور الفاضل السيد محمود نادي عبيدات ، الذي انا معجب
به وبأسلوبه ، وبالدكتوراه التي قدمها ، فيظهر انه اشتم من كلامي أنني
حاولت التنقيص من مقام الامام الشافعي ، وهذا مخالف لمنطقي كل
المخالفة ، مخالف اولا للمقدمة التي قدمت بها بحثي ، ومخالف للطريقة
التي سلكتها في الترجيح ، والمسألة التي اشرت اليها ، وخطت هذا
الايهام ، هي نقطة مهمة اول من اهتمت اليها ، هو شهاب الدين القرافي ،
وهو من هو ، دراسة لمذاهب الفقهاء ، واطلاعا على حديث النبي صلى
الله عليه وسلم ، اثار اليها في كتابه الذخيرة - انا في الحقيقة معتن
بكتاب الذخيرة ، واذا فسح الله في الاجل ، فساعمل على تحقيقه ونشره ،
فلقد جمعت مخطوطاته من المشرق والمغرب ، وهذه من المساعي التي
ارجو ان يكون لها اتصال بندوق الامام مالك - فشهاب الدين القرافي قد
قام بمقارنة بين حجم المسائل التي واجهها الامام مالك باجتهاده ،
والمسائل التي واجهها الامام ابو حنيفة ، والامام الشافعي ، والامام احمد
ابن حنبل ، فاستخلص من ذلك ان المسائل التي واجهها الامام مالك

وافتى فيها بلغت نحواً من مائة وخمسين مجلداً ، وهذا شيء واقعي ،
فحتى عندما أخذ الحكم الأموي يجمع نصوص مالك ، جمع أكثر من مائة
مجلد فقط من أسمعته ، بينما المسائل التي عالجها أبو حنيفة والشافعي
وأحمد بن حنبل بأنفسهم مباشرة كانت قليلة ، إلا أن الحنفية والشافعية
والحنابلة واصلوا المسيرة ، وخرجوا على أصول أئمتهم بقية مذاهبهم
كما هي معروفة عند الجميع .

ونبه القرافي إلى أن أكثر ما جاءوا به هو عبارة عن **التخريج على أصل الإمام** ، ثم قال رحمه الله : « ومعلوم أن التخريج قد يوافق إرادة صاحب الأصل وقد يخالفها حتى لو عرض عليه المخرج على أصله لأنكره ، وسكون النفس إلى قول الإمام القدوة أكثر من سكونها إلى أتباعه » ، وهذا هو المقصود بالنسبة لهذا الموضوع .

آخر نقطة في هذا التعقيب ، تتعلق بتعليق السيد رئيس هذه الجلسة ، أحد نواب رئيس الندوة ، الشيخ الحبيب بلخوجة ، وارث سر المرحوم الشيخ الفاضل بن عاشور ، فكلما حضر بيننا ، استحضرننا ذلك العالم الجليل المبكر الذي فقدناه جميعاً .

الشيخ الحبيب بلخوجة تكرم ، فأضفى علي نعوتاً جميلة ، أرجو أن أكون عند حسن ظنه فعلاً ، وطلب مني أن أتبع القول بالعمل ، وأنا أقول لسماحته ما دمت على قيد الحياة : فساظل بحول الله وقوته مجتهداً لخدمة العلم ، وخدمة الإسلام والمسلمين ، ولذلك عززت اقتراح معالي الوزير رئيس هذه الندوة بأن تبقى ندوة الإمام مالك مفتوحة ، لنتعاون جميعاً في دأثرتها ، فتلاقح العقول هو خير ما نستنتج من هذه التجمعات العلمية ، وكما ذكرت لكم أنني مشغول في أعداد الذخيرة ، والذخيرة ، هي فيما أعلم أكبر موسوعة في الفقه المالكي مرتبة ترتيباً منطقياً منهجياً جامعاً مانعاً ، وكذلك أنا اشتغل في أعداد طبع القواعد الكبرى لعز الدين

ابن عبد السلام ، طبقا لنسخة نادرة توجد عليها سماعات عدد من كبار
الائمة .

ويسعدني ان اكون مجندا لخدمة العلم والثقافة ، لا فرق عندي
بين ندوة الامام مالك ، او اكاديمية المملكة المغربية ، فنحن جنود في
خدمة الاهداف السامية لمكنا الجليل ، راعي المغرب ، وراعي الاسلام ،
واستسمحكم ، واشكركم على اهتمامكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

نعي مالك الى حماد بن زيد ، فبكى وجعل يمسح عينيه
بخرقه وقال : يرحم الله مالكا لقد كان من الدين بمكان
اللهم احسن علينا الخلافة بعده .

تعقيب الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله

أشكر الأخ ، الاستاذ الكبير الشيخ المكي الناصري ، لانه أجاب عن بعض الاسئلة التي كنت أود الاجابة عنها ، ولود ان أجيب عن الباقي ، ولو أنه لا يدخل ضمن محاضرتي ، كاختيار اللون الابيض - مثلاً - ، واختيار اللون الابيض ، كما أشار الى ذلك ابن الخطيب ، في نفع الطيب ، راجع الى قضية طيبة ، لان اللون الابيض ، ينفذ الحرارة ، في حين ان الاسود يجمع الحرارة ، ولذلك فان اللون الابيض ، كان يستعمل كثيرا ، في الصيف ، أو في الفصول المعتدلة ، في حين ان الاسود كان يستعمل في غير ذلك .

ما أشير اليه حول أبي حنيفة ، وانه لا يقل عن الائمة الآخرين ، اعتناء واستمدادا واقتباسا من السنة ومن الحديث ، فهذا هو الواقع ، وأنا موافق عليه ، ولذلك فقد دافعت في حديثي عن هذه الفكرة ، لان ما قيل في المغرب وخارج المغرب ، ينسب الى الامام أبي حنيفة ، انه يعطي في بعض المجالات الاسبقية ، للقياس على الحديث الضعيف ، وهنا أريد ان أؤكد ان الحديث الضعيف ، في مفهوم القرون الاولى ، الثالث والرابع ، ليس معناه الحديث الضعيف ، كما نفهمه اليوم ، فالحديث الضعيف ، كان معناه الحديث الحسن ، فهو حديث مسلم ، فاذا ما قيل - آنذاك - بأن العمل بالحديث الضعيف في صالح الاعمال يجوز ، فهو حديث حسن غير موضوع ، والا أنصب علينا قوله صلى الله عليه وسلم : « من كذب علي متعمدا فليتبوا مقعده من النار » ، ولذلك أورد الامام أحمد بن حنبل ، في مسنده آلاف الاحاديث الضعيفة ، ولكن المفهوم من ذلك

الحسنة ، لانه كان يحفظ ، رحمه الله ، ألف ألف حديث ، ادرج منها فى مسنده نحو الاربعين ألف حديث ، اكمل بعضها ولده عبد الله ، فى حين لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تعلمون ، الا خمسة آلاف وخمسمائة حديث ، بحيث عبد الله بن عمر ، كان يحفظ 5500 حديث ، ابو هريرة، كان يحفظ 5300 حديث ، عبد الله بن عمرو بن العاص كان يحفظ اكثر من هذا ، ولكن لم يصل اليها الا 700 حديث ، والامام البخاري ، كان يحفظ 300 000 حديث ، لم يدرج منها الا نحو 5000 او اكثر ، مع حذف المكرر ، ونفس العدد فيما يتعلق بالموطأ او اقل منه ، حتى انهم تحروا حتى فيما يتعلق بالضعيف الحسن ، يعنى لم يستندوا اليه .

اما ما يتعلق بانحرافات الحنفية ، الواقع انه لا يمكن ان نتحدث عن مذهب الامام ابي حنيفة ، ونستعمل كلمة انحراف ، ولكن كلمة انحراف هذه ، جاءت عن المفهوم الخاطئ لمعنى الاحاديث الضعيفة ، التي اوردها الامام ابو حنيفة ، وتخرج منها غيره من الائمة ، فنحن لا فى المغرب ، ولا فى المشرق ، متفقون على ان الامام ابا حنيفة ، لا يقل سنية عن غيره ، فبعض الناس ، لا داخل المغرب ولا خارجه ، كانوا يعتقدون ان الامام ابي حنيفة كان يستند الى احاديث محدودة ، وهي كل ما ثبت عنه ، فى حين انه يفضل فى المجالات الاخرى ، ان يركز على القياس ، وهذا خطأ ، لانني اشرت الى وجود عشرين مسنداً ، للإمام ابي حنيفة .

بالنسبة للوحدة بين المغرب وصحرائه ، أشار السيد الرئيس الى انه ربما لم ينفرد المغرب بهذا ، وربما انصب الامر حتى على اقطار مجاورة اخرى ، الواقع لا ، وأؤكد هذا ، لماذا ؟

(تدخل السيد الرئيس ، الدكتور بلخوجة ، مخاطباً السيد المحاضر : اذكركم بانكم اشرتم الى ان هناك تميزاً للمغرب فى علاقته بالصحراء ، وان بقية الاقطار المجاورة لا تشارك فى هذا ، فطلبت منكم زيادة الايضاح فقط ، ولم أدل برأى) .

وتابع الاستاذ بنعبد الله : من الوجهة التاريخية فان الونداليين لم يدخلوا الى المغرب ، وان الاتراك لم يدخلوا الى المغرب ، فكان المغرب هو القطر الاسلامي الوحيد الذي احتفظ باستقلاله طوال الف عام ، ولكن الشيء الذي وقع ، وقد يكون انطلاقا من هذا الوضع الخاص ، فانه كان هنالك تحرز لجميع المغاربة من ان يتصلوا بمن وجدوا منه المجال مفتوحا في الدولة المجاورة ، وهي الجزائر ، من اباضيات في امزاب ، فكان هنالك ما يسمى بطريق الفقهاء ، وطريق الفقهاء تحدث عنها الرحالة بلطبع ، حيث قال : بأن جميع الحجيج ، كانوا يمرون هامشيا بما يسمى بطريق الفقهاء ، حتى يصلوا الى الفزان ، ومن الفزان يدخلون الى الاقاليم الاخرى ، لانهم كانوا يتحرزون من الاتصال بالعناصر الاباضية ، لا العناصر الاخرى ، لانه فيه عناصر اخرى ، شافعية او حنفية ، ولكن لم يكونوا يتحرزون منها ، وانما يتحرزون من غيرها .

فيه سؤال اخير وهو عن كلمة « الذكاء » التي اوردها الاخ الدكتور عبد الهادي التازي ، وقد كان معي في الوفد الذي ذهب الى لاهاي ، والواقع ان هذه الكلمة ، استعملت بصفة رسمية ، ولكن الذكاء كما تعلمون في السياسة مفهومه ، اقرب الى الدهاء منه الى الذكاء ، ربما كان خبثا ايضا ، لان السبب في هذا ، وربما الذين حضروا محكمة لاهاي ، قد لاحظوا هذا ، فالواقع ان هذا السؤال الذي كان هامشيا ، ليس تهميشا ، كان عبارة عن نقطة افاضت الكأس ، لان معظم القضاة هناك ، كانوا مقتنعين بحجج المغرب وبملف المغرب ، كانت هنالك حجج قوية ، اضطررنا الى الاتيان بها ، ولو اننا لم تكن في حاجة اليها ، ولذلك لم نثبتها في ملف القضية ، فالقضية اذن ، لم تكن تهميشية ، لانه لم يكن بيننا وبين موريطانيا ، آنذاك ، اي مشكل ، لان المغرب كان قداتفق مع موريطانيا ، مبدئيا ، ان يكون لها ما لها الآن ، والسلام .

تدخل للاستاذ شبيهنما حمداتي ماء العينين

في سنة 1937 ، طلبت السلطات في الصحراء ، ان تسن قوانين وضعية لتحكم بها شؤون المواطنين هنالك ، فاجتمع المواطنون جميعا ،

بقيادة نائب خليفة السلطان ، (والآن اتكلم على وقائع تاريخية مضبوطة)
فمنعوا تدوين أي قانون ، إلا إذا كان ممهورا بتوقيع جلالة المغفور له
محمد الخامس ، وبالتالي ، رد عليهم بالحرف : « لقد طبعت قوانين
مغربية ، فهذه القوانين ، ان انتم اتيتم بها ، فنحن سنطبقها في الصحراء ،
وإذا لم تاتوا بها ، فنحن مالكيون على مذهب السنة ، وتابعون للمغرب ،
ولا يمكن ان يطبق في بلادنا ، الا المذهب المالكي ، والقوانين المطبقة في
المغرب » ، وشكرا .

من درر جلالة الحسن الثاني

... نريد مغربا في أخلاقه وفي تصرفاته جسدا
واحدا موحدا تجمع له اللغة والدين بوحدة المذهب فديننا
القرآن والاسلام ، ولغتنا لغة القرآن ، ومذهبنا مذهب
الامام مالك ، ولم يقدم اجدادنا رحمة الله عليهم على
التشبث بمذهب واحد عبثا أو رغبة في انتحال المذهب
المالكي بل اعتبروا ان وحدة المذهب كذلك من مكونات
وحدة الاسرة ...

من خطاب جلالتة في مجلس النواب
بتاريخ 20 ذي القعدة 1399 موافق
12 أكتوبر 1979

تعقيب الشيخ إبراهيم الحسيني

بودي أن أجيب فقط ، وباختصار ، عن بعض الملاحظات التي أبداها بعض السادة المتدخلين ، خاصة الاستاذ علوي المالكي ، الذي تحدث في موضوع عمل أهل المدينة . بالنسبة للذين اعتبروا عمل أهل المدينة كأصل للمذهب المالكي ، ونحن لا نشك في اعتبار الإمام مالك لعمل أهل المدينة ، ليس مجردا عن اقترانه بالدليل في الجملة ، فالإمام روى أحاديث ، ورويت عن غيره أيضا أحاديث ، بأسانيد صحيحة ، وترك العمل بها ، نظرا لأن هذه الأحاديث لم يصحبها عمل أهل المدينة ، استنادا منه إلى أن عمل أهل المدينة ، قد يكون مستندا على أصل ، نقل أو لم ينقل ، كالاجماع ، فمثلا ، حديث خيار المجلس ، رواه في الموطأ ، ولم يأخذ به ، وذلك بشهادة الذين أخذوا عنه ، وكذلك جميع الأحاديث التي تنقل الأعمال البدنية ، كالنيابة في الصلاة عن الغير ، والصوم ، والحج ، الخ . . فكل هذه ، أعمال وردت بها أحاديث صحيحة ، ولعدم اصطحاب العمل لها ، ترك الإمام العمل بها ، ولهذا ، اعتبر أن عمل أهل المدينة ليس دليلا ، أو أصلا مستندا على جزء من السنة نقل أو لم ينقل .

وبالنسبة لتمثيلي لعمل بلال ، فانا لا أقصد أن العمل الذي صدر عن بلال وعن رفاعة بن رافع الزرقى ، وعن غيرهم ، من الأعمال التي أقرها النبي صلى الله عليه وسلم بعد اطلاعه عليها ، فانا لا أعتبر أن هذه أمثلة للبدعة الحسنة ، وانما اعتبرت جانباً من هذا قبل اطلاع الرسول عليه ، وحتى أن الرسول ، بعد اطلاعه عليه ، لم يحكم ببطلان العمل المتقدم ،

على علمه به ، فاعتبرت من هذا الجانب ، انه صار سنة ، والبحث قد ابرز هذا ، وقد اثبتته هناك .

بالنسبة للتعليق الوارد من بعض الاخوة ، حول الدعوة الى ترك العمل بالاحاديث الضعيفة ، والاكتفاء بالعمل بالاحاديث الصحيحة ، اود ان اقول كلمة مختصرة ، فان علماء الحديث ، وعلماء الاصول ، متفقون فيما بينهم ، على ان قوانين التصحيح ، وقوانين الضعف ، او التضعيف ، او الجرح ، او التعديل ، كلها قوانين مبنية على اعتبارات ظاهرية محضة ، وليس المراد منها القطع بان الحديث المحكوم بانه صحيح ، يكون صحيحا فى نفس الامر ، اى القطع على الله سبحانه وتعالى ، بانه فى علمه هكذا ، او ان الحكم على الحديث بالتضعيف بانه ضعيف فى نفس الامر ، وعليه فليس احسن من طريقة المتقدمين ، فى اعتبار الاحاديث الضعيفة فى فضائل الاعمال ، ويشير الى هذا جلال الدين السيوطي فى الفيته بقوله : « والحكم بالصحة والضعف على ظاهره ، لا القطع ، الا ما حوى كتاب مسلم ، او الجعفي سوى ما انتقدوا ، ابن الصلاح رجح قطعا به ، وكم امام جنح » فأرى بان الدعوة الى الغاء الاحاديث الضعيفة ، تقتضي ان نحيط علما بالمطبوع وغير المطبوع ، من كتب الجرح والتعديل ، ومن كتب الحديث ، والاطلاع عليها ، ثم بعد ذلك نصل الى الحكم بان ما قيل فيه ضعيف ضعيف ، وما قيل فيه صحيح صحيح ، فى نفس الامر .

وأرجو المعذرة والسلام عليكم .

« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم
الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم »

- قرآن كريم -

هيئة تسيير اشغال الندوة

- الرئيس : الدكتور أحمد رمزي ، وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية (المملكة المغربية)
- النائب الاول للرئيس : الدكتور الحبيب بلخوجة (تونس)
- النائب الثاني للرئيس : الدكتور محمد علوي المالكي (المملكة العربية السعودية)
- النائب الثالث : الشيخ عبد الله نياس (السنغال)
- كاتب الندوة : الاستاذ محمد البهاوي ، رئيس مصلحة البحث والاحصاء بوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية (المملكة المغربية)

اللجنة التنظيمية

تحت اشراف

السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

الدكتور أحمد رمزي

- 1 - السيد محمد المرابط : الكاتب العام للوزارة
- 2 - السيد محمد الكبير العلوي : رئيس قسم التوجيه الديني
- 3 - السيد فتح الله بيرو : رئيس القسم المالي
- 4 - السيد شاكِر التيجاني : رئيس قسم الدراسات الإسلامية
- 5 - السيد محمد أبو الفضل : رئيس مصلحة التوعية والفتوى
- 6 - السيد البلمعشي أحمد يكن : رئيس مصلحة احياء التراث
- 7 - السيد العربي بلحاج : مفسر
- 8 - السيد أحمد فترات : من مصلحة الشؤون الإدارية
- 9 - السيد عبد القادر الإدريسي : من قسم الدراسات الإسلامية
- 10 - السيد عبد الله جوريو : من مصلحة الشؤون الاجتماعية
- 11 - السيد العياشي الودكي : من قسم التوجيه الديني
- 12 - السيد محمد الرغاي : من قسم الدراسات الإسلامية
- 13 - السيد الحسين ديكوك : من مصلحة الشؤون الإدارية
- 14 - السيد عبد المومن بركاش : من مصلحة التوزيع
- 15 - الأنسة السنداني نزهة : من مصلحة التوزيع

الفهرس

صفحة

5	من خطاب صاحب الجلالة بالبرلمان
7	التقديم
11	الكلمة الملكية الموجهة للندوة
19	كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
24	كلمة رئيس المجلس العلمي وعميد كلية الشريعة بفاس
27	كلمة رئيس المجلس البلدي بفاس
30	كلمة الشيخ عبد الله نياس من السينغال
34	كلمة الأستاذ نوح عبد الرحمن من النيجر
37	كلمة الأستاذ إبراهيم الحسيني من نيجيريا
39	كلمة الدكتور محمد علوي المالكي من المملكة العربية السعودية
41	كلمة الأستاذ إبراهيم محمود جوب من السينغال
46	نص الرسالة الجوابية التي بعثتها الندوة إلى صاحب الجلالة
324 - 49	البحوث
358 - 325	المناقشات
374 - 359	التعقيبات
375	هيئة تسيير أشغال الندوة
376	الهيئة التنظيمية

مطبعة فضالة